لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

تاريخ القرن التاسع عشر

فى أوربا

وما يليه من الحوادث حتى نهاية الحرب العظمى

تأليف

محمد قاسم
حائز لدرجة العالمية
من جامعة لندن

و

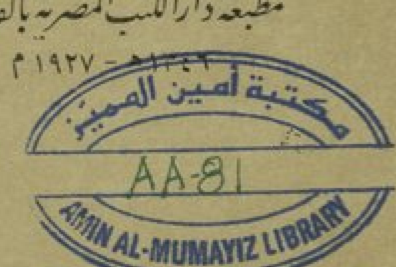
حسين حسنى
دكتور فى الآداب
من جامعة مونبلييه

(قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب فى مدارسها)

[الطبعة الرابعة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م

الثمن ٢٥٠ مليما


مكتبة أمين المميز
AA-81
AMIN AL-MUMAYIZ LIBRARY

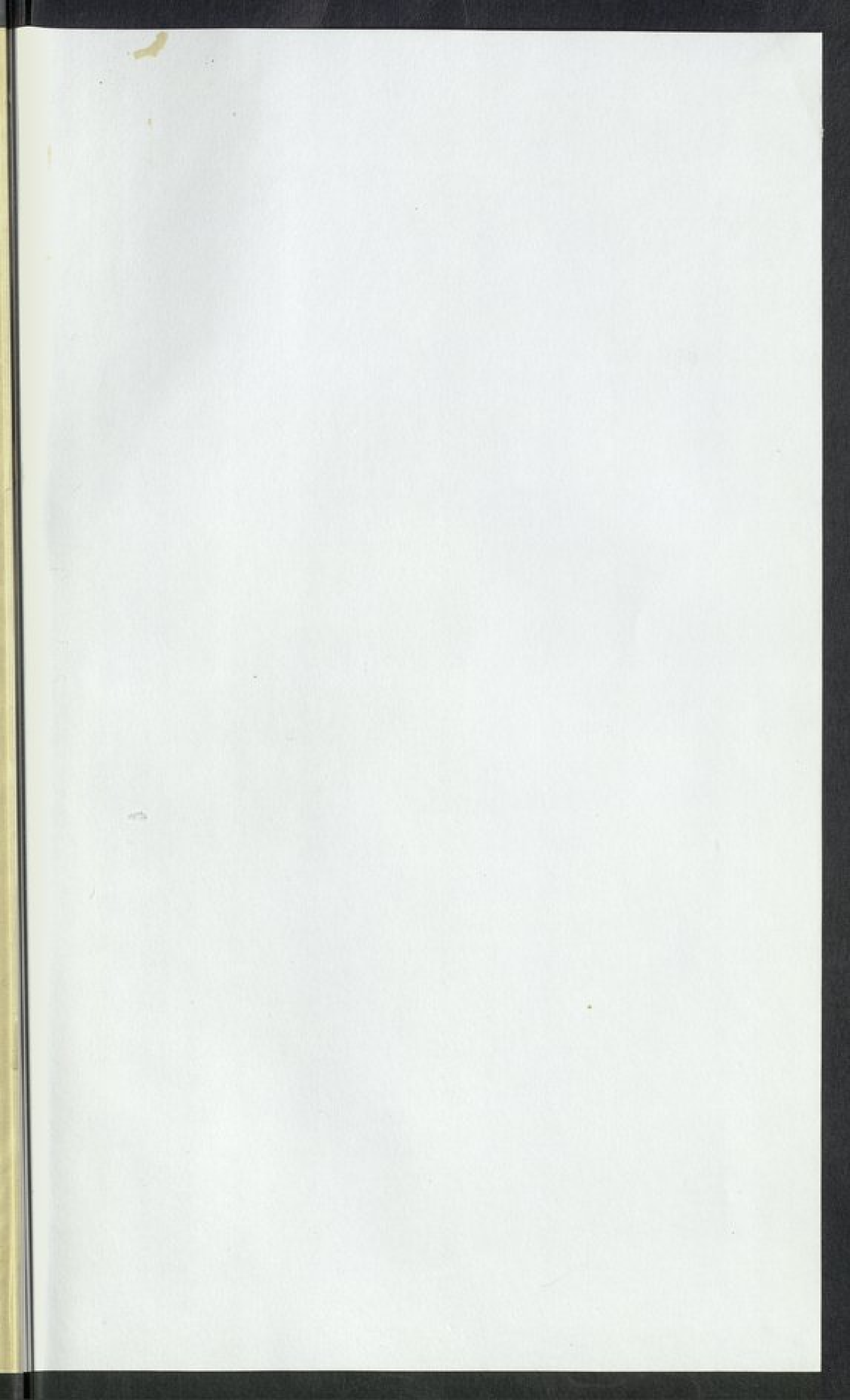
AUB LIBRARY

American University of Beirut
University Libraries



Donated by
Constantine K. Zurayk

A.U.B. LIBRARY



لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩١٤

تاريخ القرن التاسع عشر

فى أوربا

وما يليه من الحوادث حتى نهاية الحرب العظمى



CA
940
Q6122tA
c.1

تأليف

محمد قاسم — و — حسين حسنى

حائز لدرجة العالمية — دكتور فى الآداب

من جامعة لندن — من جامعة مونبلييه

(قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب فى مدارسها)

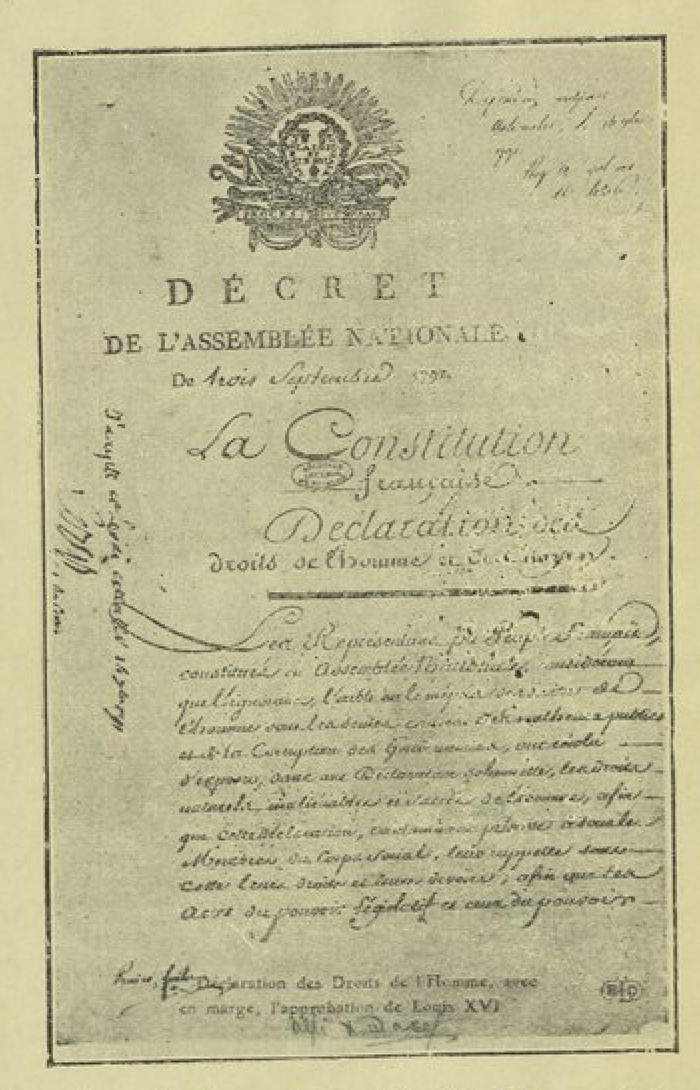
[الطبعة الرابعة]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ – ١٩٢٧ م

الثمن ٢٥٠ مليما

(حقوق الطبـع والنشر محفوظـة)



DÉCRET

DE L'ASSEMBLÉE NATIONALE

La Constitution française

Declaration des droits de l'homme et du citoyen

Déclaration des Droits de l'Homme, avec en marge, l'approbation de Louis XVI

إعلان حقوق الإنسان، بتوقيع لويس السادس عشر

[منقولة عن الصورة الأصلية المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس]

فهرست الكتاب

صفحة

مقدمة الكتاب ... ... (ك)

مقدمة الطبعة الرابعة... ... ... (ل)

القرن التاسع عشر — نظرة عامة... ... ... (ع)

الباب الأول — الثورة الفرنسية وعهد نابليون... ... ... ١

الفصل الأول — أسباب الثورة ١

الفصل الثانى — الملكية والأزمة ٩

الفصل الثالث — فرنسا (من أكتوبر سنة ١٧٨٩ الى سبتمبر سنة ١٧٩١) ... ٢٢

الفصل الرابع — الجمعية التشريعية ... ... — ... ٢٧

الفصل الخامس — المؤتمر الوطنى ٣٣

الفصل السادس — حكومة الادارة ٤٠

الفصل السابع — نابليون بونابرت ٤٢

الفصل الثامن — نابليون القنصل الأول... ... ... ٥١

الفصل التاسع — حروب نابليون الأمبراطور ٥٥

الفصل العاشر — نابليون والشرق ٦٤

الفصل الحادى عشر — حرب الأمم ٦٧

الباب الثانى — عهد المؤتمرات ٧٩

الفصل الأول — مؤتمر فينا ٧٩

الفصل الثانى — الاتحاد الأوربى ٨٨

الباب الثالث — العهد الرجعى فى أوربة (سنة ١٨١٥ — ١٨٣٠)... ... ٩٧

الفصل الأول — فرنسا ٩٨

الفصل الثانى — ايطاليا... ... ... ١٠٣

صفحة

الفصل الثالث — ألمانيا والنمسا ١٠٨

الفصل الرابع — استقلال البلجيك ١١٢

الفصل الخامس — ثورة اليونان... ... ... ١١٧

الباب الرابع — عهد النهوض القومى (سنة ١٨٣٠ — ١٨٤٨)... ... ... ١٢٥

الفصل الأول — فرنسا : لويس فليب ١٢٦

الفصل الثانى — ايطاليا : النهضة الجديدة ١٣٥

الفصل الثالث — ألمانيا والنمسا ١٤٣

الفصل الرابع — محمد على الكبير ١٥٠

الباب الخامس — عهد انتصار الحرية (سنة ١٨٤٨ — ١٨٧٨) ١٦٠

الفصل الأول — فرنسا : لويس نابليون ١٦١

الفصل الثانى — نجاح الوحدة الايطالية ١٧٠

الفصل الثالث — نجاح الاتحاد الألمانى ١٨٠

الفصل الرابع — حرب القرم ونشأة دول البلقان ١٩٢

الفصل الخامس — المسألة الشرقية (الدور الأخير) ٢٠٣

الباب السادس — انجلترا : ايرلندا ٢١٢

الفصل الأول — انجلترا ٢١٢

الفصل الثانى — ايرلندا ٢٢٥

الباب السابع — الاستعمار الأوربى فى القرن التاسع عشر ٢٣٢

الفصل الأول — المستعمرات والأملاك الانجليزية ٢٣٣

الفصل الثانى — المستعمرات الفرنسية ٢٤٩

الفصل الثالث — المستعمرات الألمانية ٢٥٦

الباب الثامن — تقدم الزراعة والصناعة والتجارة فى القرن التاسع عشر ... ٢٥٨

الفصل الأول — الزراعة ٢٥٨

الفصل الثانى — التقدم الصناعى والتجارى... ... ... ٢٦٣

صفحة

الباب التاسع — مدنية القرن التاسع عشر... ... ... ٢٧٦

الباب العاشر — الحرب العظمى... ... ... ٢٩١

الفصل الأوّل — مقدّمات الحرب ٢٩١

الفصل الثانى — فاتحة الحرب العظمى ٣٠٣

الفصل الثالث — أدوار الحرب ٣٠٨

الفصل الرابع — الصلح ٣٣٤

فهرست الصــــور

	صفحة
اعلان حقوق الانسان...	أول الكتاب
لويس السادس عشر — مارى انتوانت	١٠
نكر	١٢
افتتاح مجلس الأمة	١٤
ميثاق ملعب التنس	١٦
الهجوم على الباستيل	١٨
قرار إلغاء الملكية	٣٥
ديموريه	٣٦
كارنو	٣٧
دانتون	٣٨
روبسبير	٣٩
الأمبراطور نابليون الأول	٥٣
وصية نابليون بخطه وتوقيعه	٧٥
مؤتمر فيينا	٨٢
قصاصة الورق	١١٦
موقعة نافارينو	١٢٢
لويس فليب	١٢٦
مازينى	١٣٥
غاريبلدى	١٤١
نابليون الثالث	١٦١
كافور	١٧١

صفحة
فكتور أمانويل ١٧٧
بسمارك ١٨٠
فون ملتكى ١٨٢
الأمبراطور ولهلم الأول ١٩٠
مؤتمر برلين ٢٠٢
زعماء ارلندا ٢٢٩
وات ٢٦٤
بعض رؤساء وقواد الدول العظمى ٣٢٦

فهرست الخرائط

حروب نابليون فى شمال ايطاليا ٤٥
حروب نابليون فى النمسا و بروسيا ٥٧
حروب نابليون فى إيبريا ٦١
الحملة الروسية ٦٩
مؤتمر فيينا ٨٦
شعوب الأمبراطورية النمساوية ١٤٦
الوحدة الايطالية ١٧٩
الاتحاد الألمانى ١٩١
ولايات البلقان ٢١١
الهنـــد ٢٤٤
الميدان الغربى ٣١٠
الميدان الشرقى ٣١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

حمدا لله وصلاة وسلاما على رسوله الكريم . وبعد فهذا كتاب فى تاريخ القرن التاسع عشر وما وليه من الحوادث حتى نهاية الحرب العظمى نشرناه لا رغبة فى ذكر حقائق مجهولة أو استيعاب كل الحقائق المعلومة ، بل أردنا به تتبع سير المدنية فى دورها بلا نزاع أهم أدوارها ، تتبعا يقوم على تمحيص الحوادث ، وربط الأسباب بالنتائج . فان مجرد سرد الوقائع التاريخية دون تقييدها بغرض خاص ، وربطها بعضها ببعض للوصول الى نهاية معينة ، لا قيمة له فى الواقع ، ولا هو من التاريخ الصحيح فى شىء .

ولهذا السبب بعينه يرى القارئ أننا لم نقف فى عملنا عند حدود القرن التاسع عشر ، بل تمشينا مع الحوادث الى نهاية الحرب الكبرى ، إذ أن سلسلة وقائع ذلك القرن ترتبط كل الارتباط بأسباب هذه الحرب ، بل يمكن القول بأنها ثمرة ما تمخض عنه القرن الماضى . فهى بلا ريب الحدّ الفاصل بين عهدين . والحادث الجلل الذى يفصل بين فترتين من فترات التاريخ .

تلك غايتنا بسطناها بإيجاز ، فان كنا قد بلغناها فى كتابنا هذا ، فذاك أقصى ما نرجو ، وإلا فحسبنا أن قد أفرغنا جهدنا فى سبيل تأدية نصيبنا من البحث وراء الحقيقة . ولسنا ندعى الكمال فيما وصلنا اليه ، وإنما نرجو أن نكون قد وفقنا على الأقل الى تمهيد السبيل أمام طلاب البحث فى تاريخ العهد الهام الذى يتناوله كتابنا .

وبعد ، فلقد صادفتنا فى طريقنا عقبات وصعاب جمة ، أقلها القيام بأعباء مهمة التدريس ، ذلك الى الرغبة فى إنجاز عملنا بأقرب ما يستطاع . وإن نظرة فيما أوجدناه من الصور والوثائق والمصوّرات التاريخية — التى نقلنا بعضها عن متاحف ودور الكتب بأوربة — لتظهر للقارئ شيئا من مقدار ما عانيناه لنستعين على تحقيق

غايتنا . وقد رأينا أن نكتب بجانب أسماء الأعلام أصلها باللغـة الأجنبية تسهيلا للاطلاع على المراجع الإفرنجية التى اعتمدنا عليها فى مباحثنا . ولذلك الغرض أيضا ذيلنا كل باب بأسماء أشهر الكتب التى وصلت اليها أيدينا فى موضوعه .

وقبـل أن نختم هـذه الكلمة نقدم وافر شكرنا الى كل إخواننا — وخصوصا أعضاء لجنـة التأليف والترجمة والنشر — الذين عضـدونا بآرائهم أو بمساعدتهم أو بتشجيعهم على إبراز هذا الكتاب .

سـدّد الله خطـانا جميعا فى خدمة الوطن والعلم، آمين ؟

غرة جمادى الثانية سنة ١٣٤٠ (٢٩ يناير سنة ١٩٢٢)

محمد قاسم　　حسين حسنى

مقدمة الطبعة الرابعة

نقحت هذه الطبعة فى مواضع عديدة . وقصرت على تاريخ أوربة وحدها حتى يتسع المجال لتفصيل تطوّرها السياسىّ والاقتصادىّ والاجتماعىّ من الثورة الفرنسية الى الوقت الحاضر ؟

صفر سنة ١٣٤٦ (أغسطس سنة ١٩٢٧)　　محمد قاسم

القرن التاسع عشر

نظـــــرة عامة

ليس التاريخ الحديث إلا جزءا متمما لسلسلة الحضارة التى بدأ طرفها الأول فى عهد التاريخ القديم ، ثم أدركها التراخى فى العهد المتوسط . وما تاريخ القرن التاسع عشر إلا نتيجة التقلبات التى مرت بها العصور الحديثة ، فهو قرن حافل بالتغيرات والانقلابات الخطيرة التى تميزه عن غيره من القرون ؛ فاذا عدّ القرن الرابع عشر والخامس عشر عهد النهضة وإحياء العلوم ، والقرن السادس عشر والسابع عشر عهد الإصلاح الدينى ، والثامن عشر عهد النزاع الاستعمارى ، فيعتبر القرن التاسع عشر عهد الانقلاب السياسى والاجتماعى والاقتصادى ذلك الانقلاب الذى خلق أوربة خلقا جديدا وجعل منها قارة تدب فيها روح القوة والحياة .

أما هذه الانقلابات العديدة فتتلخص فيما يلى :

(١) الانقلابات السياسية — شاهد هذا القرن بدء انتصار مبدأ الديموقراطية وسيادة الشعوب فى العصور الحديثة ، وفيه اشتدت الروح الوطنية بين الأجناس والشعوب حتى غدت خطرا على السلم ، وازدادت قوة الرأى العام ولسانه الذى تنطق به (الصحافة) ازديادا يرى أثره فى التشريع الحديث ، وفيه ظهرت وحدات عاملة جديدة فى المجتمع السياسى كألمانيا وايطاليا والمستعمرات الانجليزية المستقلة ، كما ظهرت بوادر نهوض الشرق القديم .

(٢) الانقلابات الاقتصادية والاجتماعية — شهد هذا القرن انقلابا عجيبا فى الصناعة والزراعة ، فقد استخدمت الآلات البخارية — والكهربائية

فيما بعد — مكان الأيدى العاملة فى الصناعة ، كما استخدمت الآلات والمخترعات الحديثـة لتحسين إنتاج الأراضى . فنشأ عن هـذه التغيرات انقلابات سياسـية واجتماعية واقتصادية خطيرة غيرت معالم العهد القديم ، وبعثت فى أركان الكرة روحا جديدة . وقـد كانت انجلترا أسبق الأمم الى الأخذ بهذه المخترعات ، ثم تلتها دول أوربة وأمريكا فدول الشرق البعيد .

ولقد كان أعظم هذه التغيرات شأنا ازدياد عدد السكان ، واتساع نطاق التجارة ، وازدياد حركة البيوت المـالية ، ونهضة الشعوب نهضة فكرية عظيمة ظهرت آثارها فى الآداب والعلوم والفنون بكامل أنواعها ، وازدياد عناية الحكومات بالصحة والمساكن والتعليم و إعالة الفقراء والعجزة والمسنين ، وتحوّل السلطة من يد أصحاب الأراضى الى أيدى المموّلين الذين استثمروا أموالهم فى إنشاء المصانع الحديثة كما تحوّل السلطة الآن الى طبقة العمال بدليل تغير التشريع الأوربى خلال هذا القرن فى مصلحة هـذه الطبقات على التوالى . وفى هذا العهد بدأ الصراع الهائل بين العمال وأصحاب الأعمال بطريق العمل المباشر والعمل التشريعى أيضا ، وازدادت الفوارق الاجتماعية على أثر تكدس الأموال فى أيدى بعض الأفراد تكديسا ولد الأحقاد وأورث الضغائن وأدى الى انتشار مبادئ الاشتراكية فى كثير من أنحاء المعمورة . وفيه أيضا اشتدت الرغبة فى الاستعمار لفتح أسواق جديدة والاستئثار بمناطق المواد الأولية للصناعة .

(٣) يمتاز القرن التاسع عشر بميزة لا يشاركه فيها قرن قبـله وهى زوال روح التعصب الدينى والمذهبى تقريبا بين أبناء الأمة الواحدة حتى أصبح الكل فى المعاملة سواء بعد أن كان لا يتسنى لمن كان على غير مذهب الحكومة أن يتقلد وظيفة فيها ، أو يتمتع بالتعليم فى مدارسها ، أو الجلوس فى إحدى هيئاتها النيابية .

(٤) كان من نتائج انتشار المبادئ الديموقراطية وإعادة تنظيم الحكومات على هذا الأساس أن أصبح التعليم أكثر انتشارا بين كل الطبقات ، وأقرب منالا للفقراء الذين أتيحت لهم الفرص العديدة لإظهار كفاءتهم والانتفاع بمواهبهم .

(٥) كان أهم عامل فى السياسة الأوربية فى هذا القرن ذلك التنازع الاقتصادى الذى نشأ عن تقدّم الأمم فى مضمار الصناعة، وازدياد الرغبة فى احتكار أسواق العالم ومناطق المواد الأوّلية، وليس التنازع على تقسيم أفريقية وآسيا إلا أثرا من آثار هذا التنافس الجديد .

(٦) كان من أثر ارتقاء الصناعة وازدياد المنافسة التجارية فى هذا القرن أن تغيرت عدد القتال واشتدّت قوّتها فى التدمير والإهلاك حتى غدت شبحا هائلا مخيفا يزعج المفكرين إزعاجا أدّى الى الدعوة للتحكيم والتفاهم بين الأمم . إلا أن هذه الدعوة لم تلق فى هذا القرن نجاحا من أمم استغرقتها المـاديات، وهيمن على شؤونها أصحاب رءوس الأموال الذين يعيشون فى جو المصالح المـادّية الخاصة .

(٧) شاهد القـرن التاسع عشر ارتقاء وسائل المخابرة كالبرق والبريد والتليفون السلكى واللاسلكى، كما شاهد تقـدم المواصلات البرية والبحرية فى أنحاء العـالم . وفيه فتحت قناة السويس التى نشطت التجارة بين الشرق والغرب ، وجعلت مصر التى تسيطر على هذا الطريق الحيوى مطمح أنظار الدول العظمى ، فكان من جراء ذلك ما كان من تدرج الحوادث التى أصابت مصر بأزمات سياسية عديدة .

الباب الأول

الثـــورة الفرنســية

الفصل الأول

حالة فرنسا الداخلية — أسـباب الثـورة

تمهيــــد — ينصرف الذهن عادة عند سماع كلمة الثورة الفرنسية الى مجرد الفظائع وأعمال التخريب والفوضى وسفك الدماء التى صحبت هذا الحادث الجلل ، على أن الثورة يراد بها قبل كل شىء اقتلاع الأنظمة والمبادئ القديمة السائدة وتمهيد الطريق لصوغها فى قالب جديد من الحرية والإخاء والمساواة .

وأنه لمن الخطأ إن يظن أن الثورة حققت كل آمالها أو سارت وفق مبادئها ، فكثيرا ما أهينت الحرية ممن كانوا يعملون لنصرتها ، وكثيرا ما اقترف رجالها جرائم الملكية القديمة بدعوى تأييد تلك الحرية .

ولا تعد الثورة الفرنسية حادثا هاما فى تاريخ فرنسا وحدها ، بل فى تاريخ أوربا بأسرها ، نظرا لما بثته فيها من المبادئ الحديثة ، وما خلفته من الحروب الطويلة ، والانقلابات السياسية والاجتماعية التى ملأت تاريخ القرن التاسع عشر .

ولكى نعلم أسباب الثورة الحقيقية ، ونتبين العوامل التى جعلت فرنسا تتقدم غيرها فى هذا السبيل ، وجب أن ندرس الحالة فيها قبل هذا الانقلاب .

(١) الحالة السياسية والاجتماعية

الملكية والحكومة ـ كانت الملكية فى فرنسا واسعة النفوذ مطلقة السلطان على اعتبار أنها تستمد السلطة من الله تعالى، ولذلك كانت طاعة الملك واجبة وكلمته قانون، وله مطلق التصرف فى المال وفى الحرية وفى الحياة . على أن هذه السلطة ما كانت تستخدم دواما لمصلحة الشعب والبلاد . فكثيرا ما كانت تصادر أملاك الأفراد أو يطرحون فى ظلمات السجون أعواما عديدة بغير محاكمة ولا جريمة معينة، وكثيرا ما كانت تبذر الأموال فى بناء الدور والقصور وإجزال العطايا الباهظة للأصدقاء والندماء، وكثيرا ما كانت تجرف البلاد فى هاوية الحروب التى لم تجن منها إلا الهزيمة والعار حتى ناءت فرنسا بالديون والعبء الفادح وحقت كلمة أرجنسون « إن بلاط الملك قبر الشعب[(١)] » .

على أنه اذا كانت الحكومة العليا قد اضطربت بالفوضى وأعمال البذخ والإسراف طوعا لأهواء الملوك أو خضوعا لتقاليد الحكم، فقد كانت الأقاليم تمثل تلك السلطة المضطربة كل التمثيل، فعلى الرغم من الوحدة السياسية التى كانت أعظم مظاهر الملكية ، كان يتنازع أمر الحكم والقضاء فى البلاد سلطات متعددة بعضها فوق بعض مما يدل على بقاء آثار الإقطاع القديم ، بل أن هذا الاضطراب يتجلى فى اختلاف المقاييس والموازين والضرائب والقوانين وجباية المكوس بين المقاطعات المختلفة حتى لقد قال كالون أحد زعماء الملكية: «إن فرنسا ليست إلا مملكة تتألف من ولايات مستقلة و إدارات مختلفة، وأنظمة مضطربة، وشعوب متفرقة، بحيث لا توجد جامعة تجمع الأهلين من النظام أو المبدأ أو الرأى» .

---

(١) بلغت نفقات البلاط الملكى عام ١٧٨٩ نحو ٣٣ مليون جنيه فى حين أن المصروفات العامة بلغت ٥٣٠ مليونا والايرادات ٤٧٥ مليونا فقط وكانت أرباح الديون الناشئة من العجز المستمر فى الميزانية تبلغ ٢٠٦ مليونا أى نحو نصف الايراد .

الامتيازات — ولعل أعظم ما يمثل هذا الانقسام وما يقترن به من سوء الحكم فى البلاد بقاء نظام الامتياز المجحف بسواد الشعب ، فقد كان الأشراف يستأثرون بأرفع مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية ، ويعفون مع ذلك من أعباء الضرائب إلا القليل ، وكان لهم عدا ذلك عدة حقوق وامتيازات أخرى من بقايا النظام الإقطاعى ، كحق الصيد فى مزروعات الأهالى ، وحق القضاء بين المزارعين ، كما كان لهم أن يتقاضوا نصابا معينا من الغلال أو عددا معينا من الغنم والطيور كل عام ، هذا فضلا عن إرغام المزارعين على أن يطحنوا غلالهم فى طاحون الشريف ويعصروا عنبهم فى معصرته ويدفعوا ما يفرض عليهم من الأجر صاغرين .

ولقد كان أفراد الشعب يجلدون على تلك المكاره أيام عهد الإقطاع لما كان الأشراف قائمين بأمر الحكومة بينهم والسيطرة عليهم والدفاع عنهم ، فلما ذهب الملك بسلطانهم ، لم يبق لهم عمل سوى التجمع حول قصره بباريس أو فرساى ، وأصبحت حياتهم وقفا على الترف والبطالة ، فانقطعت كل صلة أدبية كانت تربطهم بالشعب ، وباتت امتيازاتهم عبئا ثقيلا لا مبرر له فى أعين العامة التى أرهقها تحكم وكلاء الأشراف واستبدادهم .

الكنيسة — وأما الكنيسة فقد كانت لها ثروة طائلة من دخل الأراضى الموقوفة — وكانت تبلغ خمس أرض فرنسا تقريبا — وكانت معفاة من الضرائب إلا فيما عدا إعانات اختيارية تقدمها من وقت لآخر ، هذا الى دخل كبير من أموال الزكاة التى كانت تفرض على العامة وحدهم حتى لقد بلغ إيراد الكنيسة سنويا مايقرب من مائتى مليون جنيه . إلا أنه بدل أن تنفق هذه الأموال فى معاونة الفقراء والمعوزين كما كان الغرض المقصود منها أولا أصبح يتمتع بها كبار رجال الكنيسة الذين كانوا يعيشون فى ترف دونه ترف كبار الأشراف .

الضرائب — على أن أعظم ما يسترعى النظر فى حالة فرنسا فى ذلك العهد هو نظام الضرائب الفادحة وما يقترن بها من الإرهاق وعدم المساواة . فالى جانب

ضريبة الفردة (Capitation) وضريبة الإيراد (Vingtieme) اللتين كان يشترك فى دفعها الأشراف اشتراكا لا يتناسب فى الغالب مع مركزهم وثروتهم، كان يفرض على العامة وحدهم ضريبة (Taille) أو ضريبة البيوت والعقار الثابت وذلك بنسبة تتزايد بتزايد حاجات الحكومة التى لم تعرف الاقتصاد منذ عهد كبير، هذا الى تعنت الجباة فى التقدير وإرهاقهم فى توزيع الضريبة بحيث لو رأوا شيئا من دلائل الرقى أو معالم الرخاء على دار أو مزرعة تغالوا فى التقدير. على أن الأمر لم يقتصر مع ذلك على جباية هذه الضرائب المباشرة بل كانت الحكومة تحتكر تجارة الملح (Gabelle) وترغم كل فرد من الأهالى رجلا كان أو امرأة أو طفلا على شراء قدر معين حتى ولو لم يكن لديهم الخبز اللازم لأود الحياة، فلا عجب اذا كانت هذه الأثقال العديدة من حقوق إقطاعية وزكاة كنيسة وضرائب ملكية مع كل ما يتصل بها من المظالم وعدم المساواة ترهق كاهل العامة لا سيما المزارعين الذين كانت تتألف منهم أغلبية الشعب العظمى حتى لقد وصف هذه الحالة أحد الأشراف فقال "إن انحطاط البلاد وبؤس الحياة وخراب الملاك والمزارعين يرجع الى النظام المالى الذى يعرض الشعب الى الظلم الصارخ والاستبداد المميت"[1].

ومما ضاعف وطأة هذه الضرائب احتفاظ البلاد بنظام النقابات التى قيدت حرية العمل الصناعى والتجارى، فضلا عن المكوس الداخلية والضرائب الباهظة المفروضة على التجارة الخارجية لحماية الصناعة الأهلية مما شل نشاط البلاد وزاد فى الفوضى الشاملة تلك الفوضى التى أنضبت موارد الصبر وجعلت الحياة عبئا لا يحتمل لا سيما وقد استنارت الأذهان بالحركة الفكرية التى اشتدت فى البلاد قبيل الثورة حتى تزعزعت أركان السلطة الحاكمة وتهدمت قيود التقاليد.

---

(١) كانت الحكومة تتقاضى عن كل مائة فرنك من الدخل ما يقدر بـ ٥٠ الى ٥٧ فرنكا نظير ضرائبها المباشرة فقط والكنيسة تستولى على نحو ١٤ فرنكا بينما كان الأشراف يأخذون نظير امتيازاتهم ما يقدر بنحو ١٤ فرنكا أيضا.

الحالة الفكرية

ظهرت فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر طائفة من الكتّاب الذين قوضوا الدعائم التى كان يقوم عليها النظام القديم — دعائم الحكم المطلق ، وعدم المساواة فى أمور المجتمع ، وعدم التسامح فى شؤون الدين ، ونظام الحماية فى عالم الاقتصاد — فأعلن الاقتصاديون أنه لا سبيل لعلاج الكساد الظاهر فى التجارة والإنتاج إلا باتباع سبيل الحرية والقضاء على القيود الصناعية والتجارية ، كما ذهب السياسيون الى أن نظام الامتياز والحكم المطلق يناقض مبادئ الإخاء الانسانى والقواعد التى قامت عليها الحكومات وهى ضمان الحرية والمساواة ، وأنه لا مناص من إعادة تلك الحقوق الطبيعية للأمة حتى تقوم البلاد على أساس وطيد من الحكم . وقد كان أكبر هؤلاء الكتّاب وأعظمهم أثرا :

(١) كسناى (Quesnay) (١٦٩٤ — ١٧٧٤) أكبر من يمثل جماعة الاقتصاديين : حمل على الضرائب الجمركية والقوانين التعاونية التى تشل حركة الصناعة والزراعة من غير أن تؤدى الغرض المقصود منها وهو حماية البلاد من المنافسة الخارجية وإرشاد العمال والصناع الى واجباتهم ، ودعا الى قليل من الحكم وكثير من الحرية وإطلاق القيود حتى تستقيم أمور البلاد وتجرى على منهج صالح وطيد .

(٢) أما الكتّاب السياسيون فيمثلهم مونتسكيو وفولتير وروسو ويعرف الأول ١٦٨٩ — ١٧٥٥ بكتابه "روح القوانين" الذى جمع فيه تاريخ أنظمة الحكومات وأنواعها ومساوئ كل منها ومحاسنه ، وضمنه نظريته الشهيرة فى وجوب انفصال سلطات الحكومة الثلاث — التشريعية والتنفيذية والقضائية — بعضها عن بعض انفصالا تاما لضمان الحرية والعدل ، ونصح باشتراك الملكية مع الارستقراطية والعامة فى حكم البلاد على مثال نظام الحكم الانجليزى الذى كان يعتبره أرقى نظام الحكومات .

أما فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) حامل لواء الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر فقد تناول الملكية فى فرنسا وما يتصل بها من الأنظمة بالسخرية والتهكم المر – شأنه فى كل كتاباته – فلم يترك لها أثرا من احترامها وإجلالها القديم. وذلك لأنها فى نظره – وفى الحقيقة – لم تكن قوية تستعمل سلطانها فى صالح الشعب كما كان الحال فى حكم صديقه فردريك الأكبر ملك بروسيا، ولا دستورية تترك الأمر لنواب الأمة كما كان الحال فى انجلترا .

أما روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) فلم يحاول تعديل نظام الحكم الاستبدادى فحسب على نحو ما فعله الكتاب الآخرون ، بل عمل على صوغ الحكومة والمجتمع فى قالب جديد : فقد أبان فى كتابه "العقد الاجتماعى" أن الانسان خلق حرا ومساويا لغيره فى الحقوق ، ولضمان هذه الحرية والمساواة انضم الأفراد وأقاموا الحكومات لتعمل بإرادتهم مستمدة السلطة منهم ، فاذا أساءت الحكومات استعمال هذه السلطة أو أخلت بتلك الحقوق وجب عزلها وإقامة حكومات أخرى مكانها . ولقد كان لهذا الكتاب تأثير خطير فى نفوس الفرنسيين حتى لقب بحق "انجيل الثورة" وذلك لما امتاز به من قوة العواطف وسلاسة العبارة ومتانة الحجة ورشاقة الأسلوب مع أن الكثير من نظرياته لا تبررها الوقائع التاريخية ولا تستقيم البتة مع الطبائع البشرية .

وقد انتشرت هذه الآراء الحديثة بادئ الأمر بين الطبقات المستنيرة انتشارا عظيما لا سيما حين تولى ديدرو (Diderot) جمعها فى الانسكلبديا الشهيرة التى تعد بمثابة قاموس جامع لمجهودات العقل الانسانى فى كل العصور، فلما اشتد الاضطراب المالى، وازداد تعثر الحكومة فى سياستها الخارجية انتشرت هذه الأفكار بين مختلف الطبقات وساعد على توسيع الهوة التى تفصل الملك عن الرعية أن شبت الثورة الأمريكية واشتركت فرنسا فى حروب الاستقلال فجرت مبادئ الحرية على ألسنة

الكتاب وأقلام الصحافيين وذاعت فى كل الأنحاء حتى أصبح مما لا مناص منه أن تقع البلاد فى الهوة التى كانت تندفع اليها اذا لم تسلم بمعجزة .

موقف الطبقات المختلفة حيال الأزمة

(١) الأشراف — ليس أدل على نضوج الرأى العام فى فرنسا وانصراف الأفكار الى تعديل أنظمة الحكومة من أن الأشراف أنفسهم كانوا يشعرون بضرورة الاصلاح ، وان كانوا فى ذلك قد انقسموا فريقين : أحدهما شديد الرجعية يأبى إلا الاحتفاظ بما كان للأشراف من سلطان واسع ونفوذ كبير ، والآخر شديد التأثر بروح العصر الحديثة وكتابات المفكرين ، فكان أفراده ينقمون على الحكومة مساوئها ويميلون الى إقامة نصاب العدل والمساواة ، ولو كان فى ذلك تنازلهم عن بعض امتيازاتهم .

(٢) رجال الدين — كانت هذه الطبقة فريقين كذلك : أحدهما عظيم الجاه والثروة يتمتع بغلة أراضى الكنيسة وما تفرضه من الزكاة ، والآخر وهو الأغلبية العظمى من صغار القسس ينعم على الفريق الأول ماينعم به دونه من الترف ورغد العيش ، ولذا كان هذا الفريق من أكبر الداعين الى الاصلاح وتقويض نظام الامتيازات .

(٣) العامة — كانت هذه الطائفة تشمل :

(أ) فريق الطبقة الوسطى ومنها المتعلمون والمفكرون الذين أحفظهم ما كانوا عليه من ضعة الشأن بجانب الأشراف وحرمانهم من الوظائف العليا التى تؤهلهم لها قدرتهم ، فجعلوا ينشرون بذور الفتنة مسوقين بدافع الحقد الشخصى . ومن الخطأ وصفهم بالتعلق بالمبادئ الديموقراطية حبا فى تلك المبادئ وحدها أو حرصا منهم على خير الشعب كله ، فقد كانوا يحتقرون الطبقة العامة ولم يتقربوا اليها إبان الثورة الا لاتخاذها سلما لإدراك أغراضهم فقط . أما التجار وأرباب الأموال الذين

يتصلون بهذه الطبقة من الشعب فكانوا يحقدون على الحكومة نظام ضرائبها الجمركية بين بعض الأقاليم و بعضها الآخر، وقعودها عن تنشيط التجارة وتشجيعها فى الخارج، فضلا عن أنهم أقرضوا الحكومة ما كانت تحتاجه من المال، ولذا تأثروا بالعسر المالى الذى نزل بها، وكانوا بطبيعة الحال من أكبر الداعين الى إصلاحها .

(ب) المزارعون والصناع — تأثر المزارعون بالحركة الفكرية التى عمت البلاد وتنبهوا الى وطأة نظام الامتيازات المجحف بهم، فنزعوا الى التخلص من سوء حالهم باصلاح نظام الحكومة على أساس المبادئ الجديدة السائدة . أما الصناع والعمال فقد كانوا أكثر الطبقات بؤسا وأسوأهم حالا وأشدهم تأثرا بأزمات القحط التى تعددت فى البلاد نظرا لما كانت عليه الصناعة والتجارة من الكساد سواء أمن جراء الضرائب الجمركية أم من أثر قيود النقابات الصناعية، فسهل لذلك وقوعهم فى أيدى ذوى الغايات من الزعماء .

(ج) رجال الجيش — كان صغار الجند ينقمون على الحكومة وقفها المراتب العليا على طبقة الأشراف، على رغم أن الكثيرين منهم كانت تنقصه الدربة والخبرة فى فنون الحرب مما كان سببا فى استخفاف الجند برؤسائهم، هذا فضلا عن أن انتشار الجمعيات الماسونية فى صفوف الجيش ذهب بما بقى من احترام الجند لضباطهم حتى لقد بلغ من سوء الحالة المعنوية فى الجيش أن كانت الحكومة لا تستطيع الاعتماد عليه فى تأييدها مما كان له أسوأ الأثر فى سير الحوادث وتفاقم الثورة.

تلك هى خلاصة الحوادث فى فرنسا قبيل الثورة، ومنها يتبين أن الطبقات كلها كانت ساخطة على إدارة الحكومة تواقة الى إصلاحها مع بقاء الملكية قائمة . واذا كانت الثورة قد ولدت الجمهورية فان ذلك لم يكن نتيجة تدبير سابق بل نتيجة تدرج الحوادث كما سنرى .

الفصل الثانى

الملكية والأزمة

لويس السادس عشر (١٧٥٤ - ١٧٩٣) - ولى الحكم فى العشرين من عمره فاتجهت اليه الأنظار لإنقاذ البلاد مما كانت تئن منه من العلل الكثيرة . فقد كان لويس طيب القلب، محبا للخير، شديد الرغبة فى الإصلاح، غير أن ضعف إرادته المتناهى كان يفسد عليه رغباته الحسنة، إذ كان لا يثبت على رأى، ولا يستقر على حال، فكان مثله مثل مشرف على الهلاك، ضائع الحواس، فاقد الإرادة، يتناول كل علاج يشير به عليه كل ذى رأى فى نظره .

ولقد ظلمه المؤرخون كثيرا ونسبوا اليه مالم يكن يدور له بخاطر . والحقيقة أن الظروف أساءت اليه أضعاف ما أساء اليها . وإنه لمن الصواب ما قيل عنه : "لقد خلف له آباؤه الثورة فيما أورثوه إياه !"

وأما زوجته مارى أنتوانت فهى أميرة نمساوية زوجت من لويس من أجل أغراض سياسية، فكانت مبغضة الى الشعب قبل أن تطأ قدماها أرض فرنسا، إذ كانت من سلالة الأسرة التى ألف الشعب ذكرها مقرونا بمصائب بلاده والحروب العديدة التى خاضتها . ولقد كانت وافرة الذكاء، حديدية الإرادة، لاتغفر الإساءة لخصم، ولا تنسى المعروف لصديق، ولو كانت الحكمة السياسية وظروف الأحوال تقتضى غير ذلك . ولما كانت قد نشأت فى القصر الامبراطورى فى ڤينا وسط مظاهر الإجلال والخضوع التام، وكانت غريبة عن الشعب الفرنسى وخلقه



لويس الثامن عشر



ماري أنطوانيت

وعاداته، لم تفهم نفسيته ولا المدى الذى يمكن أن يصل اليه فى هياجه . فجهلت الطريقة المثلى لقيادته وتنكبت عن طريق السياسة الحكيمة وجرّت معها زوجها «الرجل المسكين» كما كانت تدعوه .

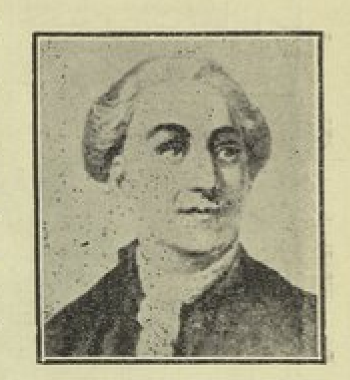
مقدمات الثورة

تسلم لويس السادس عشر مقاليد الأمور بفرنسا حين كانت الحالة المالية على غاية من الارتباك أثر ما استنزفته الحروب الماضية، وإسراف الحاشية من الأموال الطائلة[١]، فعهد بإدارة الشؤون المالية الى ترجو الذى اشتهر بإصالة الرأى والرغبة فى الإصلاح أثناء قيامه بإدارة أحد الأقاليم بفرنسا، كما عرف بكتاباته المملوءة بالعطف على الشعب والتشيع لمبادئ الفلسفية الحديثة، فما كاد يتسلم منصبه حتى قضى على المكوس الداخلية التى كانت مفروضة على الغلال، كما ألغى النقابات الصناعية التى كانت عقبة فى سبيل العمل والصناعة، وتوخى سبيل الاقتصاد فى نفقات الحكومة والبلاط الملكى حتى وفر للخزينة مبلغا يربو على العجز السنوى، غير أنه لم يلبث أن رأى نفسه وحيدا أمام جماعة الحاشية وأصحاب المصالح الذين تألبوا عليه لما فاجأهم به من الاقتصاد والتقتير، فقاموا وعلى رأسهم الملكة، وجعلوا يوسوسون للملك ويلقون اليه من كاذب التهم وباطل الوشايات عن نيات ذلك الخادم الأمين حتى خضع لرأيهم وعزله من منصبه (مايو ١٧٧٦) .

نكر — وبعد فترة تهدم فيها كل ماتم على يدى ذلك الرجل من الإصلاح، تولى الوزارة نكر (Necker) وهو رجل بروتستنتى كبير الخبرة بالشؤون المالية

(١) كانت المصروفات العادية تزيد عن الإيرادات بما يبلغ ٢٢ مليونا من الفرنكات فضلا عن ٧٨ مليونا صرفت مقدما على حساب الإيرادات و ٢٣٥ مليونا تحملها الخزينة للدائنين .

فاستطاع بحسن تدبيره أن يصل الى حد الموازنة بين الدخل والمنصرف ، ولكن لم يتسع له مجال الإصلاح طويلا بعد أن دخلت فرنسا حرب الثورة الامريكية، فعمد الى الاستدانة مرة أخرى ، وحاول أن يكتسب ثقة البلاد بنشر حسابات الميزانية التى كشفت الستار عما تفيض به من المنح والعطايا للخدم والحاشية، فلقى ما لاقاه ترجو من المقاومة، واضطر الى التخلى عن مركزه لآخرين ترضى عنهم الحاشـية مثل كالون الذى



نكر

ركب متن الشطط والإسراف حتى أصبحت الخزينـة ترزح تحت عبء ثقيل من الديون والعجز الفادح (١) . ولكى يتلافى الأمر ، جمع مجلسا من الأعيان بفرساى وعرض عليهم فرض ضرائب جديدة على طبقات الشعب بلا استثناء، إلا أن المجلس رفض مناقشة هذه الضرائب قبل أن يتبين مدى العجز وأسبابه ، فأقيل الوزير من منصبه وعين مكانه أحد زعماء المعارضة وهو برين الذى حاول عبثا أن يفوز بموافقة مجلس الأعيان أو أن يحمل برلمان باريس على تسجيل مشروعاته المالية بحجة أنه لا يمكن أن تكتسب أية ضريبة صفة شرعية إلا اذا أقرها مجلس الأمة .

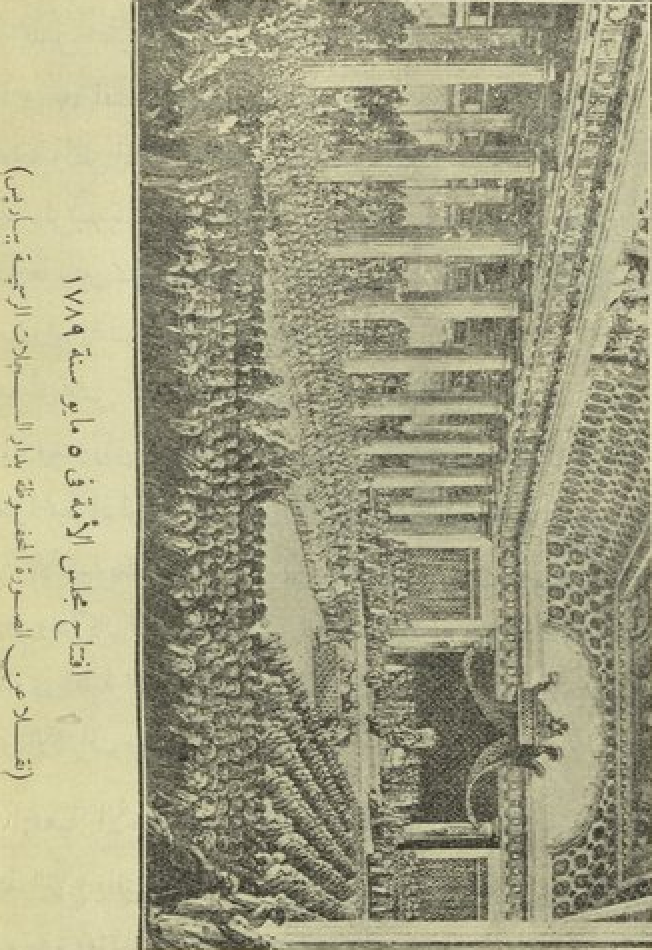
ولما كانت الضائقة المالية قد اشتدت بالحكومة حتى أصبحت على شفا الإفلاس أعلن الملك فى أغسطس ١٧٨٨ عقد مجلس الأمة ليكون عونا له على معالجة الأزمة المالية ، واستدعى نكر لوضع نظام الانتخاب القادمة ، فجعل أساس عمله التغلب على معارضـة الأشراف بأن خوّل العامة عددا من المنـدوبين يبلغ ضعف مندوبى كل من طبقتى الأشراف ورجال الدين، وعلى هذه القاعدة تمت الانتخابات فى أنحاء المملكة وحرر الناخبون عرائضهم (Cahiers) للمجلس طبق التقاليد القديمة

(١) بلغت الديون فى عهد نكر ٤٥٠ مليونا وفى عهد كالون ٤٨٧ مليونا .

وكانت كلها تفيض بالشكوى من الحكم المطلق ومايقترن به من المظالم وعدم المساواة وتجمع على ضرورة سن دستور يعين حقوق الملك والرعية .

مجلس طبقات الأمـــة (États Généraux) — وفى يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ افتتح المجلس فى قصر فرساى بحضور مندوبى الأشراف والكنيسة والعامة ، وأعلن الملك أن الغرض الأساسى من الاجتماع هو معالجة الحالة المالية فقط ، ولم يشر بتاتا الى مسألة الدستور المنشود ، فتوترت العلاقة بين الحكومة وأنصارها و بين ممثلى الشعب من بداية الأمر ، وظهر أثر هذا التحرج فى أول مسألة طرحت على المجلس وهى كيفية أخذ الأصوات ، وهل يجتمع المندوبون فى قاعة واحدة أو تجلس كل طبقة وحدها ويؤخذ رأى كل منها على حدة باعتبارها كتلة قائمة بذاتها ، فيعتبر رأى أغلبيتها رأيا واحدا معبرا عن هيئتها . وقد كانت هذه المسألة هامة فى نظر الجميع إذ لو نفذ الرأى الأول لاتسع مجال الأمل أمام مندوبى الطبقة العامة بإحراز الأغلبية بعددهم الكبير مع من ينضم اليهم من أحرار الفريقين الآخرين مهما قل عددهم واذا كان الرأى الثانى ، لم تعد هناك أهمية لميزة العدد المضاعف الذى كان لمندوبى العامة اذ أن الصوت الواحد الذى يمثل هيئتهم لا يمكن أن يتغلب على صوتى الأشراف ورجال الدين .

الجمعية الأهليـة (L'Assemblée Nationale) — ولما طال الجدل واشتد النزاع وافق أعضاء العامة على اقتراح قدمه أحدهم سييس (Siéyès) فى يوم ١٧ يونيه ، ومؤداه أن يطلق النواب على أنفسهم اسم "الجمعية الأهلية" وأن يبدءوا بصفتهم نواب البلاد فى تشكيل دستور تصان فيه حقوق الشعب ، سواء لديهم فى ذلك اشتراك بقية المندوبين معهم أم انفصالهم عنهم . على أن الأشراف اتخذوا من هذه الخطوة الثائرة على النظام القديم وسيلة لإقناع الملك بالانضمام الى صفوفهم ، فأمر بإغلاق القاعة التى كان يجتمع فيها النواب بحجة إعدادها لجلسة قادمة ، غير أن أعضاء الجمعية الأهلية انتقلوا الى ملعب التنس المجاور للقصر ، وهناك اتفقوا



افتتاح مجلس الأمة في ٥ مايو سنة ١٧٨٩

(نقلا عن الصورة المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس)

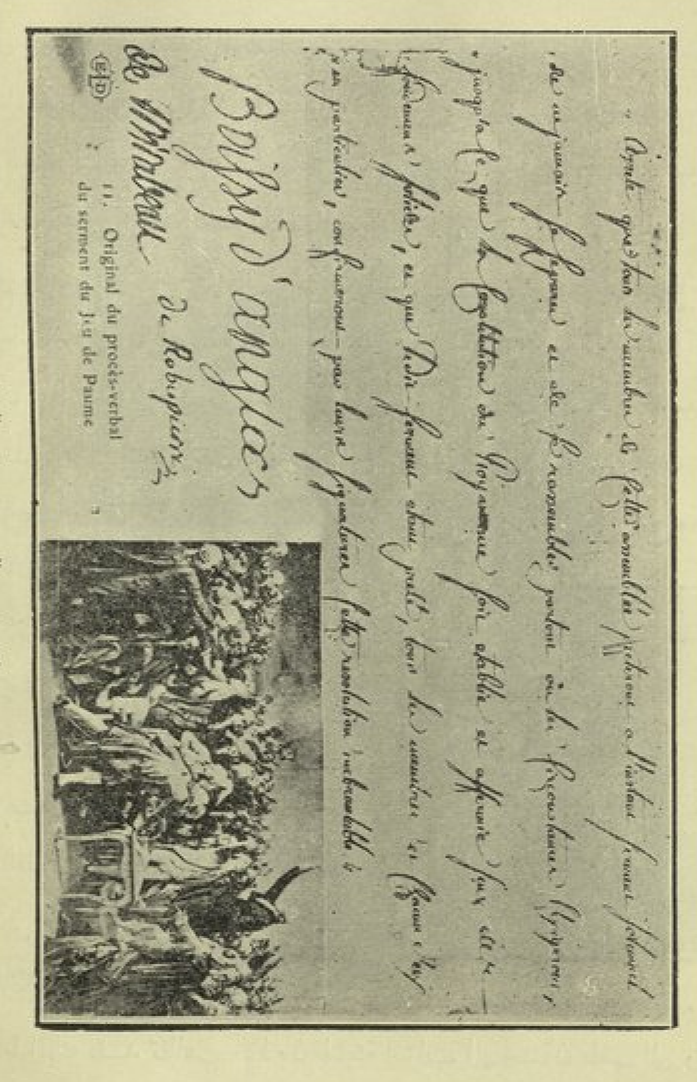
جميعا على أن يوالوا الاجتماع مهما كانت الظروف حتى يتموا الدستور الذى طلبه الشعب ، وألا يعودوا الى بلادهم قبل ذلك بحال .

وفى يوم ٢٣ يونيه دعيت الطبقات الثلاث الى القاعة العامة ، وألقى الملك خطابا ضمنه إلغاء القرار الذى اتخذ فى ١٧ يونيه ، وذكر الاصلاحات التى رأى وجوب البحث فيها لإدخالها على نظام الحكومة ، وأعلن قراره الأخير فى وجوب انفصال طبقات المجلس بعضها عن بعض عند المناقشة وأخذ الأصوات ، وأنذر الأعضاء بالمضى وحده فى طريق الاصلاح اذا كانت طبقات الأمة تتنازع الأمر بينها فى وضع هذه الاصلاحات . ثم غادر القاعة ومن ورائه رجال الدين والأشراف ظافرين بما كانوا يطلبون ، وبقى مندوبو العامة وحدهم واجمين يتنازع الخوف والسخط نفوسهم ، الى أن بدد الزعماء ذلك الضعف بكلمات مأثورة خالدة ، فلما دخل رسول الملك يأمر الجمع بالانفضاض صاح به ميرابو : "إننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحرب !" ولبث الأعضاء فى أماكنهم يعملون كأن شيئا من ذلك لم يقع كما قال سييس ، وانطلقوا يتخذون الحيطة لأنفسهم أولا ، فأصدروا قرارا يعلنون فيه أنهم قد أصبحوا غير خاضعين لسلطة القانون من حيث الاتهام أو المحاكمة أو السجن ، وأن كل سلطة تخالف ذلك القرار ترتكب جريمة الخيانة للأمة !



ميرابو

وأما الملك فقد تظاهر بالإذعان لمشيئة النواب الى حد أن طلب الى رجال الدين والأشراف الانضمام الى اخوانهم ، وذلك ريثما يتم له استقدام جيوش لا تتأخر عن إطاعة أوامره عند الحاجة . فلما تم له ما أراد ، بدأ حركته الرجعية المنتظرة ، فعزل نكر يوم ١١ يوليه ، وولى مكانه بروتى (Breteuil) أحد رجاله المعروفين بالإخلاص له .



« Arrête que tous les membres de cette assemblée prêteront à l'instant serment solennel de ne jamais se séparer, et de se rassembler partout où les circonstances l'exigeront, jusqu'à ce que la constitution du Royaume soit établie et affermie sur des fondements solides; et que ledit serment étant prêté, tous les membres et chacun d'eux en particulier, confirmeront par leur signature cette résolution inébranlable; »

Boissy d'Anglas

de Robespierre

de Mirabeau

11. Original du procès-verbal du serment du Jeu de Paume

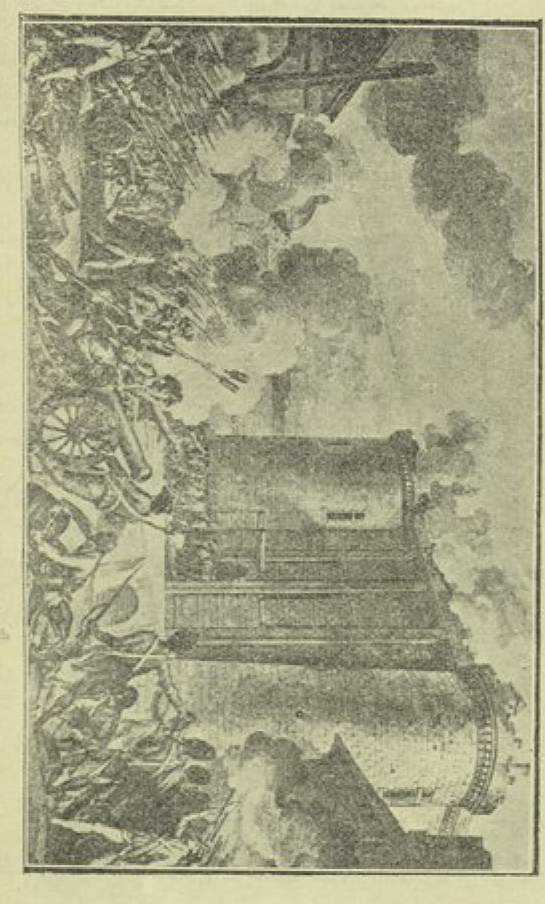
ميثاق ملعب التنس بتوقيع النواب

(نقلا عن الصورة المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس)

الحالة فى باريس — على أن هذا الحادث أدى الى قيام الشعب بمظاهرات عديدة سفكت فيها الدماء وذلك بتأثير بعض المهيجين أمثال مارا (Marat) وديمولين (Desmoulins) الذين نجحوا فى إثارة خواطر العامة بخطبهم ومقالاتهم، الى حد أن اضطرت البلدية أن تسمح للناخبين بتشكيل هيئة منهم تتولى صيانة الأموال والأرواح ، فبدأت بتأليف حرس أهلى يساعد على حفظ النظام واستتباب الأمن . ولكن الحالة تفاقمت بإشاعات السوء التى كان يرجف بها المرجفون عن نيات الملك وأغراضه لا سيما بعد أن قتل عدد من الجنود إبان تلك الاضطرابات ، فأخذ الأهالى يدبرون وسائل الدفاع عن أنفسهم ، فهاجموا مخازن الانفليد ودار الصناعة فى ١٤ يوليه، واستولوا على ما فيها من الأسلحة، ثم تحوّلوا الى حصن الباستيل حيث توهموا أن الذخائر كلها جمعت هناك .

الهجوم على الباستيل — ومع أن الحامية لم تكن تربو على المائة إلا قليلا وأن كل مدافع الحصن سحبت من أماكنها لتهدئة الحالة فان المهاجمين لم ينثنوا عن إعمال المدافع والبنادق فى جدران الحصن الى أن اضطر حاكم الباستيل الى التسليم على أن يكون هو وجنده فى مأمن على حياتهم . إلا أن الشعب فى دخوله الحصن لم يكترث لوعد ، ولم يتقيد بشرط ، فقتل حاكم الحصن وعددا من جنوده أشنع قتلة ومثل بالباقين أفظع تمثيل .

على أن الأهالى لم يعدموا، وسيلة لتبرير ما وقع ، فاتهموا حاكم الباستيل بجريمة التحرّش بالشعب الوديع المسالم ! وبلغت شدّة الرغبة فى تبرئة المجرمين الى حدّ وصفهم بالأبطال، واعتبار عملهم مجيدا جديرا بإجلال التاريخ . و إذ كانت الملكية فى حالة لا تستطيع معها المقاومة دفعا لهذا الشر المتفاقم فقد قبل لويس رواية الباستيل على علاتها، و زار باريس دلالة على الرضا عن أهلها، وأجاب ملتمسهم فى تعيين بايى «رئيس الجمعية الأهلية» عمدة لها ، ولافاييت (Lafayette) قائدا للحرس الأهلى، كما أنه أعاد نكر الى الوزارة وأبعد الجند عن باريس وفرساى .




الهجوم على الباستيل (١٤ يوليه سنة ١٧٨٩)

نتائج سقوط الباستيل — كان لسقوط الباستيل دوى هائل فى أنحاء أوربا ارتجت له العروش وطرب له الأحرار ، إذ طالما استخدمه ملوك فرنسا والأشراف المقربون لديهم، لإقصاء خصومهم و إخماد أصوات المفكرين وأنصار الحرية ، بطرحهم فى أقبيته المظلمة حتى تفرغ آجالهم . وعلى الرغم من خلوه حين الاستيلاء عليه إلا من نفر قليل لا قيمة له ، فقد ترك سقوطه أثرا عظيما فى نفس الشعب الفرنسى ، إذ أسكره هذا الفوز، وما تبعه من إغضاء الملك واستسلامه، فتمادى «الشعب» فى ثقته بنفسه وقدرته على إخضاع الحكومة لإرادته حتى كان لذلك أسوأ تأثير فى مجرى الحوادث فيما بعد .

وكانت أول نتيجة لسقوط الباستيل والإعجاب بالرجال الذين قاموا بذلك العمل أن أخذ رجال الأقاليم يهاجمون الألوف من قصور الأشراف — التى تمثل الباستيل بينهم — وجعلوا يدمرون ما بها من السجلات التى تثبت حقوق الأشراف إزاء العامة حتى سادت الفوضى فى كل مكان، لا سيما وقد انكمش رجال الحكومة عن الوقوف فى وجه الثائرين خوف أن يحل بهم ما حل بحاكم الباستيل . وبلغ من عجزهم عن ضبط الأحوال أن سلك جماعة الناخبين فى الأقاليم نفس السبيل الذى اتبعه زملاؤهم فى باريس بأن شكلوا من بينهم لجانا للإشراف على أعمال الحكومة والمحافظة على الأمن — قدر المستطاع .

٤ أغسطس — أما رجال الجمعية فقد رأوا أنه لا يرجى لذلك الاضطراب من هدوء إلا اذا تجرد الأشراف من امتيازاتهم، ولكنهم أحجموا عن المناقشة فى الأمر تجنبا لأزمات شديدة أقلها احتمال وقوف الملك الى جانب الأشراف، ومع هذا فقد حدث ما كان يرجى مساء ٤ أغسطس حين وقف أحد الأشراف — وكان فقيرا يلقبه اخوانه (Jean Sans - Terre) أى الذى لا يملك أرضا — واقترح النزول عن امتيازات الأملاك، فما هى إلا لحظة حتى دب دبيب الغيرة والحماسة فى كل

الصدور، فجعل القوم يتبارون فى تعزيز هـذا الرأى، وما انقضت الليـلة حتى كان الأشراف قد نزلوا عن كل امتيازاتهـم، كما نزلت الكنيسة عن زكاتهـا، وختمت الجلسـة فى الصباح بالموافقـة على اعتبـار لويس السادس عشر "معيـد الحرية للبـلاد!".

حوادث أكتوبر — فزع الملك مع هذا من تمـادى الشعب فى طغيانه فعمد الى اسـتدعاء فرقة الفلاندر المواليـة له لتكون بمثابة حرس خاص يدافع عن فرساى، ولكن مجىء الفرقة ولد كثيرا من الريب والظنون ولا سيما لمـا ذاع عن نبأ الإهانة التى لحقت شـعار الثورة، أثنـاء وليمة أقيمت بالقصر الملكى إكراما للجنـد الجـدد. وصادف هـذا الحادث انتشار القحط بباريس نظرا لقلة ما عرض من الغلال تفاديا من النهب، فعوّل المهيجون على انتهاز هـذه الفرصة ليرغموا الملك على الإقامة بباريس ليأمنوا جانبه، فأخذوا يحضون النساء على الاجتماع والمطالبة بالخبز ورجوع الملك الى باريس على زعم أنه بعودته مع أسرته يكثر القوت فى المدينـة. فسار عدد كبير من النساء فى ٥ أكتوبر — وخلفهنّ المئات من الرجال المسلحين — الى فرساى حيث اقتحمن قاعات المجلس مناديات بطلب الخبز، ثم تقدّمن لمهاجمة القصر بعد ذلك، ولكن حال دون غرضهنّ وجود حرس قوى.

العودة الى باريس — وفى فجر اليوم التالى بكر الجمع الذى افترش الثرى طول الليل واقتحم القصر من باب أغفلت حراسته، الى أن اقترب من مخدع الملك والملكة، ولكن لافاييت كان قد وصل الى فرساى على رأس الحرس الأهلى أثناء الليل، ليطلب الى الملك أيضا باسم البلدية أن يعود الى باريس، فلما جاءته أنباء هذا الهجوم، أسرع الى القصر وحال بين الملك وبين شعبه الهائج، على أن يقبل العودة الى باريس. وهكذا استسلم لويس الى القدر، وترك نفسه تحت رحمته، وعاد الى

باريس حاملا شارة الثورة[1] على صدره، وسط موكب النساء . وقد كان دخول لويس قصر التويلرى أول خطوة فى سبيل دخوله السجن فيما بعـد ، ومن السجن الى المقصـــلة !

(١) الأصل فى هذه الشارة أنه حين هاج الشعب فى باريس عقب عزل نكر (١١ يوليه) اقترح بعضهم أن يضع كل فرد ورقة من أوراق الشجر فى قبعته ليتعارف المتضامنون فى السخط على الحكومة ، ثم أبدلت هذه الشارة فى اليوم التالى باللونين : الأزرق والأحمر . فلما جاء الملك لزيارة باريس عقب سقوط الباستيل ، وضع اللون الأبيض بينهما إكراما له فبقيت الألوان الثلاثة شارة الثورة منذ ذلك الحين .

الفصل الثالث

فرنسا من أكتوبر سنة ١٧٨٩ الى سبتمبر سنة ١٧٩١

انتقلت الجمعية الأهليـة الى باريس عقب مغادرة الملك فرساى فأمنت بذلك جانب الحكومة وتدخلها فى أعمالها اعتمادا على حماية الشعب، ولكنها أصيبت بتدخل الشعب من حين لآخر فى تصرفاتهـا، فأثر ذلك تأثيرا سيئا فى عمل الدستور الذى بدأت به فى فرساى .

وتلخص القرارات التى أصدرتها الجمعية فى هذا الشأن فيما يلى :

(١) حقوق الانسان — أعلنت حقوق الانسان[1] على أساس تعاليم روسو، ومجملها أن الناس ولدوا أحرارا متساوين فى الحقوق، وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية، والأملاك الشخصية، وصيانة الحقوق، وحماية الأرواح، ومنع المظالم، وأن لكل أمة الحق فى مشاركة الحكومة فى وضـع القوانين، وتقرير الضرائب، ولهـا وحدها السلطة العليا فى البـلاد، وليس لأحد أن يستعمل هـذه السلطة إلا بإرادتها .

(٢) الامتيازات — محى نظـام الامتيازات وما كان يترتب عليـه من واجبات وحقوق .

(٣) تقسيم فرنسا — ألغى التقسيم القديم لفرنسا وقسمت من جديد الى ٨٣ قسما تكاد تتساوى مساحتها كلها، وأطلقوا على كل منهـا اسم أحد أجزائها

---

(١) نشرنا فى صـدر الكتاب الصورة الأصلية لهـذا القرار كما ورد فى الدسـتور الذى وقعـه لويس السادس عشر فى ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١ ويرى التوقيع بأعلى الجانب الأيسر للصورة .

الطبيعية الشهيرة كنهر أو جبل، وتقرر لكل منها مجلس ينتخب بالتصويت العام، ويكون عمله الإشراف على شؤونها الداخلية .

(٤) السلطة التشريعية — وضعت السلطة التشريعية فى يد مجلس نيابى واحد ينتخب لمدة سنتين لا غير بحيث لا يتجدد انتخاب أحد الأعضاء مرتين متواليتين، وجعل الانتخاب على درجتين، كما جعل حقا مقصورا على من يدفعون قدرا معينا من الضرائب ومن لا يقل سنهم عن الخمسة وعشرين عاما، وخوّل الملك سلطة رفض (Veto) أى حق إلغاء قرارات المجلس ، إلا اذا أعاد عين تلك القرارات ثلاثة مجالس متتالية ، ووضع شرط يحرم على أعضاء المجلس النيابى دخول الوزارة .

ويلاحظ أن قصر مدة المجلس على سنتين مع تحريم إعادة انتخاب الأعضاء السابقين كان من شأنه أن يحرم البلاد ثمرة الخبرة النيابية ويعرقل سبل الإصلاح نظرا لاحتمال اختلاف الآراء بين المجالس المتعاقبة . أما منع الأعضاء من الدخول فى الوزارة ، فقد حرم الحكومة خبرة الكثيرين من ذوى الكفاية ، وأقام حاجزا بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، أصبح معه دوام التفاهم بين الفريقين متعذرا .

(٥) سلطة الملك — خوّل الملك حق رفض قرارات المجلس النيابى على النحو الذى بيناه، كما خوّل حق تعيين الوزارة، ورياسة الجيش، وإعلان الحرب، وعقد معاهدات الصلح — بشرط موافقة المجلس — كما خوّل حق الإشراف على القضاء والادارة، على أن هذا الإشراف كان بلا قيمة إذ جعلت تلك الوظائف قائمة على أساس الانتخاب، فأصبحت سلطتها مستمدة من الشعب لا من الملك .

وعلى الجملة قد سلبت من الملك كل سلطة حقيقية وأبق له ظلها، فبعد أن كان سيد البلاد أصبح أوّل خادم لها، ومع هذا فلم تعط له أية فرصة ليكون خادما نافعا.

(٦) الدستور المدنى (ويراد به النظام الذى وضع للكنيسة) — نزل رجال الدين عن «زكاتهم» كما ذكرنا ولكن إفلاس خزائن الحكومة حمل الجمعية على اغتصاب أملاك الكنيسة(١) وتحديد مرتبات لرجال الدين، على أن يكون تعيينهم بطريق الانتخاب حتى تقطع كل علاقة بين البابا والكنيسة. ولما أعلن البابا ورجال الدين سخطهم على هذا النظام، أصدرت الجمعية قرارا يحتم على رجال الدين أن يقسموا يمين الإخلاص والطاعة للدستور، وإلا حرموا وظائفهم وأوقفوا عن العمل.

هرب الملك — كانت هذه القرارات سببا فى نفور الملك من الجمعية بعد إخلاصه لها، ولا سيما بعد القرار الذى أصدرته بشأن رجال الدين، فان عقيدته الدينية كانت تأبى عليه أن يحتمل التهاون فيما يمس الدين وأهله. واذ كان ميرابو قد عاد الى صف الملك لما كان يتقاضاه منه من الأموال، ولما رآه من تطرف الجمعية، فقد نصح له بأن يخرج من باريس علنا وسط حرسه الى إقليم مجاور من الأقاليم الموالية له، وهناك يدعو الجمعية الى دستور جديد، تكون له فيه سلطة فعلية، فان أبت، زحف على باريس وقضى على العصاة. ولكن الملك والملكة لم يثقا تماما بميرابو، فجعلا يسوفان فى تنفيذ خطته، حتى اذ كان أبريل سنة ١٧٩١ توفى ميرابو، فقبر معه مشروعه، وفقدت الملكية فيه أكبر نصير قادر على إنقاذها.

تغلب رأى الملكة بعد ذلك، وكان مشروعها يقضى بالهرب سرا نحو الحدود فى اتجاه شالون (Chélons) ومتز (Metz)، حيث تجرى مظاهرة عسكرية لإرهاب

(١) قدر بعضهم قيمة هذه الأملاك بنحو ثلاثة آلاف مليون فرنك، ولكنها عرضت فى السوق بأبخس الأثمان للحصول على قيمتها نقدا. وقد كان من نتيجة ذلك اضطراب الحالة المالية، وظهور حزب جديد يمالئ الثورة ممن اشتروا أملاك الكنيسة. ولكن ظهر حزب آخر معاد لها من الحانقين على التعدى على حقوق البابا والكنيسة، ولم تخمد حدة هذا الحزب حتى أبرم نابليون اتفاقا (كونكوردات) مع البابا فى سنة ١٨٠١

الجمعية وإعادتها الى صوابها . وفى ليلة ٢١ يونيه اتخذ الملك وزوجه وبنوه من الليل ستارا، ويمموا شطر الحدود، وكان ينتظر الهاربين جيش بقيادة بوييه (Bouillé) كما كان ينتظرهم على مسافات متقطعة فصائل صغيرة من الجند لتحرسهم فى طريقهم. ولما أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الأمان اكتشفت دخيلة أمرهم، وقبض عليهم فى ڤارن (Varennes)، وأعيدوا الى باريس وسط مظاهر الاحتقار والاستخفاف الشديد.

الاختلاف فى مصير الملك — كان أكبر ما يشغل الأذهان بعد عودة الملك هو مصير التاج وصاحبه، فقد صرح الملك فى خطاب له قبل هربه، بأن كل ما وافق عليه منذ جلسة ٢٣ يونيه سنة ١٧٨٩، كان بالرغم من إرادته فلا يتقيد به، فرأى فريق من الأعضاء وهم جماعة المتطرفين من اليعاقبة[1]، أن فى سلوك الملك هذا خروجا منه على أمته، وحنثا بعهده، وأنه قد آن الوقت الذى تزول فيه الملكية وظلها، وتقام الجمهورية[2] لتوطيد النظام الجديد. غير أن الأغلبية كانت تميل الى رأى المعتدلين الذين كانوا من حزب اليعاقبة، ثم انفصلوا عقب هذا الحادث، وأصبحوا يعرفون باسم فويان (Feuillants) «نسبة الى الدار التى يجتمعون فيها، وقد كانت قديما ديرا لجماعة دينية بهذا الاسم». وكان هذا الرأى يقضى بإعادة الملك الى عرشه، مع تقييد سلطته بأكثر مما كانت عليه، فأصدرت الجمعية قرارا بذلك على زعم أن الملك لا يعد مسئولا عن فراره، لأنه نقل بالقوة! ولا ريب أن الجمعية قد اتبعت

(١) تكونت هذه الجماعة من بين أعضاء الجمعية الأهلية مذ كانت بفرساى للبحث فى أعمالها النيابية. ولما انتقلت الجمعية الى باريس اتسع نطاقها، وأصبحت تشمل عددا كبيرا من المشتغلين بالسياسة، واتخذت ناديا لها دارا قديمة للفئة الدينية المعروفة باسم «اليعاقبة» (Jacobins) فأطلق هذا الاسم على أعضاء ذلك النادى الذى قوى شأنهم مذ أنشأوا فروعا لناديهم فى كل إقليم وناحية بفرنسا.

(٢) يلاحظ أن هذه هى المرة الأولى التى نبتت فيها فكرة الجمهورية، وذلك نتيجة تدرج الحوادث كما ذكرنا فى ختام الفصل الأول.

هـذا الرأى رغبة فى اجتناب الأزمة التى تعقب إلغـاء الملكية ، والفوضى التى قد تنشأ عن هذا الانقلاب، إلا أن قرارها أغضب المتطرفين من اليعاقبة، فطعنوا فى رأى الأغلبية، وقرروا تنظيم مظاهرة لإرهاب الجمعية وإخضاعها لرأيهـم، وقد أفلحوا فى دعوتهم ، اذا اجتمع خلق كثير من الغوغاء فى ساحة شان دى مارس (Champs de Mars) فى ١٧ يوليه لإمضاء الشكوى التى أعدّت فى هذا الشأن، ولكن الحرس الأهلى شتت شملهم ومزق جموعهـم ، فاختفى على أثر ذلك زعمـاء المتطرفين أمثال دانتون (Danton) وروبسـپير (Robespierre) جزعا ممـا قد يحل بهم، ولو قبض عليهم حينئذ وضرب على أيديهم بشـدّة لتخلصت البلاد من عوامل الفوضى التى بقيت تئن منها طويلا .

أما الملك فكانت الجمعية قد أصدرت قرارا بوقفه عن مباشرة سلطته حتى يتم وضع الدستور فيوقعه ويقسم يمين الاخلاص له .

وفى سبتمبر سـنة ١٧٩١ تم الدستور، فوقعه الملك وأقسم يمين الولاء للجمعية والقانون . وهكذا ظن العالم أن زمن الثورة والاضطراب فى فرنسا قد انقضى وأن البلاد يوشك أن يطلع عليها فجر عهد جديد .

الفصل الرابع

الجمعية التشريعية — L’Assemblée Législative.

انحلت الجمعية الأهلية عقب إتمام الدستور وحلف يمين الاخلاص له، فطويت بذلك صحيفة الهيئة التى قوضت دعائم النظام القديم . ومهما يقل عن المبادئ الجليلة التى أتى بها رجال هذه الجمعية، فما لا ريب فيه أنهم لم يتخذوا الحيطة لحماية الشعب من نفسه، بعد أن سلبوا السلطة من الملك لحماية الشعب منه، وهذ أكبر انتقاد يوجه اليهم، فهم وإن كان جلهم على قسط وفير من الحزم، فقد جرفوا فى تيار العواطف الذى دفع البلاد الى هاوية بعيدة الغور .

انعقدت الجمعية التشريعية فى أول أكتوبر سنة ١٧٩١ وفق أحكام الدستور، وكانت تختلف عن الجمعية التى تقدمتها فى أن مهمتها اقتصرت على تنفيذ مواد الدستور، وحماية نتائج الثورة من عبث العابثين بها . ولذا يرى أنه بدل أن كان النزاع فى الجمعية الأهلية قائما على مسائل دستورية، أصبح نزاع الأحزاب الآن قائما على الاستئثار بالسلطة. على أنه لما كان أعضاء الجمعية الأهلية قد قرروا أنه لا يجوز تجديد انتخاب أى عضو فيها للجمعية التشريعية، فقد حرمت هذه الجمعية من أعظم رجال فرنسا كفاية وحزما وخبرة، وامتلأت بشبان حديثى العهد بالسياسة وشؤون الدولة.

الأحزاب — انقسمت الجمعية من بادئ الأمر الى ثلاثة أحزاب وهى : اليسار واليمين والوسط، فأما حزب اليسار، فكان يجمع أنصار اليعاقبة الذين تقدم ذكرهم، المتطرفين منهم والمعتدلين وأشهرهم جماعة الجيروند (Girondins) نسبة الى الاقلم الذى انتخبوا عنه . وكانوا ينقمون على الدستور اعتداله فى عرفهم، ويعتمدون فى خطاباتهم على الألفاظ المنمقة والعبارات الخلابة تشبها بنواب الرومان،

ومن أكبر رجالهم كوندورسيه (Condorcet) وبريسو (Brissot) وڤرنيو (Vergniaud) وأما حزب اليمين فكان يتألف من أنصار جماعة الفويان الذين كانوا يعضدون الدستور . وكان حزب الوسط يشمل أفرادا عرفوا بالحذر والتردّد، فكانوا يخدمون الحزب بعد الآخر، دون اتخاذ رأى معروف ولا ثبات على خطة واحدة .

فرنسا والدول — كان أوّل ما اتجهت اليه أنظار الجمعية الجديدة مسألة الحرب التى كانت تهدّد فرنسا حينئذ من جانب دول أوربة بدعوى « الدفاع عن حق الملوك الالهى وحق الأسرات » ولا ريب أن هذا نفاق وادعاء باطل فلطالما نشبت الثورات، وأعدم الملوك فى أوربة، دون أن تحرّك الدول ساكنا . والحقيقة أن أوربة لم ترفى نشوب الثورة إلا فرصة لإضعاف فرنسا واغتيال أملاكها، وإزالة منافس خطير من ميدان السياسة .

وتفصيل ذلك أن الروسيا اقترحت فكرة التعاون فى القضاء على الثورة، حتى تحوّل نظر النمسا وبروسيا الى غرب الرين، ليخلو لها الجوّ فى بولندة، ولكن بروسيا ظلت تتردّد طويلا قبل أن تغامر بجنودها ضد فرنسا، حتى ألحت عليها انجلترا وهولندا والنمسا بالكف عن دسائسها فى بلجيكا والانصراف الى ما قد يصيبها من الغنم بمحاربة فرنسا . وبذا خرجت الدول من انشقاق بعضها على بعض، بالاتفاق على التهام تلك الدولة المنشقة على نفسها . ولما قرّ الرأى على ذلك، بدأت النمسا وبروسيا تترقبان الفرص وتتلمسان الأعذار للبدء بالتدخل .

كيف بدأت الحرب — وكان أوّل هذه الأعذار مانشأ عن إلغاء امتيازات الأشراف من هضم حقوق الأمراء الألمان المقيمين على حدود الألزاس . فقد قبلت الجمعية أن تعوضهم عما فقدوه، ولكنهم أصروا على أخذ حقوقهم كاملة . وازداد المركز حرجا باحتلال فرنسا كونتية فينيسان — وكانت ملكا للبابا — وذلك عقب قيام أهالى أڤنيون (Avignon) ضدّ عمال البابا، واعلان انضمامهم الى فرنسا . هذا الى

أن باريس امتلأت بالوفود من ألمانيا وسويسرا وايطاليا طالبين أن يساعد زعماء الثورة أممهم للوصول الى مثل نصيبهم من الحرية . فجزعت الدول، وبدأت تفكر فى التدخل قبل أن يتفاقم الأمر . ولا ريب أن إلحاح المهاجرين من الفرنسيين فى أوربة، وتوسل الملك والملكة لأخيهما أمبراطور النمسا بالتعجيل بانقاذهما من الخطر الذى كانا يشعران به على رغم قبولهما الدستور، لم يترك مجالا للنمسا فى التردد، فأرسل الأمبراطور بالاتفاق مع ملك بروسيا تهديدات عدة الى فرنسا كان أخطرها شأنا بلاغ بلنتز (Pillnitz) (٢٧ أغسطس سنة ١٧٩١) الذى أعلنا فيه أن دول أوربة لا تتردد فى استخدام كل الوسائل لإعادة الملكية الى قوتها فى فرنسا . وقد طرب الأشراف المهاجرون لصدور هذا البلاغ، وأرسلوا منشورا من كوبلنتز (Coblentz) توعدوا فيه زعماء الثورة بكل عقاب صارم .

ولقد وقعت هذه التهديدات وقعا أثار الشعب الفرنسى، حتى أن الجمعية قررت أن كل مهاجر لا يعود الى فرنسا يعد شريكا فى التآمر على سلامة بلاده، ويكون جزاؤه الموت ومصادرة أملاكه . وقررت أيضا أن ينفى كل من لا يقسم يمين الطاعة والاخلاص للدستور من رجال الدين . وانتهى الأمر أخيرا بأن أفلح أنصار الحرب (١) فى فرنسا فى حمل الملك على اعلان الحرب فى ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢

الحـــرب — كانت عدة فرنسا الكبرى المتطوعين من أبنائها، فان الجيش القديم كان قد انحل على أثر الثورة ومهاجرة الكثيرين من الضباط الأشراف . على أن هؤلاء المتطوعين كانوا لا يملكون من الصفات الحربية سوى الحماسة، وهى لا تغنى

(١) كانت الأحزاب المختلفة مجمعة على إعلان الحرب عدا اليعاقبة المتطرفين . فأنصار الملكية المطلقة كانوا يأملون أن تنتصر النمسا فيعيد الى الملك سلطانه المطلق . وأنصار الملكية الدستورية، كانوا يرجون من وراء انتصار فرنسا تقوية مركز الملك فتخف حدة المتطرفين . والجيروند، كانوا يرغبون فيها لاتخاذها وسيلة للاستئثار بالسلطة . وأما اليعاقبة المتطرفون فقد رغبوا وحدهم عن الحرب مخافة أن تؤدى الى الهزيمة فيقضى على الثورة، أو الى النصر فيقوى مركز الملكية .

عن النظام والخبرة ، ولا يملكون من المعدات والذخائر إلا القليل . ولعل أكبر معجزة أتت بها الثورة هى التغلب على كل هذه المصاعب ، والانتصار فى النهاية على أعظم جيوش أوربة . ولاريب أن ذلك يعزى إلى أن الحليفتين لم يجمعا من الجنود أكثر من ثمانين ألفا فى مقدمتها الأشراف المهاجرون وكان يقود هذه القوات برنسويك (Brunswick) قائد بروسيا وهو شيخ تنقصه صفات المغامرة والاقدام . ولم تكن الثقة متبادلة بين الحليفتين ، كما أن أنظارهما كانت متجهة نحو بولندة على الدوام لمراقبة ما تجريه روسيا هناك . هذا الى أنهما كانتا فى غرور من قدرتهما على سحق فرنسا على مهل ، ولذلك فانهما لم تتعجلا فى الزحف اليها . أضف الى ذلك أن برنسويك أصدر بلاغا فى ٢٥ يوليه توعد فيه باريس بالتدمير اذا أصاب الأسرة المالكة أى سوء أو اذا قاوم جيوشه مقاوم . وقد أتى هذا البلاغ بغير ما كان ينتظره الأعداء اذ تماسكت الأمة تماسكا تاما لدفع الأخطار التى كانت تتهددها .

أسرعت فرنسا بالزحف الى بلجيكا عقب إعلان الحرب ، ولكنها ردت على عجل ، ولم يتعقبها أعداؤها ، فأفسحوا لها المجال لتنظيم صفوفها من جديد ، إذ لم يبدءوا مهاجمتها إلا فى ١٩ أغسطس ، فاستولوا على كثير من المدن حتى اخترقوا غابات الأرجون (Argonne) «ترموبيل فرنسا» فوجدوا الفرنسيين تحت قيادة ديموريه (Dumouriez) مرابطين على تلال ڤالمى (Valmy) فأطلقوا عليهم النيران ، ولكن الجنود الفرنسية ثبتت فى مكانها ثباتا لم يعهده خصومها من قبل . ولما كان المرض قد تفشى بين الجنود ، وكانت الدول فى شغل عن الحرب بموقف روسيا المقلق فى الشرق فقد اتفق برنسويك مع ديموريه على أن ينسحب من غير قتال ، ولذا تعتبر موقعة ڤالمى على صغرها من أهم مواقع التاريخ لأنها ولدت فى فرنسا وجيشها تلك الثقة بالنفس التى جعلتها مصدر الفزع لأوربة مدة طويلة .

باريس إبان الحرب — كان الملك قد اتخذ وزارة من حزب اليمين عند افتتاح الجمعية التشريعية ، ولكنها سقطت إزاء حملات الأحزاب المعارضة ، وأعقبتها

وزارة من الجيروند فتم على يدها اعلان الحرب ، إلا أن هزيمة الجند فى فاتحة الهجوم أدت الى سقوط هذه الوزارة ، وتعيين وزارة جديدة تمثل الأحزاب المختلفة ، فلم يرق ذلك فى أعين الجيروند الذين فكروا فى استخدام الشعب لإرهاب الملك وحمله على إرجاع وزارتهم ، وقد ظاهرهم اليعاقبة المتطرفون فى هذه الفكرة ، على أمل أن تتهيأ لهم الفرصة لأغتيال الملك وإعلان الجمهورية . ومن ثم دبرت مظاهرة فى ٢٠ يونيه باسم الاحتفال بذكرى ميثاق ملعب التنس ، وفيها اقتحم الشعب قصر التويلرى وأحاط بالملك ، ولكنه أبدى من الثبات واللين ما استطاع أن يرد المتظاهرين دون أن يظفروا ببغيتهم . إلا أن هذا الحادث أفزع كثيرا من المعتدلين أمثال لافييت ، فأشاروا على الملك بإغلاق جمعية اليعاقبة والضرب على أيدى المحرضين ، ولكن الملك والملكة لم يعملا بهذه النصيحة ، فعرضا حياتهما وحياة أسرتهما لأخطار لم تكن فى الحسبان .

١٠ أغسطس — ذلك أن المتطرفين لم ينثنوا بعد ٢٠ يونيه عن توجيه أشد الحملات الى الملكية وأنصارها ، وجاء بلاغ برنسويك فاتخذه المحرضون سلاحا جديدا يستخدمونه لإغراء الباريسيين ووفود متطوعى الأقاليم على المطالبة بخلع الملك . وحدث أن وفدا من مرسيليا وصل فى أواخر يوليه وهو ينشد نشيد الرين الذى وضعه روجيه دى ليل وعرف منذ ذلك الحين بالمرسييلز ، فوجد المتطرفون فى ذلك الوفد الضالة التى ينشدونها لتحقيق أغراضهم فبدءوا باغتصاب السلطة من بلدية باريس ليلة ١٠ أغسطس ، ثم هاجموا قصر التويلرى فى الصباح ، ففر الملك وأهله الى قاعة الجمعية ، وبعد قتال عنيف بين الغوغاء والحرس الخاص ، اقتحم الغوغاء القصر ، ومنه الى الجمعية حيث ألحوا بخلع الملك ، ولكن الجيروند أفلحوا فى الحصول على موافقة الجمعية بوقفه فقط ، وترك البت فى مسألة العرش الى مؤتمر وطنى يدعى لهذا الغرض ، آملين أن يفوزوا حينئذ باستخدام رأى مندوبى

الأقاليم ضد يعاقبة باريس[1] ، على أنهم قبلوا مع ذلك وضع الملك فى حراسة بلدية باريس، وسجنه مع أسرته فى "الهيكل القديم" .

واذ تمّ ايقاف الملك وحكومته انتخبت هيئة تنفيذية لادارة البلاد ، وكان على رأسها دانتون (Danton) أحد زعماء اليعاقبة، وبطل الحوادث التى مرت بنا، فاشترك مع مجلس الكومون (البلدية الجديدة) فى ادارة الأعمال وتنفيذ السياسة المخربة الذى جرى عليها حزبهم .

مذابح سبتمبر — فى تلك الأثناء تقدم الأعداء فى الأراضى الفرنسية على عجل كما مرّ بنا، فقررت الجمعية بتأثير الكومون والرعب الذى أحدثه بلاغ برنسويك القبض على الأشراف وإيداعهم السجون حتى يأمن الناس شر الخيانة. وما وافت الأنباء بسقوط ڤردان (مفتاح باريس) فى ٢ سبتمبر، حتى استولى الجزع على الجميع وطافت بالسجون عصابات مسلحة، وأودت بحياة كل من فيها تشفيا منهم . ولقد استمرت هذه المذابح حتى ٥ سبتمبر بعد أن بلغ عدد من قتل نحو ١٥٠٠ ولا شك أن المسئول عن كل هذه الأرواح هو دانتون ومن ورائه مجلس الكومون .

أما الجمعية التشريعية، فقد انحلت بعد ذلك بقليل، بعد أن تم على يدها هدم الملكية والدستور نفسه، بل هدم السلام والعدل والحرية .

---

(١) فزع الجيروند خلال هذه الحوادث لما رأوه من رغبة زعماء نادى اليعاقبة فى التسلط على الجمعية وإملاء سياستهم على البلاد بقوة الغوغاء، ومجالس الكومون بباريس .

الفصل الخامس

المؤتمر الوطني — (La Convention Nationale)[1]

الأحزاب — عقد المؤتمر الوطني في ٢٠ سبتمبر. فجلس الجيروند على اليمين ولم يكونوا أقل رغبة في الجمهورية من اليعاقبة، وإنما جعلوا برنامجهم مكافحة مطامع ذلك الفريق، لما رأوا فيهم من نزعة السيطرة على البلاد. أما اليعاقبة المتطرفون[2] فقد جلسوا على اليسار، وكانوا أقل عددا ولكنهم كانوا أكثر كفاءة وأكبر جرأة وأشد ارتباطا، تظاهرهم من الخارج مدينة باريس. وجلس بين الفريقين جماعة عرفوا باسم «السهل» (La Plaine) وكانوا يتبعون رأي الفريق الأقوى.

وقد كان فاتحة أعمال المؤتمر إلغاء الملكية في ٢١ سبتمبر، ثم اعلان الجمهورية في ٢٥ سبتمبر، ولما جاءت الأنباء بتقدم الجيوش الفرنسية بعد فالمي حتى اكتسحت البلجيك وضمت سافوي ونيس الى فرنسا وبسطت حمايتها على جنيف، أصدر المؤتمر قرارا في ١٩ نوفمبر بتأييد كل أمة تطالب بحريتها. ولقد حاول الجيروند أثناء كل هذا أن يستأثروا بالسلطة في ظل النظام الجديد فوجهوا الى اليعاقبة تهما لم يكن لها من نتيجة إلا أن زادتهم ارتباطا وتساندا وجعلتهم يشعرون أن لا سبيل الى تأييد الجمهورية، وإرهاب خصومهم والسيطرة على البلاد، إلا باعدام الملك، فحاولوا أن يكرهوا المؤتمر على إصدار قرار باعدامه بتهمة الخيانة العظمى للبلاد من غير محاكمة. إلا أن الجيروند قاوموا تلك الحركة، وأفلحوا في حمل المؤتمر على تقرير

(١) انتخب المؤتمر على قواعد جديدة وضعتها الجمعية التشريعية وهي إلغاء النصاب المالي وإنقاص السن الى ٢١

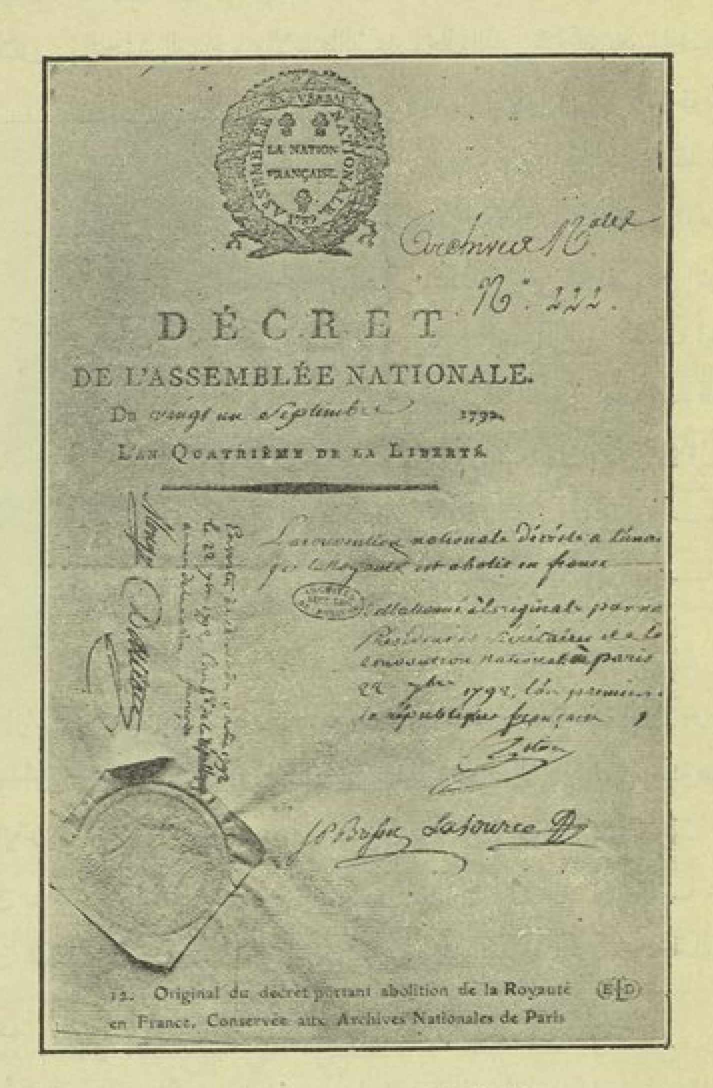
(٢) يعرف هؤلاء باسم (Montagnards) اذ اتخذ زعماؤهم مقاعدهم بأعلى القاعة في أقصى اليسار وأشهرهم دانتون وروبسبير ومارا وديمولين.

محاكمته، طمعا فى انقاذه، ومع أن العرف والدستور يناقضان هـذه المحاكمة، فقد مثل أمام المؤتمر ودافع عن نفسه، كما دافع عنه محاميان حتى كاد المؤتمر يقتنع ببراءته . ولكن روبسبيير وقف فى الأعضاء يذكرهم أنهم «ليسوا قضاة بل رجال سياسة» وكان لخطابه وخطاب زملائه من التأثير ما جعل المؤتمر يقرر ادانة الملك . فحاول الجيروند[1] انقاذه بالالتجاء الى استفتاء الشعب فى العقوبة، غير أن اليعاقبة أفسدوا عليهم حيلتهم، بأن حشدوا جموعا من غوغاء باريس داخل القاعة وخارجها لارهاب الأعضاء المعتدلين والمترددين، يوم أخذ الأصوات فى أمر تقدير العقوبة، ثم اقترح أحدهم ألا يبدى العضو رأيه وهو جالس أو قائم فى مكانه كما جرت العادة، بل بالذهاب الى المنبر واعلان رأيه من هناك، فأفزعت هـذه الحيلة كثيرا من الأعضاء، ودفعتهم الى الرضوخ لرغبة أعدائهم . وهكذا فاز اليعاقبة بالأغلبية، وقرر المؤتمر إعدام الملك فى ١٧ يناير سنة ١٧٩٣ ونفذ فيه الحكم فى ٢١ يناير بميدان الجمهورية بباريس، وكان آخر ما نطق به : "إنى برىء...... ولكن فليكن دمى فداء سلام وسعادة أبناء فرنسا" !

عهد الإرهاب — رأى الثوار حينئذ أنه قد تحتم عليهم المضى فيما شرعوا فيه من الإرهاب، سواء أرغبوا فى ذلك أم كرهوا، حتى لا تسنح الفرصة للرجعيين وأنصار الملكية بالثأر منهم . وكانت الأحوال كلها قد تهيأت لهم لتحقيق أغراضهم، فقد أحاطت بالبلاد اذ ذاك أخطار عديدة نشأت عن حالة الفزع التى أوجدها قتل الملك فى داخل البلاد وخارجها .

أما فى داخل البلاد فقد عم السخط على اليعاقبة ولا سيما فى الأقاليم حيث أخذ يتجلى هذا السخط فى مظاهر شتى، فديموريه — وكان من أكبر أنصار الجيروند — انضم إلى الأعداء بعد أن حاول عبثا الزحف الى باريس لتخليص البلاد من إرهاب

(١) لم يحاول الجيروند انقاذ الملك رغبة فيه، ولكن نكاية فى اليعاقبة وجزعا من انتقال الى يد خصومهم ومن أجل ذلك أرادوا الالتجاء الى استفتاء الشعب، لاستخدام رأى الأقاليم ضد يعاقبة باريس .


ASSEMBLÉE NATIONALE
LA NATION FRANÇAISE.
1789

DÉCRET
DE L'ASSEMBLÉE NATIONALE.
Du vingt un Septembre 1792.
L'AN QUATRIÈME DE LA LIBERTÉ.

La convention nationale décrète à l'unanimité que la Royauté est abolie en France

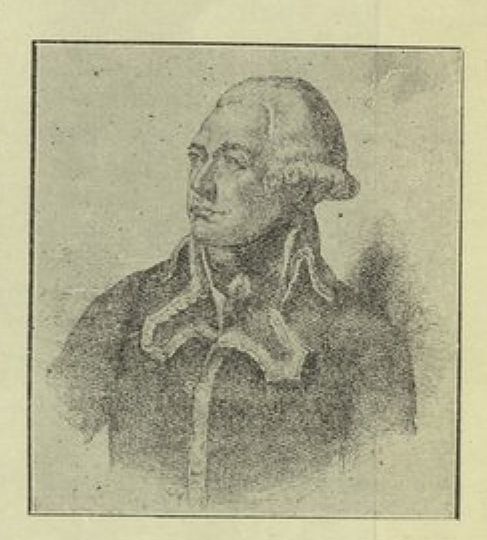
Lasource

12. Original du décret portant abolition de la Royauté en France. Conservé aux Archives Nationales de Paris

قرار إلغاء الملكية (٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢)

[نقلا عن الصورة الأصلية المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس]

المتطرفين . ثم إن الفتن الداخليـة استعرت فى أنحاء البـلاد على أثر قتل الملك ، وإعلان التجنيد العـام ، والاستطالة على رجال الدين ، وتحريض الجيروند الذين تفرّقوا فى البـلاد خوفا من اليعاقبة . وأما فى الخارج فقد أفزع هذا الحادث ملوك أوربة ، وصرف الكثيرين عن العطف على الثورة ، لا سيما بعد أن أخذت الجنود الفرنسية تتقدم فى بلجيكا بعد ڤالمى ، فتألف التحالف الدولى الأول من النمسا و بروسيا وانجلترا وأسـبانيا ، وأكرهت الجنـود الفرنسـية على الارتداد على عجل .



ديموريـيـه

إزاء كل هذا رأى المتطرفون الفرصة سانحة للاستئثار بالحكم دون باقى الأحزاب ، فأعلنوا أن البلاد فى خطر ، وأن لا سبيل الى الدفاع عنها ، إلا اذا تألفت هيئة صغيرة تدير الأعمال ، وتقرر الخطط بغير تردد أو توان . فأجاب المؤتمر بغيتهم ، وأنشأ لجنة سميت لجنة الأمن العام (Comité du Salut public) وأقام الى جانبهـا محكمة سميت محكمـة الثورة مهمتها القضاء على كل العوامل التى تعـرقل مصلحة الدفاع الوطنى ، وكان للمتطرفين اليد العليا فى الهيئتين .

أعمال لجنة الأمن العام — لم يلبث اليعاقبة أن قبضوا على ناصية الحالة فى الداخل والخارج . فأما فى الداخل ، فقد أطفأوا نيران الثورات بمـا أعدوه من القوة وأعلنوه من الوعود ، إذ وضعوا دسـتورا جديدا للجمهورية سمى فيما بعـد (دستور سنة ١٧٩٣) ، ولكنهم لم ينفذوه . واستخدموا القوة لاطفاء الفتن ، حتى لم ينسلخ عام ١٧٩٣ إلا وقد أخمدت الثورة فى لافنديه (la Vendée) ، وأذعنت مرسيليا ،

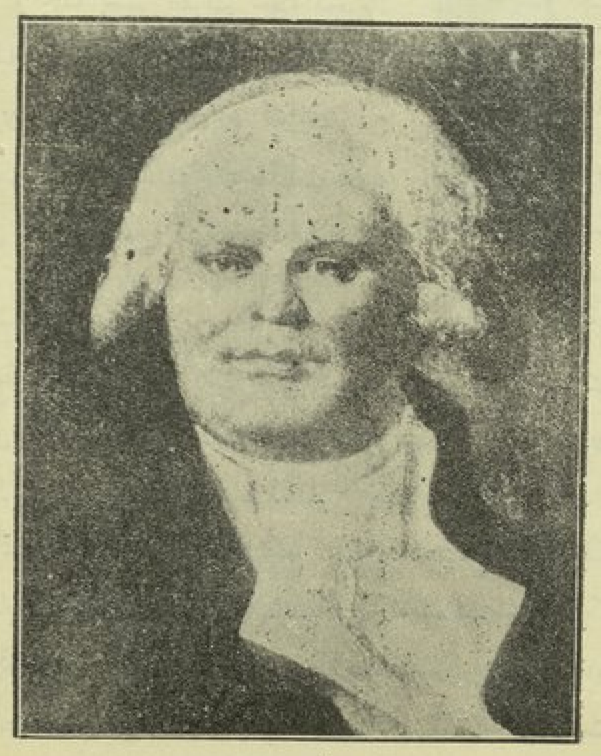
ودانت طولون وفتحت ليون أبوابها بعد حصار طويل، فهدمت رأسا على عقب. وأما فى الخارج فقد أظهر اليعاقبة العجاب بكفاءتهم، وارادتهم الحديدية، ونشاطهم الغريب الذى نفخوا منه فى صدر الأمة حتى حوّلوها من أقصاها الى أقصاها الى ثكنة عسكرية، فاستخدموا الشبان للقتال، والشيوخ لاستنهاض الهمم، والنساء للتمريض والحياكة، والأولاد والمتزوجين للعمل فى الحقول ومصانع الأسلحة والذخيرة.

وكان المحور الأكبر لادارة الشؤون الحربيـة ووضع خطط القتال، كارنو (Carnot) الذى يكاد لا يعرف التاريخ له مثيلا فى قدرته العجيبة على تنظيم الجيوش وتجهـيزها بكل معـدّات القتال، حتى أنه لم يحـل الحول حتى كانت هزائم فرنسا قد انقلبت الى انتصارات، اذ أوقف زحف الحلفاء الى فرنسا، ثم اتخذا الجيش الفرنسى خطة الهجوم، فاكتسح البلاد المنخفضة مرة ثانية، واحتل ضفة الرين اليسرى، وأجبر الأسبان على التراجع الى ما وراء جبال البرانس، وبذلك تحقق ما كانت تحلم به فرنسا من فى قديم فى الوصول الى الحدود الطبيعية.


كارنو

محكمـــة الثـــورة — بينما كانت لجنة الأمن العام تقوم بمهمة الدفاع عن البلاد، وتعدّ لها عدّة النصر، كانت محاكم الثورة فى باريس والأقاليم، تنظر فى أمر من يشتبه فى سلوكهم ضـد مصلحة البلاد، وتدفع بهـم الى المقصلة، فقضت على مئات من الرجال والنساء بتهمة الخيانة العظمى، حتى أصبح مشهد الاعدام بالمقصلة أمرا عاديا تحتشد الجموع لرؤيتـه كل يوم. ولقـد ذهب بين الضحايا كثير ممن لم تكن لهم جناية سوى التشيع لآراء أقل تطرفا من آراء اليعاقبـة، أو ممن كان يخشى أن يثأروا لأنفسهم — أرسل أعداءك الى المقصلة قبل أن يرسلوك اليها — فسقط على حد المقصلة كثير من زعماء الجيروند، كما سقطت الملكة، وشارلوت كورداى التى قتلت مارا زعيم نادى اليعاقبة طمعا فى القضاء على حكم الإرهاب بالإرهاب.

انقسام اليعاقبة — على أنه اذا كان اليعاقبة قد أفسحوا المجال لأنفسهم بالقضاء على كل أعدائهم، فانهم سرعان ما انقسموا شيعا وأحزابا، أولها حزب دانتون، الذى رأى أن سياسة الفزع والارهاب قد بلغت أقصى مداها، وأنه لا بد من العودة الى سياسة الاعتدال، لا سيما وقد أخذت الأخطار التى كانت تهدد البلاد تخف وطأتها . والثانى حزب هيبير (Hébert) وشومت (Chaumette) الذى كان يدعو الى نهاية التطرف فى كل شىء، وبتأثيره اتخذ تقويم جديد لفرنسا يبدأ بتاريخ اعلان الجمهورية، ووضعت أسماء جديدة للأيام والشهور والفصول، ومحا نظام الأسابيع، وقسم الشهر الى ثلاثة أقسام متساوية، وأعلن زوال المسيحية من فرنسا واستبدالها بعبادة «العدل والحق» كما أعلنت استباحة أملاك الأشراف، وأوجد النظام العشرى للمقاييس والموازين وهو النظام المتبع الى الآن فى فرنسا



دانتون

وغيرها . وكان هناك فريق ثالث لم يرتض مبادئ دانتون المعتدلة، ولا يسلم بآراء هيبير المتطرفة، وكان على رأسه روبسبير، فنجح بمساعدة دانتون فى القضاء على جماعة هيبير أولا، ثم انفرد بالجماعة الأخرى فقضى عليها . وهكذا خلا الجو أخيرا لروبسبير باعدام دانتون بطل ١٠ أغسطس .

الإرهاب الأكبر — كان روبسبير شديد الاعتقاد بوجود الكائن الأعظم (Être Supréme) فجعل فاتحة أعماله حمل الأمة على مشاركته اعتقاده، بأن أقام احتفالا فخما للعبادة الجديدة، رأسه هو بنفسه كالكاهن الأكبر لها . وكذلك عمل على صيانة حقوق الأملاك لأربابها، واهتم ببسط سلطان « الفضيلة » ، مستعينا على ذلك بالإرهاب وسفك الدماء بلا حساب، حتى بلغ عدد ضحايا المقصلة فى باريس وحدها ١٣٧٦ فى ستة الأسابيع الأخيرة من حكمه — وكان مع ذلك يشكو من البطء فى القضاء على أعداء الجمهورية !


روبسبير

إعدام روبسبير — غير أن الشعب مل هذه المشاهد الدموية التى كان يراها كل يوم، وأصبح يتوق الى عهد تسود فيه السكينة والسلام، لا سيما أن الحجة التى كانت تتخذ ستارا لهذه الفظائع، وهى سلامة الوطن قبل كل شىء، قد باتت ولا محل لها، بتقهقر أعداء فرنسا، وخمود الفتن . لذلك دبرت مكيدة لازالة شبح روبسبير المخيف، واشترك فى تدبيرها وتنفيذها رجال مختلفو المبادئ والأخلاق، فلم يكن يربطهم بعضهم ببعض سوى الفزع من الفتك بهم . وكان أكبر عامل بينهم فوشيه (Fouché) أحد زعماء الارهاب، فان له الفضل الأكبر فى تدبير هذه المؤامرة وإحكامها . وفى ٢٩ يوليه سنة ١٧٩٤ وجه المؤتمرون الى روبسبير فى قاعة المؤتمر تهمة الخيانة التى طالما أزهق الأرواح باسمها، فلجأ روبسبير الى قوة العامة لانقاذه، ولكن أكثر أنصاره كانوا قد انفضوا من حوله ، فاستطاع المؤتمر أن يقدمه الى المقصلة ليشرب من الكأس التى طالما جرعها المئات من الأبرياء . وأحس الناس كأنما أفاقوا من حلم مريع !

الفصل السادس

حكومة الادارة

كان أكبر ما يرغب فيه الناس جميعا بعد هذه الحوادث المفزعة، أن تعود الحياة والأعمال الى مجراها العادى، بعد أن ساد الرعب والضنك طويلا، وكسدت التجارة، وارتبكت الأحوال المالية . فتعالت الأصوات من كل جانب بوجوب القضاء على كل عوامل الفوضى والإرهاب، و إعادة سير الأحكام فى طريقها النظامى، فتشجع المؤتمر، وأغلق نادى اليعاقبة، وفض مجلس الكومون فى باريس، وألغى كل القوانين الاستثنائية التى وضعها رجال العهد البائد . بيد أن رغبة البلاد فى السلام والطمأنينة لم تصل الى درجة الرغبة فى القضاء على الثورة وآثارها، فقد كان يعز على الناس ضياع ثمرة جهاد وآلام السنين التى مرت؛ كما أن الكثيرين من أفراد الشعب نالوا خيرا وفيرا فى عهد الثورة — كأرباب المزارع وأصحاب الوظائف وغيرهم — فلم تذهب بهم رغبتهم فى التخلص من حكم الإرهاب الى حدّ ارجاع الملكية القديمة . غير أن الملكيين خيل اليهم أن الفرصة سانحة، فهبوا بمساعدة الانجليز، وحاولوا غزو فرنسا من الشمال، و إضرام نار الفتنة فيها، ولكن القائد الكبير "هوش" قضى على محاولتهم هذه، وضربهم ضربة أليمة شتتت أنصارهم .

دستور سنة ١٧٩٥ — اتجهت أنظار المؤتمر بعد ذلك الى وضع دستور جديد للجمهورية، تصان فيه حقوق الأفراد، فوضع النظام المعروف بدستور العالم الثالث، و بمقتضاه تألفت الحكومة من الهيئات الآتية :

أولا — الهيئة التشريعية، وتتألف من :

(ا) مجلس الشيوخ ويتكوّن من ٢٠٠ عضو يزيد سنهم عن الأربعين، ووظيفته مراجعة قرارات المجلس الآخر، ووقف ما لا يتفق منها مع المصلحة العامة ؛

(ب) مجلس الخمسمائة ويتكون من خمسمائة عضو يربو سنهم على الثلاثين، ويسقط ثلث عددهم فى كل عام، ووظيفته وضع مشروعات القوانين لا غير.(١)

ثانيا — الهيئة التنفيذية : وتعهد الى خمسة أعضاء ينتخبهم المجلسان، ويرأسون الادارة بالتناوب — لكل واحد منهم ثلاثة شهور، ويسقط واحد منهم سنويا بالاقتراع، ومهمتهم تولى الادارة والسياسة والشؤون الحربية .

ولما كان المؤتمر قد خشى أن تكون أغلبية الحكومة الجديدة لغير رجاله، فيتعرض لانتقام خصومه، من يعاقبة وملكيين، فقد اشترط فى تكوين الهيئة التشريعية المقبلة، أن يكون ثلثا أعضاء المجلسين من بين أعضائه، غير أن الشعب كان شديد الحنق على كل رجال العهد القديم، فهب يحتج على هذا القيد ملتجئا الى القوة كسابق عادته، ولكن المؤتمر قابل القوة بمثلها . وكانت له الغلبة على الشعب، بفضل جندى شاب لم تدركه الشهرة بعد، وهو نابليون بونابرت .

(١) وضع نظام الانتخاب على درجتين واشترط ألا تقل سن الناخب عن ٢١ سنة وأن يكون ممن يدفعون قدرا معينا من الضرائب وأن يعرف القراءة والكتابة .

الفصل السابع

نابليـون بونابرت

مولده ونشأته — ولد فى أجاكسيو بجزيرة قرشـقة (Corsica) فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ من أسرة تسكانية الأصل ، هاجرت الى تلك الجزيرة قبـل ذلك العهد بأجيال عديدة ، وكان أبوه «شارل بونابرت» محاميا ذا شهرة كبيرة ، وأمه (ليتيشيا رامولينو Lætitia Ramolino) من فضليات النساء وأذكاهن شب والجزيرة حديثة العهد بالثورة التى قامت ضـد فرنسا حين حاولت الاستيلاء عليها ، فشبعت مخيلته بقصص أبطال قومه وشجاعتهم ، ولما آنس منـه أبوه الرغبة فى الجندية من صغره ، أرسله الى مدرسة برين (Brienne) الحربية ومنها الى المدرسة الحربية العليا بباريس . فأظهر تفوقا عظيما على أقرانه فى الرياضيات ، واطلاعا واسعا فى التاريخ والجغرافيا ، ولما أتم دراسته سنة ١٧٨٥ عين ملازما فى الجيش ، وسرعان مانشبت الثورة ، فرحب بها نابليون حقدا على الأشراف وأبنائهم الذين كانوا يهزءون به فى المدرسة ، وانتصارا للأفكار الحديثة التى شبع بها ، فطفق يساعد على نجاح الثـورة وانتشارها فى موطنـه ، تارة بالكتابة وتارة بالخطابة ، حتى اضطرت أسرته الى النزوح الى فرنسا ، فرارا من اضطهاد أهل الجزيرة لها . إلا أن نابليون خفف تدريجا من حماسـه وتشيعه الشديد للثورة ، لأن تربيته العسكرية لم تلائمها الفوضى والجرائم التى كان يرتكبها الغوغاء . ولكنه من جهة أخرى ، رأى من واجبه تعضيد حكومة اليعاقبة ، لدفع الأخطار التى كانت تهدد البلاد ، فعين عام ١٧٩٣ قائدا للمدفعية فى حصار طولون التى ثارت واعتصمت بمعونة الانجليز والأسبان ، فكان لخطتـه الفضل الأكبر فى اخضاعها ، ولما حدثت فتنة باريس التى أشرنا اليها عام ١٧٩٥ نجح فى الدفاع عن المؤتمر كما عرفنا ، فعين قائدا للجيش الداخلى ، وتعرف اذ ذاك

بجوزفين بوهارنية ، أرملة أحد قواد فرنسا الأشراف ، فتزوج بها ، ثم عهدت اليه قيادة الحملة الايطالية (التى أعدتها الحكومة الجديدة) اعترافا بخدماته لحكومة الادارة .

الحملة الايطالية — كانت الجيوش الفرنسية قد انقلبت الى الهجوم كما علمنا عقب موقعة ڤالمى ، فدخلت بلجيكا وهولندا[١] ، ثم ردت على أعقابها بعد تأليف التحالف الدولى الأول[٢] ، ولكن لجنة الأمن العام قاومت هذا الخطر وأخذت تهاجم أعداءها حتى احتلت البلجيك وهولندا من جديد فانفرط عقد التحالف على الأثر بخروج بروسيا[٣] التى اعترفت لفرنسا بفتوحاتها فى الشاطئ الأيسر للرين ، وتبعتها أسبانيا التى نزلت لفرنسا عن جزيرة سان دومنجو . فلم يبق سوى انجلترا والنمسا ، ومعهما سردينيا ، فبدأت حكومة الادارة بتوجيه ضرباتها الى النمسا ، وكانت خطتها ترمى الى مهاجمة ڤينا عن طريق وادى الطونه ، بينما يقوم جيش آخر بالزحف الى شمال ايطاليا ، ومنها الى ڤينا أيضا ، وهذا العمل الأخير هو الذى وكل الى نابليون .

سار نابليون بطريق الألب البحرية ، وكان جيشه صغيرا تنقصه المؤن والذخائر ، بيد أنه أشعل حماسة الجند وحرك مطامعهم ، فما كاد ينزل فى السهل الأعظم حتى مزق شمل أعدائه فى موقعة مونت نوت (Monte Notte) أبريل سنة ١٧٩٦ وما زال بالسردينيين يضربهم ضربات متلاحقة ، حتى نفضوا يدهم عن محالفة النمساويين ، وتخلوا له عن نيس وسافوى فى أبريل سنة ١٧٩٦ ، فتحول حينئذ الى النمساويين فأجبر قائدهم بوليو (Beaulieu) على الارتداد الى ما وراء نهر الأدا ومنه الى ما وراء المانشيو (Mancio) حتى أصبح سهل لومبارديا مفتوحا أمام نابليون ، فدخل ميلان ومنها تقدم الى منتوا (Mantua) أمنع معقل لأعدائه فى ايطاليا ، فحاول النمساويون أن يحولوا دون استيلائه عليها ، ولكنهم أرغموا فى النهاية على تسليمها ، ولذلك تمهد السبيل

---

(١) موقعة جماب نوفبر ١٧٩٢

(٢) « نيروندن مارس ١٧٩٣

(٣) معاهدة باسل ١٧٩٥

لنابليون لمواصلة الزحف الى فينا من غير أن يلق مقاومة تذكر، حتى اضطر النمساويون أخيرا الى التقدم لعقد الهدنة .

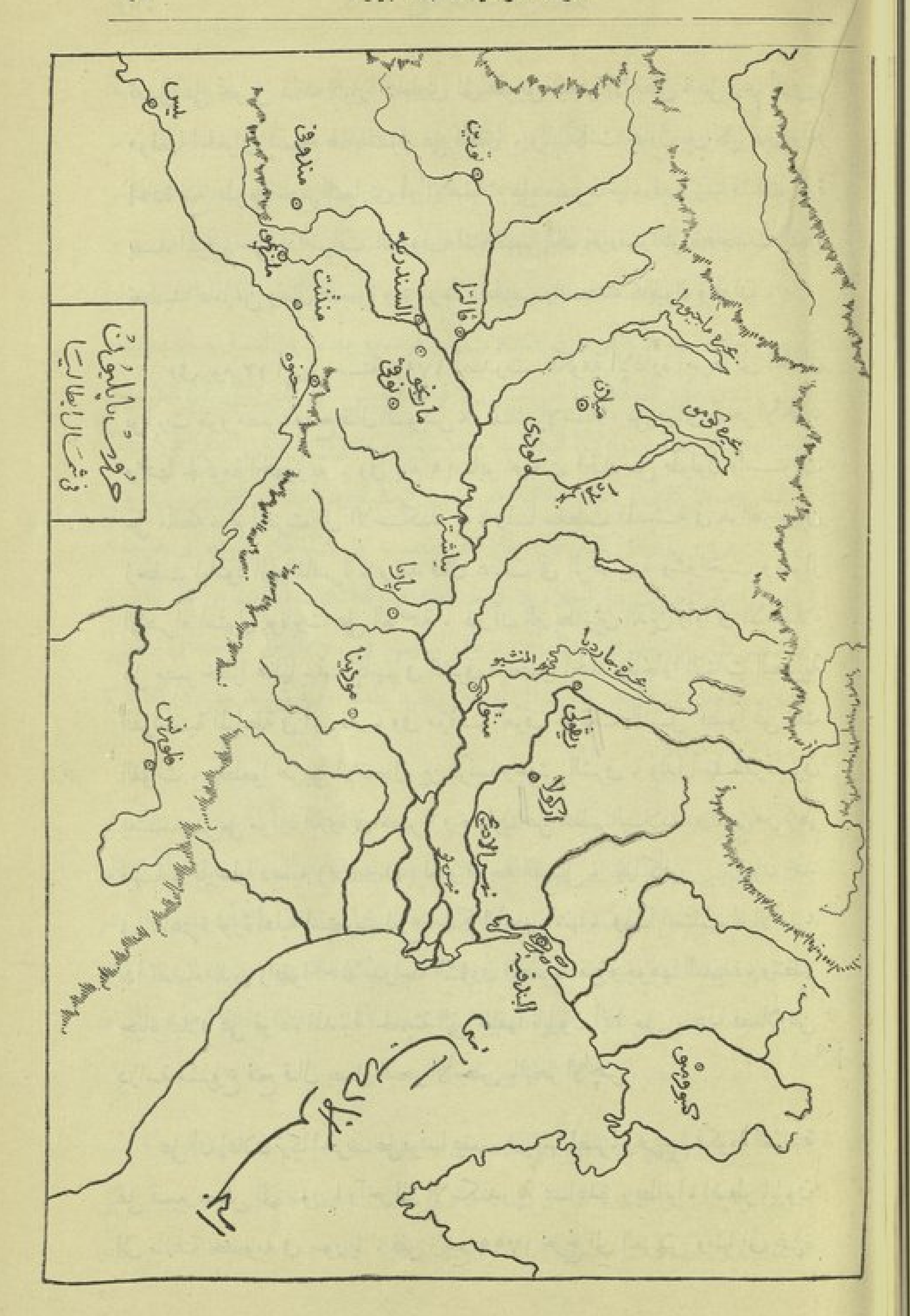
ولما كان جيش فرنسا الزاحف على الرين قد هزم. وحصلت فرنسا على كل ماكانت ترجوه من الحملة ، فقد وافق نابليون على هذه الرغبة وعقد صلح كامپو فورميو (Campo Formio) فى أول أكتوبر سنة ١٧٩٧ ، وبه تخلت النمسا عن كل أملاكها فى ايطاليا مقابل حصولها على جمهورية البندقية، كما تخلت عن البلاد الواطئة، واعترفت بجمهورية شمال ايطاليا (Cisalpine) التى كونها نابليون (١) ، وسلمت بحق فرنسا فى الشاطئ الأيسر للرين ، وملحقات البندقية على ساحل الادرياتيك وهى دلماتيا (Dalmatia) وجزائر الأيونيان (Ionian) وتعتبر هذه الحملة فاتحة عهد نابليون المجيد، لما تم على يديه من الفوز الباهر والنصر العظيم .

الحملة المصرية — لم يبق من أعداء فرنسا بعد الآن إلا انجلترا، فقد حاول الفريقان عبثا الوصول الى حل حاسم أو إبرام صلح يرضى الجانبين، ومن ثم اتجهت أنظار فرنسا منذ عام ١٧٩٧ الى غزو مصر لتحويل تجارة الهند من طريق رأس الرجاء الى طريق البحر الأحمر، رغبة فى هدم سيادة بريطانيا التجارية، وإنشاء قاعدة لغزو ممتلكاتها فى الشرق، لما كانت سيادتها البحرية تحول بين فرنسا وبين غزو عدوتها فى بلادها .

على أن فكرة استيلاء الفرنسيين على مصر لم تكن قريبة العهد، بل ترجع الى ذلك الزمن الذى كانت فيه بريطانيا وفرنسا تتنازعان النفوذ فى بلاد الهند، فقدكانت بريطانيا تعمل دواما على جعل طريق رأس الرجاء هو طريق مواصلات الهند، رغبة فى استبقاء سيادتها التجارية التى تقوم على السيادة البحرية، بينما كانت فرنسا

---

(١) تكونت هذه الجمهورية من أملاك النمسا فى شمال ايطاليا ومن فراره (Ferrara) وبولونيا (Bologna) ورومانيا (Romagna) التى انتزعها نابليون من البابا بموجب معاهدة تولنتينو (Tollentino) (فبراير سنة ١٧٩٧) عقب سقوط منتوا .


حروب نابليون في شمال ايطاليا

تعمل على تحويل ذلك التيار التجارى الى طريق البحر الأبيض، على زعم أن موقعها الجغرافى يسمح لها بالتفوّق على انجلترا . ولذا كانت تحاول بين كل حين وآخر إعادة فتح طريق مصر التجارى أو الاستيلاء على مصر ذاتها، غير أنها فشلت المرة بعد المرة ، حتى اذا تهيأت الظروف لغزو مصر إبان حروب الثورة وجدت الفكرة تعضيدا عاما من رجال التجارة ومن رجال الحرب والسياسة كنابليون وتليران .

وفى يوم ١٢ أبريل سنة ١٧٩٨ أصدرت حكومة الإدارة أمرها الى الجنرال بونابرت بغزو مصر، وفتح قنال السويس، وكذلك الاستيلاء على موانى البحر الأحمر، وضمها لحكومة الجمهورية . وفى يوم ١٩ مايو خرجت الحملة من طولون واستولت على مالطه، ثم أبحرت الى الاسكندرية، ولما سقطت المدينة فى يد الفرنسيين زحفت الجنود الى القاهرة ، وبعد قتال عنيف فى الرحمانية وشبراخيت وبجوار الأهرام استولى بونابرت على العاصمة . غير أن البريطانيين الذين رأوا فى الاستيلاء على مصر خطرا عظيما يهدّد كيانهم فى الشرق، تعقبوا الحملة وفاجأوا القوات البحرية الفرنسية المرابطة فى أبى قير ، وفى موقعة تعرف بموقعة النيل قضوا على تلك القوّات ، وقطعوا طريق الاتصال بين فرنسا وجيش الشرق ، ولذا أخذ الفرنسيون يعتمدون على موارد الثروة فى مصر، ويعملون على تنظيم البلاد وتدعيم مركزهم فيها ، فأرسلوا ديسيه (Desaix) لغزو الوجه القبلى ، بينما كان نابليون يخمد فى القاهرة ثورة أهلية استعرت لنزع الحكم الأجنبي منها ، ولما استتب له الأمر، بدأ العلماء الذين رافقوا الحملة بدراسة الشؤون المصرية من وجوهها العديدة، وتنظيم حياة البلاد على قواعد المدنية الحديثة التى خلفها نابليون أينما حل . هذا فضلا عن دراسة مشروع فتح قنال يصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر .

على أن إعلان تركيا الحرب على فرنسا عقب غزوتها لمصر، وعزم الحكومة العثمانية على تسيير جيش الى سوريا وآخر الى الاسكندرية بمساعدة بريطانيا، اضطر نابليون الى مباغتة خصومه فى سوريا . ففى ربيع ١٧٩٩ خرج الى العريش ومنها الى غزة

ويافا ثم حاصر عكا، إلا أن سقوط معدات الحصار التى أرسلت بحرا فى يد الانجليز، واستماتة الجزار باشا قائد الحصن فى الدفاع عنه بمساعدة سدنى سميث قائد القوات البريطانيـة فى شرق البحر الأبيض، اضطر نابليون الى رفع الحصار والعودة لمصر لا سيما والجنود العثمانية الموجهة اليها كانت قد وصلت الى الاسكندرية . وفى يوم ٢٥ يوليه فاجأ نابليون هذه القوات وبدد شملها عند أبى قير. غير أن هذا الانتصار لم يكن حاسما نظرا لانقطاع المواصـلات بين فرنسا وجيشها فى الشرق، ولذا فقـد عوّل نابليون على العودة سرا لفرنسا تاركا قيادة الجيش الى كليبر. إلا أن العثمانيين وحلفاءهم البريطانيين عاودوا الكرة على مصر بقوات متفوقة آتية من انجلترا والاستانة والهند فاضطر كليبر الى عقد اتفاقية مع سدنى سميث تعرف باتفاقية العريش ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ وبها وافق كليبر على الجلاء عن مصر، على أن تنقل جنوده الى فرنسا، غير أن انجلترا أصرت على الجلاء بلا شرط مطلقا . ولذا عادت الحرب بين الفريقين، وانتصر كليبر على جنود الحلفاء عنـد هليو بوليس فى ٢٠ مارس ثم أخذ فى تنظيم البلاد كما فعل نابليون من قبل، الى أن قضى عليه بطعنة مدية من يد حلبى فى القاهرة يوم ١٤ يونيه سنة ١٨٠٠

وقد خلفه الجنرال مينو، ولم يكن على شىء من قدرة سلفه، ولذا أسرع البريطانيون الى التضييق عليه، فحاول نابليون دفع ذلك الخطر المحدق به بالتحالف مع بول الأول قيصر الروسيا على أن يشترك الحليفان فى توجيه حملة الى الهند، إلا أن مقتل القيصر أخفق هذا المشروع، وأفسح المجال لبريطانيا لمواصلة الحملة على مصر، ولم يلبث مينو أن هزم ووافق على جلاء جنوده عن البلاد. وقد أعقب هذا الخذلان صلح أميان وبه أعيدت مصر الى حكم العثمانيين ١٨٠٢

فرنسا فى غياب نابليون (التحالف الدولى الثانى ديسمبر سنة ١٧٩٨)— بينما كان نابليون غائبـا عن فرنسا، تألف حلف جديد اشتركت فيـه روسيا التى حقـدت على فرنسا تدخلها فى الشرق، وانتزاعها مالطه من يد الفرسان الذين كانوا

فى حماية القيصر، وتركيا التى غزيت أملاكها فى الشرق، وانجلترا التى لم يكن قد تم معها الصلح بعد، والنمسا التى أرادت أن تثأر لنفسها، وتنتصر لأمراء ايطاليا الذين اكتسحت أملاكهم تدريجيا[١]، وتدفع خطر الفرنسيين الذين أغاروا على سويسرا، وأصبحوا قيد خطوات من الحدود. وما كادت الحرب تعلن حتى تقدم القائد الروسى سواروف (Suovaroff) الى ايطاليا وسحق قوات الفرنسيين فى نوفى وأجبرهم على التخلى عن كل ما كان بيدهم من الأملاك الشاسعة هناك والارتداد الى شاطئ جنوه، بيد أن الحالة انعكست على الحلفاء فى سويسرا وفى البلاد الواطئة فنجت فرنسا من الخطر، وانفرط عقد المحالفة بخروج روسيا منها (أغسطس — أكتوبر ١٧٩٩).

حكومة الادارة — فى هذه الأثناء كان النزاع قائما فى حكومة الادارة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية بسبب الأنظمة التى وضعت فى دستور سنة ١٧٩٥، فإنه لما كان يتعين سقوط ثلث أعضاء المجلسين التشريعيين فى كل عام، وكان يسقط من رجال السلطة التنفيذية عضو واحد أصبح المجلسان أسرع الى التأثر بالتقلبات السياسية من هيئة الحكومة، فما حان عام ١٧٩٧ حتى كانت أغلبية المجلسين من الملكيين، بينما كانت الأغلبية بين رجال الادارة لا تزال للجمهوريين، فأشار نابليون حينئذ بتطهير المجلسين من زعماء المعارضين حتى لا يفت فى عضد الجيش فى ايطاليا بعودة الملكية الى حكم البلاد، وسارع فعلا الى تعضيد الادارة ونصرتها باستخدام جنده فى القضاء على خصومها، وتعرف هذه الحركة فى التاريخ باسم انقلاب فركتيدور (Coup d'état de Eructidor)، إلا أن الادارة جعلت منذ ذلك الحين تتبع سياسة تقوم على إلغاء انتخابات المعارضين، وإعادة القوانين الاستثنائية، والضرب على أيدى المحرضين ضد الحكومة، ومكافأة أعوانها بالرتب والمناصب،

(١) دخل الفرنسيون روما، وأعلنوا الجمهورية فى أملاك البابا — فبراير ١٧٩٨ — ثم استولوا على بيدمنت ولوقا وتسكانيا، وأرغموا جنوه على إعلان الجمهورية، وأقاموا جمهورية فى جنوب ايطاليا على مثال جمهورية الشمال.

وعلى الجملة ، فانها بدلا من أن تقوم على دعائم الاصلاح ، والسعى فى الخير العالم ، أصبحت تقوم على القوة وما يتبعها من وسائل الإرهاب ، وإفساد الأخلاق ، وقد زاد مركز الادارة سوءا ، أن موقف فرنسا الحربى قد تحرج فى غياب نابليون ، مما جعل المتطرفين يتطلعون الى إعادة حكم الارهاب بحجة دفع الخطر ، ولكنهم لم ينالوا من أغراضهم سوى عزل بعض أعضاء الادارة ، وإعادة بعض القوانين الاستثنائية القديمة ، وفرض قرض إجبارى على الأغنياء . ومن ثم تحركت عوامل الجزع القديمة ، وثارت الأقاليم الغربية على الحكومة كما فعلت سنة ١٧٩٣ ، فتحولت الأنظار الى رجل ماهر ، جسور ، قادر على إعادة الطمأنينة وسحق حركات المتطرفين والرجعيين على السواء . وكان ذلك الرجل ، نابليون ، بطل فرنسا ، الذى طوق الشرق جبينه باكليل جديد من الغار !

إزاء هذه الرغبة العامة ، أرغمت حكومة الادارة على استدعائه ، وكانت تؤمل أنه لا يستطيع العودة ، ولكنه عاد الى موطنه فى الوقت الملائم ، فوجد « الكمثرى ناضجة » كما قال ، « أى الفرصة سانحة » وبدأ من فوره بالانضمام الى سييس وحزبه ، وكان هذا يقول بأن البلاد تحتاج الى رأس مفكر ويد عاملة ، وكان يرى فى نفسه الرأس المفكر ، وفى نابليون اليد العاملة ، فاتفقا على العمل لاسقاط الحكومة ، ودبرا لذلك المكيدة التاريخية المعروفة بانقلاب برومير (Brumaire) .

انقلاب برومير — فى صبيحة ١٨ برومير (نوفمبر ١٧٩٩) اجتمع مجلس الشيوخ وكانت الأغلبية فيه لحزب سييس ، وقرر انتقال الهيئات التشريعية الى سان كلو (St. Cloud) لاحباط مؤامرة قيل بوجودها ، وعهد الى نابليون قيادة الجيوش المعسكرة بباريس وما حولها لدفع الخطر الموهوم ، وهنالك بعيدا عن خطر إثارة معارضيهم لغوغاء باريس أرغمت حكومة الادارة على الاستقالة ، واستخدمت قوة الجند فى تطهير المجلسين من المعارضين ، ثم أصدر الباقون قرارا بتأليف حكومة مؤقتة ، لادارة شؤون البلاد ريثما يتم تشكيل دستور جديد ، عهد أمره الى لجنة من المجلسين تحت إشراف الحكومة المؤقتة .

القنصلية (دستور ١٧٩٩) — كان الدستور الجديد يقضى بوضع السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل ينتخبون بواسطة مجلس الشيوخ لمدّة عشر سنوات، غير أنه تقرر للمرة الأولى أن تعهد هذه السلطة الى بونابرت وكامبسيريس (Cambacérès) وليبران (Lebrun) على أن يكون بونابرت قنصلا أوّلا و يكون له حق إعلان الحرب، وإمضاء المعاهدات، وانتخاب الوزارة وكبار الموظفين، ورآسة الجيش والادارة بفروعها. وكان القنصلان الآخران بمثابة مساعدين له فقط.

وأما الهيئات التشريعية فكانت تتألف من ثلاثة مجالس وهى:

(١) مجلس الشيوخ (Sénat) وقد وضع على رأسه سييس بطل الحوادث الماضية، حتى ينفرد نابليون بالسلطة الفعلية. وقد تقرّر أن يكون انتخاب أعضائه لمدّة حياتهم، وأن يتم ذلك الانتخاب بواسطة القناصل لأوّل مرة، ثم يترك الأمر الى المجلس نفسه فيما بعد. وقد جعلت مهمته مقصورة على انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين؛ والإشراف على تطبيق أحكام الدستور؛

(٢) مجلس التربيون (Tribunat) ويتكوّن من مائة عضو يسقط خمس عددهم فى كل سنة، ووظيفتهم درس المسائل والقوانين التى تعرض عليهم، دون أن يبدوا رأيا بالقبول أو الرفض؛

(٣) المجلس التشريعى، ويتكوّن من ٣٠٠ عضو تجدّد خمسهم فى كل عام، ووظيفتهم سماع رأى مجلس التربيون فيما يعرضه من المسائل، وإبداء الرأى الأخير بالقبول أو الرفض.

وحينما عرض هذا الدستور على الأمة أقرّته بأغلبية عظمى، بالرغم مما فيه من العيوب. فقد كان الغرض من كل هذه الأنظمة المعقدة، إيهام الناس بأن الحكم لا يزال بأيديهم، وهو قد انتقل فى الحقيقة الى يد بونابرت ومجلس حكومته — الذى كان يتألف من رجال ذوى علم وخبرة — بجرى بونابرت فى ذلك على سنة ملوك أسرة التيودور.

الفصل الثامن

نابليون القنصـــل الأول

وجه نابليون كل اهتمامه بادئ الأمر الى الحرب، فانه رغما من انسحاب روسيا من التحالف كما أسلفنا، بقيت النمسا وانجلترا تناصبان فرنسا العـداء، فأخد يعـدّ العدّة للقضاة أولا على جيوش النمسا، التى حلت محل الروسيين فى ايطاليا، وأخذت تطارد الفرنسيين الى خارج الحدود، ولكن نابليون لم يلبث أن باغت خصومه من الخلف، باجتيازه جبال الألب من سويسرا، وانحداره على الأثر فى سهول لمبارديا، فهدّد خطوط مواصلاتهـم، واضطرهم الى التراجع، ثم لاقاهم فى سهل مارنجـو (Marengo) حيث دارت معركة من أكبر معارك التاريخ، انتهت بهزيمة النمساويين فى ١٤ يونيه سـنة ١٨٠٠ حتى سارعوا بطلب الهدنة، ولكن الصلح لم يعقد إلا بعـد هزيمتهم ثانية فى موقعة هوهنلندن (Hohenlinden) على يد القائد مورو (Moreau) فى ٣ ديسـمبر سنة ١٨٠٠، ويسمى هـذا الصـلح بصلح لونيفيل (Lunéville) ٩ فبراير سنة ١٨٠١، وبه تجـدّدت شروط معاهدة كمبو فورميو، واعترفت النمسا بالجمهوريات التى أنشأها نابليون فى ايطاليا وسويسرا وهولندا كما اعترفت بضم بيدمنت الى فرنسا، واعادة تنظيم ايطاليا كما كانت أولا، مع ترك البابا وملك نابولى يتمتعان بالحرية المطلقة فى ادارة أملاكهما. وقد كانت هذه الانتصارات الباهرة سببا فى رسوخ قدم حكومة القنصلية فى فرنسا، وازدياد تعلق الناس بهـا، واطمئنانهم الى حكمها.

لم يبق بعد ذلك أمام نابليون إلا انجلترا، ولمـا كانت البحرية الفرنسية ضعيفة لا تقوى على منازلة خصومها، فقد ألف نابليون حلفا بحريا (يناير سنة ١٨٠١) من الروسيا والدانيمارك والسويد وبروسيا — وكانت هذه الدول قد أحفظها توقيف انجلترا

لمراكبها وتفتيشها لمحتوياتها خوفا من نقل مهربات حربية الى فرنسا ، ولكن انجلترا عجلت بتحطيم الأسطول الدانيمركى فى مياه كوبنهاجن فضلا عن أن بول قيصر الروسيا قتل فى تلك الأثناء، فانفرط عقد التحالف على الأثر ، وانقطع أمل نابليون فى النصر ولذلك اضطر الى قبول صلح أميان (٢٥ مارس سنة ١٨٠٢) وبه تخلت انجلترا عن كل ما أخذته من فرنسا وحلفائها ، عدا سيلان وترنداد ورأس الرجاء ، وتعهدت برد مالطة الى فرسان القديس يوحنا ، ومينورقة الى أسبانيا . وأما فرنسا فقد انسحبت من مصر ، وتركتها للسلطان صاحبها الأصلى كما ذكرنا .

نابليون وإصلاحاته الداخلية — لم تقصر أعمال نابليون على شؤون الحرب وحدها ، فقد أبدى من النشاط فى ميادين السلم ما لا يقل عظمة عن انتصاره فى ميادين الحرب . ذلك أن برنامج حكومته كان يرمى الى رفع مكانة فرنسا فى الداخل والخارج ، ولتحقيق هذا الغرض ، اتخذ نابليون لنفسه عمالا من كل جنس ومذهب ، بلا تفريق فى الدين أو المبدأ أو فى المركز الاجتماعى ، وكان هو فوق كل انسان يعمل بجد للإشراف على كل صغيرة وكبيرة فى ادارة الحكومة الرئيسية وفى الأقاليم : يستعرض الأوراق ، ويملى الرسائل ، ويستجوب الأخصائيين ساعات طويلة بغير ملل . وتتلخص الخطة التى انتهجها فى حكم البلاد ، فى القضاء على المنازعات الحزبية ، وحماية أصحاب المصالح ، وتأييد النظام ، وبسط الأمن ومكافحة كل مساوئ العهد القديم ، وإن كان الاستبداد السياسى لذلك العهد قد أصبح ممثلا فى شخصه فتراه أعلن احترام ملكية الأراضى التى انتزعت من الكنيسة ، صيانة لمصالح المزارعين وأهل الطبقة المتوسطة . ثم وضع حدًا للنزاع الدينى الذى كان يقسم البلاد شطرين وذلك بالاتفاق مع البابا على أن تكون له السلطة الروحية على الكنيسة ، وتبقى لنابليون السلطة الادارية ، فأصبحت الكنيسة بحولها وقوتها من ورائه تظاهره فى كل أعماله ، وتؤيده فى كل مواقفه ، وناهيك بما كان لذلك من التأثير فى نفس الشعب الذى طرب أيما طرب بعودة سماع أصوات أجراس الكنائس — وكانت معطلة منذ عهد الإرهاب وما جاء به من المذاهب الجديدة .



الامبراطور نابليون الأوّل

فضلا عن كل ذلك أمر نابليون بإلغاء القوانين التى تحرّم على الأشراف العودة الى بلادهم ، وأصدر عفوا عاما عن كل المجرمين السياسيين، فلم يبق حزب فى البلاد بأسرها إلا وأخذ يشعر بمنة قد طوقه بها نابليون! وهكذا أصبحت فرنسا كتلة واحدة، يقودها الى ميادين العمل المختلفة، ليقوم كل فريق بنصيبه فى بناء العظمة والمجد القومى . وقد توج نابليون سلسلة أعماله الباهرة بأن وحد القوانين، وجمع فيها بين القديم والجديد، مما اجتمعت عليه رغبة الشعب الفرنسى . فهى تعترف مثلا بحقوق الانسان واحترام الملكية ، وبالطلاق ، والزواج المدنى ... الخ . وبذلك توطدت التغيّرات الاجتماعية والاقتصادية العظيمة التى تمخضت عنها الثورة .

تتويج نابليون — وقد نشأ عن سياسة السلم التى اتبعها نابليون فى داخل البلاد وخارجها أن وافق الشعب بأغلبية عظمى عام ١٨٠٢ على تعيينه قنصلا مدة حياته ، وتخويله حق تعيين خلفه ، مع تغيير الدستور تغييرا يجعل يده أكثر انطلاقا وحرية . وحدث أثر ذلك أن كشفت مؤامرة لقتل نابليون، وانتزاع الحكم المطلق من يده، فى حين أن انجلترا كانت تعمل من جديد لتأليف تحالف ضد فرنسا، فلأجل أن تظاهر البلاد رجلها فى ذلك الوقت العصيب، نودى بنابليون امبراطورا فى مايو سنة ١٨٠٤، وحضر البابا فى ديسمبر من ذلك العام بعينه، وتولى تتويجه على مثال امبراطرة الرومان الأقدمين . ولما أن فرغ نابليون من مشاغله الداخلية ، ولى وجهه شطر أوربة التى عادت الى امتشاق الحسام .

الفصل التاسع

حـــروب نابليون الامـــبراطور

لم تكن معاهدة أميان فى الحقيقة إلا هدنة بين الخصمين، اقتضاها الإعياء الذى حل بهما فى نضال دام أعواما طويلة، كما اقتضاها موقف المتحاربين، فبينما كانت انجلترا تسيطر على البحار، كانت فرنسا تسيطر على أوربة، فلم يك ثم من سبيل الى أن تأخذ الواحدة بخناق الأخرى، فعمدتا الى التهادن ريثما تتهيأ لكل منهما ظروف جديدة لاستئناف الحرب، وذلك لأن حل المسائل المتنازع عليها بينهما، وخصوصا مسألة الأراضى المنخفضة، والسيادة على البحار، لم يقض فيهما القضاء الأخير. فما وضعت الحرب أوزارها حتى عاد الطرفان الى التناجز تحت ستار السلم، ففرنسا أخذت تقاوم التجارة الانجليزية وتضيق عليها سبلها، وتزيد فى قواتها البحرية. بينما كانت انجلترا تعمل أبدا لتأليف حلف أوربى جديد ضدها، وتأبى أن تبر بوعدها بالجلاء عن مالطة استعدادا لحرب قريبة الوقوع، لذلك أخذ نابليون يتحرش بها حتى أعلنت عليه الحرب فى ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ ومن ثم بدأ الصراع الهائل الذى لم ينته إلا فى واترلو.

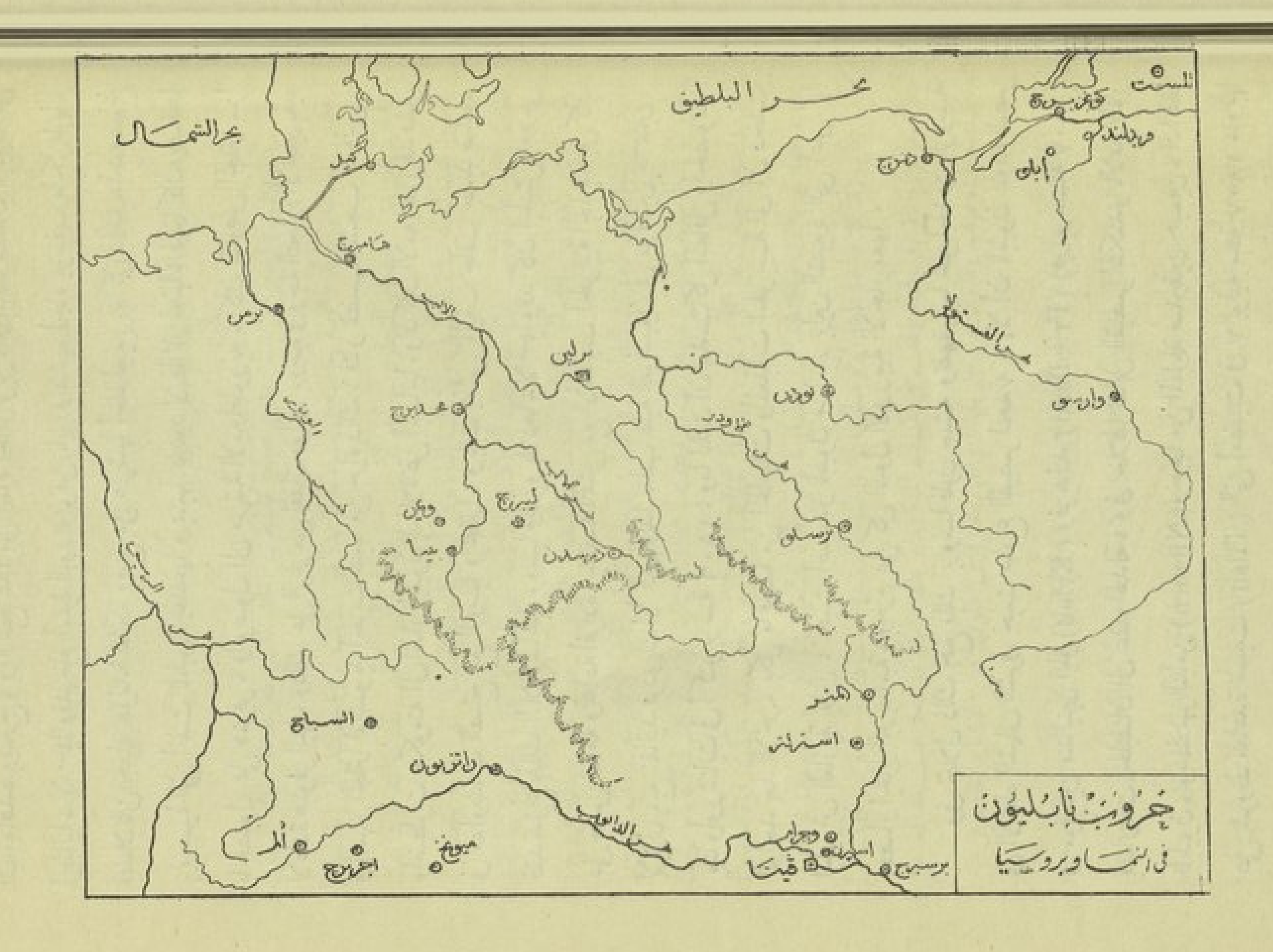
فكر نابليون بادئ الأمر فى غزو انجلترا نفسها، فأعد على ساحل فرنسا الشمالى جيشا قويا، ونقالات عديدة. ولكن القوة البحرية اللازمة لتنفيذ هـذه الخطة، كانت موزعة بين موانئ فرنسا وحليفتها اسبانيا، وكان الأسطول الانجليزى يراقبها ويحول بين تجمعها، فلما حاولت أن تخرج أخيرا الى البحار، باغتها نلسن عند رأس الطرف الأغر، ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥ وانتصر عليها انتصارا حاسما وبذا سلمت انجلترا من أعظم الأخطار التى تعرضت لها منذ عهد الأرمادا.

التحالف الدولى الثالث (١٨٠٥) — أفلحت انجلترا خلال ذلك فى تأليف حلف جديد من الروسيا والنمسا والسويد لشل يد نابليون والقضاء على

سلطانه الذى زعزع توازن أوربة الدولى، وجعله مصدر خطر داهم للجميع ذلك أنه حوّل جمهورية ايطاليا الى ملكية وراثية يحكمها ابن زوجته، وألحق بيدمنت وجنوه وبارما بأملاك فرنسا، وأنشأ يتدخل فى شؤون سويسرا، ويدفع الولايات الألمانية الى مصادقته ومحالفته، فضلا عن أنه كان يعمل جهده لتحقيق أحلامه فى الشرق، وجعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة لاتينية.

ومع أن نابليون لم يكن له حينئذ من حليف سوى باڤاريا، فانه باغت النمسا قبل أن تتهيأ لها معاونة أحلافها الروسيين بأن سير جنوده المرابطة فى شمال فرنسا الى نهر الطونة بطرق متفرقة، وسرعان ما أحاط بالنمساويين، واضطرهم الى التسليم فى ساحة أولم (Ulm) — ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٠٥ فثبتت هذه الموقعة قدم الامبراطوية، كما ثبتت مارنجو قدم القنصلية من قبل، لا سيما وقد توج هذا النصر بدخول فينا على الأثر. حينئذ عجلت النمسا بحشد فلولها المهزومة وسارعت تعاونها جيوش القيصر لانقاذ العاصمة، ولكن نابليون بطش بأعدائه جميعا، وانتصر عليهم انتصارا باهرا فى موقعة أوسترلتز فى ديسمبر، فتقهقر القيصر عائدا لبلاده، وتقدمت النمسا لتوقيع الصلح فى برسبرج — ٢٦ ديسمبر ١٨٠٥ — وبه نزلت عن البندقية ودلماشيا واستريا والتيرول لفرنسا، فأصبحت لها السيادة التامة فى ايطاليا وجنوب ألمانيا مما مهد لها السبيل لتنظيم شؤون الايطاليين تنظيما لم يشهدوه منذ قرون، كما مهد السبيل لإلغاء تلك البقية الباقية من العصور الوسطى - الدولة الرومانية المقدسة - وانشاء اتحاد جديد من أمراء ألمانيا الجنوبية تحت حماية فرنسا.

موقف بروسيا — كانت بروسيا قد اتخذت خطة المسالمة منذ التحالف الأول، بيد أن مطامع نابليون فى ألمانيا، وانتهاكه حرمة أراضيها فى الحرب الأخيرة أثار فيها رغبة الانضمام الى جانب الحلفاء، فلما جاءت موقعة أوسترلتز ثاب اليها رشدها، وسارعت الى مصادقة نابليون، على أن يضم اليها هنوفر، ولكنها عادت فرأت


حروب نابليون
في النمسا وبروسيا
بحر الشمال
بحر البلطيق
تلسنت
فريدلند
إيلو
دانزج
هامبرج
برلين
بوزن
وارسو
برسلو
درسدن
ليبزج
يينا
راتسبون
نهر الدانوب
أولم
فينا

أن معاهدة برسبرج، وما نتج عنها من نشأة اتحاد الرين، و بسط سلطان نابليون على ايطاليا، لا سيما وقد خلع أسرة البوربون من نابلى ونصب أخاه يوسف ملكا عليها، فضلا عن جعله هولندة مملكة وضع على عرشها أخاه لويس، كل ذلك هدّد مصالح بروسيا التى ألفت نابليون يخدعها و يمنيها بوعود لا طائل تحتها، فبينما كان يعدها بالحصول على هنوفر، والوصول الى مرتبة الامبراطورية، كان يفاوض انجلترا سرا لاعادة هنوفر اليها، وذلك على الرغم من إقفال موانى بروسيا فى وجه التجارة الانجليزية، وإشهار انجلترا ثم السويد الحرب عليها من جراء ذلك، فثار غضب الشعب البروسى، واضطرت حكومته الى انذار نابليون بالجلاء عن ألمانيا. واذ كان الامبراطور قد فشل فى مفاوضات الصلح مع الروسيا وانجلترا، و بات يخشى تأليف حلف جديد ضدّه، فقد تذرّع بذلك البلاغ لمباغتة بروسيا وغزو بلادها، لا سيما وقد كان الجيش البروسى على حسن نظامه وشجاعة أفراده، ينقصه التمشى مع الأساليب الحربية الحديثة بل كان لايزال يتبع تقاليد فردريك الأكبر، ولذا تغلب عليه الفرنسيون فى موقعتين حاسمتين: يينا واورشتات فى أكتوبر سنة ١٨٠٦، وما لبثت أن سلمت كل المعاقل والحصون، الواحد بعد الآخر، بكل ما فيها من الحاميات والمعدّات الحربية الى أن دخلت الجيوش الغازية برلين، حيث أصدر نابليون مراسيم برلين الشهيرة التى أعلن بها حصار الجزر البريطانية، وحرّم على كل الدول الأوربية الاتجار معها.

وفى خلال ذلك جمع ملك بروسيا فلول جيشه وتقهقر بها نحو الحدود الروسية فى الاتجاه الشمالى الشرقى حيث سارع القيصر لنجدته، إلا أن نابليون عاوده النصر فى موقعتين متتاليتين ايلو (Eylau) وفريدلند (Friedland) (فبراير سنة ١٨٠٧) فسارعت الحليفتان الى عقد الهدنة، وفى خلالها تقابل القيصر اسكندر بالامبراطور نابليون، وسط نهر النيامن (Niemen) وخرجا من المقابلة صديقين حميمين، اذ اتفقا على شروط معاهدة تلسيت (Tilsit) التى أمضيت فى ٧ يوليه سنة ١٨٠٧، و بها تخلت بروسيا عن أملاكها غرب نهر الألب (Elbe) لإنشاء مملكة وستفاليا التى نصب عليها جيروم أخو بونابرت الأصغر، كما نزلت عن أملاكها فى بولنده الى ملك

سكسونيا[1] . أما القيصر فقد اعترف بالتغييرات التى أحدثها نابليون فى ألمانيا، وتعهد بالانضمام اليه فى تنفيذ نظام الحصار القارى ضد انجلترا. وفى نظير ذلك تعهد نابليون بمساعدة حليفه فى تحقيق مطامعه فى فنلنده ووادى الطونة، وتحقيق حلم القياصرة منذ عهد بطرس الأكبر فى تقسيم تركيا .

نابليون وأيبيريا — يعتبر صلح تلسيت الحد الذى بلغ عنده ملك نابليون أقصى اتساعه . وله أهمية خاصة فى سياسة فرنسا التى كانت ترمى حينئذ الى إخضاع انجلترا بطريق الحصار التجارى، غير أن نابليون رأى بثاقب نظره أنه ما دامت انجلترا تجد لتجارتها منفذا فى ولايات البابا وفى أيبيريا، فلا سبيل الى نجاح خطته . لذلك صمم على الاستيلاء على تلك البلاد ، إلا أنه اصطدم فى هذه المحاولة بعاملين من أقوى العوامل الفعالة وهما الكنيسة والشعور القومى . ففى مايو سنة ١٨٠٨ أعلن نابليون ضم أملاك البابا الى فرنسا ، فأجاب البابا ذلك الأمر بحرمانه من غفران الكنيسة فقبض عليه نابليون وسجنه ، مما أثار ثائرة الأمم الكاثوليكية، وصب على رأسه اللعنات فى كل مكان . وأما خطته إزاء أيبيريا فقد حركت قوة جديدة فى وجهه لم يألف مكافحتها من قبل، وهى قوة الشعور الوطنى، فنابليون لم يقاتل الى الآن إلا بلادا مقطعة الأوصال، لا وحدة لها ولا ارتباط بين أجزائها كألمانيا والنمسا وإيطاليا ولكنه وقف فى هذه المرة أمام عصبيات قوية، هبت تدافع عن كرامتها القومية، وتذود عن حريتها، وتحمى عروش ملوكها من اعتداء الغاصبين .

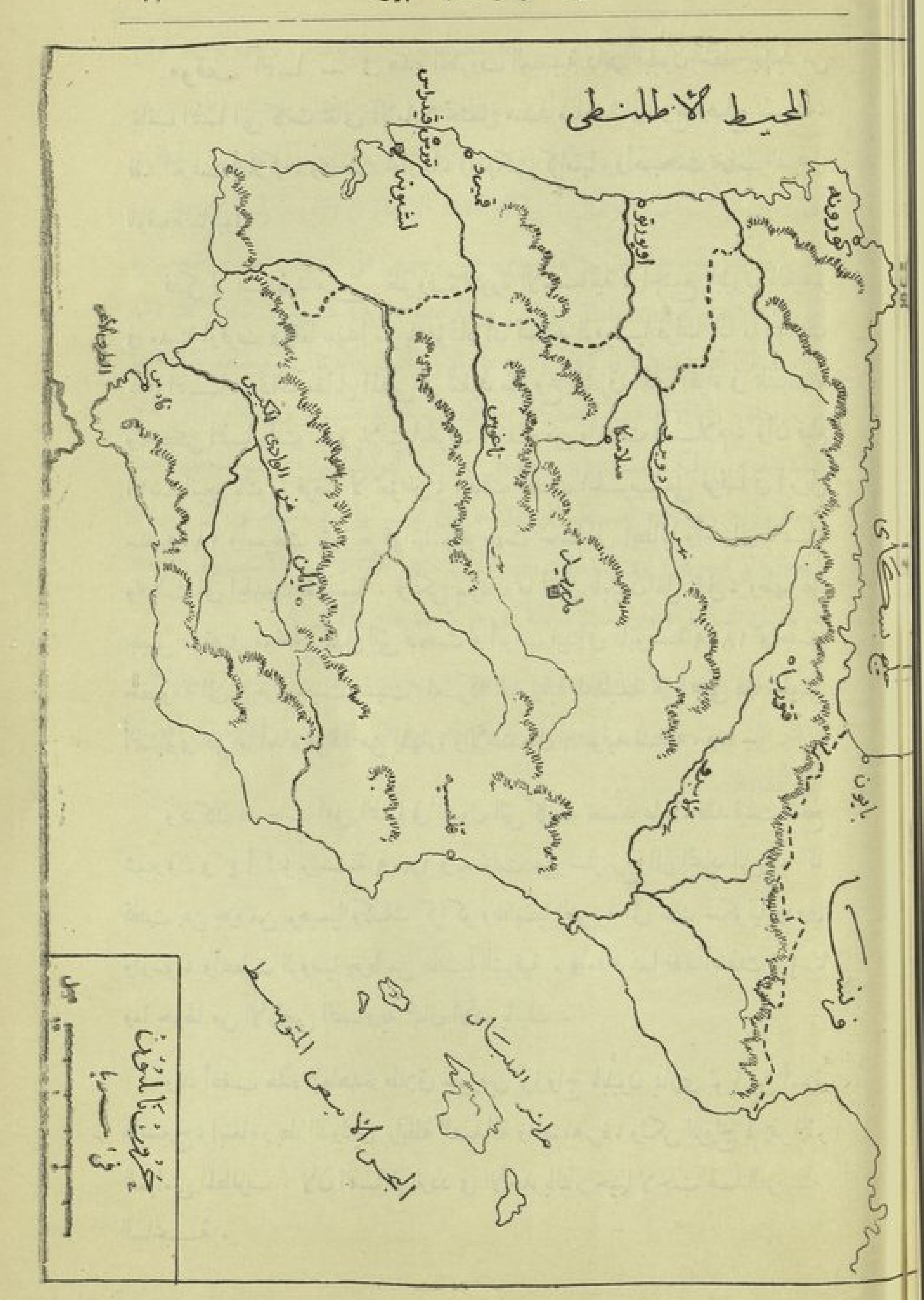
ذلك أن نابليون عقد اتفاقا مع اسبانيا فى نوفمبر ١٨٠٧ على أن يعملا سويا لغزو البرتقال فى مقابل اقتسامها معا، وبينما كانت الجنود الاسبانية تعمل بعيدة عن بلادها، استولى نابليون على المعاقل الاسبانية نفسها، فثار الاسبانيون على ملكهم الذى جلب عليهم هذه الغارة الأجنبية، وحملوه على النزول عن عرشه لابنه فرديناند،

---

(١) ضمت وستفاليا وسكسونيا الى اتحاد الرين على أثر هذا التغيير فأصبح الاتحاد يشمل كل ألمانيا عدا بروسيا .

إلا أن ميرا (Murat) قائد الحملة الفرنسية، أبى أن يعترف بفرديناند، وأرسل الأب وابنه الى بايون لمقابلة نابليون، وهناك أرغما على النزول عن العرش، وتوج يوسف بونابرت ملكا على اسبانيا، وأقيم ميرا مقامه فى نابلى: غير أن الاسبانيين لم يرتضوا ملكا ليس منهم، فقاموا يظاهرهم البرتقاليون للدفاع عن حرية بلادهم. وقد كانت هذه الحرب التى استعرت فى أيبيريا بدء الكوارث التى انتهت بضياع سلطان فرنسا الواسع الأطراف. فان دفاع الاسبانيين والبرتقاليين المجيد، كان قدوة حسنة لشعوب أوربة، حتى لم تلبث أن انحلت أمام هذه القوة الجديدة — قوة الشعوب — قوة نابليون التى طالما دوخت الملوك والحكومات. ولا ريب أن طبيعة البلاد الاسبانية والبرتقالية، كانت خير عضد لأهلها، فانها اضطرت أعداءها الى الانقسام فصائل صغيرة لا ارتباط بينها، وجعلت شبه الجزيرة ميدانا رحبا للحروب غير المنظمة، هذا الى أن انجلترا قوت العصابات الاسبانية بارسال جيش يرتكز على الشاطئ ويتدرع بالأسطول مما أطال أمد المقاومة وفت فى عضد الفرنسيين.

وقد ظهرت بوادر النجاح حينما استطاع ولزلى قائد الجيش الانجليزى أن يهزم الفرنسيين عند فميرو — أغسطس ١٨٠٨ — ويضطرهم الى الانسحاب من البرتقال، بينما كان الاسبانيون يناوشون أعداءهم حتى انتصروا عليهم عند بايلن سنة ١٨٠٨ وأرغموهم على إخلاء مدريد، فلم ير نابليون مناصا من أن يعمل سريعا للقضاء على «عصابات الزراع والرهبان» الذين حالوا بينه وبين آماله العريضة، فرحل الى اسبانيا حيث نكل بأهلها، وظهر عليهم فى ملاحم عديدة حتى استولى على مدريد وأعاد أخاه اليها. ثم طارد النجدات الانجليزية التى أرسلت بقيادة مور (Moore) حتى كورونه (Corona). وأنشأ بعد ذلك ينظم شؤون البلاد على أساس جديد، فقضى على مساوئ العهد القديم، وأدخل كثيرا من مبادئ الاصلاح فى بلاد لم تعرف الاصلاح منذ أمد طويل. بيد أن تلك الاصلاحات لم تكن فى نظر الاسبانيين شيئا يذكر بجانب ما فقدوه من استقلال البلاد، وامتهان كرامتها، فاستماتوا فى الجهاد، حتى خيل للعالم أن الفرصة قد حانت للتخلص من شارلمان أوربا الجديد.


المحيط الأطلنطي
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
خليج بسكاي
ميل

موقف النمسا — فى هذه الظروف العصيبة داهم نابليون خطر جديد من جانب النمسا التى كانت تعانى آلاما لا تحتمل منذ معاهدة برسبرج وصلح تلسيت، فقد انتزعت أملاكها، وعطلت تجارتها، وانتهكت كرامتها، وأصبحت تترقب الفرص للوقيعة بنابليون .

فلكى لا تستفيد من ظروف الثورة الاسبانية ، اجتمع نابليون بالقيصر فى مدينة ارفرت ووقعا عهدا سريا مؤداه أن تساعد الروسيا فرنسا اذا ما اعتدت عليها النمسا، وذلك مقابل المضى فى تنفيذ مشروع الشرق الذى أقراه فى تلسيت، ولكن النمسا رأت أن ويلات الحرب أخف من ويلات السلام ، وأن قيام الاسبانيين بالثورة فرصة لا تعوض، ولذلك أعلنت الحرب على فرنسا فى أبريل سنة ١٨٠٩ وأسرعت بتوزيع قواتها ، فوجهت جيشا الى إيطاليا وآخر الى غالسيا، والثالث الى الحدود الفرنسية . ولكن سرعان ما أقبل نابليون على عجل، وظهر على جيش عدوه فى موقعة اكمهل التى فتحت له أبواب فيينا فى مايو سنة ١٨٠٩ ثم تعقب خصومه الى واجرام حيث نشبت المعركة التاريخية العظيمة التى سحق فيها الجيش النمساوى على ما أبداه قواده من المهارة والاستبسال ٦ يوليه سنة ١٨٠٩

وإذ كان قد خاب أمل النمسا فى الدول التى كانت تعتمد عليها، فقد قبلت صلح شينبرون فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٠٩ وبه نزلت عن سلزبرج الى اتحاد الرين، كما تخلت عن جزء من بوهيميا وكذلك كراكو وغاليسيا الغربية الى ملك سكونيا ودوق وارسو ، وأعطت الروسيا جزءا من غالسيا الشرقية . وأما فرنسا فقد أخذت تريستا وما حولها من الأراضى النمساوية شمال الأدرياتيك .

وقد أعقب هذه المعاهدة طلاق جوزفين وزواج نابليون بمارى لويز من أسرة هابسبرج، ابتغاء ربط الدولتين برابطة الصداقة والمصاهرة، ولكن الزواج لم يثمر الثمر السياسى المطلوب . لأن النمسا لم تتردد فى الأخذ بالثأر حينما لاحت لها الفرصة السانحة .

الصـــراع فى أيبيريا ــ عاد الفرنسيون الى الوقوف وجها لوجه أمام «عصابات الرهبان والزرّاع» فى أيبيريا، فقد عزز نابليون قوّاته بجيش عظيم يقوده سولت وناى وغيرهما من كبار القوّاد، فنكلوا بهـم، وضيقوا عليهـم الخناق، وطاردوهم الى سواحل البرتقال . ولكن القائد الانجليزى ولزلى لم يلبث أن عاد الى أيبيريا وأخذ يهدّد مواصلات الفرنسيين حتى أجبرهم على التقهقر على أثر انتصـاره عليهم فى تلاڤيرا (Tallaveira) فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٠٩، بيد أن النصر عاد ثانية الى صفوف الفرنسيين، فأكرهوا ولزلى على الارتداد الى البرتقال، وبذلك خلا الجو لهم، واتسع المجال أمامهم لإخضاع المقاطعات الثائرة عليهم . وفى العام التالى خرج القائد الفرنسى الكبير مسينا (Massèna) لمهاجمة القوات التى أعادت نشاطها تحت زعامة ولزلى . ولكنه اضـطر الى التراجع الى أسـبانيا بعد معركة تورس ڤدراس (Torres Vedras)، ومع ذلك فان ولزلى لم ينتفع طويلا بهذا الانتصار، لأنه عاد فارتدّ الى الساحل، ورجعت الحالة الى ما كانت عليه أوّلا .

وسط هـذه الأزمة العصيبة، جاءت أوربة لنصرة أيـبيريا، متأثرة بالنكبات الكبار التى حلت بجيوش نابليون، وبالروح القومية التى انبعثت فى القارة من أقصاها الى أقصاها .

الفصل العاشر

نابليون والشرق

قبل أن نبدأ الكلام على حرب الأمم يحسن بنا أن نتتبع سير الحوادث فى الشرق وتأثيرها فى الحروب المستعرة فى الغرب . ففى عام ١٨٠٣ استؤنف القتال بين فرنسا والدول كما رأينا فاضطر نابليون الى إغراء تركيا للانضمام اليه واعلان الحرب على أعدائه لا سيما الروسيا عدوتها القديمة ، ولما تم له الأمر فى ديسمبر ١٨٠٦ قطعت بريطانيا علاقاتها مع تركيا بغير اعلان حرب ، وطفقت تبذل جهدها لإرغام العثمانيين على التخلص من سيطرة الفرنسيين، بأن وجهت قوة بحرية يقودها الاميرال ديكورث الى الدردنيل والقسطنطينية لارهاب تركيا ، غير أن العثمانيين رفضوا بايعاز مندوب فرنسا أن يفاوضوا بريطانيا مادامت قوتها باقية فى المياه العثمانية، وجعلوا يعززون حصون الدردنيل لتسدّ على الأسطول البريطانى طريق العودة، فاضطر الأميرال ديكورث الى النكوص على أعقابه من غير أن يفوز برغبته فى أول مارس سنة ١٨٠٧ إلا أن بريطانيا لم تسكن لهذا الفشل ، ففى منتصف ذلك الشهر، ظهر الأميرال فريزر على الشواطئ المصرية، وبدأ بمحاصرة الاسكندرية رغبة فى نزع هذه البلاد من يد محمد على الذى كان البريطانيون يعتبرونه آلة تسيرها فرنسا لتحقيق مطامعها فى مصر والشرق . وبعد الاستيلاء على هذه المدينة تقدّمت القوات البريطانية على رشيد لبداية الغزوة الكبرى بمساعدة المماليك خصوم محمد على الذى انتزع منهم ملك البلاد ، إلا أن هذا كله لم يجد نفعا فقد هزمهم محمد على هزيمة كبرى واضطرهم الى العودة للاسكندرية حيث شدّد عليهم الحصار حتى أجلوا عن البلاد فى سبتمبر سنة ١٨٠٧

ولقد نشأ عن هذه الانتصارات التى أصابها العثمانيون أن تفرغت تركيا لمواصلة الحرب ضدّ الروسيا حتى اضطرتها الى تحويل جانب كبير من القوات المواجهة لنابليون فى الشمال، على أن الأمبراطور استطاع قهر الروسيين بغير معونة حلفائه كما رأينا، ومن ثم تهيأت الأحوال لمقابلة تلسيت، وفيها تخلى نابليون عن أصدقائه بل تعاقد على أن يقتسم مع القيصر ملك العثمانيين عدا القسطنطينية وولاية الروملى اذا لم يعقد الصلح سريعا بين الروسيا وتركيا، إلا أن فرنسا نجحت فى عقد هدنة سلوبدزيا «٢ أغسطس سنة ١٨٠٧» بين الفريقين المتحاربين، وبذا ضاع أمل الروسيا فى تقسيم الأملاك العثمانية، ولكنها أصرت مع ذلك على استبقاء ولايتى الأفلاق والبغدان التى احتلتها من بداية الحرب على أن تحتل فرنسا ولايتى البوسنه وألبانيا على سبيل التعويض. ولكن نابليون تردّد فى قبول هذه السياسة التى كانت الروسيا تدفعه اليها، وبدلا من أن يرفض هذا الأمر بتاتا طلب تعويضا يعسر قبوله ألا وهو احتلال ولاية سيلزيا، وبذا تعقدت المفاوضات وأخذت العلاقات الفرنسية الروسية تتوتر تدريجيا.

أخذ نابليون يماطل الروسيا بعد ذلك طويلا حتى يتم عقد الصلح مع بريطانيا، ولكن هذا الأمل تبدّد فى بداية عام ١٨٠٨ حين أعلنت بريطانيا رغبتها فى استئناف الحرب حتى الانتصار التام. حينئذ عاد نابليون الى توطيد دعائم الصداقة مع الروسيا، وفى خطاب أرسله للقيصر فى فبراير عام ١٨٠٨ عاد الى إعلان رغبته فى تقسيم تركيا بل وتقسيم آسيا والهند كذلك. وبدأت فى الواقع مفاوضات لتقسيم تركيا — مفاوضات لم يكن القصد منها إلا اكتساب الوقت ريثما يتم عقد الصلح مع بريطانيا حتى لا تعود الروسيا الى الاشتراك مع عدوتها. ولكن هذه المفاوضات لم تثمر، كما كان ينتظر، فقد أخفق الطرفان فى الاتفاق على مصير الأستانة. على أن نابليون رأى أن لا مندوحة عن الرضوخ لرغبة الروسيا بعض الشىء حين ثار أهل الأندلس واشتبكوا معه فى حرب ضروس أنهكت قواه وأنذرته بشر مستطير، ولذلك قابل نابليون قيصر الروسيا فى أرفرت «سبتمبر سنة ١٨٠٨» وتعاقد معه على أن تضمن الروسيا بقاء النمسا و بروسيا على الحياد فى نظير اعتراف فرنسا باستيلاء الروسيا على فنلندا

وولايتي الافلاق والبغدان غير أن الشرق وموقفه السياسي خرج نهائيا من يد نابليون من هـذا الحين، فان عودة دول أوروبا الى مناجزته اضطرته الى توجيه قوّاته للدفاع عن مركزه فى أوروبا، بل عن مركزه فى فرنسا ذاتها .

لهـذا انفردت الروسيا بتسوية مسائل الشرق ، فنقضت هـدنة سلوبدزيا واستأنفت الحـرب مع تركيا لمدّة ثلاث سـنوات متوالية بغير أن تصل الى إرغام العثمانيين على صـلح يقتطع جزءا من أملاكهم ، فلما تغيرت الأحوال فى أوروبا وأصبح دخول الروسيا فى حرب مع فرنسا قريب الوقوع ، أخذت الروسيا تعمل لعقد الصـلح مع تركيا بشروط معتـدلة حتى تستطيع توجيـه كل قواتها ضـدّ نابليون . وقد حاولت فرنسا إخفاق هذا الصلح رغبة فى تبديد قوّات أعدائها كما فعلت مرارا إبان حروبها فى أوروبا، إلا أن تركيا فقهت الى رغبـة فرنسا فى اسـتخدامها آلة لتنفيذ أغراضها كما فعلت أولا ، فبدأت مفاوضات الصلح مع الروسيا على أن تسترد الولايات الشمالية مع بقاء بسرابيا وحدها فى يد الروسيا . وفى ٢٨ مايو سنة ١٨١٢ عقـد الصلح نهائيـا فى بخارست ، وكانت هذه المعاهدة عاملا كبيرا فى جميع قوّات أعداء نابليون وتحطيم ملكه كما سترى .

الفصل الحادى عشر

حرب الأمم

سرت الروح القومية التى ظهرت فى اسبانيا الى بقية ممالك أوربة، روح الجهاد لتخليص البلاد من الحكم الأجنبى ، وشر تسلطه عليها ، واستبداده بها ، فبدأت بذلك حرب الأمم بعد حرب الملوك ، وأصبح كل فرد يرى من واجبه أن يأخذ قسطه من الدفاع عن شرفه الوطنى . ولعل النظام الاقتصادى الذى فرضه نابليون على أوربة وأرغمها على العمل به كان من أشدّ العوامل فى إثارة هذه الحرب، فقد عطلت المتاجر، وأوصدت المصانع، وأصبحت أثمان الحاجيات فوق طاقة الفقراء ، فى حين أن انجلترا التى أراد نابليون الايقاع بها لم يصبها من الضرر شىء يذكر فى جانب كل هذه الآلام والمتاعب .

وكانت الروسيا أسبق الدول الى الانتقاض على نابليون متأثرة بالعوامل الآتية :

(١) أضاف صلح شينبرون الى دوقية وارسو مقاطعة غاليسيا كما رأينا، فأقيم بذلك حاجز منيع بين الروسيا وأوربة، خلافا للسياسة الروسية التى بدأها بطرس الأكبر؛

(٢) لم يقم نابليون بما تعهد به فى تلسيت من مساعدة الروس لتحقيق مطامعهم فى تركيا على زعم اشتغاله بمحاربة النمسا وأيبيريا؛

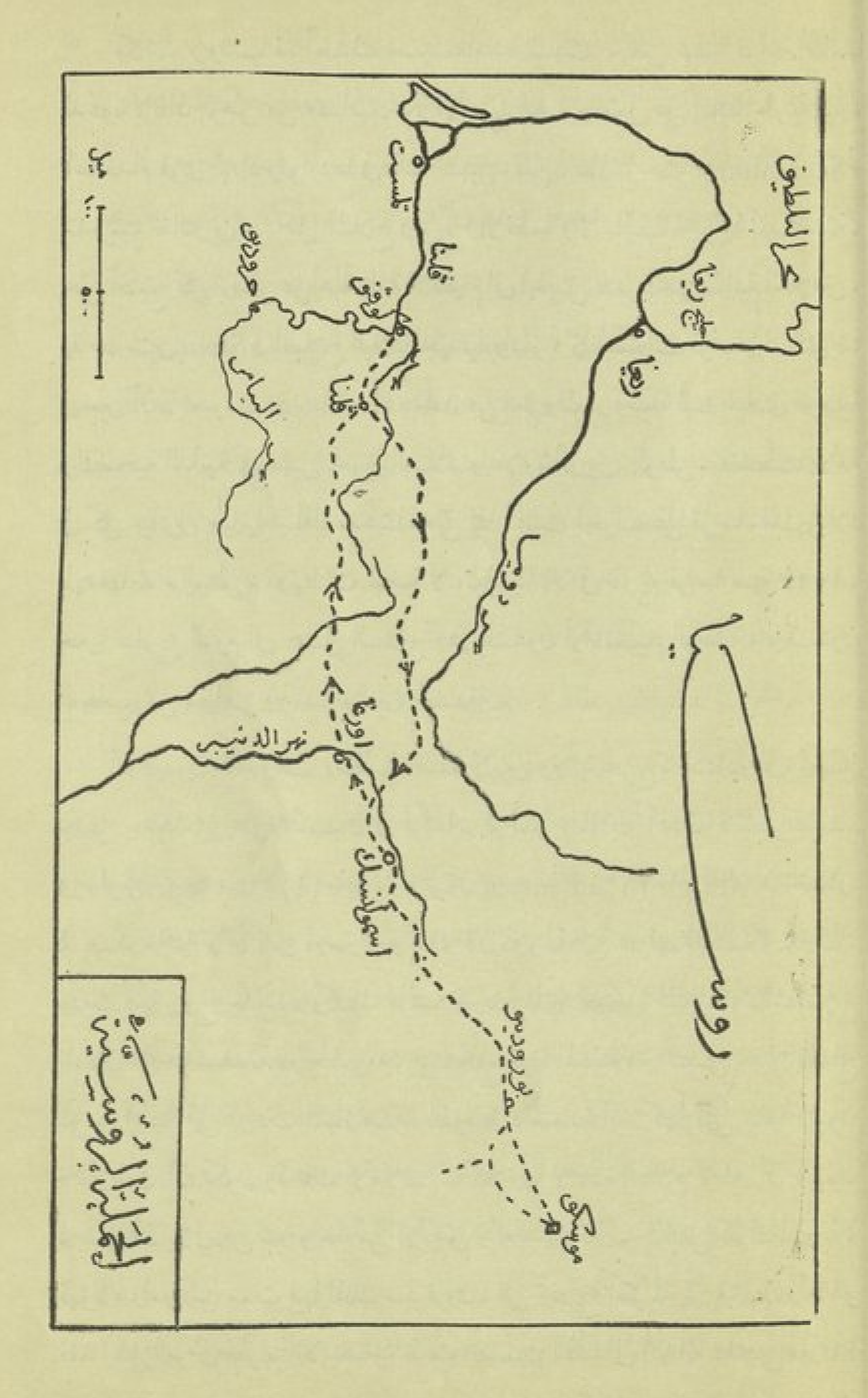
(٣) أحدث النظام القارى ضيقا شديدا فى الروسيا وأنزل بأهلها ضررا بليغا دون أن يكون من وراء كل ذلك نفع للروسيا؛

(٤) تحولت سياسة فرنسا الى مصادقة النمسا بعد زواج نابليون بمارى لويز، فلم تعد تعبأ بمصالح الروسيا ، فقر رأى القيصر وحكومته على نقض معاهدة تلسيت وفتح ثغور بلادهم للمتاجر الانجليزية فى سنة ١٨١٠، ولما كان فى هذا العمل نقض

عظيم للسياسة التى من أجلها خاض نابليون غمار حروبه الكثيرة، واضطر من أجلها أن يضم الى فرنسا هولندا وكل سواحل ألمانيا بما فيها برمن وهمبرج ولوبك فى سنة ١٨١١، فلم ير بدا الآن من شن الغارة على الروسيا احتفاظا بغرضه، وضنا من العبث بسياسته، على الرغم من ضيق موارده، وتحفز أمم أوربة للأخذ بالثأر منه.

الحملة الروسية — جهز نابليون لهذه الغارة جيشا من أنحاء الامبراطورية يربو على ستمائة ألف مقاتل، وسار به الى الروسيا فى صيف عام ١٨١٢، فتراجع الروسيون أمامه، ليطوحوا بالقائد العظيم فى بطاح بلادهم الواسعة الأطراف، المتشعبة المسالك، ولم يشتبكوا معه إلا عند نهر «بروديتو Borodino» (٧ سبتمبر) حيث تطاحن الفريقان على غير جدوى، ثم عاد الروس الى خطتهم الأولى، فجعلوا يتقهقرون دون أن يتركوا مدينة أو قرية إلا جردوها مما ينتفع به. وظل نابليون يتقدم بين تلك الأراضى الموحشة حتى دخل موسكو فى ١٤ سبتمبر ١٨١٢ ولشدّ ما ذهل لما رآه فيها من السكون المخيم، والوحشة الشاملة، بعد فرار أهلها منها، وما كانت العشية حتى اشتعلت فيها النيران من كل جانب، بفعل حاكم المدينة، فارتد الى خارج أسوارها، وأقام ينتظر عبثا أن يطلب الروس الصلح، فلم ير مندوحة وقد دنا فصل الشتاء، من أن يعود أدراجه صوب الحدود الأوربية، فلاقت جنوده فى سبيلها من النكبات الكبار ما مزقها كل ممزق، اذ كان البرد شديدا والطريق قفرا، وفرسان القوازق تطاردها، وجيوش الروس تهاجمها فى كل مكان ومن كل جانب: فلم يفلت عند الحدود من ذلك الجيش الزاخر إلا نحو مائة ألف جندى، على رغم العناية التى بذلها المارشال ناى (Ney) فى إنقاذ الجيش، حتى لقب منذ ذلك الحين بناى أشجع الشجعان.

عودة التحالف الأوربى — ما كادت تذيع أنباء الكارثة التى حلت بجيش نابليون فى الروسيا، حتى قام الشعب البروسى يطلب الانضمام الى الروسيا للاخذ بثأر بينا، ولنقض النظام القارى الذى قيد متاجره وعطل مصالحه، فلم تر الحكومة بدا إزاء الرغبة العامة من أن ترتبط مع الروسيا بمعاهدة كليش (Kalish) التى ابرمت فى ٢٨ فبراير سنة ١٨١٣ على أن تعملا معا للقضاء على سلطان نابليون فى أوربة.


روسيا
ريجا
خليج ريجا
تلسيت
فلنا
كوفنو
نهر الدنيبر
سمولنسك
بورودينو
موسكو

وكانت بروسيا قد أخذت منذ معاهدة تلسيت تنهض نهضة قومية أساسها الدعوة لانقاذ الوطن من مصاب تحكم الأجنبي فيه . والعمل على إعادة الحرية اليه، باستخدام قوى البلاد ومواردها فى ذلك السبيل، فقام « شارنهرست Scharnhurst» بتدريب القادرين على حمل السلاح وفق آخر الأنظمة والأساليب الحربية المستحدثة، حتى أصبح كل بروسى على أهبة تامة للانضمام الى الجيش عند ماتحين ساعة الخلاص. وقام « ستين Stein» باصلاح البلاد اجتماعيا واداريا كما أصلحت فرنسا إبان الثورة، فى حين أن « همبولت Humboldt » اتخذ من العلم والتعليم وسيلة لبث مبادئ الوطنية والتضحية الذاتية فى سبيل تحرير البلاد واعلاء شأن الوطن، فنشطت الأمة فى كل ميادين حياتها نشاطا مدهشا، حتى اذا أعلنت الحرب على فرنسا، لبت البلاد بأجمعها نداء الوطن، ونهضت نهضة لا مثيل لها إلا فى تاريخ فرنسا سنة ١٧٩٣، حين سارع القوم الى حمل السلاح وهم ينشدون الأناشيد الوطنية، ويبدون العجاب من مظاهر الحماسة والغيرة الصادقة.

أما نابليون فقد وقف وسط العاصفة لايلين ولا يتزعزع، إذ بادر الى تجهيز جيش جديد من زهرة الشبان فى فرنسا، ثم أسرع لمقابلة أعدائه فانتصر عليهم فى « لوتزن Lautzen » (١٤مايو) و « بوتزن Bautzen » (٢١ مايو) إلا أن انتصاره لم يعد حاسما كما كان فى أوسترلتز و يينا، فان أوربة التى عرفها قديما ، تغيرت، ودبت فيها روح جديدة، وكذلك فرنسا تغيرت بتأثير الضحايا المتوالية. لذلك أسرع نابليون الى عقد هدنة مع خصومه، ليستجمع قواه المشتتة، ويلتمس سبيلا للصلح على يد النمسا التى أرادت انتهاز هذه الفرصة لاستعادة أملاكها التى سلبها نابليون فاشترطت أن يكون ردّ تلك الأملاك ثمنا لتدخلها لاعادة السلام . غير أن نابليون لم يقبل أن يتنزل عن شبر واحد من الأرض لأنه — كما قال — "ليس كملوك أوربة، فهؤلاء ولدوا من بيوت فيها الملك منذ قرون، فلن تزعزع الهزيمة عروشهم، وأما هو فقد اعتلى العرش بطريق الانتصار" لذلك انضمت النمسا الى أعدائه بمقتضى معاهدة « ريشنباخ Reichenbach » التى ابرمت فى ٢٧ يونيه كما انضمت السويد، فتفوق

الحلفاء تفوقا عدديا هائلا اضطر معه نابليون أن يقابل كلا من هذه الجيوش على انفراد، فانتصر بادئ الأمر على الجيوش النمساوية المتجمعة حول درسدن، إلا أن قواده أخفقوا فى باقى الميادين . وفى منتصف أكتوبر، أطبقت عليه جيوش أعدائه فى ليبزج، واضطرته الى التقهقر الى ما وراء الرين بعد أن كبدته خسائر فادحة .

الأمبراطورية تتداعى — حينئذ رأى نابليون ذلك البناء الشامخ الذى شاده على أسنة الحراب ينهار أمام عينيه! فألمانيا وايطاليا أفاقتا كأنما من حلم مرعب، وطرحتا حكمه جانبا، وفتحتا بلادهما للغزاة المنتصرين . وهولندا أسرعت الى إعادة حكم بيت أورنج . ونابلى عقدت صلحا منفردا مع النمسا ، وولنجتون (ولزلى) اقتنص الفرصة فى أسبانيا لسحق قوة الفرنسيين مرتين : الأولى فى سلامنكا عام ١٨١٢ وقد أعقبها دخوله مدريد ظافرا . والمرة الثانية فى فتوريا عام ١٨١٣ حين اضطر الفرنسيين الى التراجع وراء البرانس .

أما فرنسا نفسها التى طالما تعلقت بنابليون، فقد بدأت تقلب له ظهر المجن، وتعلن رغبتها فى السلام، إذ رأت أن رجلها العظيم الذى كان يستخدم مواهبه النادرة لمصلحة البلاد، بات يستخدم البلاد لارضاء كبريائه ومنافعه؛ ويرغمها على خوض غمار حروب لا مصلحة لها فيها . فقديما كانت ترغب فى الحرب، وتنشط لها ، طالما كان الغرض منها الوصول الى الحدود الطبيعية، وأما الآن، فقد رأت أن الغرض إرضاء مطامع الأمبراطور فحسب . حقا أن نابليون كان يعمل دائما على أن يجعل «الحرب تسد نفقات الحرب» إلا أن هذا المبدأ لم يعد فى الامكان تحقيقه إزاء المطامع الواسعة . هذا الى أن اقفال البلاد فى وجه التجارة الانجليزية ، كان على عكس سياسة توفير الرخاء التى خبرتها البلاد، وتمتعت بها فى أوائل حكمه، فباتت تئن مما صارت اليه من الضنك والاعسار الشديد، وترغب فى تقلص نفوذ «نيرون» التاريخ الحديث .

إزاء هذه الحوادث، كان خيرا لنابليون أن يطأطئ الرأس أمام الحقائق الواقعة، فيرضى بما عرضه عليه الحلفاء فى فرنكفورت فى نوفمبر سنة ١٨١٣، بأن يبقى له

ملك فرنسا بحدودها الطبيعية . ولكن الرجل الذى رقى العرش على أسنة الحراب ، رفض الصلح تحت ظلال الهزيمة – بالرغم من أنه كان صلحا شريفا يرضاه الشعب الفرنسى – فدل بهذا الرفض على أن طبيعته العسكرية ثارت ضد مزاياه السياسية، فملكت قيادته وجرته من أرفع صفاته العقلية .

دخول باريس وخلع نابليون – أعلن الحلفاء حينئذ أنهم يحاربون نابليون لا الشعب الفرنسى ، وزحفوا الى باريس بطريق المارن والسين والبرانس ، وكان نابليون لا يزال يعتقد أن فرنسا تتحرك لنصرته اذا أصبح الوطن فى خطر ، ولكن فرنسا تداعت أعصابها ، وانحطت عزيمتها ، فقاوم نابليون أعداءه بكل ما بقى لديه من قوة ، نخلص شرفه العسكرى من العار ، وارتاح بعدها الى الدخول فى مفاوضات الصلح مع خصومه فى «شاتيون Châtillon» "فبراير سنة ١٨١٤" إلا أن الحلفاء تشددوا الآن فى ارجاع فرنسا الى حدودها القديمة قبل الثورة .

حينئذ أعلن نابليون أنه يفضل أن يحتمل أقصى ويلات الحروب على أن يذعن لهذا الشرط المهين ، فجمع الحلفاء شملهم وتعاهدوا من جديد فى «شومنت Chaumont» ، "مارس سنة ١٨١٤" على أن يواصلوا الحرب متكاتفين حتى يبلغوا مآربهم ، وأن يبقى ذلك التحالف مدة عشرين عاما لحماية السلام فى أوربة .

استأنف الحلفاء بعد ذلك الزحف الى باريس ، فوقف نابليون ينازعهم الأرض شبرا شبرا ، حتى نفذ القضاء ، وسقطت باريس فى ٣١ مارس سنة ١٨١٤ ، بيد أن سقوطها لم يكن ليفل عزيمة لا تفل ، اذ جمع نابليون قواده وجنده فى «فونتينبلو Fontainebleau» ودعاهم لمواصلة الجهاد ، ولكنهم بسطوا أمامه ما وصلت اليه البلاد من الانحلال والضنك والملل ، إذ أن فرنسا إذ ذاك لم تصبح تلك التى عرفها العالم يوم قرع العدو أبواب فردان غداة الثورة . فكتب الأمبراطور فى فونتينبلو نزولا عن العرش لولده ملك رومة تحت وصاية زوجته مارى لويز . ولكن الحلفاء

رفضوا ذلك الشرط، فنزل نابليون عن العرش بلا قيد، وفى أبريل سنة ١٨١٤ قر الرأى على أن يحتفظ بلقب أمبراطور و يمنح ملك جزيرة البا .

وأما عرش فرنسا فقد أعيد الى لويس الثامن عشر وارث عرش البربون بمساعى تاليران الذى ألف حكومة مؤقتة عقب سقوط نابليون، على أن يكون الحكم دستوريا . وعلى يده أبرمت معاهدة باريس الأولى فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٤، وبها أعيدت فرنسا الى الحدود التى كانت لها عام ١٧٩٢ تقريبا مع استرداد بعض مستعمراتها . وأما باقى الأراضى التى تخلت عنها فقد تقرر فى أمرها أن ترد هولندا لاسرة أورانج على أن تضم اليها البلجيك، وأن تستقل الولايات الألمانية وترتبط باتحاد عام بينها، وتستقل سويسرا فى ظل حكومة أهلية، وتسترد الولايات الايطالية استقلالها القديم عدا ما يخصص منها للنمسا . أما باقى المسائل التى لم يبت فيها فقد تركت المناقشة فى أمرها الى مؤتمر يعقد خصيصى لذلك فى فيينا .

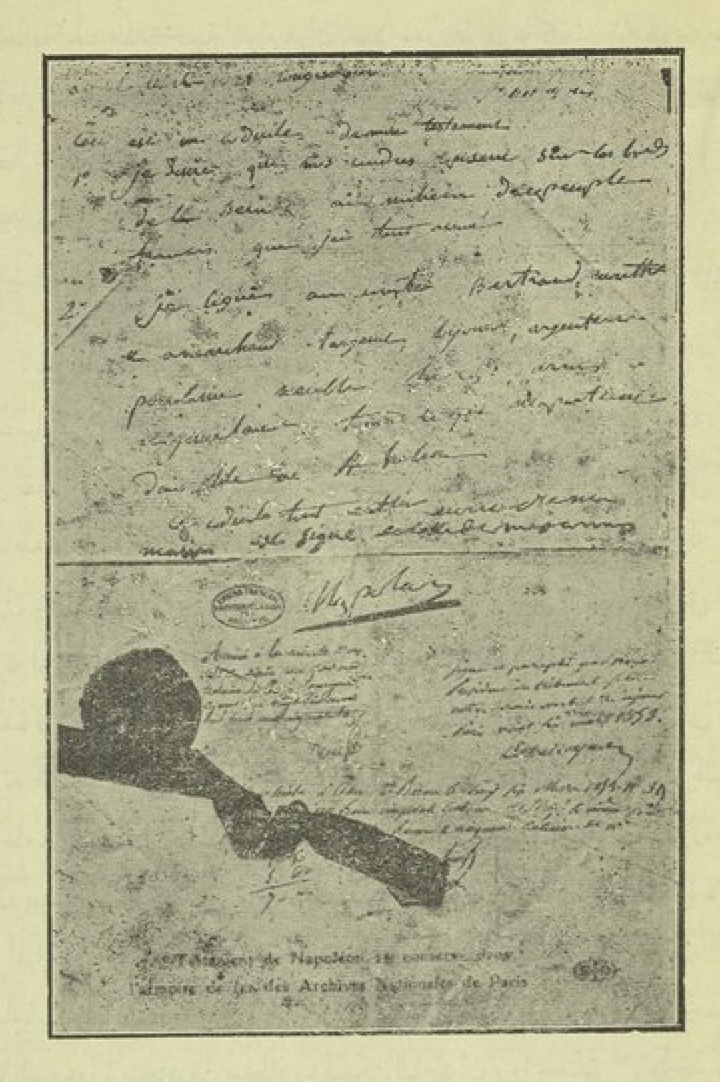
عودة نابليون، بداية النهاية — لم يرض نابليون بمصيره إلا انتظارا لما تجيء به الفرص، فلما علم بالنزاع القائم بين الحلفاء على توزيع الغنيمة، وبسخط الشعب الفرنسى على الملكية الجديدة التى اقترنت عودتها بنكبات لم تعرفها البلاد منذ سنين عديدة، كما اقترنت بسياسة الانتقام و إرضاء شهوات الأشراف المهاجرين، وتبديد إرث الثورة وثمرة جهودها، بادر بالهرب الى فرنسا حيث هرع اليه أنصاره وجنده القدماء، فزحف الى باريس، ودخلها بعد فرار الملك دون أن تسفك نقطة من الدماء "٢١ مارس ١٨١٥" .

حكم مائة اليوم وواترلو — كان أول ما اهتم به نابليون، أن يجمع حوله القلوب، وأن يقنع الدول برغبته فى السلام، فأعلن قبوله لمعاهدة باريس، وصرح بتأييده لمبادئ الثورة، وأصدر دستورا جديدا سماه "القانون الاضافى" كان من شأنه أن يزيد فى اشراك الأمة معه فى الحكم، إذ جعل الهيئة التشريعية مكونة من مجلسين

تكون الوزارة مسئولة أمامهما، كما أنه أطلق الحرية للصحافة والمطبوعات، فقوبل حكمه بالترحيب فى فرنسا، و إن كان الكثيرون قد قابلوا هذه المنح بالتردّد والفتور .

النضال الأخير — أما دول أوربة التى كانت حينئذ مجتمعة فى مؤتمر ڤينا لرسم خريطة أوربة من جديد، فقد عهدت نابليون لا يسلم بالهزيمة ولو فى أحرج الظروف وأشد المواقف، ولذا أعلنت أن نابليون يعكر جوّ السلام فى العالم، وأن من واجب الدول أن تتعاون مرة أخرى فى القضاء عليه قضاء مبرما، فأسرع نابليون بتأليف جيش جديد قوى، وسار به لملاقاة جيشى بروسيا وانجلترا اللذين احتشدا فى البلجيك قبل غيرهما استعدادا للقتال، وكانت خطته أن يقضى على جيش كل منهما على انفراد ، فأفلح نابليون فى هزيمة بلوخر قائد الجيش البروسى عند « ليني Ligny » يوم ١٦ يونيه ثم تحول لحاق بجيوش ولنجتن المتقهقرة للاتصال بالبروسيين. فنشبت حينئذ المعركة التاريخية الكبرى، معركة « واترلو Waterloo » وفيها عملت الطبيعة على فشل نابغة الحروب، إذ أمطرت السماء طويلا ليلة ١٨ يونيه حتى عجز نابليون عن نقل مدافعه الى المواقع الصالحة للقتال فى الوقت المناسب، ورغما عن النجاح الذى صادفه فى أول المعركة، فان ثبات ولنجتن الذى لقب من أجله بالدوق الحديدى، أدار الدائرة على نابليون، وزعزع كل آماله فى النصر، واذا كان قد بقى فى نفسه شىء من الثقة بالمستقبل، فقد تلاشى حينما وصل بلوخر، الذى أفلح فى تنظيم قواه المشتتة على عجل، والتحوّل الى واترلو، للقتال بجانب حلفائه فى الساعة الحاسمة، فحمل الجيشان على نابليون حملة هائلة، مزقت الخطوط الفرنسية، وأوقعت فى صفوفها الرعب والجزع ، ففرّ نابليون من ميدان القتال على عجل ، ولما لم يجد عضدا ولا نصيرا فى باريس، وألفى الانجليز يراقبون الشواطئ حتى لا يهرب ، نزل عن عرشه للمرة الثانية، وكتب الى الحكومة الانجليزية يسلم نفسه لكرمها و رعايتها .

دخلت جنود الحلفاء باريس للمرة الثانيـة ، وفرضوا على فرنسا معاهدة باريس الثانية "٢٠ نوفمبر ١٨١٥" وبها تقرر أن تدفع غرامة حربية قدرها ٧٠٠ مليون فرنك



وصية نابليون بخطه وتوقيعه (٦ أبريل سنة ١٨٢١) يوصى فيها بدفنه على ضفاف السين وسط الشعب الفرنسى الذى أحبه دائما، وباعطاء مخلفاته بسنت هيلانه الى الجنرال برتران الذى تبعه الى المنفى .

[نقلا عن الصورة الأصلية المحفوظة بدار السجلات الرسمية بباريس]

أن يحتلها الحلفاء لمدة خمسة أعوام، وأن تعود حدودها الى ما كانت عليه فى عام ١٧٩٠ وقد عارضت بروسيا فى شروط هذا الصلح، وحاولت أن تكيل لفرنسا بالكيل الذى كالتها به فى تلسيت، وأن تنزع منها الالزاس واللورين بحجة لزومهما للدفاع عن بلادها، ولكن بعد نظر الحلفاء تفوّق فى آخر الأمر، إذ كان لا بد من الاعتدال لتثبيت قدم الملكية العائدة، وتسكين أعصاب الفرنسيين حتى لا تثور للانتقام .

نابليون فى المنفى — أما نابليون فقد نفى الى جزيرة سنت هيلانه وبقى سجينا بها حتى فاضت روحه فى ٥ مايو سنة ١٨٢١، وظل مدفونا بها حتى سنة ١٨٤٠ حين نقلت رفاته الى قبة الأنفاليد بباريس . ولقد كانت حياته فى المنفى على تمام البساطة والهدوء، لا يعكرها إلا ذكريات الماضى وغلظة حاكم الجزيرة له . ولم يحاول بتاتا أن يفر الى فرنسا كما فعل فى ألبا، ولكنه شرع يهيئ الطريق لعودة أسرته الى العرش، تارة بالأحاديث وطورا بالمذكرات، اعتقادا منه بأن الملكية العائدة لا تلبث أن تبسط نظام العهد القديم وتعيد مساوئه، فتتطلع البلاد الى عودة أسرته التى نجت على يديها من الفوضى والمظالم، وتمتعت فى ظلها طويلا بالسعادة والرخاء، ولبست ثوبا قشيبا من المجد والفخار . فجعل يصوّر تاريخه صورة رجل كان يعمل للحرية والسلام . ومما قاله فى هذا الشأن : "إن حالتنا الحاضرة لا تخلو من المزايا، فنحن شهداء مبادئ خالدة، يبكى حظنا الملايين من الخلق ويتأوه الوطن لمصابنا ... ولو كنت مت وأنا فى أوج عظمتى، لبقيت الى الأبد لغزا لا يحل . وأما اليوم، وأنا متجرّد من سلطانى، فيمكن للناس أن يروا حقيقتى". وأخذ يبسط هذه الحقيقة كما كان يراها هو، لا كما يراها التاريخ، فكانت من أكبر العوامل الفعالة فى ارتقاء ابن أخيه لويس نابليون على العرش فيما بعد .

نابليون فى نظر التاريخ — لم يختلف المؤرّخون فى رجل كاختلافهم فى نابليون، فمنهم من يرى فيه شبيها بفرسان العصور الوسطى الذين كانوا يشنون الغارات والحروب للسلب والنهب، ومنهم من يرى المثال الأعلى لصفات الأمة

الفرنسية . والواقع أنه لا يكاد يعرف التاريخ رجلا سواه جمع بين أرفع الصفات وأحطها، فهو شخصية قائمة بذاتها، منقطعة النظير ومستقلة عما عداها، « كتلة من الصخر الصلد، أرسلت الى العالم فلا تخضع لشىء من نواميس الطبيعة» !

نبغ نابليون فى فنون القتال وتعبئة الجيوش ، ووضع الخطط الحربية وتنفيذها بالدقة والاحكام نبوغا ما عرفه العالم من قبل ، وأقام على أنقاض الفوضى التى كانت تسود فرنسا قبيل ظهوره والخلل الذى كان يفت فى عضد حكومتها أجيالا طويلة حكومة تعدّ آية فى نظامها، ودقة أعمالها، ولا يزال الكثير مما أدخله من الاصلاحات قائما فى فرنسا الى اليوم . وأما خدماته للعلم والمدنية فكثيرة جليلة عديمة المثيل، وسيظل قانونه (Code Napoléon) علما ينطق بفضله ويشيد بذكره أبد الدهر ، ومهما يقل عن فتوحاته فلا ريب أنها عجلت تأسيس الوحدة القومية فى إيطاليا وألمانيا بعد أن بقيتا مقطعتى الأوصال قرونا طويلة ، إلا أن تلك الفتوحات أدّت الى سقوطه وضياع ملكه ، فقد كان الرين والألب والبرانس كما قال « تاليران Talleyrand » فتوح الأمة الفرنسية، وما عداها فتوح نابليون، ويعنى بهذا أن فرنسا كانت تشعر بضرورة القيام بتلك الفتوحات وحدها، ولا تطمع فى سواها، إذ لم تكن ترتجى ثمرة من ورائها . ولعل نابليون أدرك ذلك بجعل الأمم الخاضعة له تدفع نفقات الامبراطورية دون الفرنسيين بقدر المستطاع ، وطفق يقطع قواده اقطاعات فسيحة مكافأة لهم على إخلاصهم فى خدمته، وصار يلقن الفرنسيين بواسطة المدارس والتعليم حب الامبراطورية ووجوب الاحتفاظ بها والتغنى بمجدها ومفاخرها، إلا أنه على الرغم من كل هذا كانت فرنسا تشعر بأن الامبراطورية حمل ثقيل لا يحتمل لا سيما وقد كانت الممالك التى تضمها الامبراطورية مسلوبة الارادة والسلطة، عليها الغرم ولغيرها الغنم، فلم يلبث أن سقط ذلك البناء الشامخ من أساسه حينما هبت عليه العاصفة . ولو كان نابليون اتخذ سياسة تحاكى سياسة الامبراطورية البريطانية الحاضرة — أى سياسة توزيع السلطة بين الحكومة الرئيسية وحكومات الأجزاء المختلفة المكونة لها ، وقسم الحقوق

والواجبات بينها، بدلا من حكمها من مركز واحد على مثال الدولة الرومانية — لتماسكت تلك الأجزاء فى وقت الشدّة .

وبالجملة لولا طمع نابليون الذى لم يقف عند حدّ، وغرامه الجنونى بالسيادة والسيطرة على العالم ، لما عرف التاريخ رجلا أبقى منه أثرا فى خدمة المدنية والحضارة .

المصادر

عن الثورة الفرنسية — التاريخ السياسى للثورة للأستاذ أولار (Aulard) و"الثورة" تأليف لويس ماد لين (Lonis Madlein) ، ومحاضرات اللورد اكتون (Lord Acton) عن الثورة الفرنسية وكتاب هولند روز (Holland Rose) عن فرنسا فى عهد الثورة ونابليون . وكتاب ماريوت (Marriott) عن أوربة من ١٧٨٩ الى ١٨٧٨ — والثورة الفرنسية لكارليل (Carlyle)

عن نابليون — نابليون الأوّل تأليف فورنيه (Fournier) . ونابليون — والفصل الأخير تأليف روزبرى (Roseberry) والتاريخ العام تأليف لافيس ورامبو (Lavisse et Rambaud) ومذكرات نابليون بسنت هيلانه (Las Cases)

الباب الثانى

عهد المؤتمرات

الفصل الأول

مؤتمر فيينا

قواعد التسوية — يعتبر مؤتمر فيينا أكبر المؤتمرات أهمية بعد مؤتمر وستفاليا ، فكما أن هذا المؤتمر الأخير نظم شؤون أوربا بعد حرب دولية طاحنة هى حرب الثلاثين سنة فكذلك سوى مؤتمر فيينا حساب أوربا بعد الحروب التى قامت فى عهد الثورة ونابليون . وإنه لمن الخطأ الاعتقاد أن التسوية اختلفت كثيرا فى الحالتين، فعلى الرغم من ارتفاع الأصوات فى أوربا التى خضبت أرضها بالدماء مدة ربع قرن كامل . بأن تكون التسوية المقبلة على قاعدة احترام الحقوق القومية ومبادئ الحرية التى أيقظتها الثورة وحروبها، فان الساسة أغفلوا هذه الاعتبارات لاجهلا بها، ولكن برا بعهود ارتبطوا بها إبان الكفاح مع نابليون، وكان لا مناص من تنفيذها، غير أنهم حاولوا أن يكسبوا عملهم مظهرا خداعا، فأطلقوا عليها اسم خطة ارجاع الحقوق الشرعية الى أصحابها على أنهم لم يتبعوا تلك القاعدة نفسها كلما تصادمت مع مطامعهم أو تعارضت مع مواثيقهم، فكأنهم لم يخرجوا فى عملهم عما عرفه العالم من قبل وهو اقتسام الغنيمة بين الظافرين .

أعمال المؤتمر — ولقد اجتمع المؤتمر تنفيذا لشروط معاهدة باريس الأولى التى نصت على اجتماع ساسة أوربا فى فيينا لتحقيق غرضين معينين وهما

توزيع البلاد التى لم يبت فى أمرها فى تلك المعاهدة ألا وهى أراضى الرين الألمانية وبعض الأراضى الايطالية، وكذلك إعادة تنظيم الولايات التى أنشأها نابليون وهى ولايات اتحاد الرين ودوقية فرسوفيا . وقد كانت الخطة المقررة للعمل أن يجتمع مفوّضو الدول الأربعة الكبرى اجتماعات سرّية للفصل فى هذه الشؤون ثم يبلغ ممثلو الدول الأخرى أمر الاتفاقات النهائية، وذلك بغير أن تدعى فرنسا الى الاشتراك فى الأعمال مطلقا ، إلا أن الحلفاء راعوا جانب الملكية الفرنسية الجديدة التى كانت تحتاج الى شىء كبير من عناية الدول وعطفها حتى تلق احتراما وتأييدا من جانب الشعب الفرنسى ، خصوصا وقد أعلن الحلفاء مرارا أنهم كانوا يحاربون نابليون لا الشعب الفرنسى ، ولذلك دعيت فرنسا الى حضور المؤتمر بغير أن تشترك فى المفاوضات السرية شأنها فى ذلك شأن الدول الصغرى .

غير أنه على الرغم من أن فرنسا دخلت المؤتمر تكريما لها وتأييدا لمليكها فقط، فان مندوبها تاليران لم يلبث أن استطاع بمهارته النادرة أن يشترك فى مباحثات الدول العظمى، اذ أعلن من بداية الأمر أن فرنسا لا تطمع فى شىء ما مطلقا وكل ما ترغبه هو الدفاع عن القانون وحماية الحقوق الشرعية،فضمن بذلك التفاف الدول الصغرى حوله كما ضمن إشراكه فى مفاوضات الدول اشتراكا أدى الى تمزيق وحدتهم حينما حانت الفرصة .

الخلاف بين الحلفاء — ذلك أنه بينما كانت الدول الأربعة متفقة على معظم الشؤون المقرر مناقشتها فى فينا ، ظهر اختلاف وجهات النظر بينها فى شأن بولندا وسكسونيا . فبينما كان قيصر الروسيا يرغب فى الاستيلاء على دوقية وارسو بأكملها أى نصيب بروسيا فى تقسيمات بولندا الماضية، كانت بروسيا ترغب فى تعويض أملاكها البولندية بالاستيلاء على مقاطعة سكسونيا عقابا لمليكها على اتصاله بنابليون ومعاونته له . غير أن النمسا وانجلترا عارضتا فى قبول هذه الرغبات : فانجلترا كانت تخشى أن يؤدّى امتداد نفوذ القيصر الى الفستولا الى الاخلال

بالتوازن الدولى فى أوربا ، كما أن النمسا رأت فى مطامع بروسيا إخلالا بالتوازن فى ألمانيا ، وخطرا دائما يهدد أملاكها فى بوهيميا . لذلك وقفت بروسيا والروسيا فى جانب والنمسا وانجلترا فى الجانب الآخر، فأصبحت قوات الفريقين متعادلة بحيث لو انضمت فرنسا الى فريق دون الآخر رجحت الكفة . ولما كان المبدأ الذى نادى به تاليران من أول الأمر هو تأييد مبدأ الحقوق الشرعية ، فقد عارض فى اغتصاب أملاك سكسونيا ، وأعلن تأييده لمطالب النمسا وانجلترا فى هذا الشأن ، فعملت الدولتان على إدخال المندوب الفرنسى فى مفاوضات الحلفاء السرية ، ومالبثا بعد أن أعياهما حسم النزاع أن تعاقدا معه فى ٣ يناير ١٨١٥ على العمل بكل الوسائل لإجبار الروسيا وحليفتها على الإذعان لمطالب الحلفاء .

التسوية — على أن روح الاعتدال تغلبت فى النهاية ، خصوصا حينما جاءت الأنباء بتدبير مؤامرات ترمى الى إعادة ملك نابليون ، فسوى الخلاف بأن ضم إقليم بوزن وميناء وانتزيج الى بروسيا ، وأعطيت غاليسيا للنمسا ، وجعلت كراكو جمهورية مستقلة ، ووضع ما بقى من بولندا القديمة تحت حكم القيصر على أن يحكمها حكما دستوريا . وأما فى ألمانيا فقد استولت النمسا على التيرول وسالزبرج من بافاريا ، فى نظير إعطائها بايريت وانسباخ و بلاتينات الرين ، وظفرت بروسيا بثلثى سكسونيا ومعظم الأراضى الواقعة على الشاطئ الغربى لنهر الرين فضلا عن وستفاليا على شاطئ الرين الأيمن ، وتريف وغيرها من الأراضى التى انتزعت من فرنسا على الشاطئ الأيسر ، وبذلك أصبح واجب الدفاع عن ألمانيا من الغرب منوطا ببروسيا بعد أن انسحبت النمسا من البلجيك وبلاد الرين وحولت نظرها شطر ايطاليا .

ومع أن هذه التسوية لم تؤثر فى تحسين العلاقات بين الحلفاء ، ودرء التصدع الذى حدث فى كتلة التحالف الأوربى ضد فرنسا ، فان عودة نابليون من ألبا حطم هذا المجهود العظيم الذى بذله تاليران ، وأعاد التضامن وحسن التفاهم بين الدول ثانية

مؤتمر ڤينا



(١) هاردنبرج (ألمانيا)
(٢) ولنجتون (انجلترا)
(٣) اسوبو (البرتقال)
(٤) سالدانا («)
(٥) لوينهيلم (سويسرا)
(٦) نووى (فرنسا)
(٧) مترنيخ (النمسا)
(٨) ديبن (فرنسا)
(٩) نسلرود (روسيا)
(١٠) بالملا (البرتقال)
(١١) كاسلريه (انجلترا)
(١٢) دالبرج (فرنسا)
(١٣) ويسنبرج (النمسا)
(١٤) راسومفسكى (روسيا)
(١٥) ستيوارت (انجلترا)
(١٦) لبرادور (اسبانيا)
(١٧) كلانكرتى (انجلترا)
(١٨) واكن
(١٩) جنتز
(٢٠) همبولت (ألمانيا)
(٢١) كاثكرت (انجلترا)
(٢٢) تاليران (فرنسا)
(٢٣) ستاكالبرج (روسيا)

حتى استطاعت حل باقى المسائل المعلقة حلا سريعا وهى مسألة إنشاء اتحاد يشمل ألمـانيا بأكملها بدلا من اتحـاد الرين، وكذلك تسوية باقى الأراضى الايطالية التى لم تتضمنها معاهدة باريس الأولى .

أما عن الاتحاد الألمـانى فيلاحظ أنه ظهـرت فى ألمـانيا أثناء الجهاد ضـد نابليون رغبة قومية وجهتها إقامة حكومة ألمـانية متحدة، تدفع عن الأقاليم المكونة لهـا شر جيرانها وتتولى تنظيم مصالحها، على مثـل ما فعله نابليون فى اتحاد الرين ، إلا أن الأمراء الألمـان آثروا المحافظة على استقلالهم، كما أن النمسا و بروسيا تنازعتا الزعامة، فلم يفز الألمـان فى آخر الأمر بأكثر من اتحاد اسمى لاقيمة له فى الواقع ، لأنه سلب من المجمع الذى أنشئ ليمثل الإمارات كل قوة تنفيذية، وقيدت سلطته بقيود ثقيلة جعلت تلك السلطة وهمية .

أما فيما يتعلق بالأراضى الايطاليـة فقد كانت المشكلة التى تواجه الدول ترتبط بمملكة نابلى الذى كان يحكمها ميرا قائد نابليون بتأييـد النمسا، وذلك مقابل تخليـه عن مناصرة فرنسا أبان النزاع الأخير . غير أن الدول وخاصـة فرنسا آثرت القضاء على كافة الآثار النابليونية فقررت فيا بينها عزل ميرا و إعادة المملكة الى أسرة البوربون .

هذه هى أهم المسائل التى تم الاتفاق عليها فى فيينا، وقد ضمنت جميعا فى معاهدة نهائية أطلق عليها « العهد الأخير Acte finale » ٩ يونيه ١٨١٥ ودعيت الدول الصغرى فى النهاية الى الموافقـة عليها فقط ، بحيث يمكن أن يقال أن مؤتمر فيينا لم ينعقد مطلقا بمعنى أن الدول المشـتركة لم تجتمع فى جلسات عامة للبحث والتشاور فى المسائل المطروحة أمامها .

حالة أوربا سـنة ١٨١٥ ــ وتتضـمن معاهـدة باريس الأولى ومعاهدات فيينا المتممة لها وكذلك معاهدة باريس الثانية التصفية النهائية لحروب الثورة بحيث أصبحت أوربا عام ١٨١٥ تقوم على القواعد الآتية :

(١) أعيدت فرنسا الى ما كانت عليه حدودها قبل الثورة اذا استثنينا افنيون التى ضمت اليها و بعض البلاد التى أجتزئت منها فى الشمال والشمال الشرقى .

(٢) حصلت انجلترا بفضل سيادتها البحرية على مالطه وجزائر الأيونيان فى البحر الأبيض، وغيانا وطباجو وترنيتى فى أمريكا، ومستعمرة الرأس فى أفريقيا وسيلان فى آسيا وجزيرة فرنسا فى المحيط الهندى وكلها أخذت من فرنسا أو من حليفتها هولندا واسبانيا .

(٣) ظفرت بروسيا باقليم "بوزن ودانتزيج فى بولندا"، كما ظفرت بثلثى سكسونيا فضلا عن وستفاليا على شاطئ الرين الأيمن، وتريف وغيرها من الأراضى التى انتزعت من فرنسا على الشاطئ الأيسر، وبذلك أصبح واجب الدفاع عن ألمانيا من الغرب مناطا ببروسيا خصوصا بعد أن انسحبت النمسا من البلجيك وحولت نظرها شطر إيطاليا .

(٤) حصلت النمسا فى ألمانيا على سالزبرج وفى إيطاليا على لمبارديا والبندقية فضلا عن دلماشيا وراجوس، ولكنها فقدت البلجيك وتخلت عن أملاك أخرى لبافاريا . وقد كان احتلال النمسا للمبارديا والبندقية عاملا ممهدا لسيطرتها على إيطاليا بأكملها وتحقيق حلم الامبراطورة القديم فى التسلط على هذه البلاد .

(٥) حصلت الروسيا على فنلندا السويدية فى البلطيق كما حصلت على بسارابيا العثمانية الواقعة على الطونه ودوقية وارسو البولندية على أن تبقى حكومة مستقلة تحت إشراف القيصر .

(٦) أحيطت فرنسا بسلسلة من الولايات الصغيرة لتحقيق عزلتها وضمان احتفاظها بالسلم، وكان هذا الحائل الدولى يتألف من مملكة الأراضى الواطئة التى تكونت من البلجيك وهولندا، واتحاد سويسرا الذى تألف من اثنتى عشرة ولاية تضمن الدول حيادها، ومملكة سردينيا التى اشتملت على سافوى ونيس وبيدمنت فضلا عن جنوه وملحقاتها .

(٧) احتفظت ألمـانيا بأكثر الممالك التى أنشأها نابليون وهى مملكة بافاريا — وقد أضيفت اليها لاندو وسـبير — ومملكة ورتمبرج ومملكة سكسونيا التى اجتزئ ثلثاها لمصلحة بروسيا . هذا فضـلا عن إحياء مملكة هانوفر التى كانت تتبع ملوك انجلترا . وفيما عدا هذه الولاية لم ترد أية إمارة من الإمارات التى قضى عليها نابليون وأدمجها فى غيرها الى حالتها الأولى، بحيث أصبح عدد الولايات الألمـانية ٣٨ بعد أن بلغت نحو أربعمائة . وقد تقرر إنشاء اتحاد من هذه الولايات لضمان الطمأنينة والسلم فى داخل البلاد وخارجها، ولكنه كان اتحادا اسميا لا قيمة له فى الحقيقة إذ كان فى الواقع عبارة عن مؤتمر من دول مستقلة لا جمعية تمثـل الشعب، وتعتمد على هيئة تنفيذية تتولى تنفيذ قراراته .

(٨) تقرر فيما يختص بايطاليا أن يسترد البابا أملاك الكنيسة، وتسترد أسرة البوربون أملاكها فى إيطاليا بعـد أن طرد منها ميرا قائد نابليون، وكذلك ترد باقى الولايات الايطالية الى أمرائها عدا ما خصص منها للنمسا وبيدمنت .

(٩) أعيدت شبه جزيرة ايبيريا الى ما كانت عليه قبل الثورة بمعنى أن اسبانيا والبرتغـال عادتا الى ملوكهما الأقدمين فى حين أن مملكة النرويج انتزعت من الدانيمارك وضمت الى السويد فأصبحت شبه جزيرة أسكندناوه مملكة متحدة تحت حكم برنادوت .

نقد التسوية العـامة — تلك هى السياسـة التى اتبعها الحلفاء لتسوية حساب أوربا بعـد زوال حكم نابليون . ويلاحظ أنه لم يراع فيما وضعوه من القرارات احترام مبدأ الحقوق الشرعية أو احترام مبدأ القومية الذى أثارته حروب نابليون بل جعـلوا توازن الدول ومطامعها وحدها أساس التسـوية فلا عجب اذا تزعزعت قواعد السـلم المرجى، وهدم البناء الشامخ الذى شيد حجرا بعد حجر إبان القرن التالى .


اوروبة
ومعاهدة فينا
سنة ١٨١٥
انجلترا
بحر الشمال
بحر البلطيق

على أننا يجب ألا ننسى مع كل هـذا أن الدول كانت ارتبطت إبان الحرب بعهود لم تربدا من الوفاء بها ، خوفا من اشتباكها فى حرب جديدة فى وقت ماكان أحوجها فيه الى السلم . كما يجب ألا ننسى أن الحرية فى فرنسا ولدت الغزوات والحروب، واقترنت بالجرائم وسفك الدماء فكان اضطهادها أمرا لابد منه فى نظر الذين نصبوا أنفسهم لاعادة السلام الى أوربا . ولا تغيب عن البال أيضا أن حركة الحرية فى ذلك الحين لم تكن قد بلغت درجة من القوة تستدعى الاهتمام والمراعاة ، واذاكان رجال مؤتمر فرساى فى سنة ١٩١٩ قد داسوا تلك الاعتبارات واستهانوا بها ، فلا عجب اذا أغفلها رجال السياسة الذين جلسوا فى موضعهم منذ نيف ومائة عام .

الفصل الثانى

الاتحاد الأوربى وعهد المؤتمرات

نشأة الاتحاد الأوربى — كما أن الثورة الفرنسية وجهت دعوة الحرية والإخاء والمساواة بين الأفراد، فكذلك وجهت دعوة المودة والصداقة بين الدول حتى تقضى على آثار الحروب وتنتشر ألوية السلام والطمأنينة فى العالم أجمع . ولما عصفت بأوربا ريح الحروب القائمة حول مطامع نابليون وتأثرت مرافق الحياة بأكملها بأعباء النضال الفادح تعززت الرغبة فى تحقيق تلك الأغراض، واتجهت الأنظار الى إنشاء عصبة دولية تتولى تنظيم علاقات الشعوب المختلفة كما تتولى الحكومات الخاصة تنظيم علاقات الأفراد .

على أن هذه الفكرة لم تكن وليدة عهدها بل كانت دائما وليدة الحوادث والمنازعات التى عصفت بالعالم الأوربى، ففى حرب الثلاثين سنة شاهد جرتيوس — مؤسس القانون الدولى الحديث — الانسانية متجردة عن كل صفاتها فنادى بالتحكيم وتنظيم شؤون الحرب — اذا دعت الحال — على مبادئ يعترف بها العالم أجمع . ولما قامت الحروب الدينية الطويلة فى أوربا وضع هنرى الرابع ملك فرنسا مشروعه الأعظم «Grand Design» الذى كان يتضمن انشاء جمعية دولية تتولى حسم المنازعات وتأمين العالم من مخاوف الحروب الدموية التى طالما زعزعت أركان الحياة فى أوربا ، على أن مقتل هنرى الرابع طوى هذا المشروع الى أن نشبت حروب لويس الرابع عشر، فأذاع برنارد سان بيير مشروع السلم الدائم ومؤداه اتخاذ صلح يوترخت الذى ختم حروب القرن السابع عشر قاعدة نهائية لرسم الحدود بين الممالك المختلفة مع إنشاء اتحاد دولى للفصل فيما قد ينشأ بينها من المنازعات . غير أن هذه الأصوات الداعية للسلام خفتت وسط الضجة القائمة على الفتح والاستعمار

فى القرن الثامن عشر، حتى اذا قامت حروب نابليون وتعرضت أوربا لأشد النكبات والكوارث تطلع العالم الى تأليف حلف أوربى تصان به الحياة والأموال ويستتب به الهدوء والسلام .

على أن الروح التى سادت فى مؤتمر ڤيينا لم تكن — كما رأينا — روح التفاهم والتعاون بين الدول للمصلحة العامة أو روح العمل لتعويض الانسانية عن آلامها المفجعة واتخاذ الوسائل التى تكفل درء المخاطر عنها فى المستقبل، بل كانت الروح التى تملى قرارات المؤتمر تنصرف الى اعادة الحقوق الشرعية لأصحابها بقدر المستطاع مع وضع اتفاقيات قليلة الأهمية للاحتفاظ بالتوازن والسلم فى أوربا . أما المسألة الكبرى الشاغلة للأذهان وهى مسألة السلم الدائم فى أوربا وإنشاء اتحاد للتحكيم بين الدول لمنع أسباب الحرب فلم تلق إلا نجاحا يسيرا كما يتضح من دراسة المشروعات التى وضعت لتحقيق هذه الأغراض مما يدل على أن أوربا فى عام ١٨١٥ كانت لا تزال تشبث بالمصالح الخاصة وتتنازع فيما بينها نزاعا أفضى فى النهاية الى فشل كل هذه الآمال .

المحالفة المقدسة — ويعزى أول مشروع ظهر لتدعيم السلم الأوربى الى الاسكندر قيصر الروسيا الذى عرف بنزعاته السامية وعواطفه الكريمة ، كما عرف بالتردد وعدم الثبات على المبدأ، ففى فاتحة حياته السياسية أظهر الاسكندر ميلا قويا الى الأخذ بالمبادئ الحرة فى بلاده وغيرها، كما أيد مشروع الاتحاد الأوربى لأنه يمتزج بفكرة السلم المرجى فى داخل البلاد وخارجها . فما كاد يتم وضع قرارات الصلح فى ڤيينا حتى اقترح الاسكندر فى سبتمبر سنة ١٨١٥ تأليف حلف مقدس غايته التعاقد على الحكم وفق تعاليم الدين المسيحى والتعامل بين الملوك كاخوة يتبادلون المشورة والمعونة حتى يمتنع التضارب والمنازعات التى تفضى الى الحروب وما يقترن بها من الخراب والدمار .

على أن هذا المشروع لم يلق التأييد الكافى من باقى الدول لأنه تضمن فكرة غامضة لا تصلح لتنظيم العلاقات الدولية من جهة، ولأن النص على تبادل المشورة

والمعونة من جهة أخرى كان من شأنه أن يثير مخاوف الدول فى أمر تقييد حريتها وتصرفها، ولذلك أبت انجلترا إمضاء هذه المحالفة التى اعتبرتها على حدّ تعبير وزيرها "كاسلريه" قطعة من التصوّف واللغو لاقيمة لها. "أما مترنيخ" وزير النمسا فقد أمضاها على اعتبار أنها مظاهرة جوفاء لا طائل تحتها، ولهذا قتلت الفكرة فى مهدها ومن غير أن تعطى أية فرصة لتنفيذها، وكل ما تركته من الأثر أن اعتقدت الأمم أن الملوك قد تحالفوا ضدّها فى حين أن المحالفة المقدّسة، كما قال مترنيخ فى مذكراته لم تتضمن القضاء على حرية الشعوب ولا تأييد الاستبداد والحكم المطلق، إنما كانت تتضمن محاولة من قبل القيصر فى تطبيق المبادئ المسيحية على تصرفات الدول السياسية .

المحالفة الرباعية — على أنه اذا كان مشروع القيصر قد تحطم لأنه تضمن مبادئ غامضة وغير محدودة ، فكذلك تحطم النظام الذى وضعته الدول الأربعة الكبرى وعرف فيما بعد باسم نظام مترنيخ (Metternich System) لأنه تحوّل من الأغراض المعينة التى حدّدت له بادئ الأمر الى أغراض عامة كان من شأنها تقييد حرية الدول فى سياستها العامة وتهدّدها بالتدخل فى شؤونها الخاصة. ويرجع هذا النظام الى أن الدول أرادت اتخاذ الوسائل التى تكفل الدفاع عن التسوية التى تمت فى باريس وقيتنا من الأخطار التى كانت تهدّدها لا سيما من جانب فرنسا التى كانت لا تزال تضطرب بآثار الحروب والتقاليد النابليونية، وذلك بأن تعاقدت فى نوفمبر سنة ١٨١٥ على العمل معا لتنفيذ مواد الصلح وضمان السلم وتوثيق عرى الصداقة بين الدول الأربع المتعاقدة وهى بروسيا والنمسا وانجلترا والروسيا بأن يجتمع مندوبون منها من وقت لآخر لاتخاذ الوسائل التى تضمن استقرار السلم وسعادة الشعوب . وهذا معناه أن الدول لم تتعاقد على الاحتفاظ بالسلم ضدّ فرنسا وحدها بل تعاقدت على الوقوف موقف الهيمنة على شؤون أوربا كلها . وهذا ما جعل الاتحاد من بداية الأمر مهدّدا بالانحلال، شأنه فى ذلك شأن المحالفة المقدّسة، طالما كانت أغراضه عامة وغير محدودة بحيث توجب التنافس والانقسام بين الدول . وقد تبين فعلا

اختلاف وجهات النظر بين الدول فى أغراض الاتحاد فى المؤتمرات التى عقـدت للنظر فى بعض المشاكل التى كانت تهم العالم الأوربى تطبيقا للمبادئ التى احتـواها برنامج الاتحاد .

مؤتمر اكس لاشابل — ففى عام ١٨١٨ عقد مؤتمر فى اكس لاشابل للبحث فى عدة أمور : أهمها سحب جيوش الاحتلال من فرنسا والنظر فى قبولهـا ضمن العصبة الأوربية بعد أن أوفت بتعهداتها المـالية وأظهرت رغبتها فى الاحتفاظ بالسـلم واحترام المعاهدات . وقـد وافقت الدول فعـلا على سحب الجيوش من فرنسا، وأما قبولها ضمن العصبة الأوربية فقد أدى الى اختلاف فى الرأى . ذلك أن الروسيا أعلنت أن مجرّد انضمام فرنسا الى الاتحاد القديم يناقض نصوصه الصريحة فيما يختص بتأمين أوربا ضدّها قبل كل شىء ، وان من الواجب أن يوضع أساس جديد لعصبة أوربية عامة تشترك فيها كافة الدول الكبرى والصغرى منها، وتكون مهمتها مكافحة خطرين عظيمين يهدّدان السلام وهما الثورات والتطرف فى الحكم المطلق، وكذلك المحالفات المنفردة التى تؤدّى الى هدم العصبة . وهذا يدل على أن القيصر اشتدّت هواجسه من أثر الانقلابات العنيفة التى نشأت فى أوربا فى ذلك العهد سواء من جانب الأحرار أو من جانب الرجعيين، فدعا الدول الى التعاون لمعالجة الحالة حتى يستقر السلام ويضمن الملوك عروشهم التى أقرتها المعاهدات .

ومع أن النمسا كانت لا تعارض فى إقامة دكتاتورية أوربية لمناهضة الحركات القومية على الاطلاق، فانها رأت أن اتجاه العصبة الى محاربة الحكم المطلق قد يجعل الاتحاد الأوربى خطرا عليها ، ولذلك رفضت قبول هـذه الدعوة ، شأنها فى ذلك شأن انجلترا التى أبت بلسان "كاسلريه" أن تشترك فى عصبة قابلة لاحتمالات وتفسيرات لا حدّ لها، عصبة تقيد حريتها فى العمل وتنذر بالتدخل فى شؤون الدول . ولذلك اقترحت تجديد المحالفة الرباعية وقبول فرنسا ضمن أعضائها على ما فى ذلك من التناقض لأغراض المحالفة . وقد حسم الخلاف أخيرا بتجديد التحالف القديم ضدّ فرنسا من

جهة، ومن جهة أخرى دعيت فرنسا الى الاشتراك مع الدول فى ضمان السلم على أساس المعاهدات، واشترط ألا ينظر فى شؤون أمة بغير اعلانها وحضور ممثليها . وهـذا معناه فى الحقيقة أن الدول تخلصت من أزمة عظمى بالاتفاق على صيغة غامضة يصح أن تفسر تفسيرات عديدة طبقا لمصالحها الخاصة كما صرح جنتز عن أعمال هـذا المؤتمر .

سياسة مترنيخ (Metternich Sysem) — على أن الحوادث نفسها لم تلبث ان ساعدت على تبديد هذا الغموض والابهام، فان اضطراب الدول فى ذلك العهد بالثورات القومية سواء أكان فى فرنسا واسبانيا أم فى ألمانيا وايطاليا جعل مترنيخ وزير النمسا يخشى أن يمتد لهيبها الى امبراطوريتها القائمة على الحكم المطلق فعمل على اتخاذ العصبة الأوربية وسيلة لإخضاع الأمم وإخماد كل نزعة فيها الى التمرد والعصيان . ومما ساعد مترنيخ على تنفيذ هـذه السياسة أن الإسكندر قد أثيرت مخاوفه أيضا من جراء الاضطرابات العنيفة التى ظهرت فى أكثر الدول الأوربية وفى الروسيا نفسها، فتخلى عن مبادئ الحرية التى تشيع لها فى أوائل حياته وانضم الى وزير النمسا فى الحملة التى أعدّها لاخماد صوت الحرية فى كل مكان .

مؤتمرا ترباو وليباخ (١٨٢٠ — ١٨٢١) — وقد كانت فاتحة المسائل التى اتخذها مترنيخ وسيلة لتنفيذ سياسته مسألة نابلى التى نشبت فيها ثورة واسعة النطاق بتأييد الجمعيات السرية المعروفة بالكاربونارى بحيث أرغم الملك فرديناند على أن يحكم بلاده حكما دستوريا . على أن هذا الانقلاب كان يؤثر فى مصالح النمسا ويدعوها الى التدخل لسببين : (أولا) لأن ولاياتها الايطالية تعرضت لخطر الدعوة الثورية التى قامت فى الجنوب . (وثانيا) لأن النمسا تعاقدت مع ملك نابلى على أن تعاونه فى مقاومة أى انقلات يؤدى الى نقض المبادئ التى تسير عليها النمسا فى حكم ولاياتها الايطالية .

ومع أن الدول لا سيما انجلترا كانت لا تعارض بتاتا فى تدخل النمسا لقمع الثورة بصفتها الخاصة، فان مترنيخ أصر على أن يفوض من قبل الدول فى أمر هذا التدخل حتى يستند على نفوذها الأدبى والسياسى من جهة، ويظفر من جهة أخرى بتقرير مبدأ التدخل لمحاربة الثورات بصفة عامة. غير أن كاسلريه وزير انجلترا رفض بتاتا مبدأ التدخل الأوربى فى مثل هـذا الغرض الذى لا يمكن أن تنطبق عليه مبادئ العصبة وهى ضمان السلم والمعاهدات، وذهب الى أنه ليس لآية دولة أن تتدخل فى الشؤون الداخلية لأية دولة أخرى إلا اذا كانت هناك معاهدات خاصة تبيح مثل هذا التدخل. غير أنه لما كانت الروسيا وبروسيا قد قبلتا وجهة النظر النمساوية وأصبح مما لا مناص منه اجتماع المؤتمر فى ترباو فقد صرح كاسلريه بأنه لا يمتنع عن حضور الاجتماع بشرط عدم الاشتراك فى المناقشات التى تدور فيه، وقد انضمت فرنسا الى انجلترا فى سياستها مما كان يشير الى انقسام أوربا الشرقية والغربية فى مبادئ السياسة العامة.

والواقع أنه ما كاد يجتمع المؤتمر فى الميعاد المعين حتى أصدرت دول الشرق الثلاث قرارا بالتدخل لمحاربة الثورات جاء فيه :

«إن البلاد التى تتغير حكومتها على أثر قيام ثورة فيها تطرد من المجمع الأوربى وتبقى كذلك حتى تقدم الضمانات الكافية عن عودة النظام فيها، واذا نشأ عن هذا التغيير خطر يهدد السلام العام فان الدول تتخذ كافة الوسائل السلمية والقهرية اذا اقتضى الحال لإرجاع الامن الى نصابه وإعادة الأمم المنشقة الى دائرة العصبة».

وقد احتجت فرنسا على هذا القرار بشىء من التحفظ، وأما كاسلريه فقد أعلن صراحة للمرة الثانية أن هذا المبدأ يمس استقلال الدول ويعرضها لاغارة غيرها عليها

ولا يمكن أن تقبله انجلترا التى تستند حكومتها على ثورة ١٦٨٨ ولكن احتجاجه لم يأت بنتيجة ما، وانفض المؤتمر على أن يجتمع فى ليباخ فى العام التالى للنظر فى شؤون نابلى اذا فشل توسط الدول توسطا سلميا لارجاع الحكم الى نصابه القديم .

ولما كان أهل نابلى قد أصروا على الاحتفاظ بحقوقهم المكتسبة التى لا يمكن أن تنقض بحال ، فقد دعى فرديناند الى المؤتمر الذى تحدد لاتخاذ الوسائل التى تضمن نفاذ مشيئة الدول ،على ان هذه الدعوة أثارت ثائرة الشعب وجعلته يرغم الملك على أن يقسم باحترام الدستور قبل مغادرته البلاد، الا أن فرديناند أعلن بعد خروجه من نابلى أنه فى حل من الارتباط بهذا القسم الذى انتزع منه بوسائل الضغط والإرهاب، ولم يلبث أن طلب الى النمسا فى المؤتمر اعادة الملكية المطلقة فى بلاده، فأجيب الى ما طلب وزحفت الجنود النمساوية الى نابلى ، وأعادت الحكم المطلق الى أشد ما عرف فيها من قبل .

مؤتمر فيرونا ١٨٢٢ — فى هذه الأثناء تفاقمت الثورة التى نشبت فى اسبانيا ومستعمراتها منذ عام ١٨٢٠ تفاقما استرعى أنظار الدول، ذلك أن الملك فرديناند السابع الذى أرغم على اعلان الدستور فى بلاده كان لا ينفك عن تحريض الملكيين على قمع حركة أعدائهم ومنافسيهم أملا فى إنقاذ الملكية الشرعية من مخالب المتطرفين، وقد أدى هذا التحريض الى نشوب حرب أهلية بين الفريقين لاسيما فى المقاطعات الشمالية التى قررت إنشاء وصاية تتولى الحكم، هذا الى انتقال عدوى الثورة الى المستعمرات، مما جعل الأمبراطورية الاسبانية بأسرها مهدا للفوضى والاضطراب.

لذلك اتجهت أنظار الدول الى هذا الخطر لا سيما وان وزارة ريشليو المعتدلة فى فرنسا خلفتها وزارة من الملكيين الذين كانوا يرغبون فى مناصرة الملكية الشرعية والدفاع عنها فى اسبانيا، فاتفق الرأى على عقد مؤتمر جديد فى فيرونا للبحث فى هذه

الشؤون، على الرغم من أن انجلترا أصرت على الاحتفاظ بحريتها فى العمل وعدم الانضمام الى إجماع الدول، لادفاعا عن المبدأ العام الذى سارت عليه فى المؤتمرات السابقة وهو عدم التدخل فى شؤون الدول الداخلية فقط وانما لأن التدخل فى هذه الحالة كان من شأنه أن يعيد الى اسبانيا النفوذ الفرنسى الذى حاربته بالمال والرجال، ويقضى على الامتيازات التجارية التى كانت لها فى اسبانيا ومستعمراتها . وقد تعززت هذه السياسة حينما تولى كاننج وزارة الخارجية بعد كاسلريه الذى انتحر قبيل انعقاد المؤتمر ، فقد كان عماد الوزارة فى السياسة التى جرت عليها فى مقاومة التدخل الدولى، وكان يفضل أن تحطم أركان العصبة عن أن تنتزع من انجلترا حريتها فى العمل، خلافا لكاسلريه الذى كان يمانع فى سياسة التدخل مع الإبقاء على العصبة .

فلما اجتمع المؤتمر فى أكتوبر ١٨٢٢ ظهر اختلاف الدول للعيان، ذلك ان فرنسا أبلغت الدول عزمها على التدخل لقمع الحركة فى أسبانيا ورغبت اليها جميعا أن تؤيدها بنفوذها الأدبى والسياسى، فأجابت النمسا والروسيا و بروسيا بعزمها على تأييد هذا التدخل . أما ولنجتن مندوب انجلترا فقد أعلن أن بريطانيا لا تشترك فى أمر هذا التدخل ولا تخاطب الحكومة الاسبانية فى شأن أعمالها الداخلية التى ليس لأية دولة أن تعترض عليها ، ولم يلبث أن انسحب نهائيا من المؤتمر، فتحطم بهذا الانسحاب قواعد الاتحاد الدولى، وانفسح المجال لكاننج لأن يرعى مصالح دولته طبقا لتقاليدها ونزعاتها الخاصة .

والواقع أنه ما كادت فرنسا تتولى قمع الثورة فى اسبانيا وتنتصر عليها حتى خشيت انجلترا أن تنزع الدول الى إخضاع المستعمرات أيضا، فقررت أن تتخذ الوسائل التى تضمن الاحتفاظ بمصالحها التجارية العظيمة، وذلك بأن تعمل على استقلال تلك المستعمرات حتى توازن ما يمكن أن تحصل عليه فرنسا من المزايا فى اسبانيا . وقد ساعد انجلترا على اتباع هذه الخطة أن الولايات المتحدة أعلنت بلسان منرو رسالتها الشهيرة التى احتجت فيها على دعوى الدول الأوربية فى حق التدخل فى شؤون

أمريكا الجنوبية ، وقررت أن مثل هذا التدخل تعتبره الولايات المتحدة أمرا غير ودى ، لذلك أسرع كاننج الى عقد محالفات تجارية عديدة مع المستعمرات الاسبانية ، ولم يلبث أن اتخذ الخطوة النهائية فى سبيل الاستقلال بأن أرسل مفوضين سياسيين الى هذه الولايات ، وانتهى بان اعترف باستقلالها نهائيا عام ١٨٢٥ "حتى ينشئ" كما قال "عالما جديدا يوازن ما يحصل عليه غيره من الفوائد فى العالم القديم" .

وهكذا كانت سياسة انجلترا ضربة قاضية على العصبة ، على أن هناك ما يبرر تصرفها هذا وهو أن الاتحاد الذى أنشئ لغرض ضمان المعاهدات والاحتفاظ بقواعد السلم بين أمة وأخرى استخدمته الدول الأخرى للتدخل فى شؤون الممالك الخاصة وجعلته قاعدة لمناهضة مبادئ الحرية والقومية فى أوربا بأجمعها .

الباب الثالث

العهد الرجعى فى أوربا

١٨١٥ – ١٨٣٠

لم تكد تستقر الأحوال فى أوربه بعد هزيمة نابليون، حتى استقلت الرؤوس المتوجة عروشها من جديد، وأنشأت تسترد نظام العهد البائد بكل إشاراته ومعانيه، وتطمس معالم الثورة وآثارها، بشدة وعنف، تتضاءل أمامها شدة العهد الخالى. وكانت شخصية مترنيخ هى الشخصية القوية البارزة فى وسط ذلك المحيط الذى كان يعج بخيبة الآمال للحرية والأحرار، على أن بذور الثورة كانت قد نثرت فى كل الأرجاء، فلم تلبث أن نمت قوة حيويتها الكامنة. ومهما كانت رغبات الملوك وأنصارهم من أشياع القديم، فقد كان لا بد لهم أن يطأطئوا الرؤوس عاجلا أو آجلا أمام المبادئ الجديدة. إلا أن هذا الانتصار لم يكن ثمرة ساعة أو يوم أو جيل، بل ثمرة كفاح مستمر، وجهاد طويل لم يمل.

الفصل الأول

فرنسا

كان لويس الثامن عشر شديد التعلق بمميزات الملكية القديمة، وكان يرغب فى استئناف تقاليد العهد الذى فصلته فترة من «الإجرام الهائل» كما دعا الثورة، ولذا كان يعتبر سنة ١٨١٤ السنة التاسعة عشرة لا السنة الأولى من حكمه، إلا أنه مع هذا كان بعيد النظر، شديد الحرص على العرش الذى اعتلاه بعد سنين من الاغتراب والمنفى، فرأى منذ البداية أن العودة الى النظام القديم ضرب من الحمق يذهب بالملك وصاحبه، فوطد العزم على قبول مبادئ العهد الجديد قدر المستطاع، إلا أنه لم يتخذ مع هذا خطة الحزم فى تنفيذ رغباته وارادته، حيال رغبات وارادة الأشراف المهاجرين الذين عادوا بعودته وعلى رأسهم الكونت دارتوا وارث العرش، وأخذوا يعملون على إرجاع مظاهر العهد القديم، كأنما الثورة لم تكن، وكأنما الملكية لم تقترن عودتها بشىء من النكبات الكبار التى أصيبت بها البلاد.

سياسة لويس — وضع لويس عند جلوسه على العرش دستورا — ٤ يونيه ١٨١٤ — احتفظت فيه فرنسا بالأنظمة القضائية والادارية التى ورثتها عن الثورة ونابليون مع ضمان حقوق الأفراد فى المساواة والحرية الشخصية والدينية وإطلاق حرية الصحافة ضمن حدود تعينها القوانين. وأما النظام السياسى فقد أقيم على أساس يشبه النظام الانجليزى اذ وضعت السلطة التشريعية وهى سلطة سن القوانين وفرض الضرائب فى يد الملك ومعه مجلسان: أحدهما وراثى للأعيان. والآخر نيابى ينتخبه الشعب وفق قواعد معينة[1]. وأما السلطة التنفيذية فقد تولاها الملك بمعاونة وزراء مسئولين، فأصبح من حقه قيادة الجيوش وإمضاء المعاهدات

(١) اشترط أن يكون سن الناخب ٣٠ وما يدفعه من الضرائب ٣٠٠ ف والمنتخب ٤٠ وما يدفعه من الضرائب ١٠٠٠ ف وجعلت مدة انعقاد المجلس خمس سنوات على أن يجدد خمس الأعضاء سنويا.

والتعيين لكل الوظائف وتنفيذ القوانين، وحل مجلس النواب بشرط ألا تتجاوز مدة العطلة ثلاثة شهور. ولكن الدستور ترك مجالا كبيرا للشرح والتأويل لا سيما فيما يتعلق بقواعد الانتخب، وحرية الصحافة، وانتخاب الوزارة، فأخذت الأحزاب المختلفة تستخدم هذا الغموض فى مصلحتها .

ذلك أن الأمة انقسمت حيال الدستور الى ثلاثة أحزاب : الملكيون المتطرفون الذين كانوا يعملون على هدم قواعد الحرية التى قضى عليها الدستور، والمستقلون الذين كانوا يشايعون مبدأ سيادة الأمة ويعيبون على الدستور قصوره عن تحقيق أعلى مبادئ الديموقراطية، والملكيون الدستوريون الذين كانوا يقبلون الدستور كما هو على اعتبار أنه يضمن امتزاج العناصر المتباينة وإيجاد جو جديد للتفاهم بين أنصار الثورة وأنصار العهد القديم .

الملكية المتطرفة (١٨١٥ – ١٨١٦) — ولما كانت عودة الملكية قد اقترنت بأشد أنواع المظالم والاضطهاد إزاء أنصار نابليون ورجال الثورة فقد استطاع الملكيون المتطرفون فى ظل هذا الإرهاب الأبيض أن يحرزوا أغلبية المقاعد فى مجلس النواب، ولذلك أطلقوا العنان لسياسة العنف والتطرف ومطاردة أشياع الثورة وتقييد الحرية الشخصية وحرية الصحافة على الرغم من مقاومة الوزارة المعتدلة التى كان يرأسها "ريشليو" حتى خيل للناس أنهم على أبواب انقلاب جديد لا يقل خطورة عن الانقلاب الماضى، وأن فرنسا تتعرض لأعظم الأخطار من جراء هذه الخطة العمياء، فقررت الوزارة حل هذا المجلس اعتمادا على روح الاستياء التى ظهرت فى أنحاء البلاد، وكانت النتيجة أن انتقلت الأغلبية فى المجلس الجديد الى طائفة المعتدلين من فريق الملكيين الدستوريين .

الملكية المعتدلة (١٨١٦ – ١٨٢٠) — نظمت فرنسا شؤونها المالية فى هذا العهد الجديد وأعيدت الطمأنينة والثقة بالبلاد حتى أن الدول قررت فى مؤتمر أكس لا شابل سحب جنودها من فرنسا كما مر بنا، وإدخال هذه الدولة ضمن اتحاد الدول العظمى، على أن أطلاق حرية الصحافة فى هذا العهد

وتعـديل قواعد الانتخاب تعديلا يطابق مبادئ الأحرار كان من شأنه ازدياد عدد الجمهوريين وأعداء الملكية فى المجلس زيادة مقلقة فحاول ريشليو أن يقيـد شروط الانتخاب مرة أخرى، ولكن الملك أبى تأييد سياسة التوفيق بين عنصرى الأمة من أنصار الثورة وأنصار الملكية، فاعتزل ريشليو الوزارة وخلفه "ديكاز" الذى كان يؤمن بمبدأ التمشى مع رغبات فرنسا الحقيقية، حتى يأمن جانب الشعب وتضيق الهوة التى كانت تفصل الملك عن الرعية ، إلا أن دخول الكثيرين من رجال الثورة الغابرين أمثال لافييت وجريجوار فى المجلس النيابى، وحادث مقتل دوق برى[1] ثانى ولدى الكونت دارتوا ولى العهد بتأثير المهيجين — كل ذلك عزز سياسة الملكيين المتطرفين الذين كانوا يعملون جهدهم فى إسقاط وزارة ديكاز حتى فازوا أخيرا بمـا كانوا يبتغون .

عودة الملكية المتطرفة (١٨٢٧ – ١٨٣٠) — أسـندت الوزارة حينئذ الى «فيليل Villéle» زعيم الرجعيين، فعدلت قوانين الانتخاب لمصلحة حزبه، وأعيـدت الرقابة على الصحف والمطبوعات ، وأرسلت حمـلة فرنسية الى اسبانيا عام ١٨٢٣ لإخماد الثورة فيها، هذا الى تأليف مجلس جديد من الرجعيين الذين يسيرون فى طريق العنف الى آخر مداه . ولمـا توفى لويس الثامن عشر عام ١٨٢٤ وخلفه أخوه شارل العاشر وهو الكونت دارتوا زعيم المهاجرين، أطلق العنان للسياسة الرجعيـة التى طالمـا سعى فى حمل أخيه على قبولهـا ، فأعاد الى الكنيسة سلطانها المطلق، ووضع التعليم بيـد الجزويت المشايعين للملكية المطلقة، ووهب الأشراف المهاجرين تعويضا كبيرا عن أملاكهم التى فقـدوها، كما أمر بحل الحرس الأهلى، وطرد بقية ضباط نابليون من الجيش . على أن هـذه السياسة المتطرفة التى كانت لا تلائم بتاتا حالة البلاد ، أثارت روح المقاومة بين الملكيين أنفسهم فضلا عن الأحرار الدستوريين بحيث تعذر على الحكومة الاحتفاظ بمركزها ومقامها فى البلاد ، فتقرر حل المجلس رغبة فى التخلص من جمهور المعارضين .

---

(١) كان هذا الدوق يهم الملكيين بنوع خاص لأنه كان الوحيد الذى كان يرجى أن تحفظ بواسطته سلالة البوربون من الانقراض .

النزاع بين الملك والشعب (١٨٢٧ - ١٨٣٠) - تآلف خصوم الوزارة إزاء هـذا الخطر وثقوا عرى التحالف بينهـم ، وألفوا حزبا يجمع الملكيين والأحرار والجمهوريين من أشياع لافييت وجيزو وثيير واستطاعوا بفضل هـذا التآلف أن يفوزوا بأغلبية عظمى فى الانتخابات الجديدة حتى اضطر الملك أن يخضع للظروف القاهرة ويؤلف وزارة جديدة بزعامـة «مارتينياك Martignac» الذى عرف ببعد النظر وتوخى جانب الاعتدال. غير أن هذه الوزارة لم تفلح فى إرضاء الملكيين ولا الأحرار، فتضافر عليها الفريقان حتى سقطت ، وبسقوطها تمهد السبيل مرة أخرى للرجوع الى سياسة العنف والشدّة التى أوردت الملكية حتفها .

ذلك أن الوزارة عهدت الى «بولنياك Polignac» من زعماء الرجعيين الذين لا يترددون فى اتباع أقسى وسائل العنف والإرهاق ، فذعرت فرنسا من أثر هـذا التعيين ، وعقدت الخناصر فى داخل المجلس وخارجه على مقاومة هذه السياسة الجديدة فلما بدأ فصـل الجلسات العادية عام ١٨٣٠ أعلن الملك عزمه على استخدام القوة اذا اتخذ المجلس خطة العمل لعرقلة أعمال الحكومة ، فأجاب المعارضون بتحـدى الملك وإرادته ، فأمر الملك حينئذ بحل المجلس ، ولكن الانتخابات الجديدة أسفرت عن زيادة عدد المعارضـين ، فقرر الملك فى ٢٦ يوليه سـنة ١٨٣٠ — اعتمادا على الانتصارات التى أحرزتهـا الجنود الفرنسية فى الجزائر — الغاء الانتخابات وتحـوير قانون الانتخاب وتقييد الصحافة ، فانقطع بذلك سبيل المعارضة الدستورية ، ولم يبق إلا سبيل المقـاومة الفعلية ، فلجأ المعارضـون الى إثارة الشعب الحانق على الملكية وأنصارها ، وكانت ظروف الأحوال كلها فى مصلحتهم ، فان الحكومة لم تتخذ الاحتياط الجدى لمـا عساه ينشأ من المقاومة ، وكان الجنود لا يرغبون فى مقاتلة إخوانهـم ، لاسيما بعد أن رفعوا العلم المثلث الألوان الذى كان يحرّك قلب كل وطنى ، فلم يمض يومان حتى استولى الشعب على باريس ؛ وأصبح مطلق التصرف فيهـا . وحينئذ تألفت هيئة مؤقتة تتولى الدفاع عن الأموال والأرواح فأعادت تنظيم الحرس الأهلى ريثما تشكل الحكومة الجديدة .

لويس فيليب ملك الفرنسيين — اضطر شارل اذ ذاك أن يسحب قراراته ولكن بعد فوات الفرصة، فقد كان ثير وحزبه من الملكيين الدستوريين قد قرروا خلعه وترشيح دوق أورليان مكانه، وذلك لأن الدول ما كانت ترضى باقامة جمهورية ولأن دوق أورليان كما قال أصدقاؤه "معروف بشدة إخلاصه لمبادئ الثورة، ولأنه اشترك فى الدفاع عنها فى موقعة جيماب وحمل العلم المثلث الألوان تحت نار الأعداء، ولا يتأخر عن حمله مرة ثانية، فضلا عن أنه يقبل الدستور ويفهمه كما يفهمه الأحرار، ويعتبر نفسه مدينا بعرشه لارادة الشعب". لكل هذه الأسباب اجتمع مجلس النواب المنحل وقرر بادئ الأمر انتخابه وكيلا عاما للملكة، فلما دخل باريس واستطاع استرضاء لافييت زعيم الجمهوريين الذين تحملوا أعباء الثورة نودى به ملكا على البلاد، على أن هذا الاعلان لم يتم إلا بعد أن أقسم فيليب يمين الاخلاص للدستور والتعديلات التى أدخلت عليه: وهى تتلخص فى توسيع قواعد الانتخاب ومنع الرقابة على الصحافة وتجديد الحرس الأهلى والنص على سيادة الأمة صراحة واعتبار الملك حاكما بارادة الشعب، بحيث يكون لقبه ملك الفرنسيين لا ملك فرنسا. أما شارل العاشر فقد أسقط فى يده إزاء هذه الرغبة العامة واضطر أن يغادر فرنسا الى انجلترا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٣٠

موقف الدول — بهذا تمت ثورة يوليه سنة ١٨٣٠ تلك الثورة التى ترجع الى عناد شارل وإصراره على الخطأ بحيث لو كانت هذه الأزمة حدثت فى عهد شارل الثامن عشر ما كانت كلفته غير إسقاط الوزارة، على أن هذا الانقلاب كاد يؤدى الى مشاكل خارجية خطيرة لما تضمنه من خرق التعاقد على تأييد أسرة البوربون، ولكن الرابطة الأوربية كانت قد انحلت كما رأينا، وكانت الدول فى شغل بمصالحها الخاصة عن مشاغل فرنسا، فلم تجمع كلمتها على التدخل خصوصا بعد أن أيقنت أن هذا الانقلاب لا يؤدى الى تهديد السلم فى أوربا كما وقع إبان الثورة الأولى، فلم تلبث ان اعترفت بالنظام الجديد بعد قليل.

الفصل الثانى

ايطاليا

تمهيد — سقطت إيطاليا عقب انتهاء الدولة الرومانية الغربية فى يد القوط الشرقيين، وتبعهم فى الاستيلاء عليها اللبارد ثم شارلمان، وبعد معاهدة فردان انتقلت ايطاليا الى حفيدة لوثير، وأعقبته فى السيادة عليها أسرات ألمانية متعددة آخرها أسرة هابسبرج . على أن هذه الأسرات لم يكن لها من السلطة إلا الاسم نظرا لمعارضة البابوية فى تأسيس حكومة موحدة فى البلاد، فضلا عن تشبث الولايات والمدن المختلفة فى الإبقاء على استقلالها الذى اكتسبته فى عهد الفوضى والتنازع على الحكم بين البابوية والأمبراطورية .

تأثير حكم نابليون — لذا بقيت ايطاليا اسما جغرافيا حتى نهاية القرن الثامن عشر، حين بدأ نابليون فتوحه فيها، فأخضع ولاياتها المتفرقة الى سلطات تستمد أوامرها من إرادته وحده[1]، وعمل على تحريرها من كثير من القيود التى كانت ترسف فيها كبقايا النظام الاقطاعى وسلطة رجال الدين، هذا الى توحيد القانون والإدارة فى البلاد، وتزويد الايطاليين بحكومة سديدة تسهر على مصالح الشعب وتعنى بأمره، بعد أن كانت ايطاليا مهد الفوضى والاضطراب أجيالا عديدة . فلا عجب، وقد ظهر فضل الحكومة المتحدة القوية، أن تحرك ذوو العقول المفكرة لتحقيق ذلك الاتحاد فى شكل آخر هو السيادة القومية، ولكن الدول أغفلت

(١) هذه السلطات هى : (١) مملكة ايطاليا وكانت تطلق على شمال ووسط ايطاليا أى بيدمنت وجنوه وتسكانيا و بارما وأملاك البابا، وكان يوجين بوهارنيه يحكمها نيابة عن نابليون . (٢) مملكة نابلى وقد عين أخاه يوسف ملكا عليها ثم أعقبه ميرا صهر نابليون . (٣) غرب لمبارديا وقد ضمت الى فرنسا .

فى مؤتمر ڤينا هذه النهضة الجديدة وآنقادت الى رغبة النمسا فى إعادة البلاد الى حالة التقسيم القديم[(١)] .

الحالة عقب مؤتمر فيينا — وهكذا رجعت ايطاليا التى وهبتها الطبيعة كل مميزات البلاد الموحدة الى الانقسام السياسى والإدارى والاقتصادى الذى أنقذها منه نابليون، كما عادت ترسف فى أغلال الحكم المطلق الذى جرى عليه ملوكها وأمراؤها من قرون . ففى ولايتى لمبارديا والبندقية الخاضعتين للنمسا كان نظام الحكم شديد الوطأة على الناس، وفق المبادئ التى كان يعمل لها مترنيخ فى أوروبا، إذ كانت الضرائب عالية والجاسوسية منتشرة والصحف مقيدة وحرية الكلام والاجتماع محظورة، فى حين أن أكثر الولايات الايطالية الأخرى كانت تحذو حذو النمسا وتخضع لسياستها إما لأن الأسرات التى تحكمها كانت ذات صلة بالأسرة الأمبراطورية كما فى بارما وتوسكانيا ومودنيا ، أو لأنها كانت ترتبط معها بمعاهدة صداقة ومودّة كما كان الحال فى نابلى .

أما فى بيدمنت فقد كان الحكم الرجعى على أشدّه بغير تدخل النمسا ، فقد أزال ڤيكتور امانويل بجرة قلم واحدة كل ما طرأ على نظام الحكم القديم من التغيير بأن أمر بتعطيل كل قوانين نابليون، وتنفيذ كافة اللوائح والأنظمة السابقة لها، هذا الى أنه أعاد الى رجال الدين نفوذهم الأول، وأخضع الجامعة لرقابة الحكومة، وكاد يأمر بتدمير القناطر التى أقامها نابليون على نهر ألبو، وأمر فعلا بتخريب الحدائق التى كانت أقيمت لعمل التجارب النباتية، الى غير ذلك من أمثلة الخرق فى الرأى، والجنون فى رجعية المبادئ . على أن الحالة فى الولايات البابوية كانت لا تقل فى شدّتها عما رأته أشد الولايات الرجعية إذ كان البابا ورجال الدين يحقدون على

(١) قضت إرادة المؤتمر أن تقسم ايطاليا كما يلى : (١) مملكة بيدمنت : (٢) لمبارديا والبندقية (٣) أملاك البابا . (٤) مملكة نابلى وهذه هى أهم الأقسام وأكبرها . وتتلوها ستة أقسام أخرى وهى دوقية تسكانيا وبارما ومودنيا ولوكا ثم جمهوريتا موناكو وسان مارينو .

نابليون إهانتــه للكنيسة بأسرها حين اعتقل زعيم الكاثوليكية الأكبر، فهدموا كل ما بناه ذلك الفاتح رأسا على عقب ،على أن الحكومة التى حلت مكان حكومته كانت ضعيفة عاجزة عن ضبط الأمن وصيانة الأملاك والأرواح فكانت لذلك موضع السخط العام .

من هذه النظرة العامة ندرك مقدار تحرج الحالة فى ايطاليا، لأن الشعب لم يعد كتلة جامدة لا تتأثر بالحوادث، بل جسما حيا دبت فيه روح الإخاء والحرية، وغذته آمال الوحدة القومية . واذا كانت مظاهر العنف والاستبداد قد أخمدت كل مقاومة دستورية، فقد التجأ الجمهور الى تلمس سبيل آخر، أشد نكاية وأكثر خطرا، وهو تأسيس الجمعيات السرية لمقاومة العنف بالعنف، ومقابلة القوة بمثلها ، حتى يتقلص ظل الحكم المطلق وتتحقق آمال البلاد . وكان أشهر هذه الجمعيات السرية جمعية «الكربونارى Carbonari» التى تكونت فى نابلى، وانتشرت انتشارا عظيما بين صفوف الجند والطبقات المستنيرة من الشعب ، وكان غرضها قلب نظام الحكومات الفاسدة والقضاء على سلطة الدخيل الأجنبى الذى كان يحول بين البلاد وبين الاتحاد والحرية .

ثورات (١٨٢٠ – ١٨٢١) — ذلك أنه ما كادت تبلغ نابلى أخبار الثورة الاسبانية سنة ١٨٢٠ حتى قام أعضاء الجمعية من الضباط يطمعون فى مثل حظ رفاقهم بأسبانيا ، ويطلبون إنشاء مجلس نيابى وفق نظام الدستور الأسبانى الذى أعلن سنة ١٨١٢، فأسقط فى يد الملك فرديناند وأجابهم الى ما طلبوا، وأقسم يمين الاخلاص للدستور الجديد، إلا أنه كان يضمر غير ما يظهر، فبينا كان يعلن اغتباطه بالنظام الجديد ، كان يكاتب مترنيخ خفية لمعاونته فى طمس آثار ذلك النظام .

ولما كانت النمسا ترتبط بأسرة البوربون الحاكمة فى نابلى بمعاهدة تحتم عليها أن تسير على نظام الحكم المتبع فى ولاياتها، وأن تستدعى جيوش النمسا لإخماد كل حركة

من شأنها الإخلال بذلك النظام، فقد أسرع مترنيخ الى دعوة الدول للاجتماع فى مؤتمر يعقد فى ترباو سنة ١٨٢٠ للنظر فى أمثل الطرق التى تكفل إخماد الثورات التى كانت تهدد الأمن والسلام . وإذ كانت أكثر الدول تؤيد خطته التى ترمى الى التعاون فى سحق الثورات أينما ظهرت ، ولم يخرج عن هذا الاجماع إلا فرنسا وانجلترا، فقد قررت الدول كما عرفنا تقرير مبدأ التدخل واستدعى الملك فرديناند لحضور مؤتمر ليباخ عام ١٨٢١ للبحث فى شؤون بلاده خاصة، إلا أن القوم فى نابلى خشوا عاقبة هذه الدعوة ، فأرغموا الملك قبل الرحيل على أن يجدد قسمه بالولاء للدستور، ولكنه سرعان ما أعلن وهو فى مأمن من مواطنيه أن كل أقسامه لا قيمة لها، وأنه فى حل من الارتباط بها، ثم طلب الى الدول فى المؤتمر إعادة الملكية المطلقة فى بلاده، فأجيب الى ما طلب وكلفت الجيوش النمساوية بالزحف الى نابلى، فقضت على مقاومة الثائرين فى مارس ١٨٢١، وأعادت الحكم الاستبدادى على أتمه، وأنزلت برجال الثورة كل اضطهاد .

فى تلك الأثناء نشبت الثورة فى بيدمنت، وكان عمادها رجال الجيش من أنصار الكاربونارى، كما كانت مطالبهم عين مطالب أهل نابلى، أى النظام الدستورى، غير أن الملك رأى أنه اذا أجاب الشعب الى ما طلب، أغضب النمسا وذلك ما لا يستطيعه، واذا لم يجب تلك المطالب، عرض بلاده لخطر الفتنة الأهلية، وهو ما أشفق أن يقع على يده. لذلك آثر أن يتزل عن الملك لولى عهده شارل فيلكس الذى أبى إلا التمتع بكل حقوق الملكية المطلقة، فسار على رأس جيش الملكيين، تعاونه النمسا، وقضى على الثوار فى نوفارا فى ٩ أبريل سنة ١٨٢١

أما أهل لمبارديا فقد انضموا الى الحركة بدعوة ثوار بيدمنت الذين نشروا فيها راية إيطاليا المتحدة المثلثة الألوان، وكانوا يرمون الى قطع خط الرجعة على الجيش النمساوى العامل فى نابلى، فخاب رجاؤهم بما حدث فى بيدمنت، وأخفقت الآمال الكبار التى عقدت على جماعة الكاربونارى، وأصبحت السنوات التالية لهذه

الثورات سنوات ضغط و إرهاب وتعسف و إرهاق قلما شاهده الشعب الايطالى من قبـل .

ثورة إيطاليا ١٨٣٠ — لذلك ما كادت تتحرك نار الثورة فى فرنسا عام ١٨٣٠ حتى تناول تأثيرها ولايات ايطاليا نظرا لطبيعة موقعها الجغرافى ، وتشبع الكثيرين من أهلها بمبادئ الكاربونارى ، فضلا عن الوعود التى قطعها رجال الثورة فى فرنسا للايطاليين بأن يعاونوهم فى جهادهم الحرية .

وقد كانت بداية الحركة فى الولايات البابوية والدوقيات الشمالية حيث أقام الكاربونارى مركزهم العام منذ فشل الحركة الماضية . وقد أفلح الثوار فى عملهم بادئ الأمر الى حد أن تسلطوا على بلاد كثيرة فى هـذه الولايات ، إلا أن فرنسا خيبت رجاءهم فيها ، وذلك طوعا للسياسة التى انتهجها لويس فيليب — سياسة استمالة الدول وكسب ودها حتى تعترف بمركزه الخاص فى فرنسا — ولذلك تركت الايطاليين وحدهم يتلقون ضربات النمسا التى سارعت الى قمع الفتنة بقوة وعنف أوردا الثائرين مورد اليأس ، بجمعوا فلولهم وحركوا الثـورة مرة أخرى فى الولايات البابوية عام ١٨٣٢ ، فعادت النمسا الى التـدخل تعاونها فرنسا التى أحفظها الاخلال بالتوازن الدولى فى ايطاليا — ذلك التوازن الذى تهدد من جراء انفراد النمسا بالعمل فيها — فقضى الجيشان على الثائرين ، وأقاما محتفظين بمواقعهما الى عام ١٨٣٨ حينما تقرر انسحابهما معا .

وهكذا توالت الثورات على ايطاليا بغير أن تحقق آمال الوطنيين فيها ، مما يرجع الى سوء النظام وضعف الخطة وعجز الزعامة فى جمعيات الكاربونارى ، واقتصارها على فريق معين من الشعب بحيث لم يتسن للاحرار مقاومة النمسا ذات البأس والسلطان ، فلا عجب اذا تجلى للعيان أن لا سبيل الى الحرية والوحدة الأهليـة المنشودة إلا اذا عالج الايطاليون هذه النقائص ، والتجأوا الى وسائل جديدة تضمن النجاح .

الفصل الثالث

ألمانيا

تمهيد — كان أمبراطرة ألمانيا من أحفاد شارلمان ضعفاء لا قبل لهم على حكم البلاد والدفاع عنها إزاء غزوات النورمانديين وغيرهم من البرابرة، فأقطعوا الأشراف ضياعا يحكمونها ويدافعون عنها وقت الحاجة، مقابل التمتع بها والاستئثار بخيراتها . ولما اعتلى العرش رجال يحسنون الحكم، حاولوا استرجاع سلطانهم فى البلاد على نحو ما فعل ملوك انجلترا وفرنسا ولكن على غير جدوى ، فقد تمسكت الإمارات باستقلالها، واشتغل الأمبراطرة بتحقيق تقاليد الأمبراطورية القديمة وهى ضم ايطاليا الى أملاكهم، فلم يظفروا فى النهاية بسلطة ما سواء فى ألمانيا أم فى ايطاليا .

حروب نابليون والتسوية العامة — لهذا بقيت ألمانيا بلادا مقطعة الأوصال حتى تدخل نابليون فى أمرها ، فقضى على الدولة الرومانية المقدسة التى أنشأها شارلمان ، وأدمج كثيرا من ولاياتها المتفرقة بعضها فى بعض حتى أصبحت نحو ٣٩ ولاية بعد أن بلغت نحو ثلثمائة، ثم أنشأ اتحادا من الولايات الغربية أطلق عليه اسم اتحاد الرين وزوده بحكومة صالحة تسهر على مصالح الشعب .

فلما سقط نابليون وعرضت شؤون ألمانيا على مؤتمر ڤيينا أظهر الشعب الألمانى الذى أيقظته حروب نابليون والمثل الأعلى لحكومة متحدة منظمة فى أقاليم الرين رغبته فى تكوين اتحاد من الولايات الألمانية لضمان سعادة الشعب وحريته، غير أن أمراء الولايات أبوا أن يتزلوا عن استقلالهم الذى تمتعوا به من قديم، فضلا عن أن النمسا رأت فى تحقيق هذا الاتحاد إضعافا لنفوذها ان لم يكن سبيلا لطردها وولاياتها الأجنبية من الجامعة الألمانية . واذ كان الشعور الوطنى لم يبلغ بعد من القوة ما يستطيع التغلب به على هذه الصعاب فقد تقرر إنشاء اتحاد لا قيمة له

فى الواقع إذ جعل أداة هذا النظام مجلس يتألف من مندوبين عن أمراء الولايات للبحث فى الشؤون التى تهم الصالح العام، واشترط لتنفيذ أى قرار موافقة ثلثى أعضاء المجلس، وأما فى المسائل الهامة فقد اشترط الاجماع، هذا الى أنه عهدت رئاسة المجلس الى النمسا زعيمة الحركة الرجعية فى ألمانيا وأوربا حتى تختم أعمال هذا المجلس بخاتم الجمود .

ولعل أكبر ما يوجه من النقد الى هذا النظام هو اشتراط الإجماع فى قرارات المجلس، وتقلد النمسا لرئاسته، فقد كانت هذه القيود كافية وحدها لأن تغل يد الاتحاد عن تنفيذ خطط الاصلاح . أضف الى ذلك ان أعضاء المجلس كانوا يمثلون الأمراء لا شعوب الولايات فكانوا لذلك يضعون المصالح المحلية للولايات فوق المصلحة العامة، وبدلا أن يكونوا واسطة لتقوية الروابط الجنسية كانوا عاملا كبيرا فى توسيع هوة الخلاف بين الولايات الألمانية . ويلاحظ أخيرا أن هذا المجلس لم يزود بالاداة اللازمة لتنفيذ قراراته فكانت الولايات تستطيع أن تتحدى هذه القرارات عند الحاجة مما جعل هذا الاتحاد صوريا كما دلت التجارب العديدة .

على أنه اذا كانت الآمال قد أخفقت فى تحقيق اتحاد البلاد، فقد أخفقت كذلك فى تحقيق حرية الشعب فانه وان كان دستور الاتحاد الألمانى قد نص على أن تتبع قواعد الحكم النيابى فى الولايات، فانه لم يعين نظام هذا الحكم، ولا كيفيته ولا ميعاد إنشائه، فبقى هذا النص عاطلا إلا فى ساكس ويمار مهد الأحرار، وفى بافاريا وبادن وورتمبرج حيث كان أمراؤها فى حاجة الى تأييد مركزهم فيها .

وأما النمسا التى كانت أملاكها تتألف من أجناس غريبة عنها، فقد حاربت بطبيعة مركزها كل مامن شأنه إيقاظ الروح القومية داخل بلادها وخارجها، وقد تبعتها فى ذلك بروسيا التى عقدت لشعبها الآمال الكبار أيام حروب نابليون، فقد عارضت الحكم النيابى على زعم أنه لايوافق البلاد، وهى على باب طور جديد فى تنظيم حياتها السياسية والاقتصادية، ولا سيما وقد دخل فى تكوينها عناصر جديدة لم تتعود

العمل معها للصلحة العامة . لذلك عوّل الملك فردريك وليم الثالث على أن يعمل مع طائفة من الخبراء وأصحاب الرأى لاصلاح البلاد، فأنشأ مجالس استشارية لحكومات الأقاليم، وقرر إلغاء المكوس الداخلية فى بروسيا نفسها، و بينها و بين الولايات التى تقبل الانضمام اليها فى اتحاد اقتصادى «Zollevrein» على أن يقتصر على جباية ضرائب الوارد على التجارة الخارجية عند الحدود، ويقسم الإيراد بين أعضاء الاتحاد . وقد كان هذا الارتباط الاقتصادى الخطوة الأولى فى سبيل الاتحاد فيما بعد .

ابتداء النهضة — نشأ عن إخفاق الأمال فى تحقيق الحرية والاتحاد القومى ان أخذ الشباب المتعلم يرتبط بروابط الإخاء والاتحاد فى أندية أسموها "البرشنشافت" (Burschenschaft) وكان أول أغراضها الاهتمام ببث الدعوة فى أنحاء البلاد، وتدريب الأفراد تدريبا بدنيا ليكونوا خير الأعضاء العاملة فى جسم الأمة، إلا أنه حدث : "أولا" ان أقام الطلبة احتفالا بذكرى قيام لوثر ضد البابا فى مدينة ورتمبرج، فتحوّل الاحتفال الى مظاهرة سياسية عظيمة أساءت الولايات الرجعية وخصوصا النمسا، فأقفلت هذه المجتمعات فى كثير من الولايات ؛ "ثانيا" اعتقد أحد الطلبة واسمه "كارل ساند" أن أحد الصحافيين «كوتزيبوى Cotzebue» يتجسس للقيصر، ويمده برسائله على معاونة مترنيخ فى قتل حرية البلاد، فطعنه بمدية طعنة أودت به، فاتخذ مترنيخ من هذه الحوادث ذريعة لتقييد حرية الشعب بأن أسرع الى عقد مؤتمر فى كرلسباد من أمراء الولايات الألمانية، وحملهم فيه على قبول المراسيم الشهيرة بمراسيم كرلسباد سنة ١٨١٩ وفحواها تقييد الصحافة ووضع الجامعات تحت مراقبة الحكومة، ومنع تأليف الجمعيات وعقد الاجتماعات السياسية، هذا فضلا عن تشكيل لجنة مركزية فى مينز للبحث عن الثوار والتنكيل بهم، والإيعاز الى الأمراء بطرح فكرة الدستور ظهريا . وقد نفذت هذه السياسة بحذافيرها فى كل الولايات لا سيما فى بروسيا .

حوادث سنة ١٨٣٠ — على أن هذه القوانين الاستثنائية لم تزد النار إلا ضراما، فلما شبت الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٣٠، تأثرت بها ألمانيا ووقعت

اضطرابات عدّة فى انحاء البلاد : ففى برنسويك طرد الأمير من عرشه ، وفى هس أجبر الأمير على منح ولايته دستورا، وفى بافاريا ووستفاليا والولايات الجنوبية على وجه عام وقعت حوادث ثورية عديدة ، غير أن هـذه الثورات أخمدت من غير مشقة، وكانت نتيجتها تضييق الخناق على البلاد، وتقييدها بسلاسل أشدّ وأقوى، فتم لمترنيخ بذلك انتصار كارلسباد . ولا ريب أن السر فى إخفاق هذه الحركات هو عدم اشتراك السواد الأعظم من الشعب فيها، واقتصارها على مجهود فريق معين من الناس دون الباقين .

الفصل الرابع

استقلال البلجيك

قضى مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بضم البلجيك وأسقفية لييج الى هولندا، ليتكون منها مملكة ذات بأس، تستطيع رد غارات فرنسا التى كانت تعتبر إذ ذاك مصدر الخطر على سلامة أوربة كلها، وقد كان العامل الأكبر فى إبراز هذه الفكرة الى عالم الوجود "بت" الوزير الانجليزى الشهير الذى أراد اتقاء الأخطار التى تعرضت لها مصالح قومه حين استولت فرنسا على تلك البلاد أيام الثورة وحروب نابليون .

غير أن الاختلافات العديدة بين البلدين ، وضعت هذا التحالف فى خطر من بداية الأمر، فبينما كان الهولنديون من عنصر التيوتون، يدينون بمذهب كلفن ، ويتكلمون لغة أشبه بالألمانية، كان البلجيكيون خليطا من العنصر الكلتى والوالونى، يدينون بالمذهب الكاثوليكى ، ويتكلم بعضهم لغة تقرب من الهولندية ، والآخرون يتكلمون اللغة الفرنسية، هذا فضلا عن الفوارق التاريخية والاقتصادية، فقد كانت هولندا مملكة مستقلة منذ أواخر القرن السادس عشر، ويشتغل أهلها بالتجارة ، ويعتمدون على الموارد الخارجية . أما بلجيكا فكانت تخضع لحكم الاسبان ، ثم انتقلت لحكم النمساويين، وكان يشتغل أهلها بالصناعة والزراعة، وهذا يؤدى بطبيعة الأمر الى اختلاف السياسة الاقتصادية للبلدين .

سياسة هولندا — لو أن هولندا اتبعت سياسة العدل والمساواة التى أصرت عليها الدول حين كونت هذه المملكة الجديدة ، لتماسكت أجزاؤها تدريجيا ، ولكانت الشركة خيرا وسعادة للفريقين، إلا أن سياسة وليم أورنج كانت الغنم لهولندا والغرم لشريكتها ، وهذا فى وقت أيقظت فيه الثورة الفرنسية الشعور الوطنى والوحدة القومية فى بلجيكا كما حدث فى غيرها من ممالك أوربة فمثلا :

(١) كان سكان البلجيك يبلغون أربعة ملايين وسكان هولندا لايبلغون ثلاثة ملايين ولكن جعل عدد نواب البلدين فى المجلس النيابى متساويا؛ (٢) جعلت اللغة الهولندية اللغة الرسمية فى البلاد، وجعلت لاهاى مقر الحكم، وأسندت أغلب الوزارت إلى الهولنديين، كما أسندت معظم المناصب الكبيرة اليهم؛ (٣) أسند تفتيش المدارس الكاثوليكية إلى مفتشين من البروتستنت، وأفسح المجال لأضطهاد مذهب البلجيكيين؛ (٤) وضعت سياسة تجارية للبلدين على قاعدة حرية التجارة وهى قاعدة تضر بمصلحة البلجيك؛ (٥) قسمت ديون البلدين مناصفة بينهما رغم أن الديون التى كانت تحملها بلجيكا قبل الاتحاد تقل كثيرا عن ديون هولندا. كل هذا أثار ثائرالبلجيك وجمع بين الأحزاب المتنافرة من أحرار وكاثوليك، ودعاهم إلى مطالبة الملك بإنشاء إدارة خاصة بهم ولكن على غير جدوى.

الثـــورة — فلما قامت الثورة الفرنسية فى يوليه سنة ١٨٣٠ تطاير شررها إلى بلجيكا، فلم تلبث أن شبت الثورة فى بروكسل فى ٥ أغسطس سنة ١٨٣٠ وتبعتها باقى المقاطعات. وقد كان الثوار يطلبون فى بادئ الأمر انفصال بلجيكا عن هولندا فى الادارة مع بقائها تحت أسرة أورانج، ولكن وليم أبى عليهم هذا الرجاء، وأنفذ اليهم جيشا لإخضاعهم. فتألفت لجنة سميت «لجنة الدفاع الوطنى» لاتخاذ تدابير المقاومة، واستطاعت أن ترد الجيش الهولندى على أعقابه. وحينئذ أجابت هولندا مطلب الحكومة الذاتية، ولكن لجنة الدفاع أعلنت أن الدم الذى أهرق جعل الاتحاد مستحيلا، وأن البلاد تعتبر نفسها مستقلة منذ ذلك التاريخ "٤ أكتوبر" ثم تقرر تأليف مؤتمر ليضع دستورا للحكومة الجديدة.

الدســـتور — عقد مؤتمر يمثل الشعب البلجيكى بعد ذلك بقليل "نوفمبر ١٨٣٠" فوافق على استقلال البلاد، وقرر أن تكون حكومتها ملكية دستورية على مثال النظام الانجليزى، أى أن تكون السلطة العليا للأمة، وأن تكون الوزارة مسئولة أمام البرلمان، أما السلطة التشريعية فقد اقتسمها الملك ومجلسا النواب

والشيوخ . وقد جعل الانتخاب لهذين المجلسين انتخابا مباشرا لمن يدفع ٢٠ فلورينا من الضرائب على الأقل ، و بينما جعل أجل المجلس الأول أربع سنوات جعل أجل المجلس الآخر ثمانى سنوات ولا ينتخب له إلا من يدفع ألفين فرنكا من الضرائب على الأقل . هـذا وقد ضمن الدستور للشعب حرية العبادة والتعلم كما ضمن حرية الصحافة والخطابة والاجتماع .

موقف الدول — لم يبق اذن لثبات الحالة الجديدة إلا اعتراف الدول بها ، وقد كانت اعترفت بالنظام الجديد فى فرنسا سنة ١٨٣٠ أملا فى الابقاء على الخريطة التى وضعت فى سنة ١٨١٥ ، غير أن امتداد روح الثورة الى البلجيك ، جعل دول شرق أوربة لا سيما روسيا ، تدعو إلى التعاون لايقاف الثورة عند حدودها ، إلا أن فرنسا أكدت على لسان مندوبها "تاليران" فى أنجلترا ، أنها لا تقف مكتوفة اليدين إزاء أى تعدّ يقع على البلجيك ، وأنها مع ذلك لا ترغب إلا فى حيدة هذه البلاد ولا تطمع فى الاستيلاء عليها بتاتا . ولما كانت انجلترا تخشى أن يجر هـذا النشاد إلى حرب اوربية عامة ، فى وقت كانت فيه فى شغل شاغل عن العالم بالانقلاب النيابى الذى وقع فيها حينئذ ، فقد قررت بالاتفاق مع فرنسا قبول مبدأ استقلال بلجيكا ، ولما عرض الأمر على الدول فى المؤتمر الذى عقد فى لندن فى ذلك الحين "٣٠ ديسمبر سنة ١٨٣٠" لم تجد دول شرق أوربة بدا من الاعتراف بما اتفقت عليه فرنسا وانجلترا من قبل لاسيما أن النمسا كانت موثقة اليدين بالثورة التى قامت فى ايطاليا ، والروسيا وبروسيا بالثورة التى قامت فى بولندا .

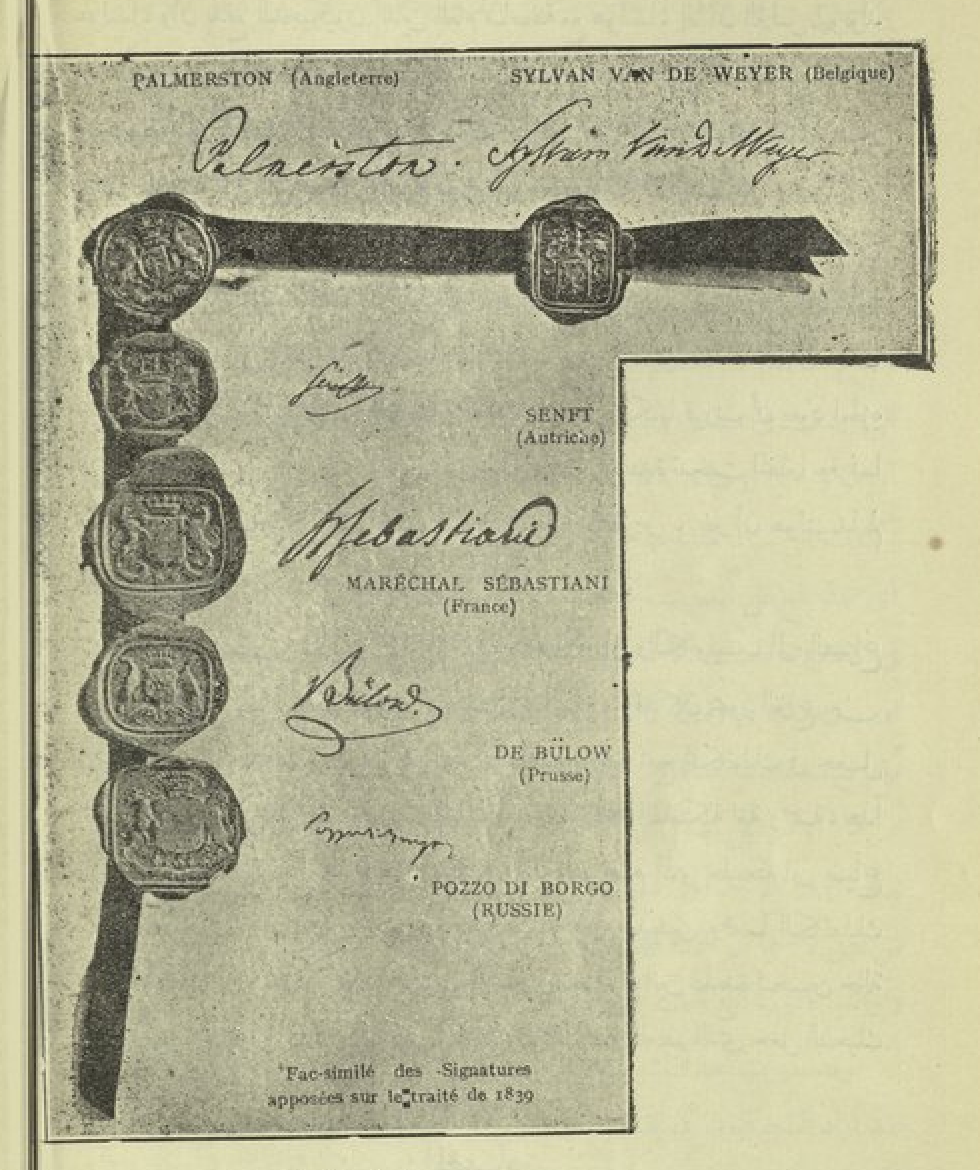
وقد ظهرت بعد ذلك مسألتان خطيرتان وهما : "أولا" مسألة انتخاب الملك . فقد أراد البلجيكيون أن يقدموا التاج لأبن لويس فيليب "دوق دى نامور" ، ولكن ذلك لم يصادف قبولا عند انجلترا ، فانتخبوا البرنس ليو بولد من أسرة ساكس كوبرج على أن يتزوج ابنـة لويس فيليب إرضاء لفرنسا ، "ثانيا" كانت لكسمبرج تابعة لوليم ملك هولندا ، ولها مندوبون فى مجلس الاتحاد الألمانى ، وكانت انضمت إلى البلجيك فى ثورتها ، ولكن مؤتمر لنـدن قرر فى يناير ١٨٣١ أن تعود لكسمبرج إلى

هولندا، وأن يدفع البلجيكيون الدين العام مناصفة مع هولندا، إلا أن البرنس ليوبولد أقنع الدول "يونيــه ١٨٣١" بأن تبقى له على الدوقيــة وأن تدفع هولنــدا دينها كله لا مناصفة مع البلجيك كما تقرر قبلا وحينئذ عمد وليم الى تأييد حقوقه بالقوة، فسير جيشا كبيرا الى البلجيك وكاد يقضى عليها قضاء تاما "٨ أغسطس ١٨٣١". بيــد أن فرنسا أرسلت من لدنها نجدات قوية هزمت الهولنديين، واضطرتهم الى التخلى عن البلاد. وقد كاد يؤدى تدخل فرنسا الى تهديد السلم فى أوربة، لولا أنها سحبت جنودها على الفور حينما طلب منها ذلك. وفى ٤ مايو سنة ١٨٣٢ أعادت الدول قرارها بشأن استقلال البلجيك وضمان حيادها، ولكنها قررت أن يعود الجزء الأكبر من لكسمبرج لهولندا، فلما أبى وليم قبول المعاهدة تدخلت انجلترا وفرنسا ونزعتا الأراضى البلجيكية التى كانت لا تزال فى يده كأنفرس، غير أن هولنــدا لم تعترف نهائيا باستقلال بلجيكا إلا فى سنة ١٨٣٩

بلجيكا عقب الاستــقلال — عاد الأحرار والكاثوليــك الى الصراع الحزبى والتنازع على السلطة عقب الاستقلال مباشرة، وقد كان محور النزاع بين الأحزاب مسائل التعليم واللغات وقواعد الانتخاب. وقد نجح الكاثوليك فى جعل التعليم الدينى أجباريا فى المدارس الابتدائية، وجعل اللغة الفلمنكية لغة رسمية، هذا الى جعل الانتخاب قائما على قاعدة الاقتراع العام وهو نظام أدى بطبيعته الى ضياع معــالم الأحزاب القــديمة وتقسيم البلجيك إلى حزبين جديدين وهمــا الكاثوليك والاشتراكيون، وبفضل هذا الحــزب الأخير وضعت قوانين عديدة لتحسين حالة العمال الذين أزدادوا أزديادا كبيرا على أثر التقدم الاقتصادى العظيم الذى جعل البلجيك من أقوى الأمم الصناعية والتجارية فى أوربا.

المصــادر

أوربة بعد سنة ١٨١٥ (هازن Hazen) (كانج وعصره Marriott) ماريوت اتحاد ألمـانيا (ماليسون Malleson) — الروسيا (رامبو Rambaud) — استقلال اليونان (أليسون فيليب Alison Phillip) — اتحـاد ايطاليا (بولتون كنج Bolton King) تاريخ أوربة السياسى (دبيدور Debidour).



قصاصة الورق

معاهدة استقلال البلجيك وضمان حيادها

(موقعة بامضاء مندوبي الدول العظمى)

الفصل الخامس

الدور الأوّل من المسألة الشرقية — ثورة اليونان

تمهيد — ظهرت المسألة الشرقية فى عالم السياسة الأوربية منذ القرن الخامس عشر، ولكن معناها حينئذ كان مقصورا على اتقاء الخطر الذى داهم أوربة من جراء زحف العثمانيين تحت قيادة محمد الثانى ومن خلفه من السلاطين، وأخصهم سليمان الفاتح. ومنذ بداية القرن الثامن عشر، تغير وجه المسألة، فلم تصبح مسألة اتقاء الأخطار، وإنما مسألة الإبقاء على الأملاك العثمانية أو توزيعها تبعا لتفاوت الدول فى النزعة والمصلحة. ولا ريب أن هذا الانقلاب السياسى منشؤه ما ألمّ بالعثمانيين من الضعف بسبب تلاشى قوة السلاطين وابتعادهم عن الأساليب الأوربية الحديثة فى ادارتهم وتنظيم جيوشهم، فغدت ممتلكاتهم تحت رحمة الأمم الأجنبية، شأن كل الدول التى قامت على حكم الفرد، وعلى أساس القوة وحدها، منذ ابتداء التاريخ الى الآن.

هذا ويمكن تقسيم الأملاك العثمانية التى انسلخت عنها فى القرن التاسع عشر الى ثلاثة أقسام، طبق العوامل التى أدت الى هذا الانسلاخ، وهى :

(١) الولايات العثمانية التى كان الدافع الأكبر لها اليقظة القومية والشعور بضرورة الوحدة الأهلية مثل اليونان.

(٢) الولايات التى استأثر بها حكامها، وعملوا على نزعها من العثمانيين كمصر وألبانيا.

(٣) الولايات التى سلختها النمسا وروسيا تنفيذا للسياسة التى وضعتها هاتان الدولتان لوراثة ملك آل عثمان، منذ بداية القرن الثامن عشر، فكانا بذلك أوّل من فتح المسألة الشرقية بمعناها السياسى الحديث. وسنبحث الآن فى الدور الأوّل من المسألة الشرقية فى هذا القرن وهو دور تحرير اليونان.

نظرة عامة فى حالة اليونانيين :

(١) منذ عام ١٤٥٣ استخدم العثمانيون النظام الكنسى لحكم الرعايا المسيحيين، فأعطى بطريق القسطنطينية سلطة سياسية فوق سلطته الدينية . واذ كان المذهب السائد بين الطوائف المسيحية فى تركيا هو المذهب الأرثوذكسى ، وفق الكنيسة اليونانية ، فقد كان اليونانيون بطبيعة الأمر هم القابضون على ناصية الحكم بين المسيحيين فى أنحاء البلاد .

(٢) لم يقتصر أمر اليونانيين على هذه الميزة بل أوصلتهم خبرتهم وحذقهم الى تولى أكبر الوظائف فى حكومة الدولة ، لاسيما وظيفة سكرتير الباب العالى أو ترجمانه وقائد الأسطول ، ووظيفة حاكم الأفلاق وحاكم البغدان فقد كانت كلها وقفا عليهم .

(٣) أما حالتهم التجارية فقد بلغت شأوا بعيدا إذ كانت مراكبهم واسطة الاتصال بين الدولة العثمانية وغيرها من الدول . ولا ريب أن معاهدة كاينرجى التى فتحت موانئ البحر الأسود للتجارة الروسية ، ساعدت اليونانيين على بناء المراكب الضخمة وتسليحها فى ظل الراية الروسية ، لاسيما قد اتخذوا ثغر أودسا قاعدة لهم ومركزا لتجارتهم .

(٤) ولم تكن حالة اليونانيين الأدبية أقل تقدما من حالتهم المادية والسياسية ، فقد رأى أحدهم وهو المصلح الكبير « كوريس Corais » ١٧٧٤ — ١٨٣٣ أنه لا يكمل الشعور القومى إلا بلغة يمتاز الشعب بها ، ولما كانت لغة اليونانيين إذ ذاك خليطا من اللغات الأجنبية المجاورة ، فقد أخذ ينفض الغريب عنها ، ويستعيض عنه باليونانى العريق ، هذا الى أنه أحيا الآداب الاغريقية القديمة ، فأيقظ فى مواطنيه ذكرى تاريخهم القديم — على أن اليونانيين لم يكونوا فى الحقيقة نسلا مباشرا للأقدمين من الاغريق ، فالمصريون اليوم أقرب بلا ريب الى المصريين الأقدمين من صلة اليونانيين بالاغريق الغابرين .

(٥) كان الفلاحون منهم يتمتعون بنعمة يغبطهم عليها الكثير من أقرانهم فى الروسيا والنمسا، بل فى انجلترا نفسها، فقد كانوا يتمتعون بخيرات أراضيهم ويحتفظون بملكيتها، واذا كان قد وقع عليهم بعض الحيف فى جباية الضرائب، فقد كان المسلمون يشاركونهم فى ذلك، أضف الى هذا أن المسلمين كانوا يجندون وحدهم دون المسيحيين.

(٦) كان الفلاحون فى قراهم يتمتعون بشبه استقلال داخلى، فيعينون الموظفين والقسيسين من بينهم، وكذلك كانت الجزائر الاغريقية تتمتع بمثل هذا الاستقلال، فلم يكن يربطها بالسلطة العليا إلا دفع جزية صغيرة، وتقديم عدد معين من البحارة للأسطول.

(٧) سلم العثمانيون أمر حراسة الطرق لبوليس أهلى من اليونانيين، لمكافحة العصابات التى كانت منتشرة على طول الطرق لتقطع سبيل التجارة، وبذا خلقت النواة التى نشأت منها جيوش الثورة، كما أن الترخيص لمراكب اليونانية بالتسليح لمقاتلة القرصان فى البحار أوجد أداة الكفاح الفاصلة فى الحرب المقبلة بين اليونانيين والعثمانيين.

يتضح من هذا كله أن اليونانيين لم يكونوا مستعبدين بل كان لهم فى الدولة مركز ممتاز من حيث الثروة والسلطة. وأما الأسباب التى دعتهم الى الخروج على العثمانيين فلم تكن لعسف أو لشدة نزلت بهم، وانما أيقظ اليسر والرخاء الذين باتوا فيهما أحلاما واسعة. ولما أعلنت الثورة الفرنسية مبادئ الاتحاد القومى والحرية الأهلية، تحرك قلب الشعب اليونانى من جديد، كما حركته عوامل النهضة الأدبية من قبل، فعمل على إعادة مجد الاغريق وارجاع عهد الأمبراطورية البيزنطية.

الثورة — لهذا تأسست فى أوديسا سنة ١٨١٤ جمعية سرية تسمى «جمعية الاخوان Hæcteria Philica» لطرد العثمانيين من أوربة وإعادة دولة الرومان الشرقية، وسرعان ما انضم اليها كل ذى حيثية ومقام من اليونانيين فى السلطنة

العثمانية، وانتخب هبسلنتى الضابط فى الجيش الروسى رئيسا لها . فلما قام على باشا والى يانينا بالثورة على العثمانيين، وأجبر السلطان على استخدام الجزء الأكبر من جيشه لقمع هـذه الفتنة ، رأى هبسلنتى فى متاعب العثمانيين فرصـة لا تعوض ، فنزل فى الأفلاق يوم ٦ مارس سنة ١٨٢١ ونادى الرعايا المسيحيين بالانتقاض على حكم آل عثمان، كما التمس من القيصر تعضيد الثورة فخابت آماله كلها إذ كان الرومانيون والبلغاريون من سكان مقاطعتى الأفلاق والبغدان يحقـدون على حكامهم اليونانيين فأهمـلوا الدعوة . أما القيصر فكان يعمل حينئـذ مع مترنيخ على أساس المبادئ الرجعية، ولذا أعلن سخطه على هبسلنتى والدعوة التى قام بها، وهكذا استطاع جيش السلطان أن يخمد الثورة من غير عناء .

ثـورة المـورة — غير أن مركز الحركة انتقل بعـد ذلك الى الجنوب فى المورة ، مهد اليونانيين الأصليين، فنشبت الثورة هناك بقيادة كولوكترونى وكان الغرض منها استقلال اليونان فقط لا طرد العثمانيين من أوربة كما كان غرض الحركة الأولى، وقد اتخذت الثورة فى هذه المرة شكل مذابح عظيمة ، فلم ينج من المسلمين إلا المحصنون فى المدن الكبيرة، فثأر السلطان محمود الثانى لبنى جنسه،وقتل بطريق القسطنطينية وكثيرا من المسيحين . ولما شرع الثوار فى فتح هذه الحصون،والفتك بأهلها كما فعلو فى تريبولتزا عاد الأتراك الى الانتقام فى خيوس وغيرها . إلا أن كفة اليونانيين بقيت راجحة، فانه لم يمض عام ١٨٢٢ إلا وكان نفوذ السلطان قد تقلص من شبه الجزيرة، وكان ذلك نتيجة لعاملين : "أولا" اشغال جزء عظيم من الجيش التركى بمحاربة والى يانينا ؛ "ثانيا" سيادة اليونانيين على البحار فى حرب كانت العمدة فيها على الفواق فى البحر ، وسنرى أن ضياع هذه السيادة إبان الحملة المصرية كان من أعظم أسباب اخفاق اليونانيين . على أن السلطان لم يقعد لهذه الهزيمة بل أوفد درملى باشـا فى ربيع سنة ١٩٢٣ ورشيد باشا بعـد فراغه من يانينا لسحق الثورة فى تلك البلاد.ولكن هذه الجيوش أخفقت فى مهمتها ، فاستنجد السلطان بمحمد على والى مصر ، على أن يوليه المورة وكريد مقابل مساعدته له .

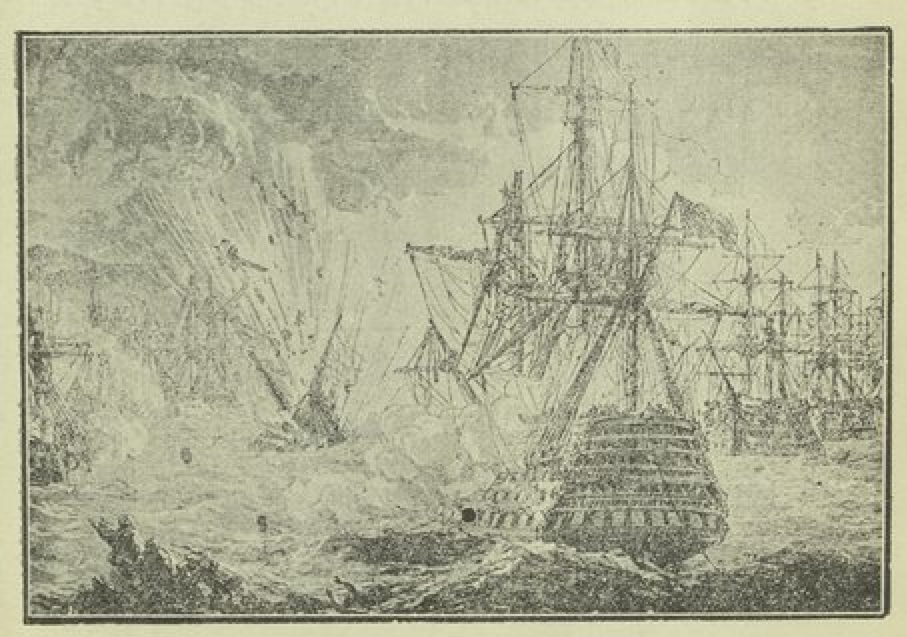
الحملة المصرية — قامت الحملة عام ١٨٢٥ تحت قيادة ابراهيم باشا يحرسها الأسطول المصرى، فاحتلت كريد أولا، ثم أنزلت الجنود فى المورة، وبدأت أعمالها الحربية التى كللت بالنجاح، فقد استولى ابراهيم باشا على مواقع اليونان الحصينة فى مسولنجى وتريبولترا وأثينا، وكادت الثورة تنتهى باخفاق تام لولا أن تدخلت حكومات أوربة مدفوعة بعواطف أهلها الذين كانوا يرون فى الثائرين سلالة أبطال هوميروس وأحفاد بركليس فأمدّوا الثوار بالمال والرجال (وكان أشدّ المتحمسين لنصرتهم بيرون الشاعر الانجليزى) ولما أخذ ابراهيم باشا ينال النصر تلو النصر، أشفقوا من أن يقضى على اليونان، فدفعوا حكوماتهم الى التدخل فى الأمر، غير أننا سنرى أن المصالح الدولية الخاصة كان لها شأن كبير فى التدخل أيضا .

تدخل أوربة — رأت الروسيا وفقا لتعاليم بطرس الأكبر أن تعود الى سياستها القديمة القائمة على تقويض أركان الدولة العثمانية، فمالت الى مساعدة اليونانيين فى بادئ الأمر، غير أن النمسا أقنعتها بضرورة التزام الحيدة التامة، تنفيذا للسياسة الرجعية التى تعاقدتا عليها حتى لايجر تدخل الروسيا الى أزمة أوربية كبرى قد لاتقف عند حدّ . ولكن انجلترا خرجت على هذا الوفاق الدولى واعترفت بحكومة الثوار فى مارس سنة ١٨٢٣ على زعم أن حماية التجارة الانجليزية تستلزم الاعتراف بحكومة ذات سيادة فعلية على اليونانيين .

مؤتمر بطرسبرج — إزاء هذه الحالة الجديدة اضطرت الروسيا الى التدخل فى أمر الثورة، حتى لا تنفرد انجلترا بالانتفاع بأى امتياز أو مركز خاص لها فى اليونان . ولما كانت الحملة المصرية قدحركت أيضا كل عوامل السخط فى أنحاء الروسيا،فقد اقترح القيصر فى يونيه سنة ١٨٢٤ أن يعقد مؤتمر فى بطرسبرج لحسم النزاع؛ على أساس تقسيم اليونان وجزرها الى ثلاث ولايات تمنح الحكم الذاتى تحت سيادة السلطان . ولكن النمسا رأت فى هذا التقسيم مجالا لبسط نفوذ الروسيا على الامارات الجديدة، أما بريطانيا فقد خشيت أن يؤدّى المؤتمر الى تطبيق المبادئ

التى وضعت فى تروباو . وإذ كانت تركيا واليـونان قد أعلنتا أنهما لا تتقيدان بقرارات الدول، فلم يصادف المؤتمر نجاحا من كل جانب .

نقولا الأول — وفى سنة ١٨٢٥ تبوأ قيصر جديد وهو نقولا الأول عرش الروسـيا ، فخشيت الدول أن يعمل على تنفيذ مبادئ السياسة الروسـية القديمة، باتخاذ مسألة اليونان ذريعة لتمزيق أوصال الدولة العثمانيـة وتشتيت ملكها . ولذا أسرعت بريطانيا الى ارسال دوق ولنجتن الى بطرسبرج لاقناع الروسيا بالتوسط مابين الفريقين المتحاربين على أساس استقلال اليونان استقلالا ذاتيا. ولما تم لها الأمر فى اتفاقية أبريل سنة ١٨٢٦ حاولت بريطانيا غل يد الروسيا أكثر مما فعلت فعرضت على الدول الانضمام الى هذه الاتفاقية فلم تقبـل ذلك سوى فرنسا ، وفى معاهدة لندرة سنة ١٨٢٧ تعاقدت الدول الثلاث على أن تستقل اليونان بادارة شئونها مع اعترافها بسـيادة الدولة ، وعلى إجبار الأتراك واليونانيين على عقـد هدنة ريثما يتم الاتفـاق .



موقعة نافارينو (٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧)

غير أن الباب العالى رفض هذه المعاهدة رفضا باتا مما جعل الحلفاء يسرعون الى محاصرة قوات العثمانيين بواسطة أسطول دولى يقوده "كودرنجتن". ولما كان هذا الحصار يستلزم متاعب جمة فقد تقرر اتخاذ خطة الحزم ضد العثمانيين ، وهى خطة انطوت على دخول الأساطيل المتحدة فى خليج نافارينو لمراقبة الأسطول التركى المصرى الراسى هناك . إلا أنه وقع على الأثر نزاع بين الفريقين أدى الى الاشتباك فى موقعة أسفرت عن تحطيم الأسطول التركى المصرى فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧، فأثارت تلك النكبة غضب السلطان حتى أنه أعلن الجهاد ضد الممالك المسيحية وخصوصا الروسيا .

حدث حينئذ أن تولى ولنجتن إدارة السياسة الخارجية فى انجلترا بعد موت كاننج ، فنبذ سياسة سلفه التى أدت الى إضعاف تركيا ، فى حين أن هذا الاضعاف لم يكن من مصلحة بريطانيا ، وقرر ألا يمضى فى سياسة الإرغام التى اتبعت ضد العثمانيين . غير أن الروسيا اتخذت من منشور السلطان ذريعة لاعلان الحرب على تركيا فى أبريل سنة ١٨٢٨ ، فوقع ما كانت انجلترا وفرنسا تخشيانه من زمن طويل . لذلك أسرعت الدولتان الى حسم النزاع بأن أرسلت فرنسا جيشا للمورة لاجبار القوات المصرية على التخلى عنها ، أما انجلترا فقد أوفدت أسطولا للاسكندرية لارغام محمد على على الانسحاب ، ولما تم لهما ما أرادتا ، توسطت الدولتان لعقد الصلح بين تركيا والروسيا ، إلا أن تركيا أبت إلا أن تواصل الحرب ، فقد تمكنت رغم تغير نظام الجندية فيها ، واشتغالها بتأليف جيش جديد ، أن تصد الروس أمام فارنا وشملا ، ولكن القائد الروسى "ديبتش" استطاع فى سنة ١٨٢٩ ، تطويق المدن المحصنة واختراق جبال البلقان حتى استولى على أدرنة . وحينئذ قرر الباب العالى قبول الصلح ، مع أن قوات الروسيين كانت قد انتابتها الأمراض ، وأصبحت فى حال لا يسمح لها بالتقدم على القسطنطينية ، فتقررت معاهدة أدرنة فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ على أن :

(١) تصبح ولايتا الأفلاق والبغدان مستقلتين فى ادارتهما تحت حماية روسيا ؛

(٢) تمتع الدول كافة بحرية التجارة داخل البحر الأسود وداخل المضايق .

(٣) يقبل السلطان شروط معاهدة لوندرة بشأن استقلال اليونان استقلالا داخليا على أن تمتد حدودها من خليج أرتو الى ڤولا .

غير أن الدول رأت فى مركز اليونان الذى تقرر على هذه القاعدة، وسيلة لتدخل الروسيا فى شئونها ، فقررت فى سبتمبر سنة ١٨٣١ أن يكون استقلال اليونان تاما وأن يضمن هذا الاستقلال من يشاء من الدول، وقد عرض عرش هذه البلاد على ليوبلد أمير ساكس كوبورج فتخلى عنه ، ثم عرض على أتو البافارى فقبله ، وأقام يحكم اليونان الى سنة ١٨٦٤ حين أجبر على النزول عن العرش، وخلفه جورج الأول ثانى أولاد ملك الدانمركة ، وقد بقيت أسرته تحكم اليونان حتى الانقلاب الأخير .

الباب الرابع

عهد النهوض القومى

١٨٣٠ – ١٨٤٨

تعتبر سنة ١٨٣٠ الحد الفاصل بين العهد الرجعى الذى بدأ منذ مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ، وعهد النهوض الذى بدأ بثورة يوليه سنة ١٨٣٠ ، وفيه استجمع الأحرار قواهم وأضافوا كثيرا الى صفوفهم ، حتى لم تعد الحرية مطلب الطبقات المستنيرة فحسب ، بل مطلب السواد الأعظم من الشعوب التى أفاقت على ضوء الحقائق الواقعة — حقائق اهمال المصالح القومية والاستطالة على كل شىء عزيز لديهم ، فان الحرية لا قيمة لها فى ذاتها فى نظر الكثيرين ، ولا تطلب إلا لتؤدى غاية ، واذا كانت الحرية لم تنتصر فى هذه الفترة فى كل مكان ، فليس ذلك لأنه كان يعوزها تأييد الشعوب ، بل لأنه كانت تنقصها الرؤس المفكرة المدربة التى تستطيع تنظيم القوى والجهود والسير بحكمة نحو تحقيق الغرض الأعلى .

فرنسا — ملكية يوليه

لويس فيليب

ولى العرش فى السابعة والخمسين من عمره . وهو ابن دوق أورليان الذى عرف أبان الثورة الكبرى باسم فيليب المساواة لأنه كان من أنصارها والمدافعين عن مبادئها وأحد الذين ذهبوا ضحية حكم الارهاب فيها . أما لويس فقد تشيع للثورة كما تشيع أبوه ، ودافع عنها فى ڤالمى وجيماب ونيروندن، ثم هاجر من البلاد فرارا من فزع المتطرفين وأشياع الارهاب، وطفق ينتقل من مكان لآخر بغير أن يحارب ضد فرنسا كما فعل غيره من الأشراف، حتى اذا عقد الصلح الأخير عاد الى



لويس فيليب

وطنه ، وأقام ساخطا على ارهاب الملكيين بغير أن يتصل بحزب من الأحزاب فى الظاهر ، ولكنه كان على تمام الوفاق والمودة مع كبار الأحرار خاصة وأفراد الشعب عامة ،فكثيرا ما كان يسير فى شوارع باريس يحيى بيديه الناس ويحادثهم ويتودد اليهم حتى أسبغت عليه هذه المزايا عطف الأمة لاسيما الطبقة الوسطى التى أحبته وأعجبت بسجاياه وشمائله .

سياسته — اعتلى لويس فيليب العرش كما رأينا على قاعدة قبوله الحكم الدستورى واعترافه بالدستور تعهد قائم بين الملك والرعية، فلا تنقض نصوصه بغير أن يعرض الملك نفسه وعرشه الى السقوط، إلا أن مصالح لويس الخاصة ورغبته فى المحافظة على تاجه كانت تقتضى فى نظره التدخل فى شئون الحكم لتنفيذ غرضين أساسيين وهما مقاومة التغير والانقلاب فى الداخل والاقلاع عن المغامرات السياسية فى الخارج، على أن هذا التدخل كان تحديا صريحا للعهد الدستورى، فضلا عن أنه كان يخالف مصالح البلاد فى كثير من الأحوال، ولذلك تعرضت الملكية الى سخط الشعب ومقاومته لها حتى سقطت فى نهاية الأمر .

الأحزاب — وقد واجه الملك فى فاتحة حكمه ثلاثة أحزاب منظمة :
(١) أنصار الملكية الشرعية الذين كانوا يعتبرونه لويس فيليب مغتصبا للعرش، ولا يرضون على قلة عددهم وضعف نفوذهم إلا إسقاط الملكية الجديدة .
(٢) الجمهوريون الذين كانوا يعتبرون ملكية يوليه غير مستندة على قوام شرعى لأنها لم تقم على أساس انتخاب الشعب . (٣) الملكيون الدستوريون الذين انقسموا فريقين : أحدهما يذهب الى أن التغيرات التى أتت بها ثورة يوليه لم تكن إلا مقدمات جزئية ، وأن الواجب أن يتبع هذه المقدمات تغيرات أخرى حتى تتمشى الأنظمة الحكومية والخطط السياسية مع تطورات الرأى العام . أما الفريق الثانى فكان فريق المحافظين الذين كانوا يعتقدون على العكس أن عهد الثورة والانقلاب قد انتهى بانتهاء الثورة الماضية والتغيرات الدستورية التى اقترنت بها، وأن لامناص

لفرنسا اذا أرادت الاحتفاظ بتلك الثمرات من أن تلتزم سياسة السلم فى الداخل والخارج حتى تكتسب ثقة الدول وعطفها .

فوز الملكيين الدستوريين — وقد رأى فيليب تعزيزا لمصلحته أن ينضم الى جانب رجال الطبقة الوسطى من الملكيين الدستوريين الذين كان يدين لهم بارتقائه العرش ، فعدل قانون الانتخاب تعديلا يكفل أغلبيتهم فى المجالس التشريعية ، وأعاد تنظيم الجيش على قواعد تجعل للطبقة المتوسطة السيطرة عليه ، وبذلك عولت الملكية الجديدة على تعزيز حزب واحد لها ، وأغفلت الأحزاب الأخرى من أنصار الملكية الشرعية القديمة ، وأنصار الجمهورية ، فتعرضت لمقاومة حزبين لا يستهان بهما ، حتى اضطرت الى حماية نفسها بوسائل لا تستقيم مع المبادئ التى قامت عليها ، فأخذت تقيد الصحافة والكتابات السياسية بوجه عام ، وتعطى رجال الأمن سلطات استثنائية لمناهضة الملكيين والجمهوريين على السواء خصوصا بعد ثورة فانديه التى قامت بقيادة دوقة برى من الملكيين — واكتشاف تدبير خطير لاغتيال الملك بواسطة نفر من الجمهوريين .

نهوض الاشتراكية — على أن الحركة الجمهورية المعارضة سرعان ما اقترنت بحركة اشتراكية كانت قاضية فى النهاية على عرش أسرة أورليان . ذلك ان العسر الاقتصادى الذى نشأ على أثر حروب نابليون ، والانقلاب الصناعى الذى ظهر فى فرنسا فى هذا العهد ترك الملايين من العمال عرضة لأخطار البطالة وانخفاض مستوى الأجور ، من غير أن تعمل حكومة الطبقة المتوسطة شيئا لمعالجتها ، فتمهدت الأفكار لقبول آراء اشتراكية نشرها بعض الكتاب كدواء ناجع لتلك الأدواء الاجتماعية والاقتصادية ، ومن هؤلاء سنت "سيمون" الذى دعا الى الوفاق والاخاء بين العمال وأصحاب الأعمال لمصلحة الجميع بغير أن يضع خطة عملية لتحقيق هذه الأغراض فانصرف العمال الى التمسك بآراء زعيم آخر كان أكثر تقيدا بالواقع وأقرب معالجة لحقائق الأشياء ، وهذا الزعيم الجديد هو «لويس بلان Louis Blanc» الذى بدأ

حياته صحافيا ثم عالج مشاكل العمال حتى وضع لحلها برنامجا محدودا فى كتابه الذى سماه «تدبير العمل Organisation du Travail» وفيه ذهب الى أن لكل انسان الحق فى العمل ، وأن من واجب المجتمع أن يهيئ أسباب العمل للجميع ، وبعبارة أخرى من واجب الحكومة التى تمثل المجتمع أن تدبر المال اللازم لانشاء مصانع أهلية يتولى العمال ادارتها ويقتسمون أرباحها بعد إعادة مايخص الحكومة من رأس المال ، وقد انتشرت هذه الآراء بين العمال انتشارا عظيما، وتمسكوا بها تمسكا مدهشا حتى أصبحت الحالة تنذر بأن تكون الثورة المقبلة ثورة اجتماعية اقتصادية .

ازدياد المعارضة — على هذا النحو فسدت العلاقة بين الملكية الجديدة وبين شطر كبير من الشعب من ملكيين وجمهوريين واشتراكيين، ولم تلبث أن فسدت كذلك بينها وبين الملكيين الدستوريين . ذلك أن الملك رأى عند توليه الحكم أن يعهد بالوزارة الى فريق المتطرفين من الملكيين الدستوريين، ولكنهم حاولوا أن ينشروا علم الثورة فى أوربا ويحيطوا الملكية بأنظمة تكاد تكون جمهورية ، ولذلك نقلت الوزارة الى شعبة المحافظين أنصار سياسة السلم فى الداخل والخارج ، ولكن تسلط الملك على الحكومة وتدخله فى أعمالها لتنفيذ سياسته الخاصة أدى الى انقسام الرأى بين زعماء هذه الطائفة : ففريق على رأسه تيير كان يرغب فى أن يتولى الملك العرش بغير أن يحكم ، وفريق آخر على رأسه جيزو كان يذهب الى حد اطلاق يد الملك فى انتخاب وزارته دون التقيد برأى المجلس ، وأن يكون له — بصفته رئيس الهيئة التنفيذية الحق فى أن يتدخل فى إدارة الحكم . ولما كانت سياسة جيزو تطابق آراء الملك كل المطابقة، فقد عهد إليه بتولى رئاسة الحكومة إبان الثمان سنوات الأخيرة من عهد الملكية .

وزارة جيزو — كان جيزو يرغب كما كان يرغب الملك فى إيجاد حكومة قوية منظمة، كما كان يذهب مذهبه فى اعتبار النظام السياسى القائم بالغا حد الكمال

بحيث لايحتاج الى تعديل، بل كان يذهب الى أن فرنسا نفسها لاترغب فى حريات أوسع، وأن الرأى العام لم يتطور لدرجة تتطلب توسيع قاعدة الحياة السياسية، وأن كل ما تتوق اليه البلاد هو السلم فى الداخل والخارج لتستطيع ترقية مرافقها الاقتصادية عامة، ولذلك بقى الى نهاية الحكم يرفض كل اصلاح فى الداخل، ويأبى كل تدخل سياسى يؤدّى الى الحرب فى الخارج حتى كانت سنوات حكمه سنوات جمود وعقم فى تاريخ فرنسا .

ومن الغريب أن هذه السياسة كانت تلقى تأييدا فى المجلس، ولكن الحقيقة هى أن جيزو كان يشترى أصوات النوّاب والناخبين بالمال كما كان يفعل والبول فى انجلترا، وبذلك أضافت الوزارة الى سوء سياستها، افساد الحياة المعنوية فى البلاد، وهدم قواعد الفضيلة التى هى أقوى عماد الحكومات .

المعارضة — لذلك لاقت سياسة السلم فى الداخل والخارج، وما اقترن بها من الرشوة وافساد الأخلاق، أشد معارضة من الملكيين الشرعيين والجمهوريين والاشتراكيين بل وأنصار ثيير . وكانت هذه المعارضة تدور حول السياسة الخارجية التى درجت عليها الوزارة، كما كانت تدور حول اصلاح قواعد الانتخاب، حتى تمتنع وسائل الرشوة التى جعلت حكم هذه الوزارة من المستطاع .

(١) السياسة الخارجية . كانت فرنسا تتوق أبدا الى أن تلعب دورا هاما فى السياسة الخارجية وتقضى على أثار مؤتمر فينا، ولكن لويس فيليب كان يعمل لتأييد السلم حتى فى الظروف التى كان يتعين عليه فيها ألا يتردّد فى قبول الحرب كما وقع إبان الأزمة المصرية عام ١٨٤٠ بل انه ذهب فى رغبته فى الاحتفاظ بهذا السلم الى حدّ أن عقد مع انجلترا اتفاقا وديا كانت تضحى من أجله كثيرمن مصالح البلاد، فلما توترت العلاقات بين انجلترا وفرنسا إبان الأزمة المصرية عمل لويس فيليب بجد وعزم على اعادة هذا الاتفاق، ولم يتردّد فى الخضوع لانجلترا خضوعا مهينا فى كثير من الشؤن ترضية لها كما وقع فى الحادثين المعروفين باسم حق التفتيش وحادث برتشارد .

أما حق التفتيش فيتلخص فى أن انجلترا نجحت فى مؤتمر فينا عام ١٨١٥ فى حمل الدول على منع تجارة الرقيق ، ولتحقيق هذا الغرض طلبت الى حكومات أوربا أن تخول المراكب الحربية المتجولة على شواطئ أفريقيا حق مراقبة وتفتيش المراكب التجارية، وقد أبت فرنسا فى عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر إجابة هذا الطلب حتى لا تضع سفنها التجارية تحت رحمة الأسطول البريطانى المتفوق فى البحار، غير أن لويس فيليب أجاب البريطانيين الى مطلبهم بعد توليه العرش مباشرة. ومع أن انجلترا أساءت استخدام هذا الحق فى نظر الفرنسيين فقد وافق جيزو عام ١٨٤١ على عقد اتفاق جديد بتأييد حق التفتيش على شواطئ أفريقيا وفى المحيط الأطلنطى بأكمله، ولما رفض مجلس النواب المصادقة على هـذا الاتفاق تقرر حل المجلس وانتخاب مجلس آخر كان أسلس قيادا من سابقه "يونيه ١٨٤٢" .

وبعد عامين من هذا الحادث وقعت مسألة برتشارد ومؤداها أن قائد الأسطول الفرنسى فى الباسفيك ضم جزيرة تاهيتى الى الأملاك الفرنسية ، إلا أن أحد التجار الانجليز واسمه برتشارد حرض الأهالى على القيام فى وجه الفرنسيين والفتك بهم ، ولما قبض عليه ثارت ثائرة الحكومة الانجليزية وصحافتها ، واتخذت المسألة شكلا خطيرا بين البلدين . إلا أن جيزو جرح عاطفة مواطنيه بقبوله الاعتذار عن هذا الحادث ، وتقديم تعويض كاف لانجلترا . ومع أن المعارضة فى المجلس اقترحت تأنيبه على تقديم اعتذار لا مبرر له ، فقد انقذته الأغلبية المشتراة بالمال من هذا القرار .

الاصلاح النيابى — على أن خضوع أغلبية المجلس للوزارة فى مثل هذه الظروف المهينة بكرامة البلاد دعا المعارضة الى العمل لتوسيع قواعد الانتخاب حتى ينقطع سبيل الرشوة وما إليها ، وتنتفع البلاد بخبرة آلاف الفرنسيين الذين يستطيعون القيام بواجباتهم بأمانة واستقلال . وإذ كان جيزو يعارض فى هذا الاصلاح كل المعارضة على زعم أن فرنسا لم تنضج بعـد لاحداث هذا الانقلاب الخطير ، فقد عول أنصار الاصلاح فى المجلس على الالتجاء للرأى العام لاقناع الملك بالطرق الشرعية باصلاح الدستور ،

ولذلك نظموا فى نهاية عام ١٨٤٧ اجتماعات فى كافة أنحاء فرنسا لامضاء عرائض الموافقة على هـذا الاصلاح . وقد انضم الى الحركة الجمهوريون والاشتراكيون بل ورجال الدين الذين تحولوا الآن عن سياسة استرجاع امتيازاتهم القديمة، واكتفوا بأن يسعوا لنزع السلطة المدنية المسيطرة عليهم واطلاق حرية التعليم . غير أن جيزو يعاونه لويس فيليب عارض هـذه الحركة وضرب على يدها ، فانفجر بركان الثورة فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، وعبثا حاولت السلطات قمعها ، فإن الحرس الأهلى أبى أن يعتدى على الشعب ، ولذلك اعتزل جيزو الوزارة وأجاب الملك مطالب أنصار الاصلاح .

غير أن الجمهوريين لم يسكنوا لهذه النتيجة، إذ وجدوا الفرصة التى كانوا يعملون لها منذ أجل طويل، وقد ساعدتهم الظروف باشتباك بعض مواكب النصر فى مناوشة مع الجنود أدت الى قتل عدد من الأهالى، فاستخدموا هذه الفرصة لإثارة الشعب من جديد والمناداة باسم الجمهورية، وعبثا حاول الملك أن يعيد الأمن الى نصابه فقد عجز تيير الذى عهدت إليه الوزارة كما عجزت الجنود عن إيقاف هذا التيار الجارف، ولذلك اعتزل لويس العرش وأقام حفيده كونت دى باريس مقامه، ولما أخذ المجلس يبحث فى هذا التغير الخطير، فاجأه الشعب بالهجوم وشتت أعضاءه الملكيين، وأقام على الأثر حكومة مؤقتة اشترك فيها أعضاء جمهوريون واشتراكيون على السواء.

وهكذا تبدلت الحوادث ، فالجمهوريون حركوا الثورة فى سنة ١٨٣٠ ولكن الملكيين اقتطفوا ثمار عملهم ، وكان الملكيون هم العامل الأكبر فى تحريك الثورة فى سنة ١٨٤٨ ، والجمهوريون هم الذين انتفعوا بها . وهذه الثورة تحقق قول لويس نابليون : "اننا فى فرنسا لا نعمل اصلاحات بل نعمل ثورات" . ففى سنة ١٧٨٩ وفى سنة ١٨٣٠ كما فى سنة ١٨٤٨ لم تكن الحالة تستلزم أكثر من اصلاح الأنظمة الموضوعة ، ولكن عناد وضعف الهيئة الحاكمة وطبيعة الشعب الباريسى السريع التأثر، حولت المطالبة بالاصلاح الى ثورات .

الحكومة المؤقتة ــ تألفت الحكومة الوقتية من الجمهوريين والاشتراكيين أمثال لامارتين ولويس بلان ولدرو رولان فأعلنوا الجمهورية فى مبدأ الأمر يوم ٢٥ فبراير سنة ١٨٤٨ وقرروا أن تكون الصحافة حرة، وأن يكون دخول الحرس الأهلى مباحا للفرنسيين جميعا ، وأن ينتخب مجلس لوضع نظام الجمهورية على قاعدة الاقتراع العام، هذا الى أنهم قرروا أن تفتح فى أنحاء المملكة مصانع أهلية لتحقيق آمال العمال فى مبدأ حق الاشتغال، وأن تعين لجنة قوامها لويس بلان لتحسين حالة العمال على وجه عام .

غير أن هذه التجارب الاشتراكية لم تكد تبدأ عملها حتى ظهر فشلها ، ولعل الجمهوريين تعمدوا تدبير هذا الفشل للاشتراكية، حتى لا ينفر أصحاب المصالح من الجمهورية، ولذلك نراهم بدل افتتاح المصانع كما كان يدعو بلان ، استخدموا العمال فى الأعمال العامة مقابل فرنكين فى اليوم للعامل، إن كان هناك ما يعمله ، وإلا ففرنك ونصف وخفضت بعدها الى فرنك واحد ان كان لا يعمل شيئا . ولما كانت أعمال الحكومة لا تستلزم عددا كبيرا من العمال، فقد اضطرت أن تدفع لهم مرتباتهم من غير أن تتقاضى منهم عملا ، فازداد عدد الطالبين من ٦٠٠٠ فى مارس الى ١١٧٠٠٠ فى مايو ، وأصبح الكسل والبطالة ضاربين أطنابهما فى البلاد ، وثقلت ميزانية الحكومة بما يزيد عن سبعة الملايين لدفع نفقات المصانع ! .

على أن فرنسا نجت من هذه الأخطار حينما انعقد المجلس فى مايو ١٨٤٨ ، فانه رغما عما بذله الاشتراكيون من وسائل الضغط للتأثير على الناخبين ، فقد كان خوف السواد الأعظم من الأهالى، وأصحاب الأموال خاصة، من تغلب المبادئ الاشتراكية باعثا لهم على انتخاب الجمهوريين المعتدلين، من غير الاشتراكيين، فحاول هؤلاء القيام بحركة غرضها ابطال هذه الانتخابات، ولكن قضى عليها بمعونة أنصار النظام من كل الطبقات . ولقد أعيدت الاضطرابات مرة أخرى ، حينما قرر المجلس إلغاء المصانع الأهلية ، ولكنها أخمدت من جديد، وزال الخطر الذى كان يهدد البلاد .

أخذ المجلس يعمل بعد ذلك لانشاء دستور للجمهورية "٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨" فتقرر فصل السلطات بعضها عن بعض ، على أن توضع السلطة التشريعية فى يد مجلس واحد يتكوّن من ٧٥٠ عضوا ينتخبون بطريق الاقتراع العام لمدّة ثلاث سنوات، وأن توضع القوّة التنفيذية فى يد رئيس الجمهورية على أن ينتخب لمدّه أربع سنوات بطريق التصويت العام كذلك .

وكما أن نابليون الأوّل تقدّم لزعامة الثورة الأولى باسم القضاء على كل عوامل الفوضى والاضطراب، فكذلك تقدّم الآن لويس نابليون بن أخيه «لتثبيت دعائم المجتمع الذى زعزعته الحوادث، واعادة الأمن والسلام الى نصابهما» فلما بدأت الانتخابات لرئاسة الجمهورية فى ديسمبر سنة ١٨٤٨ نال خمسة ملايين ونصف مليون من الأصوات من بين سبعة ملايين .

أما الجمعية التشريعية فقد تم انتخابها طبق الدستور الجديد فى أوائل العام التالى "مايو ١٨٢٩" وكان ثلثا الأعضاء من الكاثوليك والملكيين وأنصار النظام عامة، والباقى من الجمهوريين والاشتراكيين، فتمهد بذلك السبيل لاعادة البلاد الى حالة الطمأنينة والسلام .

الفصل الثانى

إيطاليا

(النهضة الجديدة)

ظهرت عوامل جديدة لتحقيق الوحدة الايطالية على أثر الفشل الذى أصاب الثورات التى قامت بها جمعية الكاربونارى، وأهم هذه العوامل هى :

(أولا) جمعية ايطاليا الفتاة — أنشأها «مازينى Mazzini» (١٨٠٥ — ١٧٨٢) نبى الحرية والوطنية فى ايطاليا ، وقد امتاز منذ صغره بثبات الايمان الوطنى



مازينى

وصفاء القلب، وحدّة العواطف، والقدرة على اجتذاب القلوب . اشترك فى جمعية الكاربونارى، وقاسى فى سبيلها النفى والاغتراب ، إلا أنه رأى أن نظامها ومبادئها لا تؤدّى الى تحقيق الآمال القومية، إذ كانت تعوزها القوة الدافعة التى تحرك قلب الشعب، فأنشأ جمعية "ايطاليا الفتاة" وجعل شعارها «الله والشعب» فسوّى بذلك بين الايمان الوطنى والايمان الدينى ، وكان لا يقبل فى صفوفها من يزيد سنه عن الأربعين لأن الشباب — كما قال — يكسب الحركة حماسا وقوة، ويضاعف انتشار الدين الجديد، دين حرية ووحدة ايطاليا . ولما كان الشباب يعيش بالحركة، وينمو بالحماس وحرارة الايمان، فقد أشعل مازينى فى قلوب مواطنية نار الوطنية المقدسة، وزودهم بقوة الأمل، والايمان الثابت بمستقبل البلاد، والاعتقاد بأن «ايطاليا ملكة العالم، أرض دانتى، مركز البابوية، مهد النهضة ومبعث النور والحرية، لن تموت بل ستبعث وتعيد سيرتها الأولى ، فتكون وقد طهرتها الآلام ، كملك من النور يضىء العالم أجمع» ! ولكنه أظهر «أن هذا النور لن ينبعث إلا اذا قدم الايطاليون أرواحهم فداء للوطن ، وتحملوا مرارة النفى والسجن والفاقة ، وتألموا كثيرا ، وتألم ذووهم ومحبوهم فى سبيل الوطن !» فلم تكن ايطاليا الفتاة فى الحقيقة اذا حزبا ولا جمعية تمثل مذهبا سياسيا، بل كانت تمثل عقيدة تثبت بالايمان والتقديس، وتقوم وترتكز على التضحية .

ورأى مازينى أن الدعوة لاعتناق عقيدة تخليص الوطن ، والعمل فى سبيل الحرية والوحدة القومية، قل أن تحرك جمهور العامة، فجعل دعوته اليهم تنحصر فى أمور مادية معينة، بأن بين لهم «أن شقاء العيش وبؤس الحياة التى يقاسونها، إنما مصدرهما الأجنبى الغاصب، النمسا ذات القوة والسيطرة على البلاد» و «أن لا سبيل الى تغيير الحالة إلا اذا تغيرت السلطة الحاكمة، وألقيت مقاليد أمور الأمة الى أبنائها» وكان مازينى يرمى الى إنشاء وحدة أهلية ذات حكومة جمهورية ، "لأن الحرية فى نظره لا تستقيم إلا مع الجمهورية ، ولأنه لا يوجد بين ملوك ايطاليا من يستطيع أن يقود البلاد بغير أن يعرّضها الى حرب أهلية"، وقد أظهرت الحوادث أن زعمه هذا كان

على غير أساس . وأما دعوته الى الوحدة القومية فقد تحققت على الرغم من فوارق الميول والتعليم، والضغائن التى تولدت عن انقسام البلاد قرونا طويلة .

وكان مازينى يردد على الدوام أن لا أمل له فى الوصول الى الوحدة القومية ، أو الجمهورية أو الاصلاح، إلا اذا طردت النمسا وراء الألب، لأنها الحائل الأكبر بين ايطاليا وبين سعادتها » وكان يرى أن ذلك الجلاء لا يتم إلا بالحرب»، لأنها «هى القانون الأبدى بين السيد والمسود الذى يريد أن يكسر الأغلال » . وكانت خطته تنحصر فى استمالة الشعب بأسره الى برنامجه الوطنى أولا، ثم تبتدئ الحرب غير النظامية «لأنها طريق الحرب الوحيد بين الثوار والجنود النظامية» ولأنها عين الطريق الذى سلكته هولندة وأمريكا والاغريق وغيرهم من قبل . ولكن مازينى تسرع فى إعلان الحرب قبل أن يتم استعداد الشعب ، فلم يكن أسعد حظا من الكاربونارى .

ففى سنة ١٨٣١ تولى شارل ألبرت المعروف بآرائه الحرة عرش بيدمنت ، فدعاه مازينى الى العمل لتحرير ايطاليا، ولكن شارل رفض أن يشرع فى ذلك بينما كانت الظروف لم تتهيأ بعد لمثل هذه الخطوة الخطيرة ، فدبرت مؤامرة لاغتيال حياته، وزج اسم مازينى بين المتآمرين، فكان ذلك مدعاة الى نفور المعتدلين منه، وفى سنة ١٨٣٤ حاولت عصابة أن تنزل الى سافوى لتحريك الثورة هناك ولكنها فشلت، ولم تأت بنتيجة سوى زيادة الاضرار بسمعة مازينى حتى اضطر الى الفرار الى انجلترا دون أن تحقق آماله، ولكنه أوجد النواة على كل حال ، وخلق العقيدة التى أحيت النفوس الخامدة ، وحركت العزائم الخائرة ، وفتحت العيون التى طال سباتها .

(ثانيا) حزب العمليين أو جماعة المعتدلين — تألف هذا الحزب من السياسيين ورجال العسكرية والقسيسين وأصحاب الأموال والذين لم يسم خيالهم الى سماء مازينى، أو الذين لم تصل حرارة وطنيتهم الى درجة وطنيته ، وقد كانت

خطتهم العمل ضمن دائرة القانون لاصلاح أغلاط الحكم الحاضر، ثم الاعتماد على مجهود الايطاليين أنفسهم للتخلص من قبضة النمسا . وكان لسان هذه الجماعة الناطق بآرائهم «دازجليو D'Azeglio» و «جيوبرتى Gioberti» الذى كان يرغب فى تأسيس اتحاد من الامارات الايطالية تحت زعامة البابا، لا زعامة بيدمنت، كما كان يرغب دازجليو . ومهما قيل فى تجرد هذا الحزب من عقائد التضحية، التى امتاز بها مازينى وأنصاره، فقد كانت غايته اسعاد ايطاليا وتحريرها، كما كانت غاية «ايطاليا الفتاة» على الرغم من تشعب طرق الجهاد لبلوغ تلك الغاية . واذا كان مازينى قد أحيا الايطاليين، فان جماعة العمليين قادوهم الى النجاح والظفر، فلكل من الفريقين فضل ونصيب فى النصر النهائى .

حركة الاصلاح — وقد كانت فاتحة انتصار العمليين أن أخذ البابا بيوس التاسع «١٨٤٦ — ١٨٤٨» بمبادئهم المعتدلة بعض الشىء، وجعل يعمل للتوفيق بين الكنيسة وأمانى الايطاليين، فأطلق سراح المعتقلين السياسيين، وسوى القسس بالأهالى فى دفع الضرائب، ورخص بانشاء جيش أهلى، ثم وافق على إنشاء مجلس استشارى أباح الانتخاب له من غير رجال الدين حتى دهش مترنيخ، وقال تعليقا على هذه الحوادث : "لقد كنا نتوقع كل شىء، ماعدا ظهور بابا حرّ والآن وقد ظهر، فلا حدّ لما سنراه فى المستقبل" . والواقع أن تيار الاصلاح غمر كل ايطاليا، حتى اضطر دوق تسكانيا أن يجارى عمل البابا، كما ان أمير بيدمنت أطلق الحرية السياسية للأفراد وأنشأ دستورا غدا فيما بعد دستور ايطاليا بأسرها . وأما الامارات التى قاومت مطالب الاصلاح، فقد التجأ الشعب فيها الى القوة حتى أذعن الأمراء — كما وقع فى نابلى فى يناير سنة ١٨٤٨ حين أجبر فردیننـد الثانى أن يمنح شعبه الدستور . وأما فى لمبارديا، حيث كانت العلاقات بين الشعب والحكومة شديدة التوتر، فقد اتخذت المقاومة شكلا سلبيا، بأن أضرب الأهالى عن التدخين ليحرموا النمسا من احتكار التبغ، ولكن المقاومة السلبية لم تلبث أن تحوّلت الى مقاومة فعلية واسعة النطاق .

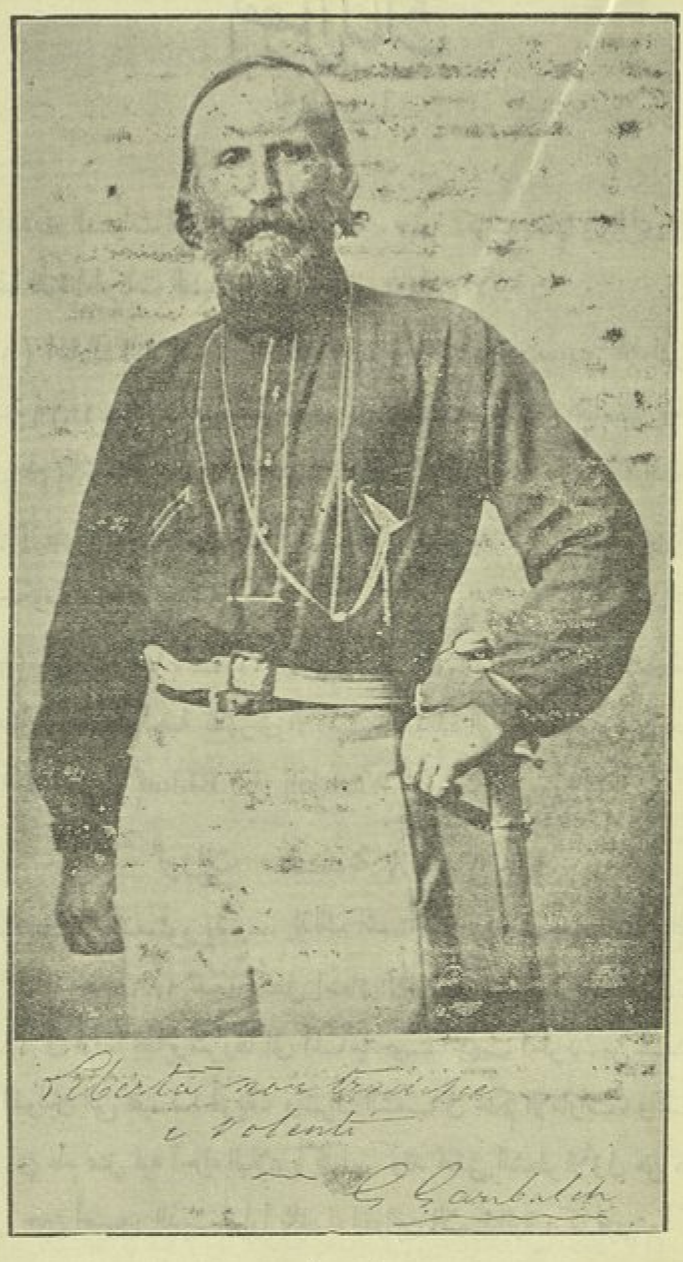
حركة الوحدة ــ ذلك أنه ما كادت تصل الأخبار عام ١٨٤٨ بنشوب الثورة فى فرنسا وامتـدادها الى النمسا ، وفرار مترنيخ نفسـه ، حتى تعززت الآمال فى النصر ، فبدأت ميلان باجبار الحامية النمساوية على الجلاء عنها ، وحذت حذوها البندقيـة ، ولم تلبث بيدمنت أن زحفت جيوشها على عجل لتأييد الثائرين ، كما أن حكومات تسكانيا ونابلى وروما أوفدت جنودها للمساعدة بتأثير الرأى العام ، انتقدمت الجنود المتحدة ، من موقع إلى موقع ، يحـدوها النصر حتى تجلت الوحدة الايطالية ماثلة على أفق المستقبل القريب .

إلا أن ضعف القيـادة الايطالية وقلة الموارد وسوء النظام ، أدى إلى حرمان الايطاليين من ثمرة النصر ، فقد استطاع "رادتزكى Radetzky" قائد النمسا أن يثبت فى قلاع المنطقة التى يحدها الأديج من الشرق ، والمانشيو من الغرب ، ولبث يراقب الأمور عن كثب ، وكان الرأى العام قد أخذ ينقسم فى الولايات بين أشياع ملكية بيدمنت ، وأشياع جمهورية مازينى ، كما أن الأحزاب الرجعية ــ لا سيما فى نابلى أخذت تسترد قواها وتسحب جنودها ، ثم إن البابا الذى فتح طريق الاصلاح تملكه الجزع من أن يفضى الأمر الى ضياع سلطانه القديم ، فأعلن سخطه على الثورة والقائمين بها ، ففت كل هذا الخلاف والانقسام فى عضد الجيش ، وتحين رادتزكى هذه الفرصة لتنظيم صفوفه وامداد قواه بجيوش جديدة من الشمال ، ثم هاجم القوات الايطالية عند "كستوزا Custozza" فى ٢٥ يوليه سـنة ١٨٤٨ واضطر شـارل ألبرت الى قبول الهدنة . غير أن هـذا رأى من العار أن ينسحب من الحرب بعـد أن وقف لتحرير الوطن ، فاستأنف القتال ولكن عاوده سوء الحظ فهزم ثانيـا فى "نوفارا Novara" مارس ١٨٤٩ فنزل عن الملك لابنه فكتور أما نويل ليتفادى تعريض بلاده لشروط قاسية اذا ظل هو على العرش .

سادت السياسة الرجعية على أثر انتصار النمسا ، إلا أن الشعب فى تسكانيا وروما والبندقية قاوم هذه السياسة ، وأعلن الحكم الجمهورى فيها بزعامة جورازى ومازينى

ومانين ، ولكن هذه الجمهوريات لم تعمر طويلا ، فقد أعيد النظام القديم فى تسكانيا بمعاونة النمسا ، وتدخل لويس نابليون فى وصف البابا — ليكسب ود الحزب الكاثوليكى فى فرنسا وليحول دون احتلال النمسا لرومة — فأرسل حملة أسقطت الجمهورية فى رومة بعد أن دافع عنها مازينى وغاريبلدى دفاعا عظيما ، وخلف فى صحائف حكمها تاريخا زاهرا لا ينسى . وتلا ذلك سقوط البندقية بعد أن جاهدت جهادا هائلا أمام الأمراض التى انتابتها ، وقنابل النمساويين التى كانت تصب عليها ، فما انصرم عام ١٨٤٩ إلا وكان الحكم الرجعى القديم سائدا فى كل مكان عدا بيدمنت .

إلا أنه شتان بين الفشل الذى أصاب الايطاليين الآن وبين ما أصابهم سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣٠ ، فمن الألب الى رأس بسارو عم ايطاليا نور الحرية ، وتزعزعت السيادة النمساوية من جذورها ، وعقدت الآمال على بيدمنت لتحقيق الغاية العظمى .



غاريبالدي

الفصل الثالث

ألمانيا

شاهدت السنوات التى تلت ثورة سنة ١٨٣٠ تكوينا عظيما فى الرأى العام ومضاعفة لقوة الحركات السياسية مما يرجع الى العوامل الآتية :

(١) اشتراك الولايات تدريجا عدا النمسا فى الاتحاد الاقتصادى "الزولفرين" بين سنة ١٨١٩ و ١٨٣٦ وازدياد طرق المواصلات ، ووسائل المخابرة ، ومن ثم نشأ رأى عام يتأثر بالحوادث والاضطهادات التى تقع فى أية ولاية على انفراد .

(٢) ظهور أفكار اشتراكية مأخوذة عن لويس بلان غرضها تحسين العمال فى ظل حكومات أهلية .

(٣) تحرش فرنسا بألمانيا ، وازدياد الرغبة فى إنشاء حكومة وطنية تتولى الدفاع عنها ، وهذه الرغبة تظهر فى الأناشيد العديدة التى تداولتها الألسن حينئذ لا سيما أنشودة الرين "Wach on the Rhine" .

ثورات سنة ١٨٤٨

الحركة الدستورية — لذلك اشتدت الرغبة فى تغيير النظام الذى فرض على ألمانيا عام ١٨١٥ تغييرا يكفل إسعاد الأفراد وتأييد السلم فلما قامت ثورة سنة ١٨٤٨ فى فرنسا تطاير شررها الى ألمانيا حيث اتجهت الحركة من البداية نحو الغاء القوانين التى تقيد الحرية ، واشراك الشعب فى حكم الامارات ، وانشاء اتحاد ألمانى عام تمثل فيه أجزاء البلاد بأكملها . وقد تحقق الشطر الأول من هذه الأغراض حين أصدر الديت قرارا بالغاء القوانين الاستثنائية ، كما قررت أكثر الولايات قبول رغبات الرأى العام فى الحكم طبق المبادئ الدستورية بحيث لم يقاوم هذه الرغبة سوى بروسيا والنمسا .

بروسيا — ففى بروسيا التى أغفلت الاصلاحات الدستورية منذ هزيمة نابليون، استأنف الشعب جهاده لدى فردريك وليم الرابع الذى اعتلى عرش البلاد سنة ١٨٤٠ وكان يدين بوجوب التمتع بسلطة لا تحد ولا تسأل إلا أمام الله، ولذا أخذ يتردد بين رغباته ورغبات شعبه حتى وفق الى رأى يجمع بين الرغبتين، وذلك بأن دعا أعضاء مجالس الأقاليم الى الاجتماع فى مجلس عام يعقد فى برلين من وقت لآخر لابداء الرغبات واستشارة الأعضاء فى أمر الضرائب والقوانين . على أن هذا المجلس أنكر على الحكومة تحديد عمله وسلطته، وجعل ينازعها القوة والنفوذ، فتقرر أخيرا تعطيل جلساته نهائيا . فلما كان عام ١٨٤٨ تحركت نيران الثورة، وقام الشعب يطالب الملك باجابة أمانى البلاد فى الحكم الدستورى، فأسرع الملك حقنا للدماء الى سحب الجند من المدينة وعقد جمعية تأسيسية لوضع دستور واف بحاجة البلاد، ولكن هذه الجمعية أخذت تنازع الملك وحاشيته السلطة بأكملها، فحقد الملك عليها خطة الشدة التى انتهجتها، وأمر بسحق الثورة، وتفريق الأعضاء، على أنه لم يرجع مع هذا الى نظام الحكم القديم، بل منح شعبه دستورا من لدنه يقضى بانشاء مجلسين : أحدهما للأعيان ويعينه الملك، والآخر للنواب وينتخبه الشعب، بطريقة تجعل لأصحاب المصالح المالية السيطرة عليه . وقد كان من حق المجلسين وضع القوانين وفرض الضرائب، كما كان من حق الملك انتخاب الوزارة وإصدار القوانين فى غيبة البرلمان "يناير سنة ١٨٥٠"

النمسا — أما النمسا فقد اتخذت الحركة فيها شأنا خطيرا لأنها لم تتضمن قلب النظام المطلق الى نظام مقيد فحسب، بل لأنها تضمنت نزعة استقلالية من جانب الولايات المختلفة بحيث تعرضت الامبراطورية الى خطر التفكك والانحلال[1] .

(١) كانت النمسا تتكون من أربعة أجناس مختلفة : (١) الصقالبة الشماليون فى بوهيميا ومورافيا وشمال المجر، والجنوبيون فى الكروات والصرب ودلماتيا، (٢) اللاتينيون فى ترنسلفانيا وبكوفينا والتيرول وتريستا، (٣) والمنغول فى سهل المجر الأعظم، (٤) والألمان الذين يحتلون ضفتى الطونة الى برسبرج .

ذلك أنه على الرغم من الكوارث التى أصابت الامبراطورية فى عهد الثورة ونابليون بقى النظام القديم الذى فرض على هذه الولايات قائما لم يتغير، فالنظام الاقطاعى بكل ما يشتمل عليه من تقسيم الطبقات وأعمال السخرة ظل قاعدة الحياة الاجتماعية، كما أن السلطة المطلقة ظلت قاعدة الحياة السياسية، بل ان هذا النظام اشتدت وطأته فى عهد مترنيخ الذى كان يحارب المبادئ الحرة ويعمل جهده لحراسة الامبراطورية من عدوى الثورة، فظل ثلاثين عاما يأبى كل مطالب الأحرار ويحيط البلاد بسياج من الشرطة والرقباء، ويقيد انتشار الكتب وتعاليم الجامعات حتى تبقى النمسا وولاياتها بعيدة عن كل المؤثرات .

غير أنه على الرغم من كل هذا الاحتياط تسربت مبادئ الحرية والقومية فى أركان الامبراطورية، فان الانقلاب الصناعى الذى حدث فى تلك الأثناء غير معالم الروابط الاجتماعية والاقتصادية، وضاعف من قوة الطبقة الوسطى والطبقة العاملة وجعلها تتصادم مع النظام الاقطاعى والسياسى السائد فى البلاد، خصوصا حينما تم بناء السكك الحديدية، وربطت أطراف البلاد ارتباطا ساعد على تكوين رأى عام، هذا الى أنه اقترن بهذه الحركة الاقتصادية أخرى فكرية فى أكثر الولايات : ففى النمسا تولت الجامعة نشر دعوة الحرية بين الجماهير كما تولاها فى بوهيميا «پلاكى Pelacky» الذى أحيا ذكريات التاريخ الأهلى و «كولار Kollar» الذى دعا الصقالبة جميعا الى الاتحاد وجمع الكلمة، وكذلك تولى حركة الإحياء والانتعاش القومى فى المجر «كشوط Kossuth» أول من أصدر صحيفة بلغة البلاد الأهلية، فأثيرت بذلك الروح القومية فى الولايات كما أثيرت الرغبة فى إعادة حكوماتها الأهلية .

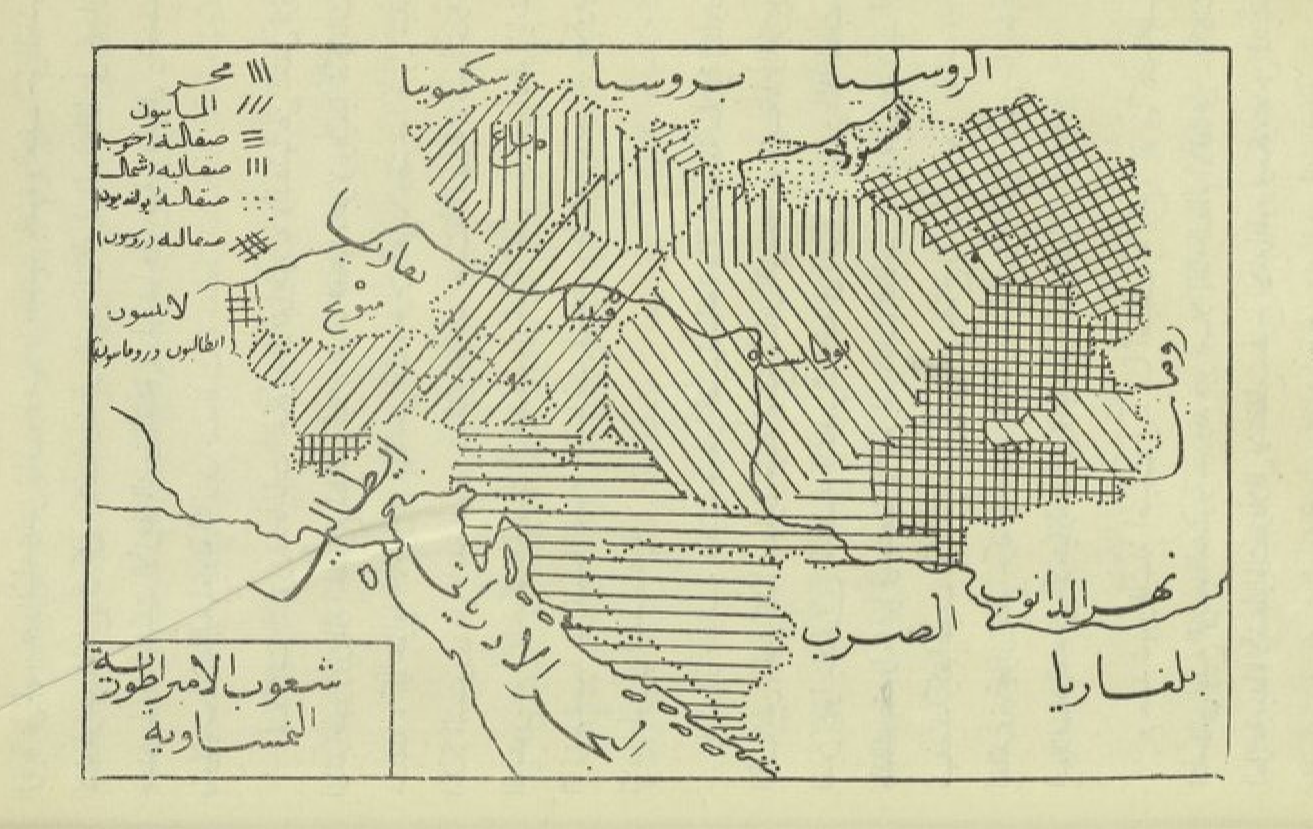
فلما جاءت أنباء الثورة الفرنسية عام ١٨٤٨ تحركت عوامل الحرية والقومية فى أنحاء الامبراطورية . ففى المجر اشتدت المطالبة بالاستقلال الداخلى وتعيين وزارة مسئولة؛ كما أن بوهيميا قدمت طلبات مماثلة، وأصرت على ضرورة اعتبار كل اللغات متساوية، وفى فينا قدم جمهور الطلبة ورجال الصناعة والتجارة ملتمسا بالغاء

الرقابة على الصحافة وانشاء مجلس نيابى، وعززوا مطالبهم بالقوة والعنف حتى انتشر الاضطراب والهياج فى كل مكان، واضطر مترنيخ الى الفرار الى انجلترا على عجل خصوصا وقد اشتدت الأزمة بالثورة القائمة فى لمبارديا والبندقية، وتدخل بيدمنت والولايات الايطالية لمعاونة الثائرين .

ولما كانت الثورة قد فاجأت الحكومة الامبراطورية وأذهلتها عن العمل قرر الامبراطور ووزراؤه الخضوع لمطالب البلاد تامة، فمنحوا المجر وبوهيميا حكومات مستقلة، كما خولوا الثائرين فى فينا حق انشاء حرس أهلى، وصرحوا بقبول مبدأ الحكم الدستورى على قاعدة التصويت العام مع عقد جمعية تأسيسية لوضع أحكام الدستور. غير أن الحكومة لم تلبث أن قبضت على ناصية الحال حينما تبين أن الولايات الثائرة منقسمة على نفسها انقساما جنسيا فت فى عضدها جميعا وساعد حكومة الامبراطور فى التغلب عليها .

ذلك أن صقالبة بوهيميا وجدوا الفرصة سانحة لانشاء جامعة سلافية لمقاومة الألمانيين الذين كانوا يعملون حينئذ لوضع أساس الوحدة الجرمانية، والمجريين الذين كانوا ينادون باخضاع العناصر السلافية فى المجر وما اليها من المقاطعات، ولذلك عقدوا مؤتمرا فى منتصف العام لجمع شتات العناصر السلافية المهددة، بيد أن هذه الحركة اعتبرت حركة انفصالية تمس أهم مصالح الامبراطورية . ولذلك وجه القائد وندشجراز لقمع حركة الثائرين، فدخل مدينة براج عنوة، وأعلن حل مؤتمر السلاف وإلغاء كل الامتيازات التى نالتها بوهيميا من قبل .

وبعد شهور قليلة أصيبت فينا بما أصيبت به براج، إذ بينما كان المجلس التأسيسى يضع قواعد الدستور — وقد قرر فعلا إلغاء النظام الاقطاعى — كانت العاصمة ميدانا لأضطرابات وقلاقل لا تنقطع، فخرج الامبراطور وحكومته من المدينة، وعهد بقمع الثورة الى وندشجراز، فحاصرها بجيش يبلغ ستين ألف مقاتل، وجعل يطلق عليها النيران حتى سلمت . وحينئذ أعلن الامبراطور فرنسوا جوزيف الذى


مجر
المانيون
صقالبة (جنوب)
صقالبة (شمال)
صقالبة بولونيون
الطليان ورومانيون
الروسيا
بروسيا
سكسونيا
ميونخ
فيينا
بودابست
ايطاليا
الادرياتيك
الصرب
نهر الدانوب
بلغاريا
شعوب الامبراطورية النمساوية

اعتلى العرش فى هذه الأثناء بعد اعتزال فرديناند — حل الجمعية التأسيسية و إصدار دستور من لدنه يطبق على الامبراطورية بأكملها «مارس سنة ١٨٤٩» .

أما المجر فلم يتم إخضاعها بهذه السهولة لأن الامبراطورية ما كانت تواجه فى تلك البلاد مدينـة ثائرة بل شعبا يضطرب بالقوة والحياة . و يرجع أمر هذا النزاع الى أن المجريين سلكوا مسـلك الأمة الكاملة الاستقلال مذ خولتهـم الامبراطورية حق انشاء حكومة ذاتية ، فألفوا جيشا وطنيا ، وأوفدوا من لدنهم سفراء الى الدول ، وطفقوا يضعفون من علاقتهـم بالأمبراطورية شيئا فشيئا حتى احفظوا قلوب النمساويين ، هذا الى أن المجريين أساءوا الى الصقالبة المتصلين بهم ، فأنكروا عليهم نعمة الحكومة الذاتيـة التى ظفروا بها وجعلوا يعاملونهم معاملة التابع الذليل ، ولما طال أجل النزاع وأبى المجريون أن يخففوا من غلوائهـم ، أعلنت الصرب انضمامها الى الكروات ، وسيرت الولايتان جيشا الى المجر بقيـادة «Jelatchitch» تعاونها جيوش وندشجراز ، على أن المجريين نشطوا للمقارنة فنكلوا بأعدائهـم ، ولم يلبثوا أن قرروا عزل أسرة هابسبرج واعلان الاستقلال فى أبريل سنة ١٨٤٩

غيرأنه لما كان القيصر نقولا الأول عدوا لكل الثورات ، وكان يخشى أن تتأثر بولندا بعدوى الثورة فى المجر، فقد سير لمعاونة الامبراطور جيشا يبلغ ١٥٠٠٠٠ مقاتل ، فاستطاعت الجيوش المتحالفة أن تبطش بالمجريين حتى اضطر كشوط وأتباعه الى الفرار، فتقرر على الأثر تعطيل الديت المجرى ، و إلغاء كافة الحقوق التى حصلت عليها البلاد ، فضلا عن فصـل الولايات السلافية التابعة لها وانشاء ادارات خاصـة بها ، وتقسيم ما بقى من المجر الى مقاطعات إدارية .

بهـذا تم انتصار النمسا فى كل الولايات ، وخضعت البـلاد مرة أخرى لحكم الفزع والارهاب حتى أن الدسـتور الذى أعلنه الأمبراطور مختارا عام ١٨٤٩ بقى عاطلا ثم ألغى على اعتبار أنه لايطابق مبادئ الأمبراطورية . على أنه اذا كانت الولايات النمساوية قد فقـدت كل أمانيهـا فى الحرية والقومية فقـد استبقت الاصلاحات

الاجتماعية التى أقرتها المجالس إبان الثورة بحيث تلاشى النظام الاقطاعى نهائيا من أنحاء الأمبراطورية .

حركة الاتحاد الألمانى — بينما كانت النار تستعر فى كل أنحاء ألمانيا والنمسا لاطلاق الحرية الدستورية فى البلاد، كانت تمو الى جانبها حركة أخرى غايتها تحقيق الاتحاد القومى ، فمنذ بداية الثورة اجتمع عدد من الأحرار فى مدينة هيدلبرج ، وقرروا أن يجتمع مؤتمر تمهيدى فى مدينة فرنكفورت للبحث فى أنجع الوسائل للأصول الى هذه الغاية، وشكلوا لجنة من سبعة لوضع قواعد العمل .

مؤتمر فرنكفورت — وقد اجتمع عملا بهذا القرار نحو ٥٠٠ من كبار أعضاء المجالس النيابية فى ألمانيا، وقرروا الشروع فى إجراء انتخابات عامة فى كل الولايات لعقد برلمان عام يتولى تأسيس الاتحاد الأهلى على نظام وطيد، ولما اجتمع هذا البرلمان — مايو ١٨٤٨ — أعلن بعد مناقشات طويلة اتحاد الولايات الألمانية بأكملها ما عدا النمسا، بحجة اشتراك عناصر كثيرة غير ألمانية فى أمبراطوريتها، وكذلك انتخاب فردريك وليم ملك بروسيا أمبراطورا على أن يكون حكمه دستوريا .

ولكن فردريك أبى قبول هذا المنصب : « أولا » لأنه جاءه من قبل نواب الشعب، لا من قبل الأمراء، «وثانيا» لأن أمراء سكسونيا وورتمبرج وهنوفر رفضوا أن يعترفوا لأمير مثلهم بالزعامة عليهم ، «وثالثا» لأن النمسا التى شغلتها حوادث الثورة وصرفتها عن البحث فى شؤون ألمانيا عادت الى التدخل فى ميدان السياسة الألمانية ، فاحتجت على قرار إخراج النمسا من الاتحاد الألمانى ، وعلى اسناد الأمبراطورية لبروسيا، ولم تترك مجالا للشك فى عزمها على تأييد احتجاجها بالقوة. ولما كانت بروسيا على غير استعداد لمقابلة القوة بمثلها، فقد قرر ملكها رفض المنصب الذى عرض عليه كما قرر استدعاء النواب البروسيين من المجلس على مثل ما فعلت النمسا وغيرها من الولايات المعارضة للاتحاد، ولذلك انتقلت البقية الباقية

من الأعضاء الى ستتجارت حيث قبض على البعض وشتت شمل الآخرين، فانفرط عقد البرلمان فى يونيه سنة ١٨٤٩ دون أن ينجح فى تحقيق المهمة التى تولاها

حاول ملك بروسيا على أثر هذا الفشل أن يؤلف اتحادا على قاعدة جديدة، فاقترح على أمراء الولايات أن ينشئوا اتحادا يديره مجلسان : أحدهما تنتخبه الحكومات، والآخر ينتخبه الشعب على أن تكون الزعامة لملك بروسيا، ولكن النمسا عرقلت هذا العمل، وأوعزت الى الامراء برفض المشروع، ثم أخذت تعمل لاستعادة سلطة «الديت» فجهزت جيشا قويا، وأنذرت حكومة بروسيا بالابتعاد عن كل عمل من شأنه تغير النظام القديم . ولما كانت بروسيا على حالة لا تمكنها من مناهضتها، فقد خضعت لطلبها، وتم الاتفاق على ذلك فى ألمتز فى نوفمبر سنة ١٨٥٠، على أن هذا الاتفاق لم يكن إلا اتفاقا وقتيا ريثما تعد بروسيا العدة لتجبر خصمها «بالدم والحديد» على قبول رغبة الشعب فى تحقيق الاتحاد القومى .

الفصل الرابع

محمـــد على الكبير

(الدور الثانى من المسألة الشرقيـة)

تمهيـــد — قوضت الثورة الفرنسية وحروبها دعائم النظام القديم فى أوربة، وفتحت المجال لذوى المقدرة الذين لم تكن تظهر مقدرتهم فى عهد كان الحكم فيه بيد الأشراف وحملة الألقاب : ففى فرنسا تمخضت الثورة عن رجال عظام كانوا غرة فى جبين التاريخ مثل : ميرابو ودانتون وديمورييه وكارنو ونابليون وغيرهم كثير؛ وفى أوربة ظهر بلوخر وولنجتن وستين وشارنهرست، وفى مصر أيضا ظهرت قوة جديدة وشخصية فذة نتيجة للثورة وحروبها ونعنى بها محمد على .

فمحمد على إذن وليد الحوادث كنابليون سواء بسواء، وتراه قد عمل مثله على تشييد عرش وطيد الدعائم، وأمبراطورية رفيعة العماد فى الشرق، على نحو ما شاد الآخر فى الغرب، وهو مثله أيضا فى وقوف الدول فى وجهه للقضاء على أحلام كان يخشى أن تهدد السلام العام، ولو كان محمد على أصر كما أصر نابليون على مقاومة الدول الى النهاية، لكان مصيره مصير الآخر، ولكنه انصاع للقوة القاهرة، فبقى على عرشه وترك ملكا رفيعا لأحفاده يتوارثونه من بعده .

نشأ محمد على فى قوله من أعمال ألبانيا، وسافر الى مصر مع الحملات العثمانية التى أوفدت لاخراج الفرنسيين من أملاك السلطان، وأقام بها مع الجنود الألبانية بعد جلاء الفرنسيين، وجعل يراقب الحوادث عن كثب علّه يصيب منها غرضا، فقد أعقب خروج الفرنسيين فترة من الاضطراب والفوضى التى نشأت عن تنازع الحكم بين العثمانيين من جهة والمماليك من جهة أخرى . فقد حاول العثمانيون أن يستفيدوا من الظروف التى هيأتها لهم حملة نابليون ليحكموا البلاد فعلا لا اسما، بينما كان

المماليك يحاولون استرداد نفوذهم القديم، يظاهرهم فى ذلك الانجليز الذين ما فتئوا منذ الحملة الفرنسية يعملون على بسط نفوذهم على البلاد، ويحاولون الاستيلاء على السواحل، ولذا جعلوا يشايعون المماليك ليظفروا بالحكم وفى هذا ظفر لهم .

ولقد تحوّلت الحوادث بسرعة مدهشة، فقد حاول العثمانيون أن ينصبوا شركا لأعدائهم حتى يفتكوا بهم مرة واحدة ، ولكن نياتهم عرفت ، وأفلح المماليك فى الخلاص بمساعدة الانجليز . وحينئذ اتسعت مسافة الخلف بين الفريقين ، وتحوّل النزاع الى حرب تفصل بين الحزبين . وكان خسرو باشا والى مصر يقود الجنود العثمانية، بينما كان البرديسى يقود زمام المماليك، فانتصر البرديسى بمساعدة الانجليز عند بنى سويف ودمنهور سنة ١٨٠٢، وعبثا حاول أن يضم الى جانبه محمد على الذى أبى أن ينحاز بادئ الأمر الى جانب فريق دون الآخر، وفضل أن يترك الفريقين يتطاحنان حتى تتهيأ له الفرصة .

ظهور محمد على — فلما انجلى الانجليز عن مصر بعد معاهدة أميان، أصبح المماليك بلا نصير يحميهم عند الحاجة، فارتدوا الى الصعيد وتحصنوا فيه، فاستأنف خسرو الجهاد لسحق قواهم، ولكن الجنود أبوا السير حتى يعطوا رواتبهم المتأخرة ، ولما حاول خسرو أن يقمع الفتنة، هزم وفرّ الى دمياط، وأصبح طاهر باشا وجنوده الأرنؤد مطلق التصرف فى البلاد، ولكن الانكشاريين نازعوا طاهر باشا الحكم حتى أدّى الأمر الى قتله وتولية زعيمهم أحمد باشا . حينئذ خلف محمد على طاهرا فى قيادة الأرنؤد، واستدعى زعيمى المماليك البرديسى وإبراهيم بك، واتفق معهما على طرد الانكشاريين والاستئثار بالحكم . ولما تم لهم الأمر ، أخذوا فى القضاء على كل ما يهدّد سلطانهم، فاعتقلوا خسرو، وقتلوا خلفه الجزائرلى. ولما حضر الألفى الكبير من انجلترا لتنفيذ رغباتها هزموه، وشتتوا قواته، حتى أصبح الجو خاليا للشركاء . إلا أن محمد على لم يكن بالرجل الذى يرتضى هذه الشركة، فجعل يثير الجنود لمطالبة البرديسى برواتبهم المتأخرة (لأنه تظاهر بترك الأمر له فى حكومة

البلاد) فأخذ هذا يرهق الأهالى بجباية الضرائب ، بينما كان محمد على يتحبب اليهم وينتصر لهم . ولما آنس من الجند والأهالى التألب على المماليك، شرع فى التنكيل بهم، فحاصر البرديسى وإبراهيم وأجبرهما على الفرار . وهكذا تخلص محمد على من أعدائه واحدا بعد واحد ، حتى أصبح مطلق التصرف فى الحكم . إلا أنه تريث فى قبول منصب الحاكم حتى تتهيأ له الظروف، فأعاد خسرو الى مركزه القديم ، ولما خلفه خورشيد اعترف به كذلك، ولكن جنود الوالى أتت من الفظائع ما استفز الأهالى ، فساروا فى موكب كبير الى منزل محمد على ، وطلبوا اليه أن يتولى الحكم بينهم، ثم حاصروا خورشيد حتى وصل محمد على مرسوم التولية من السلطان فى يوليه سنة ١٨٠٥

مصاعب محمد على — على أن مصاعب محمد على لم تنته عند هذا الحدّ، فقد كان المماليك من أنصار البرديسى والألفى يناوئونه، وانجلترا تساعدهم بالضغط على تركيا لاستدعائه، والجنود تطالبه بما لها . أما الرواتب فقد تيسر له دفعها . وأما الاستدعاء فقد استطاع ردّه بحمل الأهالى على المطالبة باستبقائه، وإرساله هدايا نفيسة للبلاط السلطانى . فلم يبق إلا المماليك، ولكن البرديسى مات فى نوفمبر سنة ١٨٠٦ وتلاه الألفى فى يناير سنة ١٨٠٧، فتوطد عرش محمد على بعض الشىء، إلا أن مركزه بقى مع ذلك مزعزعا لدى الباب العالى حيث كان أعداؤه يكيدون له سرا ، ولكنه قدم خدمات كثيرة لتركيا فثبت بذلك ملكه فى مصر كما سترى .

(١) حاولت انجلترا فى سنة ١٨٠٧ الاستيلاء على مصر لرد الغارة التى كانت تخشاها من جديد من قبل نابليون، ولاقامة حكومة من أصدقائها المماليك، فسيرت حملة بقيادة «فريزر» فى مارس سنة ١٨٠٧، إلا أن الألفى الذى كانت تعتمد عليه انجلترا فى تحريك الثورة فى الداخل كان قد توفى كما رأينا، فاستطاع محمد على أن ينزل بالانجليز من الهزائم ما اضطرهم الى الجلاء عن أرض مصر فى سبتمبر سنة ١٨٠٧

(٢) ظهر الوهابيون فى شبه جزيرة العرب كحزب دينى بادئ الأمر ، وكان غرضهم تطهير الدين مما أدخل عليه من البدع على زعمهم، ولكنهم تحولوا بعد ذلك الى حزب سياسى غرضه الاستيلاء على البلاد العربية بأكملها، فأوفد محمد على لقتالهم، فنكل بهم وخرب عاصمتهم الدرعية ، وقد كان من نتائج هذه الحوادث أن حسن محمد على علاقته مع تركيا، كما أنه وطد مركزه نهائيا فى مصر لما تحفز المماليك لمقاتلته إبان هذه الحروب، فقد أخذ يستدرجهم حتى أوقعهم فى شرك نصبه لهم فى القلعة فى مارس سنة ١٨٠٧ ، ففتك بهم جميعا واستراح من شرهم .

مطامع محمد على — ما كاد محمد على يستقر على عرشه، حتى جعل يهيئ الوسائل لبناء أمبراطورية واسعة فى الشرق . ولما كان هذا الغرض يستدعى ثروة طائلة، فقد عوّل على غزو السودان لطرد بقايا المماليك الذين التجأوا اليه، واستخراج الذهب من أراضيه، وفتح مورد جديد من الرجال لجيشه وبحريته . وقد نجحت هذه الحملة من الوجهة الحربية، إلا أنها لم تحقق كل مطامع الباشا، لأن الذهب لم يوجد، ولأن تجارة القوافل كانت قليلة، والجنود السودانيون لم يحققوا الأمل فيهم . ولذا التفت محمد على منذ ذلك الحين الى استثمار موارد مصر، والانتفاع بخيراتها . فنظم شؤونها الاقتصادية حتى تقوم بما يطلب منها من النفقات ، كما نظم شؤونها الادارية والعلمية حتى تستطيع أن تقوم بالدور الهام الذى كان يعدّه لها .

أخذ محمد على بعد أن تمت له كل معدّاته يعمل لتحقيق غرضه . فما كادت تركيا تستدعيه لحرب اليونان، حتى أجاب الدعوة، ولولا تدخل الدول على نحو ما بينا فى الفصل الخاص بثورة اليونان لخرجت مصر من الحرب ظافرة بغنيمة ثمينة .

النزاع مع الباب العالى — على أن محمد على لم يفته الضعف الذى أظهره العثمانيون فى مقاومة اليونانيين ، فعزم على أن يقتطع لنفسه شيئا من أملاكهم، لا سيما بعد أن خسر فى الحرب اليونانية خسارة فادحة، ولم يجن شيئا مما كان يطمع فيه، فتذرع للحرب بعدّة وسائل، منها الخلاف بين مصر وأمير عكا على تسليم الفارين

من الجندية من المصريين ، وامتناع ذلك الأمير عن توريد الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول المصرى . فسيّر الى سوريا جيشا يعززه أسطول كبير، وعقد اللواء لابنه ابراهيم «أكتوبر سنة ١٨٣١» وسرعان ما سقطت الحصون المنيعة أمامه حتى اذا بلغ «بيلان» تلاق بخسرو باشا فى معركة أسفرت عن فوز المصريين ، ثم سار شمالا الى أن اخترق جبال طوروس ، ونزل فى اقليم أطنه ، وتحصن بالقرب من قونية ، فهاجمه حينئذ رشيد باشا ، ولكنه هزم هزيمة مزقت صفوف العثمانيين ، وفتحت طريق القسطنطينية أمام المصريين «ديسمبر سنة ١٨٣٢» .

تدخل الدول — حينئذ استنجد السلطان بالدول ، ولكنها شغلت بمصالحها الخاصة عنه ، فتحوّل الى الروسيا ، وكانت هذه تراقب الفرص للتدخل لنصرة تركيا لأنها كانت تخشى أن يتبوأ محمد على القوى مكان السلطان الضعيف ، فقبلت أن تمدّه بالمساعدة سريعا ، وأرسلت مورافيف مندوبا للاسكندرية لتهديد محمد على حتى يضطر الى إيقاف الزحف عند كوتاهية ، هذا بينما كانت القوّات البحرية والبرية الروسية ترسل تباعا الى البوسفور .

أسرعت الدول حينئذ الى اجبار الباب العالى على قبول طلبات محمد على حتى لا تتعرض لخطر تدخل الروسيا الذى هو أشدّ وطأة من خطر الوالى ، فقبل السلطان بعد تردّد طويل ، وأبرم اتفاقية كوتاهية فى ١٦ مايو على أن يتزل لمحمد على عن سوريا ، وأن يولى ابنه ابراهيم على أطنه ، فانجلت القوات الروسية عن تركيا على الأثر ، ولكن بعد أن أبرمت مع السلطان معاهدة «هنكار أسكله سى» سنة ١٨٣٣ على أن تتولى الروسيا الدفاع عن تركيا عند الحاجة فى نظير اغلاق البوغازات فى وجه أعداء الروسيا . ولم يكن غرض القيصر من المعاهدة اسقاط الدولة أو تغيير مركزها السياسى ، بل كانت غايته أن تبق الدولة حافظة لمركزها ، ولكن يتولى القيصر حمايتها من الحركات الخارجية أو الداخلية التى ربما تثير الدولة من رقادها ! وبهذه السياسة كان يرغب فى وضع الدولة تحت سيطرة الروسيا بغير فتح ولا إعلان حرب ، إلا أن الدول

أخذت تعمل منذ ذلك الحين لالغاء المعاهدة، فالتمسا نسخت هذه الاتفاقية بمعاهدة مع الروسيا مؤدّاها أن تعمل الدولتان معا لحفظ كيان تركيا ومنع محمد على من مدّ نفوذه الى الولايات الأوربية، واذا حصل أى انقلاب فى النظام الحكومى فى القسطنطينية فانهما تعملان معا لوضع النظام الجديد، أما انجلترا وفرنسا فقد أعلنتا أنهما « تمنعان حدوث أى تغيير فى علاقات الدولة العثمانية بدولة أخرى يكون من شأنه التأثير فى سلامتها واستقلالها » .

عودة النزاع — على أن صلح كوتاهية لم يكن فى الواقع إلا هدنة مؤقتة، لأن السلطان لم يسكن لهذه الهزيمة فلما قامت الثورة فى سوريا "مايو سنة ١٨٣٤" على أثر ادخال ابراهيم باشا نظام القرعة العسكرية فيها، فضلا عن تأثير الدسائس التركية، تحفز السلطان للانتقام، فنصحته الدول بالعدول عن هذه المجازفة، وأعلنته الروسيا أن المعاهدة التى بينهما دفاعية محضة، هذا الى أن الثورة أخمدت فى الشام، فعدل السلطان مؤقتا، ولكنه ما فتئ يعمل بمساعدة انجلترا على تقوية الأسطول والجيش واثارة الخواطر ضدّ محمد على، فضلا عن استنزافه مالية الحكومة المصرية بطلبات متكررة، فأراد محمد على أن يضع حدّا لهذه الحالة باعلان الاستقلال عام ١٨٣٨، حتى لا تتعرّض أعماله فى مصر وغيرها للضياع، إلا أن الدول وقفت فى سبيله كى تبقى تركيا كما كانت دعامة السلام فى الشرق . ولذا سافر محمد على الى السودان لاستخراج الذهب، حتى يستغنى — كما قال — عن الجيوش والأصحاب فى معاملة الباب العالى .

وبينما كان متغيبا فى السودان، حشد السلطان جنوده على حدود سوريا ليغسل الاهانة التى لحقت به من أعمال محمد على، ويقضى على خطر كان يهدّد الخلافة ذاتها، فأعادت الدول نصحها بالعدول عن أعمال العداء، — إلا مندوب انجلترا فانه لم يبد رأيا قاطعا — فتشجع الباب العالى لاعلان الحرب خصوصا وقد أدرك أن الدول لا تسمح على كل حال بالقضاء على العثمانيين . أما محمد على فقد أمر ابراهيم بالبقاء داخل الحدود حتى يهاجم، وأعلن على الملأ أن لا رغبة له فى الحرب، حتى يكتسب عطف الدول.

ولكن الدول لم تنجح فى ردّ جنود السلطان بعد أن زحفت بقيادة حافظ باشا داخل الحدود، فاتخذ ابراهيم خطة الدفاع فى بادئ الأمر، ولكنه لم يلبث أن طارد العثمانيين الى « نصيبين » حيث جرت موقعة بين الفريقين دحر فيها العثمانيون "٢٤ يونيه سنة ١٨٣٩". وقد تلت هـذه الهزيمة نكبة أخرى لا تقل عنها شأنا، فقد توفى السلطان محمود الثانى قبـل وصول أنباء المعركة، وتولى بعـده السلطان عبد المجيد ولم يبلغ السادسة عشرة من عمره، وأصبحت الدولة فى يد رجال السراى، خسرو باشا وغيره فتحرك الأسطول العثمانى بقيادة فوزى باشا الى الاسكندرية حيث سلم الى محمد على نكاية فى أولئك الرجال.

موقف الدول — ولقد ساء الدول، لاسيما انجلترا، هذا النصر، فقد كانت تخشى أن يؤدّى انحلال تركيا الى زعزعة السلم فى أوربة، وتعريض طرق الهند البرية الى مخاطر عظمى باستيلاء محمد على عليها، هذا فضلا عن الخطر الذى ينشأ من تدخل الروسيا. أما فرنسا فكانت تعطف على رغبات محمد على نظرا للعلاقات الودية التى كانت تربط البلدين، ولأنها كانت تؤمل أن يكون امتداد نفوذ الباشا مقرونا بامتداد نفوذها فى الشرق، وأن يحول ذلك النفوذ بين انجلترا والروسيا وبين مطامعهما فى الشرق. غير أن فرنسا كانت تخشى كانجلترا الخطر الذى تتعرض اليه مصالحهما اذا تدخلت الروسيا بحكم المعاهدة التى تربطها بتركيا، ولذا جعلت تعمل باتفاق تام مع انجلترا فى بداية الأمر. فلما أعلنت الروسيا رغبتها فى التخلى عن العمل بانفراد، حينما شـعرت باجماع الدول على معارضتها، واشتركت فعـلا فى التوقيع على المذكرة التى أعلنت بها الدول رغبتها فى التدخل بين السلطان وتابعه "يوليه سنة ١٨٣٩"، زال خطر الروسـيا وانفتح المجال لانشـقاق الدول بعضها على بعض، لا سيما انجلترا وفرنسا، فى مسألة تحديد الشروط التى تحسم النزاع القائم بين التابع والمتبوع.

وذلك أن فرنسا كانت ترغب فى إعطاء محمد على حق الوراثة فى حكم الولايات التى كان يحكمها ما عدا أطنه وكريد وبلاد العرب، بينما كانت انجلترا ترغب فى ارجاعه

الى حدود مصر وحدها مهما كلفها ذلك من الجهد . وحاولت الروسيا أن تستخدم هذا الخلاف لمصلحتها ، فأعلنت قبولها لمشروع انجلترا واستعدادها لتنفيذه بوسائل قهرية لا بصفتها الخاصة ولكن بصفتها نائبة عن الدول ، غير أن انجلترا أبت التخلى عن صداقة فرنسا ، فقررت إضافة ولاية عكا لأملاك محمد على ، على أن تشترك فرنسا فى قهره اذا رفض ، ولكن فرنسا أصرت على مطالبها الأولى ، فأسرعت انجلترا الى الاقتراب من الروسيا ، وتقرر بينهما ألا تنفرد الروسيا بالعمل بل تشترك معها باقى الدول ، فاضطربت لذلك فرنسا وأعلن تيير وجوب مساعدة مصر صونا لمصلحة فرنسا وشرفها ، فاستدعاه الملك للوزارة ليوهم الدول بتنفيذ سياسته .

إزاء هـذا الموقف ، عادت انجلترا اتباعا لمشورة النمسا فعرضت على فرنسا جعل مصر وراثة فى أسرة محـمد على واعطائه النصف الجنوبى من الشام طول حياته . ولكن تيير رفض هذين الاقتراحين لاعتقاده أن اتفاق الدول على العمل ليس محتمل الوقوع ، وأن الباشا يستطيع المقاومة على كل حال ، وأن الأزمة يمكن أن تسوى بين محمد على والسلطان رأسا قبل أن تتدخل الدول . لذلك حاول تيير أن يوفق بين الفريقين ، ولكن بالمرستون أسرع بالتدخل خوفا من ضياع الفرصـة ، وقد جاء إلحاح تركيا بحل المسألة سريعا ، وقيام ثورة من جديد فى سوريا مؤيدا لسياسـة بالمرستون ، فتم الاتفاق بينه وبين روسيا وبروسيا والنمسا فى ١٥ يوليه سـنة ١٨٤٠ على أن يرغم محمد على على قبول مصر وراثة فى أسرته ، وعكا طول حياته ، وأن تكون مصر مرتبطة بتركيا بقيود ، مثـل دفع جزية وتحـديد الجيش والأسطول الخ ، فاذا لم يقبل هـذه الشروط بعـد عشرة أيام تنتزع منـه عكا ، واذا أصر على عصيانه ، يعطى ولاية مصر فقط ، واذا لم يخضع فى عدة عشرة أيام أخرى عادت الدول الى النظر فى الأمر .

فلما أعلنت هذه الشروط ، اشتد الهياج فى فرنسا ضد الدول التى تألبت عليها ، وقام لويس فيليب يهدد الدول باطلاق عنان الثورة ، ومن ورائه تيير يتخذ المعدات

لخوض غمار الحرب ، ولكن انجلترا كانت تعلم أن لويس لا يرضى دخول حرب قد تقوض عرشه ، وأن فرنسا لا تستطيع أن تقف أمام دول أوربة بأجمعها على كل حال ، ولذا أسرع بالمرستون بتنفيذ الخطة التى أقرتها الدول ، فبدأ المفاوضات عاجلا مع محمد على ، على أساس الشروط المتقدمة ، وأمر الأسطول البريطانى بالاشتراك مع بعض مراكب نمساوية بقطع المواصلات بين مصر وسوريا ، كما أوفد مندوبين الى سوريا لبث بذور الثورة .

محمد على والدول — إلا أن محمد على رفض أن يقبل الشروط رفضا باتا أولا وثانية وثالثة ، وجعل يتخذ المعدات البرية والبحرية لمقاومة الدول ، فنشبت الحرب على أثر ذلك ، وتحملت انجلترا النصيب الأعظم منها ، فتحركت الثورة فى سوريا ، وحملت الباب العالى على عزل محمد على ، واستولت بالاشتراك مع حلفائها على سواحل سوريا ، فارتدت القوات المصرية عن معاقلها ، وأخذ دبيب الضعف يدب فى أجزائها . وحينئذ انكمشت فرنسا ، وعزل سير ، وأقيمت وزارة معتدلة برئاسة جيزو ، فصدق حدس انجلترا فى ضعف لويس فيليب ، وازدادت رغبة الحلفاء فى إخضاع محمد على .

ولكن نابيير ، من ضباط الأسطول المحاصر للاسكندرية ، رأى أن إخضاع محمد على لا يتم بواسطة الأسطول وحده ، فأخذ على نفسه فتح المفاوضات مع محمد على على قاعدة بقاء مصر وراثة فى أسرته واعادة الأسطول العثمانى لتركيا ، ولما كان محمد على قد قطع الرجاء من مساعدة فرنسا فقد قبل الشروط ، وأخذ يفاوض الدول على هذا الأساس ، ولما حاولت تركيا أن تعرقل هذا المسعى أرغمت على قبول الشروط ، و إصدار فرمان بتولية محمد على عرش مصر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ إلا أنها احتفظت بحق اختيار والى مصر من أسرة محمد على ، واستيلاء السلطان على ربع دخل مصر الخ . فرفض محمد على قبول هذه القيود ، وألحت الدول بتعديل الفرمان ، فأذعن الباب العالى لهذه الرغبة وتقرر أن تكون الوراثة لأكبر أفراد الأسرة ،

وأن تحـدد الجزية بمقدار ٤٠٠٠٠ جنيه ويكون للباشا حق منح الرتب العسكرية الخ وعلى أثر هـذا الاتفاق، أعلن انتهاء الأزمة الشرقية وحل التحالف ، واشتركت الدول الخمس فى إصدار قرار باقفال البوغازات فى وجه السفن الحربية ، وباحترام سلامة المملكة العثمانيـة .

المصادر

يضاف الى المصادر المذكورة فى الباب الماضى كتاب «حياة مازينى» تأليف بولتن كنج وكتاب «تاريخ مصر السياسى» تأليف الأستاذ محمد رفعت .

الباب الخامس

عهد انتصار الحرية

١٨٤٨ — ١٨٧٨

فى سنة ١٨١٥ نشأت السياسة الرجعية التى اقترنت طويلا باسم مترنيخ وظهرت الى جانبها قوة جديدة لم يشهدها العالم من قبل، وهى قوة الشعوب، فتنازعت القوتان السلطة إبان هذا العهد، وخرجت السلطة الرجعية منتصرة فى أول دور من أدوار النزاع — اذا استثنينا سقوط الأسرة الملكية القديمة فى فرنسا، وتحرير البلجيك واستقلال اليونان . وفى العهد التالى اشتد ساعد الأحرار، وتقوت صفوفهم، وانتقلت مبادؤهم من الخاصة الى العامة، حتى اذا كان عام ١٨٤٨ صار النزاع واسع النطاق بعيد المدى، إلا أن السلطات الرجعية احتفظت بمركزها القديم، لأن النهضة الجديدة رزئت بالانقسام، وتبديد المجهود الوطنى فى وجه العدو المشترك. وأما فى هذه المرحلة الأخيرة، فقد تهذبت الحركة، وتوحدت المجهودات، وتقاربت الوسيلة والغاية، وانضمت الصفوف تحت لواء واحد، قادها فى كثير من البلاد الى الحرية والوحدة القومية المنشودتين منذ أجيال طويلة .

الفصل الأول

فرنسا

الجمهورية الثانية والامبراطورية الثانية

لويس نابليون — ولد عام ١٨٠٨ وكان أبوه لويس بونابرت ملك هولندا فى عهد نابليون، وأمه هورتنس بوهارنيه، وقد أصبح منذ وفاة الدوق ريشستادت ابن نابليون سنة ١٨٣٢، الوارث للعرش الامبراطورى، فأخذ يهتم بالشؤون الفرنسية عله يجد فيها وسيلة للوصول الى غرضه، فلما استحكم الخلاف بين الملك وشعبه منذ عام ١٨٤٠ حاول لويس أن يستفز الجيش والشعب للأخذ بناصره، واستعان بما



نابليون الثالث

نشره عن أغراض نابليون فى « كتابه المبادئ النابوليونية» من الرغبة فى السلام والاصلاح، ليستميل اليه عامة البلاد، غير أن الشعب لم يكن قد تهيأ بعد لهذا الانقلاب، فقبض عليه، وسجن فى هام ولكنه فر الى انجلترا سنة ١٨٤٦، ولما نشبت الثورة فى فرنسا سنة ١٨٤٨، رأى لويس فيها فرصة جديدة لتحقيق أمله، فعاد الى بلاده، وأخذ يستخدم اسمه، والمبادئ التى كان ينادى بها عمه، حتى انتخبته خمس مقاطعات للمجلس الجديد، ولما بدأ الانتخاب لرآسة الجمهورية، رشح نفسه لها فنال أغلبية عظمى على نحو ما بينا.

سياسة لويس نابليون — كان لويس نابليون يعتقد أن العناية الإلهية أرسلته الى فرنسا لانقاذها، فوطد العزم على الاستئثار بالسلطة، ولما كان الدستور ينص على أن تبقى له رئاسة الجمهورية أربع سنوات فقط، وكان لا بد من اجماع ثلاثة أرباع المجلس لاحداث أى تغير فى الدستور، فقد كان بعيدا أن ينال لويس غرضه بالطرق الدستورية، ولذا عمد الى استخدام وسائل أخرى لتحقيق الغرض المنشود.

اتفق لويس بادئ الأمر مع الملكيين من أعضاء المجلس[1] لارهاق الجمهوريين والضرب على يدهم، واخفات صوتهم، وقد أتيحت له الفرصة حين أصبحت مسألة الجمهورية الرومانيـة موضع النزاع بين الأحزاب، وذلك أن الكاثوليك والملكيين، وافقوا على التدخل لانتزاع رومة من يد مازينى وإرجاعها للبابا وصد النمسا عنها، فى حين أن الجمهوريين احتجوا على مقاومة حرية الشعب الايطالى ونظموا مظاهرات عديدة لارغام المجلس على الخضوع لرأيهم، فأسرعت الحكومة باتفاق الملكيين الى القبض على كثير من الأعضاء الجمهوريين وتشتيت حزبهم، فانحصر النزاع فى المجلس بعد ذلك بين لويس والملكيين، وهؤلاء لم يتأخروا عن القيام بدور ملائم كل الملاءمة لأغراض لويس، فقد انتهزوا فرصة استئثارهم بالسلطة فى المجلس ووضعوا

(١) اجتمع المجلس التشريعى طبق الدستور الجديد يوم ١٣ مايو ١٨٤٩ وكان ثلثا الأعضاء من الملكيين والكاثوليك وأنصار النظام عامة والباقى من الجمهوريين والاشتراكيين كما بينا قبلا.

قانونا للتعليم يقضى بنقله الى يد رجال الدين « مارس ١٨٥٠ » هذا الى تقييد الصحافة، ووقف المجتمعات، والضرب على أيدى العمال، وحرمان ثلاثة ملايين منهم من حق الانتخاب «٣١ مايو سنة ١٨٥٠» . جرى هذا بينما كان لويس يطوف الأقاليم ويتودّد الى الشعب والعمال، فتحولت القلوب اليه، واقتربت الفرصة التى كان يرقبها منذ أجل طويل .

فوز نابليون — عرض لويس على المجلس أولا إيقاف قانون ٣١ مايو، باسم الدفاع عن حقوق الشعب، فلما رفضت رغبته، أعلن حل المجلس فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ على زعم أن الجمهورية فى خطر، وكان قد احتاط للطوارئ، فقبض فى الليلة السابقة على زعماء الجمعية ، وفرّق الجند فى أنحاء المدينة لقمع الفتنة والاضطراب ، وأمر باعتقال كل من يجرؤ على العمل لغير مصلحته ، وقتل منهم من قتل ونفى الآخرين الى أملاك فرنسا . ولما حاول بعض أعضاء المجلس الاجتماع لتقرير عزل لويس ومحاكمته، شتتهم الجند فاستصرخوا الشعب لنصرتهم، فأقيمت المتاريس وأعدّت المقاومة كالمعتاد، ولكن الجيوش تغلبت عليها، وما انقضى يوم ٥ ديسمبر إلا وكان نابليون قابضا على ناصية الحال فى باريس والأقاليم .

ولما استقرّ الأمر لنابليون واختفت عوامل المقاومة كما استقرت لنابليون الأول من قبل ، عرض لويس على البلاد دستورا يماثل دستور القنصلية «١٤ يناير سنة ١٨٥٢» وبه تقرّر أن ينتخب رئيس الجمهورية لعشر سنين ، وتكون الوزارة مسئولة أمامه ، ويعاونه مجلس ينتخبه الرئيس لتحضير القوانين ، ومجلس تشريعى ينتخبه الشعب بالاقتراع العام لمناقشة الضرائب والقوانين ، ومجلس شيوخ يعينه الرئيس للمصادقة على القوانين والاشراف على النظام الدستورى [1] . وقد وافق الشعب على هذا الدستور بأغلبية عظمى ، وأصبح لويس حاكما مطلقا ، ولم يبق إلا الاسم

(١) لتكملة قواعد الدستور أصدر نابليون قانونا للصحافة (فبراير سنة ١٨٥٢) يعطى الادارة الحق فى تعطيلها كلما شاءت كما أعطى الحكومة حق فتح اعتمادات مالية استثنائية عند تأجيل انعقاد المجلس التشريعى (٢٠ ديسمبر ١٨٥٢) .

ليكون أمبراطورا، وهذا الاسم لم تتردّد المجالس التشريعية فى قبوله واعلانه، فوافق الشعب عليه كما وافق على الدستور من قبل «٢ ديسمبر سنة ١٨٥٢».

حكومة الأمبراطور نابليون الثالث — أعلن نابليون خطة حكومته بعبارة صريحة فقال: "إن اسم نابليون وحده ينطوى على خطة كاملة، فالأمبراطورية تعمل للسلم فى الخارج (L'Empire c'est la paix) كما أنها تعمل للاصلاح الاجتماعى والاقتصادى والخلق فى الداخل، فأنا كعمى الأمبراطور الأكبر لدينا مشروعات واسعة النطاق، نريد أن نحوّل الشعب الى ميدان الفضيلة والدين والرخاء، ففى هذه البلاد، بلاد الإيمان والاعتقاد، قليل من يعمل بأصول الدين، وفى بلاد الخصب التى لا مثيل لها فى العالم قليل من يحصل أود حياته إلا بعد جهد جهيد، نريد أن نرقى الزراعة وننشئ الطرق، ونبنى المرافئ ونطهر الأنهار، ونشق الترع، ونمدّ خطوط السكك الحديدية، ونستثمر الأراضى الواسعة المقابلة لشواطئنا «الجزائر» ونرقى المواصلات بيننا وبين العالم ولا سيما أمريكا".

الدور الأوّل للأمبراطورية (١٨٥٢ — ١٨٦٠) — نفذ نابليون كثيرا من الأغراض التى أعلنها. فأعاد السلم والطمأنينة للبلاد، وأنشأ نظاما لنشر التعليم، وأسس المصرف العقارى لتحسين شؤون الزراعة، وعمل كذلك على اصلاح مساكن العمال فى المدن والأقاليم، ومساعدة العجزة والفقراء، وتشجيع نقابات العمال، هذا الى أنه وضع نظاما لاصلاح بلاد الجزائر، ونظم شوارع باريس، ومدّ خطوط السكك الحديدية فى أنحاء فرنسا، وشيد الطرق والترع والموانئ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة، غير أن هذه الاصلاحات أثقلت عاتق الميزانية الفرنسية الى حد أن بلغ دين فرنسا فى نهاية حكم نابليون نحو ٢٤٠ مليونا من الجنيهات. ومن جهة أخرى حاول نابليون زيادة الرخاء فى البلاد عامة فاتفق مع انجلترا فى يناير ١٨٦٠ على تخفيض ضرائبها الجمركية على صادرات فرنسا الزراعية فى نظير تخفيضها للمصنوعات الانجليزية، إلا أن هذا النظام أضر بالصناعة الفرنسية ووضع هذه القوة العظمى فى صف المعارضة.

وأما سياسته الخارجية التي تنطوى على السلم — كما قال — فكانت لا تستقيم بتاتا مع أمبراطورية من طراز نابليون الأول، ولا تلائم أمة حربية تتوق الى العظمة والمجد، فوطد العزم على أن يعيد لفرنسا مركزها القديم بين الأمم، وأن يغسل الاهانة والعار اللذين لحقاها فى واترلو .

حرب القرم — لهذا دخل نابليون فى حرب القرم، وفقا للتقاليد الفرنسية القديمة التى كانت تأبى على الروسيا اغتيال أملاك السلطان ، والسيطرة على البوغازات، غير أن الشعب الفرنسى لم يغتبط بحرب ضد الروسيا — الحليفة الطبعية لفرنسا — وكان يرجو أن يوجه مجهود فرنسا ضد بريطانيا عدوتها القديمة، فاضطر نابليون الى عقد الصلح قبل الوصول الى نتيجة حاسمة .

المسألة الايطالية — صمم نابليون أيضا على نصرة الايطاليين إرضاء لشعور الأحرار فى فرنسا ، غير أن هذا التدخل كان من شأنه أن يثير معارضة الملكيين والكاثوليك الذين كانوا يرغبون صيانة أملاك البابا وأملاك البوربون فى نابلى ، ولذا اختط لنفسه طريقا وسطا فى شؤون ايطاليا . فاتفق على أن يساعد بيدمنت فى ضم الممتلكات النمساوية فى شمال ايطاليا ، مقابل تنازلها لفرنسا عن سافوى ونيس، كما اتفق على تكوين اتحاد من الإمارات المستقلة فى ايطاليا تحت زعامة البابا . إلا أنه ما كادت تبدأ الحرب عام ١٨٥٩ حتى تبين نابليون أن الشعور القومى فى ايطاليا ، يندفع بشدة نحو انشاء وحدة قومية صحيحة بزعامة بيدمنت، وهذا ما أراد أن يتوقاه من بادئ الأمر، فعمد الى الانسحاب من الحرب بعد أن نجحت نجاحا عظيما ضد النمساويين، وبذا أحفظ قلوب الأحرار الفرنسيين لأنه تخلى عن مساعدة الايطاليين فى أحرج المواقف ، كما أغضب المحافظين الكاثوليك ، لأنه فتح باب الثورة التى انتهكت حرمة أملاك البابا، وضمت وسط ايطاليا وجنوبها الى بيدمنت، حتى غدت ايطاليا الموحدة خطرا على فرنسا .

الدور الثانى (١٨٦٠—١٨٦٨) — أراد لويس حينئذ أن يسترد عطف الأحرار على مثال ما فعله نابليون الأول فى القانون الاضافى بعد عودته من

ألبا ، فأعلن فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٦٠ فك القيود البرلمانية قليلا ، بأن خوّل لمجلس الشيوخ والمجلس التشريعى بعض حقوق دستورية كحق مناقشة الوزراء، ونشر محاضر الجلسات، هذا الى أنه تخلى عن حق فتح اعتمادات مالية استثنائية من غير مصادقة المجلسين التشريعيين ، وأمر بالعفو عن المسجونين والمنفيين منهم خارج البلاد. غير أن هذا كله لم يجذب قلوب الأحرار الذين ساءهم تعثر الحكومة فى سياستها كما ساءهم تضييقها على أغلى مبادئ الحرية فى البلاد .

حملة المكسيك — حاول الأمبراطور أيضا أن يكسب ودّ المحافظين والكاثوليك من جديد، فعوّل على فتح بلاد المكسيك ، لحماية الرعايا الكاثوليك ، واستغلال مناجم الذهب ، واعادة شأن الأمبراطورية التى كانت لفرنسا فى العالم الجديد . ولكن نابليون لم يقدّر صعوبة المواصلات، ولا الصعوبات السياسية التى تواجه هذا الغرض، فتذرع ببعض الاضطرابات التى وقعت فى تلك البلاد ضد الأجانب لارسال حملته المشئومة، عام ١٨٦١، وما كادت تنجح بعض النجاح حتى أعلن انتخاب الأرشيدوق مكسمليان شقيق الأمبراطور فرنسوا جوزيف أمبراطورا عليها . غير أن الولايات المتحدة التى شغلتها حروبها الأهلية ، عادت فتدخلت لتطبيق مبدأ منرو ، واضطرت الجنود الفرنسية الى الجلاء تاركة وراءها البرنس مكسمليان من غير جنود تحميه، فأعدمه الأهالى . وهكذا فشل لويس فى ارضاء الشعب، ولطخ الشرف الفرنسى بالعار، وأثقل الميزانية بالديون .

بروسيا — على أن الحادث الذى زعزع عرش نابليون نشأ من جراء تعرضه لشؤون ألمانيا، فان بروسيا التى فشلت منذ سنة ١٨١٥ فى تكوين اتحاد قومى نظرا لمعارضة النمسا، صممت الآن على تحقيق غرضها «بالدم والحديد» على يد بسمارك الذى مهد السبيل لتحقيق هذا الغرض باتفاق عقده مع الروسيا للدفاع عن مصالحهما المتضامنة، فضلا عن اتفاق آخر عقد مع نابليون الثالث عام ١٨٦٥ على أن يلتزم الحيدة اذا نشبت الحرب مع النمسا ، مقابل استيلائه على بلجيكا أو لكسمبرج

أو جزء من أراضى الرين، ولما تم لبسمارك الأمر على هذه الصورة، التمس الأسباب لاعلان الحرب على النمسا . فلم تلبث ان سحقت قواتها فى سادوا وأجبرت على الخروج من ميدان المنافسة فى ألمانيا، والاعتراف باتحاد يجمع ولايات شمال ألمانيا تحت زعامة بروسيا . وكان نابليون يظن أن الحرب سيطول أجلها فيستطيع أن يتدخل بين المتحاربين، ويبرم صلحا يرضاه، ويخرج بالغنيمة التى كان يطمع فيها ، ولكن انتهاء الحرب بهذه السرعة حرمه من مطامعه ، ومهد الطريق لهدم سياسة فرنسا منذ القرون الوسطى : سياسة القضاء على تأسيس وحدة قومية فى ألمانيا ، فلا عجب اذا أجمع الناس على أن فرنسا هى التى هزمت فى سادوا .

الدور الثالث (١٨٦٨ – ١٨٧٠) — كانت نتيجة هذا الفشل المتعاقب فى السياسة الخارجية ، أن ارتفعت الأصوات من كل جانب ، بوجوب استئثار الشعب بالحكم، حتى تأمن فرنسا الأخطار الكبار التى أخذت تهددها من كل جانب . وقامت الى جانب هذه الحركة حركة أخرى مصدرها الاشتراكيون الذين فقدوا الثقة بالأمبراطورية لترقية حالهم، كما فقدت الثقة بها لاعزاز شأن فرنسا . وهذا يرجع الى أن الاصلاحات الاقتصادية التى قام بها نابليون انتفع بها كبار الماليين فقط . وأما طبقة العمال فقد بقيت على حالها القديم، فاعتنقت نظريات شيوع ملكية الثروة العامة التى نشرها بينهم « كارل ماركس Karl Marx » الاشتراكى الألمانى وجعلت تعمل لتحقيقها بكل الوسائل .

تلقاء هذه المعارضة من جانب الشعب بأسره، أعلن الأمبراطور عام ١٨٦٨ الغاء قيود الصحافة وهى قيود الترخيص لها بالظهور وتوقيع العقوبات عليها وحق توقيف الادارة لها، هذا الى اعادة حرية الاجتماعات ، عدا الاجتماعات السياسية التى تحتم أن يكون لها ترخيص خاص فى غير أوقات الانتخابات . على أن هذه الامتيازات ضاعفت النشاط السياسى فى البلاد حتى اضطر الأمبراطور الى الاستمرار فى سياسة الخضوع لارادة البلاد ، فقرر عام ١٨٦٩ عودة الحكم البرلمانى وإشراك الأمة فى حكومة

البلاد اشراكا فعليا، وقد صادق الشعب على هذا النظام الجديد عام ١٨٧٠ ، فتحولت الأمبراطورية الى حكومة دستورية برلمانية لا يتمتع فيها الأمبراطور بغير السلطة الاسميـــة .

ولا ريب أن هـذه السلطة الباقية كان مآلها الى الزوال ان لم يعمل الأمبراطور لتثبيت دعائم العرش، ولذا قبل الحرب التى جرته اليها ألمانيا سنة ١٨٧٠ على أمل الانتصار، فلما وصلت باريس أخبار هزيمة سيدان، قطع آخر خيط يربط الشعب بالأمبراطورية، فسقطت على الأثرولم يتحرك رجل واحد لانقاذها، وأعلنت الجمهورية للمرة الثالثة فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠

الجمهورية الثـالثة — فى ظل هذا النظام الجديد تألفت «حكومة الدفاع الوطنى » بزعامة «تروشـو Trochu» و «جول فـفـر Jules Favre» و « غمبتا Gambetta» وأخذت تستجمع قوى الشعب للمقاومة ، فلما تقدم الألمـانيون الى العـاصمة ، فر غمبتا الى « تور » لتنظيم المجهود الوطنى ، بيد أن المدينـة لم تستطع المقاومة طويلا إزاء تفرغ الجيش الألمـانى لمحاصرتها، فسقطت فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١ وتبين حينئذ عبث المقاومة، فعقدت هدنة فى ١٢ فبراير لانتخاب مجلس وطنى ينظر فى شروط الصلح . وهذا المجلس أعلن انتخـاب تيير رئيسا للحكومة، وعلى يده أبرم الصلح فى فرنكفورت فى ١٠ مايو سنة ١٨٧١

على أن قبول شروط الصلح المهينة القاسية، حرك كل عوامل الثورة فى باريس، حتى اضطرت حكومة تيير الى الارتداد لفرساى، وتألف على أثرها مجلس الكومون فأصبح الموقف عظيم التناقض، فبينما كانت الراية الألمـانية ترفرف فوق «سنت دنيس» كانت راية الجمهورية تخفق فوق فرساى ، وراية الثورة فوق باريس ، فقرر تيـير محاصرة المدينة، وفى هـذا الحصار الذى امتد الى ستـة أسابيع كابدت باريس من الخسارة الفادحة والرزايا العظيمة ما لم تكابده فى الحصار الأول، ولمـا نجح الجمهوريون أخيرا فى دخول المدينـة قتلوا عددا كبيرا من الثوار ، واعتقلوا ما لا يقل عن عشرة

آلاف، فهدأت الحالة بعض الشيء، إلا أن الجمهورية لم تستقر إلا بعد أربع سنوات، بفضل مجهود تيير الذى أعاد الثقة فى مركز البلاد المالى والسياسى، وأعاد تنظيم قواها الحربية، وثبت قدم الجمهورية الثالثة .

حينئذ أخذت البلاد تنظم شؤونها فى ظل النظام الجديد، وقد كانت الظروف ملائمة له من كل الوجوه، فان نابليون الثالث مات فى انجلترا سنة ١٨٧٣، وتبعه بعد ست سنوات ولده البرنس امبريال وكان بين أنصار الملكية القديمة وأنصار ملكية أسرة أورليان عداء مستحكم الحلقات، فأصبح النظام الجديد مقبولا لدى كل الأحزاب، وتم الاتفاق نهائيا على دستور للجمهورية سنة ١٨٧٥، وبه تقرر: «أولا» أن ينتخب الرئيس لمدة سبع سنوات بواسطة المجلسين التشريعيين مجتمعين، ويساعده فى عمله وزراء مسئولون أمام المجالس التشريعية، وهكذا نزل الفرنسيون أخيرا عن مبدأ فصل السلطة التشريعية عن السلطة التنفيذية واحتذوا النظام الانجليزى، «ثانيا» تتكون الهيئة التشريعية من مجلس الشيوخ ويتألف من ٣٠٠ عضو ينتخبون لمدة تسع سنوات بواسطة انتخاب مزدوج «على درجتين»، وأما مجلس النواب فينتخب لمدة أربع سنوات بالتصويت العام .

وقد نجح هذا الدستور أكثر من أى نظام آخر شاهدته البلاد فى غضون القرن التاسع عشر، وفى ظله انتعشت فرنسا فى الداخل ونالت مركزا ممتازا فى الخارج .

الفصل الثانى

نجاح الوحدة الايطاليـــة

لم يكن الفشل الذى أصاب ايطاليا سنة ١٨٤٨ إلا فشلا مؤقتا، فانه على الرغم من عودة الأحكام الرجعية الى شدتها الأولى، وعودة نفوذ النمسا الى عهده القديم، فان ايطاليا لم تعد تسكن للهزيمة، وتقعد للمذلة، وباتت آمالها معقودة على بيدمنت بعد أن تخلى الأمراء عن نصرتها .

نهضة بيدمنت — كانت بيدمنت عند موضع الظن بها ، فقد أخذ ملكها فكتور مانويل الثانى يدأب على تأييد الحكم الدستورى، وإنعاش البلاد، وإصلاح حالها، وتنمية ثروتها وتعزيز جيشها لتستطيع القيام بالمهمة المرجوة منها ، وكان يعاونه فى عمله وزيره « كافور » وهو رجل سياسى ثابت الإيمان بالمبادئ الدستورية ، شديد الرغبة فى العمل بها «لأنه — كما قال — يستطيع أى أبله أو أحمق أن يحكم البلاد بواسطة الأحكام العرفية، ولكن السياسى الصحيح هو الذى يحكم البلاد بالطرق الدستورية» . وكان يجمع الى صدق الوطنية عقلا راجحا ونظرا بعيدا وخبرة بالأمور وشجاعة نادرة وصبرا طويلا . وبينما تراه يهزأ بالنظريات ويأخذ مكانه على الصخر ، اذا به رجل ذو آمال لا تقل عن آمال أشدّ المتحمسين لوحدة إيطاليا، ولا يتردّد فى سبيل تحقيقها عن تخطى حدود السياسة والتقاليد .

كافور (١٨١٠ — ١٨٦١) — ولد كافور سنة ١٨١٠ من إحدى أسرات الأشراف العريقة فى بيدمنت، فنشأ نشأة حربيـة، جريا على عادة أبنـاء

الأشراف، ثم التحق بخدمة الجيش كضابط فى المدفعية، إلا أنه اتهم بمشايعة الحركات الدستورية، فتخلى عن مركزه فى الحكومة، واشتغل طويلا فى مزارعه، وتنقل فى ممالك أوربة يدرس العلوم الاقتصادية والسياسية. ولما ألغى قانون المطبوعات فى بلده وبدأت سياسة الاصلاح، عاد واشتغل بالصحافة فأسس جريدة « البعث Risorgimento » وأيد فيها الاصلاح والدستور، وعالج شؤون البلاد بحكمة، فاستدعى الى الاشتراك فى الوزارة سنة ١٨٥٠، ولم يلبث أن تسلم الرئاسة سنة ١٨٥٢ فأخذ يمهد الطريق لطرد النمسا من ايطاليا، وتحقيق آمال البلاد فى الوحدة أو الاتحاد



كافور

كيفما كانت الرغبة[١]، وذلك بملافاة الأغلاط التى ارتكبت سنة ١٨٤٨ اغلاط الاعتماد على قوى الشعب غير المنظمة، ومواجهة العدو والقوات مهددة بالانقسام على نفسها والموارد ضعيفة لا تكفل النجاح، بل وطد العزم على تنمية الموارد الحربية والمالية قبل كل شىء، والاستعانة بدول خارجية لتنفيذ أغراضها .

سياسة كافور — (أولا) بدأ كافور يعمل لترقية الصناعة والزراعة، وفتح أسواق جديدة للتجارة ، وفرض ضرائب على ممتلكات الكنيسة، وانتزاع أملاك الأديرة ، فلما توافرت لديه الأموال عنى بالجيش ومعداته حتى أصبح يبلغ ٩٠٠٠٠ جندى على أحدث وأتم نظام .

(ثانيا) شارك الدول العظمى فى حرب القرم، وحارب الى جانبها، وانتصر معها فى مواقع عدة، فغسل بذلك عار نوفارا وضمن صداقة انجلترا وفرنسا، وجلس بجانب مندوبى الدول فى مؤتمر الصلح، فتسنى له ايصال صوت ايطاليا الى آذان الدول الكبرى مباشرة، ومواجهة مندوب النمسا مواجهة الند للند، فجعل لبيدمنت مركزا ممتازا أصبحت معه محط آمال الايطاليين .

(ثالثا) ساعد كافور فرنسا فى الحرب وفى مؤتمر الصلح بباريس سنة ١٨٥٦ وحرك مطامع نابليون وعطفه القديم على ايطاليا، فأصبح يعلق آمالا كبارا على مساعدته. إلا أنه وقع حادث كاد يقضى على آماله ، وهو اعتداء ايطالى يسمى «روسينى» على

(١) لم يحاول كافور مطلقا كما يحاول غيره من السياسيين تربية الرأى العام على مبدأ خاص أو فكرة معينة ، بل كان يعمل طبقا لرغبات الرأى العام كيفما كانت ، وأما الرجل الذى قام بهذه التربية فى هذه الفترة فهو مانين بطل البندقية الذى أنشأ «الجمعية الوطنية» ليعين طريق العمل الناجح ، و يغرس مبدأ الوحدة القومية بزعامة بيدمنت ، حتى لا تعود البلاد مرة أخرى الى الانخذال والانقسام فى وجه الأعداء بين أشياع الجمهورية وأشياع الملكية كما وقع سنة ١٨٤٨ — وقد كان مانين جمهوريا ، ولكنه حبا فى السلم انضم الى جانب الملكيين على شرط أن تكون خطتهم الوحدة لا الاتحاد . ففى سنة ١٨٤٨ قامت حركة الملكيين على قاعدة الاتحاد بين الامارات ولكن ظهور بيدمنت كزعيمة لايطاليا جعل الوحدة التى نادى بها مازينى أمرا لا مناص منه الآن . وكان مانين ينكر على الشعب اندفاعه فى تيار العواطف واعراضه عن الحقائق الجوهرية التى أدت الى هزيمة ٤٨ فدعاهم الآن الى «قليل من الشعر والموسيقى والأناشيد الحماسية وكثير من العمل» .

نابليون، ولكن هـذا الحادث أتى بما لم يكن يتوقعه كافور، إذ كتب اليـه نابليون يطلب مقابلتـه سرا فى حمامات « بلومبير Plombiére » فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٥٨ لعقد محالفة بينهما تعين شروط التدخل ضدّ النمسا . ويعزى هذا السلوك الى تعلق الأمبرطور بايطاليا منذ نشأته، ورغبته فى الأخذ بناصر الأمم التى تطلب حريتها ابتغاء المجد والشهرة، وميله الى بسط نفوذ فرنسا فى ايطاليا وصدّ نفوذ النمسا، هذا فضلا عن رغبته فى توسيع ممتلكات فرنسا والقضاء على آثار قرارات مؤتمر فيينا التى تعـدّ وصمة عار فى جبين أسرته، غير أنه مع ذلك لم تبلغ به الرغبة فى خدمة ايطاليا الى حدّ العمل لاتمام وحدتها، كى لا تتعرّض مصالح بلاده ومصالح البابا للاخطار، فلما قابل كافور فى بلومبير تعهد بالاشتراك معه فى حرب ضدّ النمسا، على أن تكون هى البادئة بالعدوان ، حتى لا يكون هناك مجال لتدخل أوربة . وعند انتصار الحليفتين تنفذ الشروط الآتية :

(١) تضم لمبارديا والبندقية الى بيدمنت ،

(٢) تبقى الولايات الوسطى وولايات الجنوب وأملاك البابا مستقلة ؛

(٣) يكوّن اتحاد ايطالى من كل الولايات تحت زعامة البابا ؛

(٤) تضم سافوى ونيس الى فرنسا ويزوّج ابن عم الامبراطور ببنت ملك بيدمنت .

الحرب مع النمسا — لم يبق أمام كافور بعـد ذلك إلا إيغار صدر النمسا حتى تعلن الحرب على بيدمنت، فأوعز الى الصحف بالطعن فى الحكومة النمساوية، وفتح اكتتابات لتعزيز الجيش، وصرح بلسان ملكه فى البرلمـان بأنه « لا يستطيع أن يسمع أنين الألم المنبعث من أنحاء ايطاليا دون أن يتحرّك له » فأثار كل هذا حنق النمسا الى حد أن أرسلت انذارا تطلب به تسريح الجيش ونزع سلاحه فى ثلاثة أيام، ولمـا أهمل كافور هذا الطلب، زحفت الجيوش النمساوية الى أراضى بيدمنت فى أبريل سـنة ١٨٥٩ وتقدمت فرنسا الى مساعدة حليفتها، فتوالت على النمسـا الهزائم التى

كان أكبرها أثرا هزيمة «ماجنتا Magenta» فى ٤ يونيه «وسولفرينو Solferino» فى ٢٤ يونيــه ، إلا أنه بعد هذه المعركة الأخيرة ، تحوّل الأمبراطور عن الحرب ، وقابل أمبراطور النمسا فى « ڤلافرنكا Villafranca » وهنـاك اتفق الاثنان على الهدنة والصلح دون استشارة بيدمنت . وهــذه هى الشروط التى اتفقا عليها والتى عرفت فيما بعد بصلح زيورخ سنة ١٨٥٩ :

تنزل النمسا عن لمبارديا الى بيدمنت ؛ تتحد إيطاليـا تحت رئاسة البابا ؛ تكون البندقية جزءا من الاتحاد الايطالى مع بقائها تحت سيادة النمسا ؛ يعاد الحكام الأصليون الى دوقيات الوســط وتسكانيا « وكان الشعب قد طردهم منها وأعلن انضمامه الى بيدمنت » .

وأما الأســباب التى دعت الأمبراطور الى الوقوف بالحرب عند هــذا الحدّ ، ونقض محالفته مع بيدمنت فترجع الى اعلان الولايات الوسطى انضمامها الى بيدمنت على أثر نشوب الحرب ممـا جعل فرنسا مهدّدة بنشأة وحدة قوية الى جانبها ؛ هذا الى استنجاد النمسا ببروســيا وانجلترا ؛ واستنكار الرأى العام الفرنسى لا سيما الحزب الكاثوليكى إضعاف سلطة البابا .

أما كافور فقــد أغضبه هــذا الاتفاق ، ونصح للملك بمواصلة الحرب إلا أن فكتور أمانويل لم يعمل بهذا الرأى ، فاعتزل كافور الوزارة على الأثر .

وحدة إيطاليا الشمالية — لم تحصل بيدمنت من حرب سنة ١٨٥٩ على ما كانت تؤمل ، إذ بقيت البندقية للنمسا ، كما بقيت الولايات الأخرى على ما كانت عليه من التفرق . إلا أن الشعب الثائر فى الولايات الوسطى «مودينا — بارما — تسكانيا — ورومانا» أبى الخضوع لأحكام المعاهدة ، وقرر الانضمام الى بيدمنت ، وكان كافور قد ذهبت عنه سورة غضبه فعاد الى الوزارة ، وجعــل يعمل لاجابة رغبة الولايات ، فتقدّم بنيس وسافوى الى لويس نابليون بعد أن حرم منهـا إبان

النزاع الأخير، على ألا يعارض فى ضم الولايات الوسطى ، فأجابه هذا الى رغبته بشرط أن يوافق أهل الولايات على هذا الضم ، ولما كانت النمسا لاتستطيع التدخل بعد أن أعلنت انجلترا وفرنسا أنهما تعارضان فى ارغام الأهالى على قبول حكامهم الأصليين ، فقد بدأ كافور باستفتاء الجهات الثائرة فى شأن الحكومة التى يريدونها ، فكانت الأغلبية فى جانب الانضمام الى بيدمنت ، فقبل فكتور مشيئتهم ، ووافقت الدول على ذلك فى ابريل سنة ١٨٦٠ :

حركة غاريبلدى — لم يبق أمام كافور سوى ضم مملكة نابلى وأملاك البابا «لاسيما رومة» والبندقية. أما رومة والبندقية فكان دون الوصول اليهما مصاعب جمة ، ولكن نابلى التى لاتهدأ ثائرتها مطلقا كانت لقمة سائغة ، فرأى كافور أنه اذا كانت السياسة تأبى عليه انتزاعها قسرا من يد حكامها ، فقد كان فى وسع المتطوعين القيام بهذه المهمة ، ولذلك أوفد غاريبلدى للعمل[١] .

وغاريبلدى هذا بطل من أبطال إيطاليا العظام ، وشخصية فذة ملؤها الجرأة والأقدام ، تربى فى حجر الجمعية التى أنشأها مازينى ، وتغذى بمبادئها ، ودافع عن سياستها فى رومة وغيرها ، ثم تحوّل الى حزب الملكيين الذين كانوا يرغبون فى بعث إيطاليا على يد بيدمنت ، فاشترك فى حروبها مع النمسا ، ولما تحركت الثورة فى نابلى من جديد ، تحرك غاريبلدى لنصرتها ، وأمدّه الملك وكافور بالمال والسلاح سرا ، فخرج فى مايو سنة ١٨٦٠ بألف من المتطوعين ذوى القمصان الحمراء ، ونزل بهم فى جزيرة صقلية ، وسرعان ماهزم جيش نابلى هزيمة منكرة ، وأقام من لديه عمالا يحكمونها ، ثم أخذ يتأهب لغزو نابلى على أن يتبعها برومة والبندقية ، فنزل على شاطئ نابلى من غير كبير مقاومة ، وسار شمالا حتى دخل العاصمة دخول المنتصر الظافر ، فلم تبق إلا الحصون الشمالية حتى تصبح البلاد بأسرها فى قبضته .

(١) أنظر صورة غاريبلدى (صفحة ١٤٧) وقد كتب تحتها بيده عبارة معناها "ما استعصت الحرية على من وطد العزم على نيلها" .

تدخل كافور — فى هذه الأثناء كان كافور يراقب نجاح غاريبلدى بفرح عظيم ، إلا أنه خشى أن يندفع فى عمله اندفاعا يؤدى الى افساد قضية البلاد وتدخل الدول فى مصلحة نابلى والبابا ، وأن يعمل على تأسيس جمهوريه بتأثير مازينى وأشياعه الذين كانوا يؤازرونه فى حركته ، فانتهز فرصة غضب البابا على بيدمنت لاستيلائها على مقاطعة رومانا واعلانه الجهاد الدينى عليها ، وتعبئته الجيوش للانتقام منها ، فتقدّم الملك بجيشه ، وشتت الجنود البابوية فى موقعة « كاستلفيداردو Castlefedardo » ثم احتـل أملاك البابا عدا رومة . وحينئذ أعلن السكان رغبتهـم فى الانضمام الى بيدمنت ، وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٨٦٠ .

تقدّمت جيوش الملك بعد ذلك الى الجنوب لمعاونة غاريبلدى ، فتغلبا معا على مقاومة الحصون التى لم تكن قد سلمت بعد ثم دخلا نابلى جنبا لجنب ، وطلبا موافقة الأهالى فكانت الأغلبية فى جانب الانضمام الى بيدمنت ، فخضع غاريبـلدى لحكم مليكه ، وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٦١ اجتمع المجلس النيابى الجديد فى تورين ، وكانت كل إيطاليا عدا رومة والبندقية ممثلة فيه ، فاستبدل اسم مملكة سردينيا «بيدمنت» بمملكة إيطاليا ، ونودى بفكتور أمانويل ملكا عليها .

مات كافور على أثر هذه الحوادث «يوليه سنة ١٨٦١» ففقدت البلاد بفقده قوة لاتعوض ، إذ لاشك أن إيطاليا مدينـة له بوجودها ، لإخلاصه وجرأته ، مع صبره واعتداله وطول أناته ، واذا قيـل إن مازينى كان روح الوحدة الإيطالية ، وغاريبلدى ساعدها ، فقد كان كافور بلا ريب رأسها المفكر .

اتمـام الوحدة — كان لا بد لاتمـام الوحدة الإيطالية من ضم البندقية ورومة . أما الأولى فقد نالتها إيطاليا جزاء مساعدتها لبروسيا فى حربها ضد النمسا[1] سنة ١٨٦٦ ، وأما الأخرى فكان يحول دونها أمران :

---

(١) أنظر الفصل التالى .



فكتور أمانويل

(أولا) رغبة البابا فى استبقاء سلطته الدنيوية فى رومة «حتى تحول — كما قال — بين المدنية والثورة، كما حالت من قبل بينها وبين الاسلام».

(ثانيا) احتلال الجنود الفرنسية لرومة منذ القضاء على جمهورية مازينى، وتشدد نابليون فى البقاء فيها، والدفاع عنها لاكتساب مودة الكاثوليك.

على أن كافور ومن خلفه من الوزراء شعروا، كما كان يشعر كل رجال ايطاليا، أن لا وحدة ولا اتحاد فى ايطاليا إلا اذا كانت رومة عاصمة لها، فعرضوا حسم النزاع على مبدأ «كنيسة حرة فى مملكة حرة» ولكن البابا رفض هذا الحل.

حينئذ صمم غاريبلدى على أن يتخطى حدود السياسة الدقيقة وينتزع المدينة من يد البابا كما انتزع نابلى من يد ملكها. ولكن جنود الملك حالت بينه وبين بغيته حتى لا تسوء العلاقات مع فرنسا، وأخذ فكتور على عاتقه مفاوضة نابليون فى الأمر،

فقر الرأى على انسحاب الحامية الفرنسية فى سبتمبر ١٨٦٤ على أن يبق البابا مستقلا فى عاصمة ملكه ، إلا ان غاريبلدى حاول مع ذلك الاغارة على رومة من جديد، فعادت جيوش فرنسا وشتتت قواته واحتلت المدينة مرة أخرى ، على أن نشوب حرب السبعين اضطر فرنسا الى استدعاء جنودها على عجل، فسارع الايطاليون حينئذ بالزحف الى رومة ودخولها فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٨٧٠، وبذلك تم العمل المجيد الذى من أجله كرست ايطاليا حياتها "كما قال الملك فى حفلة افتتاح البرلمان الأول فى رومة" . وليست هذه الخاتمة إلا ثمرة الإخلاص والإيمان ، ونتيجة الجهاد الطويل، والمخاطرة الهائلة، والجرأة المنقطعة النظير .

على أن ايطاليا لم يهدأ حالها من ذلك الحين لأن الحكم البرلمانى لايثمر فى يوم واحد، ولو أن «أسوأ المساكن كما قال كافور خير من عدمها» . و بينما البلاد تتعثر فى سبيل الحكم الذاتى ، أخذت تكابد من جهة أخرى اضطرابا اجتماعيا واقتصاديا خطيرا، من جراء ما قاسته أجيالا طويلة من سوء الحكم . ثم إن الحكومة الجديدة استلزمت نفقات باهظة لتقوم بحاجيات أمة متحضرة فى قارة أوربية، وهذا فى بلاد لم تبلغ الثروة فيها بعد مبلغا كبيرا، ولكن هذه المتاعب لاتقاس الى جانب المشكلة القائمة بين الكنيسة والحكومة، فان سجين الفاتيكان يأبى أن يرضخ للحقيقة الواقعة، ويتنزل عن سلطته المدنية، وحتى يحل هذا النزاع سيبقى من الصعب التوفيق بين الدين والوطن، وهذا أمر شديد على أولئك الذين يمجدون الدين ويقدسون الوطن[1] .

---

(١) اذا كانت الوحدة الايطالية قد تمت عام ١٨٧٠ فقد بقى عدد كبير من الايطاليين خارج حدودها . وقد كانوا يسكنون الترنتينو والتيرول واستريا وتريستا وقد أطلق عليها اسم (Italie Irridenta) أى ايطاليا التى لم تضم ، وقد بقيت هذه البلاد عقبة فى تحسين العلاقات بين ايطاليا والنمسا حتى الحرب العظمى .


سويسرة
التيرول
النمسا والمجر
سافوى
فنيسيا
١٨٦٦
بارما
١٨٦٠
تسكانيا
١٨٦٠
البوسنة
صقلية
١٨٦٠
سردينيا
الوحدة الإيطالية
١٨١٥ - ١٨٧٠

الفصل الثالث

نجاح الاتحاد الألمانى

في سنة ١٨٦١ توفى الملك فردريك وليم الرابع وخلفه على عرش البلاد أخوه ولهلم الأول ، فاستدعى الكونت أوتوفون بسمارك لتسلم مقاليد الأعمال ، والى هذين الرجلين ومعهما فون رون وزير الحربية ومولتكى قائد الجيش يعزى تأسيس الأمبراطورية الألمانية الحديثة .



بسمارك

نشأة بسمارك — ولد فى سنة ١٨١٥ من أسرة نبيلة فى مقاطعة برندنبرج، وتربى فى جامعتى جوتنجن و برلين، ثم التحق بخدمة الحكومة، ولكنه اعتزلها لادارة مزارعه فى بوميرانيا حتى انتخب عضوا فى مجلس الولاية ثم عضوا فى برلمان برلين سنة ١٨٤٨، وفيهما ظهر مظهر العامل القدير على توطيد نفوذ الملكية، فأعادته حكومة الملك لخدمتها، على أن يكون مندوبا عنها فى الديت الألمانى الذى كان محور العداء القاتل الذى كانت تضمره النمسا لبروسيا، وبعد سنوات قليلة تقلد منصب السفارة فى بطرسبرج، ثم فى باريس فوقف على كثير من مبادئ السياسة الدولية ودرس أخلاق الأفراد الذين احتك بهم فيما بعد .

سياسته — فلما تقلد بسمارك منصب الحكم كانت خطة العمل مهيأة أمامه، وهى خطة تنطوى على اجبار النمسا وفرنسا على التخلى عن موقفهما العدائى حيال تأسيس اتحاد ألمانيا، لارغبة منه فى تحقيق آمال قومية فحسب، بل رغبة فى تحقيق أحلام فردريك الأكبر وهى مدّ نفوذ بروسيا على كل ألمانيا . إلا أنه رأى أن هذا الأمر لايتم، ولا يجب أن يتم، بقوة الشعب الألمانى، بل بقوة الجيش البروسى حتى يضمن الزعامة لبروسيا، فأنشأ يتخذ الوسائل لاعداد ذلك الجيش بأن عرض على البرلمان البروسى تقدير مبلغ يكفى لتسديد النفقات اللازمة، ولكنه لاقى معارضة قوية من جانب الأحرار، فأسرع الى حل البرلمان «لأن المسألة الألمانية — كما قال — لاتحل بمناقشات برلمانية، بل تحل بقوة الدم والحديد» . ولما تم له أمر إعداد الجيش أخذ يناوئ النمسا فى شؤون شتى، حتى حملها أخيرا على قبول الحرب .

الدم والحديد — «مشكلة شلسويج هلشتين» Schleswig Holstein كانت المسألة التى اتخذها بسمارك ذريعة لاعلان الحرب على النمسا هى مسألة شلسويج هلشتين . وذلك أن فردريك السابع ملك الدانيمرك كان يحكم هاتين المقاطعتين الألمانيتين منذ سنة ١٨٦٣ بصفته الخاصة، على أن تبقيا ضمن الاتحاد الألمانى، فلما توفى الملك من غير ذرية، انقطعت الصلة التى كانت تربط الولايتين

بالدانيمرك ، إلا أنها حاولت مع ذلك أن تضمهما نهائيا اليها ، فاعترض على ذلك الديت الألمانى كما اعترض بسمارك طمعا فى الاستيلاء عليهما لأهمية موقعهما البحرى ، وأقنع النمسا بالتدخل معه فى شأن المقاطعتين ، باسم اجبار الدانيمرك على احترام المعاهدات التى وقعت عليها ، فزحفت الجنود النمساوية البروسية الى شلسويج ثم جتلنده فى أبريل سنة ١٨٦٤ وأجبرت الدانيمرك على التخلى عن الإمارتين للنمسا و بروسيا ، وحينئذ قررت الحليفتان فى معاهدة جستين "Gastein" التى أبرمت فى أغسطس سنة ١٨٦٥ على أن تحكما المقاطعتين معا بشرط أن تتولى بروسيا ادارة شلسويج والنمسا مقاطعة هلشتين .

الحرب مع النمسا — بيد أن هذه المعاهدة لم تكن إلا اتفاقا وقتيا ريثما يتم بسمارك معداته ، فيتخذ من هذا الاتفاق ذريعة لمحاربة النمسا فاتفق أولا مع نابليون الثالث فى بياريتز على أن تلتزم فرنسا الحياد اذا ما وقعت الحرب بين



فون مولتكى

بروسيا والنمسا، وذلك مقابل الحصول على بلچيكا أو لكسمبرج أو بعض ولايات الرين ، ثم اتفق مع الايطاليين على أن يعلنوا الحرب الى جانبه ليستطيعوا طرد النمساويين من بلادهم نهائيا . ولما كان قد اتفق مع الروسيا من قبل عند نشوب الثورة البولندية اتفاقا وديا أساسه تبادل المعاونة، فقد أمن بسمارك جانب الدول ، وأخذ بعد ذلك يناوئ النمسا متخذا مسألة شلسويج هولشتين وسيلة لحملها على الحرب ، فاتهمها بالعمل لنقض الاتفاقية المعقودة بينهما وذلك بتعضيدها الأمير المطالب بعرش الولايتين ، ثم سير جنوده الى هولشتين فاحتلتها وضمتها لأملاكها على ما فى ذلك من الافتيات على حقوق النمسا والديت، ولذلك تعاونت هذه المصالح المتضامنة على خوض غمار الحرب ضد بروسيا التى لم تكن تعوزها المعدّات الحربية الحديثة التى هيأها لها "ڤون رون Von Roon" وزير الحربية،ولا تنقصها الشجاعه والحنكة التى امتاز بها قائدها الكبير ڤون ملتكى (Von Moltke) فأسرعت الى احتلال سكسونيا وهانوفر وهس، ثم تقدّمت الى بوهيميا لمقابلة الجيوش النمساوية المعسكرة فيها، فالتق الجمعان عند "سادوه Sadwa" فى يوم ٢ يوليه سنة ١٨٦٦ وهناك دارت بين الفريقين موقعة من أكبر المواقع شأنا فى التاريخ، انتصر فيها البروسيون انتصارا مبينا .

فوز بروسيا — زحفت الجنود البروسية على ڤينا بعد انتصارها فى سادوه وكادت تدخلها، إلا أن بسمارك رأى أن يقف بالحرب عند الحدّ الذى وصلت اليه، لأنه رأى فى اذلال النمسا ودخول ڤينا ما يجعل اعادة الصداقة فيما بعد من أصعب الأمور، مع أنه كان فى احتياج لاعادة هذه الصداقة ليضمن حيدة النمسا فى حربه التى كان لابد منها لارغام فرنسا على قبول تأسيس الاتحاد الألمانى، ومن جهة أخرى رأى بسمارك أن ايطاليا التى برّت بوعدها فى محاربة النمسا قد خذلت وأن ذلك الخذلان قد يتعدّى الى غزو بلادها اذا طالت الحرب ، هذا الى أن أخبار سادوه كانت شديدة الوقع فى فرنسا، لأن الفرصة التى كان ينتظرها نابليون الثالث من اشتباك المملكتين فى حرب طويلة ، ودخوله بعد ذلك حكما بينهما قد ضاعت تماما ،

إلا أن هذه الفرصة قد تعود اذا طال أمد الحرب ، فلكل هذه الأسباب قرر بسمارك التعجيل بمفاوضة النمسا فى شأن الصلح ، وكانت النهاية ابرام معاهدة "براغ" فى ٢ أغسطس سنة ١٨٦٦ ، وبها ضمت هانوفر وبعض أجزاء بافاريا ، وكذلك هس ودرمستات وشلسويج هلشتين ومدينة فرنكفورت الى أملاك بروسيا ، هذا فضلا عن أن النمسا اعترفت بانشاء اتحاد يشمل كل الامارات الكائنة شمال نهر المين تحت زعامة بروسيا ، وأما الامارات التى فى جنوب هذا النهر فقد تكوّن منها "اتحاد جنوبى ألمانيا" على أن يبقى مستقلا عن بروسيا . وأخيرا تقرّر أن تنزل النمسا عن مدينة البندقية لايطاليا مكافأة لها على دخول الحرب[1] .

وهكذا انتهى الدور الأول من السياسة التى اتبعها بسمارك لتحقيق الوحدة الأهلية بطرد النمسا من الاتحاد الألمانى ، وإنشاء اتحادين أحدهما فى الشمال والآخر فى الجنوب . ولا ريب أن هذا التقسيم يعزى الى تردّد امارات الجنوب فى الانضمام الى الشمال ، كما يعزى الى تدخل نابليون الثالث فى التسوية الأخيرة ليحول دون وقوع كارثة وطنية كبرى ، وهى قيام دولة ألمانية عظيمة على حدود فرنسا .

سياسة بسمارك بعد سادوه :

(أولا) أخذ بسمارك يعمل على ربط الولايات الجنوبية والشمالية برباط المصلحة المتبادلة ، وقد تم هذا بالاستفادة من غلطات فرنسا ، وذلك أن نابليون الثالث طالب

---

(١) أخذت النمسا تعمل بعد حوادث سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٦ لتنظيم شؤون الأمبراطورية حتى تعوض خسائرها الخارجية بزيادة قوتها الداخلية ، ففى سنة ١٨٦٠ قرر الأمبراطور العدول عن سياسة العنف والمقاومة ، وأصدر مرسوما يقضى بأن ترسل كل الولايات نوابا عنها الى برلمان يعقد فى فينا ، ولكن المجريين رفضوا التخلى عن شخصيتهم ، وأبوا ارسال مندوبين الى هذا البرلمان ، واستأنفوا خطة المقاومة السلبية لاخضاع الحكومة الأمبراطورية لارادتهم ، وأعلنوا على لسان (ديك Deak) الاصرار على التمتع بالاستقلال فى كل الشؤون الداخلية . فارضاء لهذه الرغبات التى لا تقبل المساومة ، وضع النظام الثنائى سنة ١٨٦٧ ، وبه انفصلت المجر وما يتبعها عن النمسا فى شؤونها الداخلية ، وأما السياسة الخارجية ، وأمور الحرب والمالية فتشرف عليها لجنة من مندوبى الدولتين ، وهذا النظام يشوّهه حرمان برلمان الأمتين من مراقبة أهم المصالح العامة ، كما يشوّهه إغفال مطامع الجنسيات الأخرى ومنافساتها العديدة ، وسنرى تأثير سوء هذا النظام فى تطور حوادث الحرب الكبرى .

بسمارك بعـد موقعة سادوه بتنفيذ اتفاقيـة بيارتز التى قضت بأن تستولى فرنسا على البلجيك أو بعض أراضى الضفة الغربيـة للرين ، فأخذ بسمارك يسوّف فى الأمر حتى تم صلح براغ مع النمسا ، وحينئذ أعلن أنه لا يملك النزول عن قيد شبر واحد من الأراضى الألمـانية ، ثم نشر فى أوربة الوثائق التى تبودلت بين الحكومتين فى هذا الشأن ، فأثارت سخط الرأى العام فى انجلترا ، واستفزت الولايات الألمـانية الجنوبية حتى عجلت بابرام تحالف مع بروسيا ، على أن تصبح جميعها خاضعة لنظام بروسيا الحربى . وتلا ذلك تشكيل مجلس يتـولى أمر توحيـد المكوس فى جميع أنحاء ألمـانيا[1] .

(ثانيـا) كانت سياسة فرنسا منذ عهد ريشيليو قائمة على مقاومة تأسيس وحدة ألمـانيا قوية الى جانبها ، فلما فاجأتها موقعة سادوه وأصبح اتحاد ألمانيا قاب قوسين ، قام الشعب الفرنسى وعلى رأسه تيير وأعلن أن هذه الموقعة تعتبر نكبة وطنية عظمى ، وأنه يتعين على الحكومة بعد أن خدعت الى هـذا الحد أن توقف مطامع بروسيا بأن تتدخل وتمنع الاتحاد المقبل بكل ما تستطيعه من قوة ، فأذعن نابليون وتوسـط فى الصلح بين بروسـيا والنمسا ، ونجح فى تأجيل اتحاد الولايات جميعا كما أسلفنا . ولكن نشأ عن هذا التدخل أن ازداد بسمارك يقينا بأن لاسبيل الى تحقيق أغراضه إلا بحرب أخرى مع فرنسا ، فأخذ يعدّ العدّة لها و يتلمس طرقا شتى لاجبار فرنسا على خوض غمـارها ، كما أجبر النمسا من قبل ، ولكن فرنسا نفسها لم تكن راغبة عنها ، فسارت الى حتفها بظلفها ، وذلك أن نابليون رأى أن لاقبل له بتوطيـد دعائم الأمبراطورية فى البلاد ، بغير أن ينعشها بشىء من الانتصارات التى كانت تتـوق

(٢) حاولت فرنسا بعد أن فشلت فى الاستيلاء على البلجيك وولايات الرين ، أن تستولى على لكسمبرج (وكان يحكمها ملك هولندا على أن تحميها جيوش بروسيا وتبقى تابعـة للاتحاد الألمانى) ، فعرض نابوليون على ملك هولندا أن يشتريها منه ، وكاد هذا أن يوافق على البيع لولا أن بسمارك اعترض على الأمر . ولما كانت كل من فرنسا و بروسـيا على غير استعداد لحرب إذ ذاك ، فقد قبلتا وساطة الدول (معاهدة لندن سنة ١٨٦٧) و بها تقرر أن تكون لكسمبرج منطقة حياد وأن تنسحب منها فرنسا و بروسيا على السواء .

اليها — وكانت زوجته "يوچينى" أكبر من حمله على السير فى هذا الطريق الوعر — فلم يتردّد طويلا فى خوض غمار الحرب التى كان يتوق اليها بسمارك .

أما الخطة التى اتخذها بسمارك لنفسه إزاء فرنسا فهى تتلخص فيما يلى :

(أولا) دخول الحرب سريعا حتى لا تستطيع النمسا أن تثأر لنفسها بالاشتراك مع فرنسا .

(ثانيا) إجبار فرنسا على البدء باعلان الحرب حتى تستطيع بروسيا أن تشرك الولايات الألمانية الجنوبية معها باسم الدفاع عن كيان البلاد .

(ثالثا) حمل الروسيا على التزام الحيدة، بل دخول الحرب فى صف بروسيا اذا انضمت النمسا الى فرنسا ، وقد تم له ذلك فى مقابل تعهده بمساعدتها لالغاء حيدة البحر الأسود التى تقررت فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦

أما نابليون الثالث، فقد عمل من جهته على إشراك النمسا وايطاليا معه فى الحرب، ولكن النمسا لم تجمع الرأى على دخول أى حرب ضد بروسيا على الرغم من تظاهرها بصداقة فرنسا، فى حين أن ايطاليا التى أغضبتها مؤازرة نابليون الثالث للبابا فى كثير من أدوار وحدتها، لم تعده بشىء سوى بقائها على الحياد فى هذه الأزمة .

مسألة أسبانيا — بينما كانت هـذه المفاوضات سائرة فى طريقها ، كان بسمارك يجـد فى الاستعداد الحربى حتى اذا كمل، أخذ يلتمس الفرص لحمل فرنسا على اعلان الحرب، ولم يلبث أن وجد هذه الفرصة فى مسألة لاتهم فرنسا فى الحقيقة ولا تهـم ألمـانيا مباشرة، وذلك أن النزاع الطويل الذى قام فى أسبانيا بين الأسرة المـالكة وأنصار الحرية، انتهى سنة ١٨٦٩ بثورة قام بها المـارشال "برما" واشترك فيها الجيش والسواد الأعظم من الأمة، حتى اضطرت الملكة "إيزابلا" الى أن تفر الى فرنسا ، وعلى أثر ذلك أعلن الثوار أن حكومتهـم المستقبلة ستكون حكومة ملكية دستورية وانتخبوا للعرش الأمير "ليوبولد" من أفراد أسرة "هوهنزلرن نجمرنجن" .

وقد قبل الأمير هـذا العرش بشرط أن يوافق على ذلك مجلس الكورتيز الاسبانى والملك ولهلم بصفته رأس أسرته .

على أن الخبر وقع موقع الصاعقة فى فرنسا لأن اعتلاء أمير بروسى عرش أسبانيا كان من شأنه توحيد سياسة الدولتين الأسبانية والبروسية ، وقلب التوازن الدولى فى أوربة ، ولهذا تلق "بندتى Benedetti" سفير فرنسا فى بروسيا أمرا بأن يسرع لمقابلة الملك ولهلم فى مدينة "أمز Ems" ، حيث كان الملك يستحم بمياهها ، ويفاوضه فى الأمر .

برقية أمز — ولما كان ملك بروسيا يرغب حقيقة فى السلم ، فقد أعلن أن لاعلاقة لحكومته بهذا الموضوع مطلقا ، وأنه لم يأذن لليوبولد بقبول العرش ، وأنه قد دعا هـذا الأمير باعلان التخلى عنه . وقد كاد الأمر ينتهى عند هـذا الحد لولا أن أنصار الحـرب فى باريس أرغموا الكونت "جرامون Gramont" وزير الخارجيـة على أن يطلب من بروسيا أن تتعهد بألا توافق فى المستقبل على ترشيح هذا الأمير ، فأجاب ملك بروسيا على هذا المطلب الماس بكرامته بالرفض مع مراعاة حدود اللياقة فى عبارته . بيد أنه لما أرسلت تفاصيل هذه المقابلة برقيا الى بسمارك ، رأى هـذا أن الفرصة التى كان ينتظرها قد حانت ، فبعد أن استوثق من استعداد قائده ووزير حربيته للحرب ، نشر نص الرسالة البرقية التى وصلته من الملك ، فى صورة مقتضبة ، بحيث أصبحت تشعر الأمة الفرنسية بأن سفيرها قد أهين عند مقابلته ملك بروسيا ، وبذلك ترغم حكومتها على إعلان الحرب . والواقع أنه لم تكد هذه الرسالة تنشر فى فرنسا حتى علا نار الحماسة الوطنية وارتفعت الأصوات باعلان الحـرب ، وكان فى وسع الحكومة الفرنسية اذا كانت ترغب فى السلم أن تكذب هذا البلاغ ، ولكنها كانت ترغب فى الحرب كما كان يرغب بسمارك ، فسارعت الى إعلان الحرب فى ١٩ يوليه سنة ١٨٧٠

موقف الدول — اهتمت انجلترا فى هذه الحرب بالاحتفاظ بسلامة البلجيك، فطلبت الى فرنسا وبروسيا أن تعطيا ضمانا بذلك، ولما تم لها الأمر لزمت جانب الحياد كما لزمته النمسا وروسيا والدانيمرك وايطاليا، واقتصر النزاع على فرنسا وألمانيا وحدهما . وقد كانت ألمانيا كاملة العدّة والعدد، حسنة التدريب والقيادة، يرأس جيشها "ملتكى" بطل سادوه الذى لم يترك شيئا للظروف، بأن هيأ المعدّات، ورسم الخطط التى يسير عليها من قبل، بينما كان ينقص الجيش الفرنسى كل المعدّات اللازمة للقتال وتنقصه الخبرة والتدريب وحسن القيادة، فلما تلاقى الجيشان هزم الأخير هزيمة لا مثيل لها فى التاريخ الحديث .

الحرب وأدوارها — بدأت الحرب بمناوشة عند "ساربروكن Sarbrucken" تفوّق فيها الفرنسيون، ولكن بدأت سلسلة الهزائم بعد ذلك فى "ويسنبرج Weissenberg" ثم تجاه "ورث Worth" واضطر الفرنسيون الى الانسحاب من الالزاس واللورين فى ٤ أغسطس . وقد كانت خطة القيادة الفرنسية إثر ذلك أن ترتد الجيوش الى شالون، إلا أن بازين قائد الجيش الأيمن هزم فى طريقه هزائم متلاحقة اضطر معها الى الانزواء فى "متز" حيث أسرع الألمانيون بتطويق المدينة . أما باقى الجيش الفرنسى الذى كان يقوده "مكمهون McMahou" فانه أسرع على أثر هذه الهزائم بالسير الى باريس لحمايتها، ولكن الامبراطور نابليون رأى فى هذا التقهقر مايهدّد مركزه، فطلب الى مكمهون أن يعود لرفع الحصار عن بازين، غيرأنه نكب فى عودته هذه بأعظم الأخطار، إذ كتنفه البروسيون فى سيدان وأنزلوا بجيشه البالغ ١٣٠,٠٠٠ رجل هزيمة فادحة، وأرغموا الامبراطور ومعه ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ رجل على التسليم فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٠، وعلى أثر هذه الهزيمة انفجرت الثورة فى باريس، وأعلنت الجمهورية الثالثة فى ٤ سبتمبر، وتألفت حكومة الدفاع الوطنى وعلى رأسها تروشو، ووزير حربيتها جول ففر ووزير داخليتها

غمبتا. ولما كانت هذه الحكومة قد صممت على الدفاع، زحف الجيش الألمانى الى باريس وبدأ محاصرتها فى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٧٠ بنحو ٢٤٠٠٠٠ مقاتل، وحينئذ انتقل فريق من هيئة الحكومة الى مدينة تور برياسة كرميه وبعده غمبتا، واتخذوها مركزاً لاعداد الجيوش وتنظيم الخطط لرفع الحصار عن باريس وطرد الألمان من فرنسا . وقد كان فى وسع هذه الحكومة أن تقاوم الألمانيين مقاومة عنيفة لولا أن تول واستراسبورج سقطا فى ٢٨ سبتمبر، وفى يوم ٢٧ أكتوبر سلم بازين وجيشه البالغ نحو ستة آلاف ضابط و ١٧٠,٠٠٠ جندى، وبذا تفرغ الألمانيون لحصار باريس، فشددوا الحصار عليها حتى أخفقت كل مقاومة فى داخلها وخارجها، واضطرت المدينة الى التسليم فى ٢٨ يناير سنة ١٨٧١، وعلى أثر ذلك تقرر الصلح فى فرنكفورت فى ١٠ مايو على أن تستولى ألمانيا على متز واستراسبوج مع الألزاس واللورين، وأن تدفع فرنسا غرامة حربية عظمى تبلغ ٥ آلاف مليون فرنك، وأن يبقى جزء من أرض فرنسا محتلا حتى تنفذ هذه الشروط .

تتويج الأمبراطور — على أن أعظم ثمرة نالها بسمارك بجهاده الطويل، هى إتمام الاتحاد القومى الذى من أجله خاض غمار هذه الحروب المتوالية، فانه بعد أن قضى على كل العوائق التى عرقلت هذا العمل بهزيمة النمسا وفرنسا، خابر الولايات الجنوبية فى الانضمام نهائيا الى اتحاد الشمال حتى تؤسس دولة ألمانية قوية تكفل الدفاع عن البلاد واسعاد أهلها، وقد تمت الموافقة على انشاء هذه الاتحاد، وتوج الملك "ولهلم" أمبراطورا لألمانيا فى قصر فرساى فى ١٨ يناير سنة ١٨٧١

الدستور الأمبراطورى — وفى ١٦ أبريل سنة ١٨٧١ أعلن دستور الأمبراطورية الجديدة، ومؤداه أن يكون الأمبراطور والمستشار الأمبراطورى على رأس الهيئة التنفيذية، وان تتألف الهيئة التشريعية من مجلس يمثل حكومات الولايات "بندزرات Bundesrat "، وآخر يمثل الشعب "الريشستاغ Reichstag " وينتخب بالتصويت العام لمدة خمس سنوات .

وقد تقرر أن تقتصر الحكومة الرئيسية على النظر فيما يهم الصالح العام، وتستبق الولايات حق الإشراف على كل شؤونها الداخلية على خلاف ما وقع فى ايطاليا .

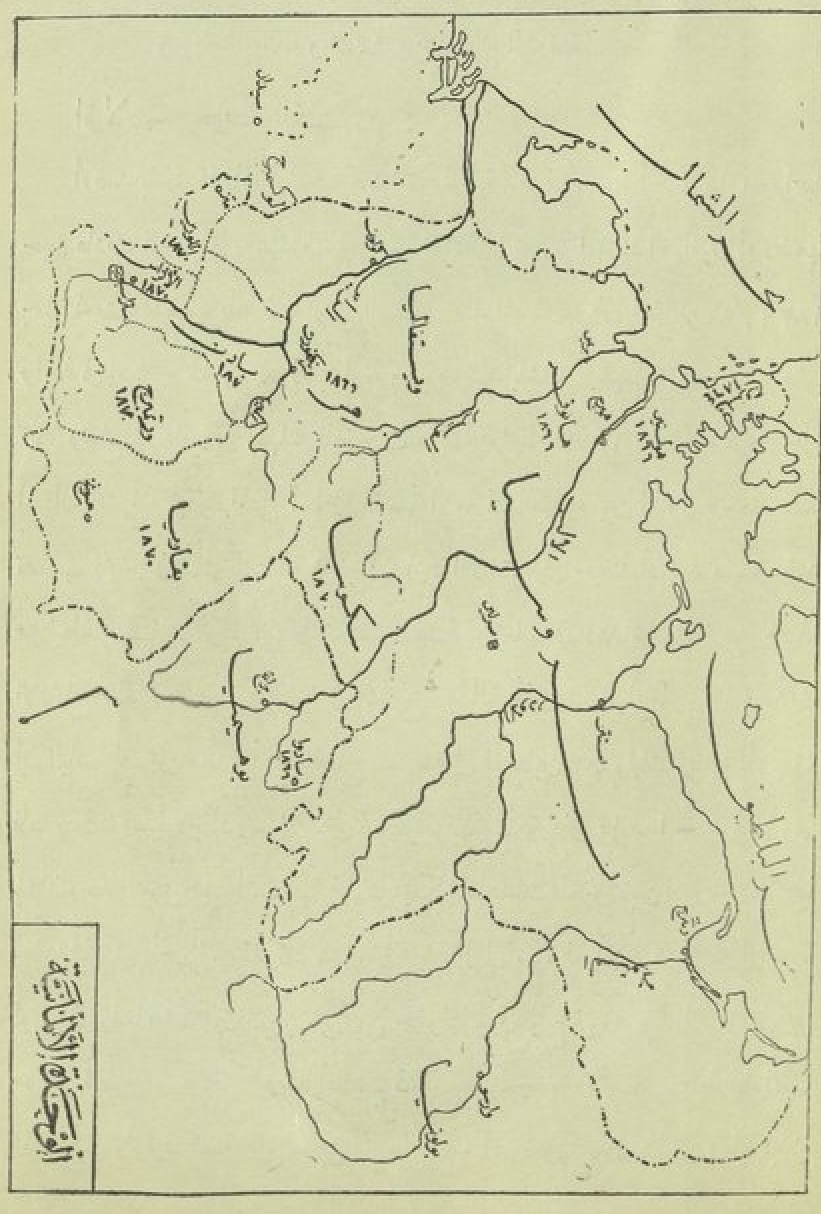
على أنه بالرغم من كل هذه المظاهر، فان السلطة الفعلية لا سيما فى الشؤون الحربية والسياسية بقيت فى يد الامبراطور وأعوانه، وهذا ما كان يعمل له بسمارك . فالاتحاد فى نظره لم يكن مجرد اندماج بروسيا فى هيئة تمثل باقى الولايات بل سيطرة بروسيا على الجميع .

ولما كانت السلطة العليا فى البلاد قد وضعت فى يد طبقة معينة فقد انصرف الشعب الألمانى من ذلك الحين، إلى الأعمال الاقتصادية والفكرية، لا إلى الأعمال السياسية، ومع هذا فالسلطة العليا أخذت قسطها الوافر فى تلك الميادين أيضا، فأضافت كثيرا إلى ثبات مركزها . على أننا يجب ألا نفهم أن الحكومة الرئيسية



الامبراطور ولهلم الأول

كانت تملى ارادتها دائما على كل ألمانيا ، فكثيرا ما كانت تتأثر بقوة الرأى العام والهيئات العديدة المنظمة . ومهما يكن من أمر هذا النظام ، فقد نجحت ألمانيا فى ظله نجاحا باهرا بحيث أصبح من المتعذر أن تنعدم سلطة القيصر إلا اذا تبين للشعب أنها أصبحت أداة للشر أكثر منها للخير كما سنرى .



الفصل الرابع

حرب القرم ونشأة دول البلقان

الدور الثالث من المسألة الشرقية

اولا — حرب القرم :

أوصد باب المسألة الشرقية سنوات متوالية ، ثم فتح مرة أخرى على مصراعيه حين عادت الروسيا الى استئناف سياستها القائمة على تقسيم أملاك العثمانيين أو وضعها جملة تحت حمايتها ، فانه لما ارتقى السلطان عبد المجيد عرش العثمانيين عام ١٨٣٩ وأخذ فى إصلاح شؤون الدولة بمعاونة وزيره رشيد باشا ، خشيت الروسيا أن تنتعش تركيا وتدفع شر المغيرين عليها ، فاقترحت على انجلترا عام ١٨٥٣ أن تتعاونا على حل المسألة الشرقية نهائيا على أساس تقسيم الأملاك العثمانية بين الدول وجعل مصر نصيب انجلترا فى تلك الصفقة . غير أن انجلترا كانت ترى حينئذ أن سلامتها فى الهند مرتبطة بسلامة تركيا التى كانت تقف سدا منيعا دون أعدائها فلم تذعن لهذا الاقتراح . لذلك عمدت الروسيا الى التذرع بوسائل أخرى لتنفيذ مآربها . وحدث أن الباب العالى سلم مفاتيح البقاع المقدسة فى فلسطين للكاثوليك ترضية لفرنسا ، فأسرعت الروسيا لايفاد رسول يدعى "منشيكوف" للاعتراض على هذا القرار ، على زعم لها أن وحدها حق حماية المسيحية فى تركيا ، بحكم المعاهدات المعقودة بين الدولتين ، لاسيما معاهدة "كينارجى" . وقد كاد هذا النزاع يؤدى الى أسوأ العواقب من بادئ الأمر ، لولا أن فرنسا قبلت النزول عن شيء من حقوقها للروسيا حتى يحسم النزاع على طريق مرض للطرفين . ولكن الروسيا أعقبت ذلك بمطلب جديد وهو حق حماية الطوائف المسيحية الأرثوذكسية التى تسكن أنحاء الدولة ، أى حق التنازل لها عن رعاية الجزء

الأعظم من سكان الأمبراطورية العثمانية ، فرفض الباب العالى هذا الطلب الذى لايتفق وسلامة تركيا، فأجابته الروسيا باحتلال الأفلاق والبغدان فى يونيه عام١٨٥٣

ولما كان هذا التعدى يهدد مصالح الدول لاسيما انجلترا وفرنسا،فقد عقد مؤتمر فى ڤينا لحسم النزاع القائم بين الدولتين، وهناك وضعت مذكرة ترك فيها أمر حماية المسيحيين غامضا، بحيث تستطيع كل من الروسيا وتركيا تفسيرها طبقا لمصلحتها . ولكن تركيا أصرت على ألا توضع حقوقها فى موضع الشك ،وقد عززتها انجلترا وفرنسا معا فى هذا الرأى . ولما أعلنت الروسيا تمسكها بغرضها الأول، أسرعت تركيا باعلان الحرب فى أكتوبر عام ١٨٥٣، وتقدمت الأساطيل الانجليزية الفرنسية الى مياه الدردنيل لارهاب الروسيا، بينما كانت الدول تستأنف العمل لحل الخلاف بغير الاعتماد على الحرب . وقد كاد مسعاها يكلل بالنجاح لولا أن جاء حادث قضى على كل آمال السلم .

وذلك أن أسطولا روسيا فاجأ أسطولا عثمانيا فى مياه البحر الأسود فى ميناء "سينوب" فى أواخر نوفمبر عام ١٨٥٣ فقضى عليه قضاء اضطر أساطيل فرنسا وانجلترا الى الظهور فى مياه البحر الأسود ومنع الأساطيل الروسية من الخروج من موانيها . فأثار هذا الحادث حنق الروسيين وجعلهم يأبون أية مفاوضة ترمى الى السلم بعد أن وجهت اليهم تلك الإهانة البالغة ، ولما وجه الأمبراطور نابليون والملكة فيكتوريا بلاغا نهائيا للروسيا يدعوانها الى احترام سلامة الأمبراطورية العثمانية والانسحاب من الأراضى التركية مع الاعتراف باستقلال السلطان المطلق فى علاقاته مع الرعايا المسيحيين أبى القيصر أن يجيب على هذا البلاغ، فأسرعت فرنسا وانجلترا بالتحالف مع تركيا فى مارس ١٨٥٤ ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين .

الحرب — بدأ الحلفاء بالاشتراك مع القوات العثمانية فى طرد الروسيين المغيرين على الأقاليم الشمالية "الأفلاق والبغدان" ، فاضطرت الروسيا الى الجلاء عن هذه المنطقة لغرضين كبيرين: "أولا" أن تنزع من النمسا كل رغبة فى الانضمام الى

الحلفاء لما كانت مصلحتها لا تتفق مع بقاء الروسيا فى تلك الأقاليم . "وثانيا" لأنها كانت تبغى أن تستدرج الحلفاء الى الأراضى الروسية فتنزل بهم مانزل بجيوش نابليون عام ١٨١٢، إلا أن الحلفاء لم يرغبوا فى الاستهداف لهذا الخطر خصوصا بعد أن جنحت النمسا الى الحياد، فنقلوا أعمالهم الحربية بعد ذلك الى شبه جزيرة القرم تجاه ثغر سباستبول .

وجهت الروسيا قواها حينئذ لحماية هذا الحصن ، غير أن الحلفاء اضطروا القوات الروسية الى التراجع فى موقعة "ألما" فى سبتمبر سنة ١٨٥٤ ، وقاموا بعد ذلك يحاصرون ذلك الموقع المنيع ، ولو كانوا هاجموه من بداية الأمر لسقط فى أيديهم ، ولكنهم تريثوا فى الأمر طويلا ، بينما كانت الروسيا تضاعف مجهودها فى تحصينه ، فضلا عن أنها سدّت مدخله البحرى حتى أصبحت الميناء فى مأمن من خطر المدافع البحرية . وهكذا طال النضال بين الفريقين ، واشتبك الخصوم فى مواقع عدة " بكلكلافا " و" انكرمان " دون الوصول الى غايتهم حتى اضطروا الى تمضية شتاء عام ١٨٥٤ فى مواقعهم ، متعرضين لأشد ما يكون من البرد القارس .

لذلك حاول الحلفاء عبثا أن يضموا النمسا الى جانبهم ، فان النمسا احتلت الأفلاق والبغدان بالاتفاق مع تركيا ، بعد جلاء الروسيين عنها ، وتعهدت بالدفاع عن المقاطعتين اذا ما أعيد الزحف عليهما ، وبذا أصبحت ولا مصلحة لها فى الاشتراك فى حرب لا تعنيها الآن ، هذا فضلا عن أنها كانت تبغى ألا تشترك فى الحرب إلا بالاتفاق مع باقى الولايات الألمانية ، فى حين أن هذه الولايات كانت شديدة الرغبة فى نصرة الروسيا وخذلان فرنسا ، ولذا شلت يد النمسا عن مساعدة الحلفاء ، وعززت رغبتها فى البقاء على الحياد . غير أن ولاية بيدمنت الايطالية تقدمت فى هذا المأزق لمساعدة انجلترا وفرنسا ، رغبة منها فى اكتساب صداقتهما لحل المسألة الايطالية لمصلحتها ، وأبرمت معهما معاهدة فى ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ على أن ترسل الى القرم خمسة عشر ألف جندى .

فى تلك الأثناء ، توفى نقولا الأول قيصر الروسيا وولى الأمر بعده اسكندر الثانى فازداد الأمل فى عقد الصلح ، وبدأت فى ڤينا مفاوضات ذات شأن للوصول

الى هذا الغرض، ولكن الحلفاء أصروا على تجريد البحر الأسود من المواقع الحربية، واعتباره منطقة حياد، حتى لا تتعرض تركيا فى المستقبل لخطر ما من الروسيا، فلما أبت هـذه الدولة قبول هذا الشرط الذى يهدد كل مطامعها فى الشرق، استؤنفت الحرب، وبعد نضال عنيف أبلى فيه الفريقان أشد البلاء، سقط حصن سباستبول يوم ١٠ سبتمبر عام ١٨٥٥، بعد أن كلف المهاجمين والمدافعين ثمنـا غاليا، على أن الروسيين فازوا بعد ذلك فوزا كبيرا فى آسيا حيث احتلوا قارس فى نوفمبر عام ١٨٥٥

تهيأت الأحوال حينذاك الى إبرام الصلح، إلا أن انجلترا رأت أن تمضى فى الحرب وتنتصر على الروسيا نصرا حاسما، حتى يتقرر الصلح على قواعد متينة الدعائم، فلا تعود الروسيا الى تعكير السلم، كما كانت تفعل بين كل حين وآخر. ولكن فرنسا ملت الحرب التى كلفتها ثمنـا غاليا، وكانت لا تبغى المضى فيما يثقل كاهلها بعبء جديد، ولذا أعلن الأمبراطور نابليون أن لامندوحة اذا استؤنفت الحرب عن تحريك الشعوب المستعبدة ضد حكوماتها لا سيما فى الروسيا والنمسا حتى يشتد أزر الحلفاء، ولمـا كانت انجلترا لا ترغب بتاتا فى زعزعة أركان السلم فى أوروبا، فقد قبلت — لا عن رغبة — رأى حليفتها فى الصلح. وقد عزز هذا الرأى ما كان من أمر النمسا التى خشيت ما عسى أن ينتج عن اقتراح فرنسا من الاضـطراب والفوضى فى بلادها، فعادت بعد ترددها الطويل الى إعلان رغبتها فى الانضمام الى الحلفاء، اذا رفضت الروسيا قبول شروط الصلح التى تفرض عليها.

ولمـا كان استمرار الحرب قد أصبح يهدد الروسيا بنكبات عظمى، فقد سارعت الى الخضوع لرغبة خصومها، وفى ٢٥ فبراير سنة ١٨٥٦ عقد مؤتمر الصلح فى باريس ووافق على القواعد الآتية: (١) احترام سلامة أملاك تركيا واستقلالها؛ (٢) قبول مبدأ تحكيم الدول فى حالة وقوع خلاف بين تركيا وبين إحداها؛ (٣) تتعهد تركيا بتحسين حالة المسيحيين العثمانيين بغـير أن تتدخل أية دولة فى شئونها الداخليـة؛ (٤) تغلق تركيا البوغازات فى وجه المراكب الحربية غير العثمانيـة؛ (٥) إعلان

حياد البحر الأسود؛ (٦) حرية الملاحة فى نهر الطونة؛ (٧) تعديل الحدود الروسية العثمانية على أن تعاد أفواه نهر الطونة الى حيازة تركيا؛ (٨) رفع الحماية الروسية عن ولايتى الأفلاق والبغدان، ووضعهما تحت حماية الدول .

وقد تغيرت هذه القواعد بأكملها فى الفترة التى تلت معاهدة باريس، ومن ثم نشأ الرأى القائل أن حرب القرم لم تأت بفائدة، وأن كل مجهود الحلفاء قد ذهب عبثا، غير أن هذا زعم باطل . نعم إن الحرب أعطت تركيا فرصة لا نظير لها لتنظيم شؤونها فأضاعت تلك الفرصة، ولكنها أعطت شعوب البلقان زمنا كافيا لاشتداد ساعدها، حتى اذا جاء الوقت المناسب، انحلت المسألة الشرقية حلا مرضيا على قاعدة احترام القوميات، ولو كان ترك الأمر للروسيا من قبل، لابتلعت هذه الشعوب قبل إتمام نضجها ولأضحت خطرا عظيما يهدد أوربا بأسرها .

ثانيا — نشأة دول البلقان :

(أ) الصرب — كان يقطن بلاد البلقان وقت أن غزاها الترك عدة شعوب مسيحية؛ تختلف بعضها عن بعض فى اللغة والزى والعادات والأخلاق ، فالصربيون فى الشمال الغربى، والألبانيون فى الغرب، واليونانيون فى الجنوب وفى الجزر وعلى بعض السواحل ، والبلغار فى الوسط ، على جانبى جبال البلقان ، والرومانيون فى شمال نهر الطونة . فلما تولى الترك الأمر فيهم ،لم يلجأوا لغير القوة فى حكمهم ،ولم يعنوا بالوسائل السلمية التى تربطهم بالشعوب، كما يفعل غيرهم فى حكم الأمم الغريبة عنهم فلما ضعفت قوة الأتراك، وأشربت هذه الشعوب مبادئ الوطنية الحديثة، انسلخت عن الدولة تدريجا، وكانت الصرب أول من سلك هذا الطريق . قام أهلها تحت زعامة "قره جورج" سنة ١٨٠٤ وقاتلوا الأتراك قتالا عنيفا ليضطروهم الى دفع عادية الجنود الانكشارية ، والابقاء على امتيازاتهم المحلية ، وبعد أن استطاعوا مقاومة العثمانيين تسع سنين متوالية وقع الشقاق بينهم، وتخلت الروسيا عن معاونتهم، فاسترد الأتراك سلطتهم، واضطروا "قره جورج" الى الفرار الى الأراضى النمساوية، إلا أن

هذا الجهاد لم يلبث أن استؤنف بزعامة " ميلوش " وهو رجل لا يقل صلابة عن سلفه ، ويفوقه فى أساليب السياسة ، فلم تمض سنتان حتى غدا سيدا مطلقا فى البلاد ، إلا أنه أفسد هذا النصر بقتله " قره جورج " فتولدت الضغائن بين الأسرتين، وتلطخت صحائف التاريخ الصربى بآثار الجريمة زمنا طويلا .

اعترف السلطان مع هذا بميلوش أميرا للصرب فى سنة ١٨٣٠ ، ومع أن البلاد كانت تتوق حينئذ الى الحكم الدستورى ، فان سليقة ميلوش الأوتوقراطية أبت عليه إلا معارضة هذه الرغبة العامة، فلما اضطر أخيرا الى إشراك الشعب معه فى الحكم، تخلى عن مركزه عام ١٨٣٩ ، وتولى الإمارة بعده "اسكندر قره جرجوفيتش" بن قره جورج الزعيم الأول ، وقد كانت سياسته تتعارض مع سياسة الروسيا التى كانت موضع إعجاب الصربيين ، ولذا أرغم على اعتزال مركزه عام ١٨٥٨ وأعيد ميلوش الى سابق عهده بالزعامة، ولكنه لم يلبث أن توفى، فورث الزعامة من بعده ابنه ميخائيل وفى عهده تقدّم الحكم الدستورى، ونظمت شؤون البلاد، ووسعت دائرة استقلالها، ففى عام ١٨٦٢ اشتبك الجند الأتراك مع الأهالى فى نزاع اضطر معه الباب العالى الى هدم الحى العثمانى فى بلغراد ، وتحطيم بعض الحصون التركية ، ولكنه أجبر أخيرا على سحب جنوده نهائيا من صربيا عام ١٨٦٧ . على أن هذا الأمير ما لبث أن قتل من يد خصم من مزاحميه ، فخلفه ابنه ميلان ، وفى عهده سنّ دستور للبلاد عام ١٨٦٩ تأيد فيه مبدأ إشراك الشعب فى الحكم ونظام المسئولية الوزارية ، وعلى يده أبرمت معاهدة برلين التى تقرّر فيها استقلال الصرب استقلالا تاما عام ١٨٧٨ .

(ب) رومانيا — تتكوّن هذه المملكة من مقاطعتى الأفلاق والبغدان اللتين آلتا الى سلطان العثمانيين فى نهاية القرن الخامس عشر، وبقيتا تتمتعان بالاستقلال الداخلى فى ظل أمرائهما على أن يدفعا للباب العالى جزية سنوية . إلا أنه فى سنة ١٧١٦ وضع حكم البلاد فى يد أميرين يونانيين يوليهما الباب العالى من لدنه ، وقد كانت

الغاية الكبرى لهؤلاء الأمراء فى الحكم جمع المال وارهاق الرعايا ورشوة الكبراء من الموظفين العثمانيين ، حتى أصبح تبديل الأمراء أمرا عاديا تلقاء ما يعدونه من العطايا. وترى آثار هذا العهد ظاهرة فى ضم ولايتين من ملحقات هذه الولايات للروسيا إلا وهما بكوفينا سنة ١٧٧٥ وبسرابيا سنة ١٨١٢ ، كما ترى فى الدسائس الأجنبية التى لم تنقطع من جانب الروسيا خاصة ، لفصم العلاقات التى تربط الولايات بتركيا، كخطوة أولى فى سبيل ضمها اليها. على أن تدخل الدول عام ١٨٥٤ فى شؤون تركيا باسم الدفاع عن مصالحها ، ونزع النفوذ الأجنبي منها ، أعاد سلطة العثمانيين الى هاتين الولايتين ، إلا أن الامتيازات العديدة التى نالتها من تركيا بضغط الروسيين ، والروح القومية التى انبعثت فى البلاد كما انبعثت فى غيرها من ولايات أوربة ، قوت الأمل فى إتحاد الولايتين واستقلالها ، وقد وجدا عضدا لتحقيق هذا الغرض فى الروسيا وفرنسا فى حين أن انجلترا وتركيا والنمسا عارضتا فى أمر الاتحاد حتى لا يترع الأهالى الى الاستقلال والخروج عن ملك العثمانيين . ولحسم هذه الأزمة وضعت الدول حلا وسطا ، فقررت عام ١٨٥٨ أن يكون لكل ولاية حاكم ينتخبه نواب الشعب ، ويوافق عليه السلطان ، وأن يكون لكل ولاية مجلس نيابى ، وأن يكون للولايتين لجنة منتخبة لوضع القوانين التى تمس الصالح العام ، فلما بدأت الانتخابات أجمعت الولايتان على شخص واحد وهو "اسكندر كوزا" فكان هذا الانتخاب الخطوة الأولى فى سبيل الاتحاد . والواقع أنه لم يمض عام ١٨٦١ حتى ضم المجلسان ، وسميت الامارة الجديدة باسم رومانيا وعاصمتها بخارست ، وقد وافق السلطان كما وافقت الدول على ما تم ، على أن يبقى حق السلطان فى الجزية والسيادة .

حينئذ أصلح كوزا حال رومانيا فشيد الجامعات ، وفصم علاقة الكنيسة الرومانية بالكنيسة الاغريقية ، وألغى نظام الإقطاع ، ومنح الزراع ملكية ما يزرعونه من الاراضى ، ولكنه أثار غضب الاشراف ورجال الدين باغتصابه أملاكهم ، كما أثار غضب العامة بفساد أخلاقه ، واحتقاره للمبادئ الدستورية ، ونزعته الى الحكم

الفردى، تحت غطاء المظاهر البرلمانية . لذلك أجبر الأمير على النزول عن العرش عام ١٨٦٦ وأقيم مكانه شارل الأول من أسرة هوهنزلرن، وفى عهده تحوّلت رومانيا من إيالة عثمانية شديدة الانحطاط الى مملكة أوربية ذات بأس وقوة، فقد نظمت الجيوش وأصلحت المالية وعززت المبادئ الدستورية وتحولت رومانيا الى حصن هام من حصون المدنية الأوربية .

(ج) بلغاريا والبوسنه والهرسك — اتخذت الروح الوطنية التى دبت فى بلغاريا شكلا دينيا غايته فى بادئ الأمر انفصال كنيستها عن الكنيسة الاغريقية، ولما كان العثمانيون قد اتخذوا مذ استيقظت الشعوب البلقانية مبدأ التفريق بين هذه الشعوب، فقد أنشأوا عام ١٨٧٠ كنيسة بلغارية قائمة بذاتها، ومستقلة عما عداها، إلا أن البلغاريين سرعان ما تحوّلوا عن الغرض الدينى الى الغرض السياسى، فأخذوا يقومون بالثورات فى وجه العثمانيين، معتمدين على معونة الروسيا التى كانت لاتفتأ منذ معاهدة باريس تعمل لهدم ما بنته الدول، لاسيما وقد انفسح المجال امامها لا بالنزاع القائم بين دول أوربة فحسب، بل بالانقلاب العظيم الذى نشأ تدريجا فى السياسة الأوربية حيال تركيا، فالنمسا ولت وجهها شطر المشرق لتعوض من أملاك العثمانيين ما خسرته فى ألمانيا سنة ١٨٦٦ ، بينما نرى بريطانيا تتخلى تدريجا عن سياستها القديمة القائمة على احترام سلامة أملاك السلطان حين أظهرت التجارب صعوبة الاصلاح فى تركيا وعجزها عن الدفاع عن المصالح البريطانية فى أرضها لا سيما بعد تحوّل التجارة الى طريق القنال المارّ فى الاراضى المصرية العثمانية .

تشجعت الروسيا والأمم البلقانية حينئذ على المضى فى مجهودها ضدّ العثمانيين . ولذلك تحرّكت الثورة بادئ الأمر فى البوسنه والهرسك عام ١٨٧٥، فأسرعت الدول الى مطالبة الباب العالى بتنفيذ عدّة إصلاحات وضعها «اندراسى» وزير النمسا لاعادة السلم الى نصابه، غير أن الثوار لم يرتضوا هذه التسوية وصمموا على إعادة الكرة،

وقد كانت الظروف كلها فى مصلحتهم ، ففى هذا الوقت ، بدأت أعمـال حزب تركيا الفتاة التى أدّت الى خلع السلطان عبد العزيز فى ٣٠ يوليه سنة ١٨٧٦ وقتله بعـد ذلك ، وقيام مراد الخامس ، وخلعـه كذلك فى ٣١ أغسطس ، ثم ارتقاء السلطان عبد الحميد العرش . انتهز الثوار هـذه الفرص وأعلنوا من جديد الحرب على تركيا ، وقد شاركهم البلغاريون فالصربيون وسكان الجبـل الأسود ، فتحولت الحرب الى مذابح دموية عظيمة بين العثمانيـين والثوار ، مما أحفظ سائر دول أوربة لا سيما الروسيا التى صممت على منازلة العثمانيين ، والانتصار للشعوب البلقانية .

لذلك عمدت الدول الى حسم النزاع فى مؤتمر عقد لذلك الغرض سنة ١٨٧٧ ، إلا أن الأتراك تمسكوا بمبدأ عدم التدخل فى شؤونهم ، ارتكانا على مساعدة انجلترا اذا أفضت المسألة الى حرب ، غير أن ذلك لم يكن ، لأن دزرائيلى "لورد بيكنزفيلد" الذى كان على رأس الحكومة الانجليزية وقتئذ ، لم يجرؤ على مساعدة العثمانيين خصوصا بعد أن شاع خبر المذابح الأخيرة ، وبعد أن طلب غلادستون رئيس الأحرار خروج الأتراك من أوربة .

لذلك أعلنت الروسيا الحـرب على تركيا فى أبريل سـنة ١٨٧٧ ، وانضمت رومانيا اليها ، واقتفت الصرب والجبل الأسـود أثرهما ، فعبر الحلفاء نهر الطونة ، وحاصروا حصن "بلفنـا" فدافع عنه قائده البطل عثمان باشا دفاعا مشهودا لمدّة خمسة شهور كان فيها الجيش الروسى يقوم عبثا بالكرة بعد الكرة ، فلما سقط الحصن فى أيديهم ، توغل الحلفاء فى الزحف حتى اقتربوا من القسطنطينية فى يناير ١٨٧٨ ، وحينئذ طلب السلطان الصلح ، وأوعزت انجلترا الى أسطولها بالدخول فى البوغازات تهديدا للروسيين اذا هم لم يكفوا عن الهجوم على الأستانة ، لذلك أسرعوا الى عقد معاهدة سان استفانو "مارس سـنة ١٨٧٨" وبها تقرر أن تنال رومانيا والصرب والجبل الاسود استقلالها ، وأن تمنح البوسنه والهرسك وبلغاريا استقلالا إداريا ، على أن تمتد حدود هـذه الأخيرة من البحر الأسود الى بحر إيجه فتشغل إقليم الروملى ومقدونيا ، علاوة على بلادها الأصلية ، وأن تأخذ الروسـيا باطوم وأرزن وقارص .

مؤتمر برلين — غير ان أغلب ممالك البلقان عارضت فى هذا التقسيم الذى يجعل الشعوب السلافية تتفوق تفوقا عظيما فى البلقان، كما أن الدول العظمى خشيت من اشتداد نفوذ الروسيا وازدياد الخطر على تركيا التى تركت من غير حدود قوية تحميها، لذلك ألحت بعرض المعاهدة على مؤتمر يعقد فى برلين، وقد اجتمع ذلك المؤتمر برياسة بسمارك سنة ١٨٧٨ وقرر ما يأتى :

(١) تبقى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦ نافذة فيما يختص بدولية البوغازات ونهر الطونة، وقبول مبدأ التحكيم قبل الالتجاء الى القوة، وكذلك مبدأ احترام استقلال وسلامة تركيا، وتمتعها بكل امتيازات القانون الأوربى العام الذى يتمتع به سواها[1].

(٢) الموافقة على استقلال رومانيا والصرب والجبل الأسود.

(٣) إرجاع مقدونيا تحت سلطة تركيا.

(٤) جعل بلغاريا الحقيقية إمارة مستقلة استقلالا داخليا تدفع الجزية للسلطان، أما الروملى الشرقى وهو الجزء الجنوبى من بلغاريا، فيحكمه وال مسيحى يوافق السلطان على تعيينه.

(٥) تتولى النمسا إدارة البوسنه والهرسك، وتعسكر جنودها فى سنجق نوفى بازار، وتسترد الروسيا من رومانيا بسارابيا التى أخذت منها فى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦، نظير إعطائها دوبروجا، وكذلك تأخذ قارص وباطوم، أما انجلترا فقد تعهدت للترك بأن تحفظ لها ممتلكاتها فى آسيا، على أن تأخذ جزيرة قبرص لنفسها، وأعطيت تساليا وأبيروس لليونان، وبهذا خسرت الدولة العثمانية خسارة كبرى.

---

(١) يلاحظ أن هذا القرار لم ينص على حياد البحر الأسود وذلك لأن الروسيا أسرعت إبان الأزمة الأوربية عام ١٨٧٠ وأعلنت عدم تقيدها بهذا النص، وقد وافقت الدول على ذلك فى مؤتمر عقد بلندرا فى فبراير عام ١٨٧١

مؤتمر برلين



تيودوري باشا شوالوف بسمارك اندراسي بيكنزفيلد جرتشاكوف

الفصل الخامس

المسألة الشرقية — الدور الأخير

تحطمت عروش الملكية المطلقة فى أنحاء أوربة فى القرن التاسع عشر، وأخذت الأمم تودع عهد المظالم والفوضى، وتستقبل عهدا جديدا حافلا بالسعادة والرخاء، إلا أن الأمبراطورية العثمانية بقيت تتدهور تدهورا هائلا سريعا كما رأينا، فتولد القلق والذعر والخجل بين طبقات الأمة، وتوطدت العزائم على اقتفاء أثر الأمم الأخرى فى سبيل الاصلاح، حتى تبعث البلاد بعثا جديدا، وتسترد مكانتها بين أمم الأرض .

كيف بدأت النهضة — ففى عهد السلطان المصلح محمود الثانى صدر "خط شريف جلخانه" سنة ١٨٠٨ وبه تقرر إعادة تنظيم الحكومة على أساس يضمن إصلاح شئون الدولة، وفى عهد السلطان عبد المجيد، أعلنت خطة جديدة للاصلاح فى سنة ١٨٣٩، وفى عام ١٨٥٦ صدر "الخط الهمايونى" الذى أعلن المساواة بين كافة طبقات الأمة، غير أن هذه المرسومات لم تؤد الفائدة المرجوة منها ، فلما كان عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، تقدم حزب تركيا الفتاة بزعامة مدحت باشا، وانتزع عهدا بتأسيس مجلس نيابى يسهر على مصالح الأمة، ويقضى على جراثيم الفوضى والفساد التى شلت حركة الرقى فى البلاد ، وأعجزتها عن الأخذ بأسباب الرقى والاصلاح .

غير أن عبد الحميد كان ثابت الاعتقاد فى الحكم المطلق، شديد الرغبة فى مناوأة المجهود الوطنى، والقضاء على مدحت «ذلك المجرم الذى أضل الناس وساقهم فى طريق الغواية » ! فما كادت الروسيا تعلن الحرب على تركيا سنة ١٨٧٨، حتى انتهز السلطان فرصة الاضطراب الناشئ عن ذلك الصراع وأسرع الى حل البرلمان

ونفى مدحت باشا وتفريق أنصاره، وإغلاق أبواب «ضولمة باغجة» التى كان يجتمع فيها النواب، وقد ظلت مغلقة الى اليوم الذى أعيد فيه الدستور سنة ١٩٠٨، حيث "انفتحت من تلقاء نفسها" كما يقول الأتراك المتحمسون .

سياسة عبد الحميد — وقد كانت هذه الفترة الطويلة حافلة بأنواع الضغط المميت والاضطهاد القاتل الذى قلما رآه العالم ، فقد كان السلطان فى جزع دائم من الحنث بعهده ، فتذرع بالقسوة والاضطهاد ليزيل شبح المخاوف عن نفسه، وملأ الحكومة بأشخاص لا خلاق لهم، بل ولا مبدأ، ولا عهد، ولا دين. ضالتهم الوحيدة الإثراء وجمع المال بأى طريق كان . "هذا هو العهد (كما قال أحد الأتراك) الذى كان فيه المال والثروة غرض الحياة الأعلى . وما كان ذلك الغرض يستدعى سوى أن يتبرأ الانسان من قومه، ويتجرد من شخصيته، ويضحى ابنه وأمه وأخته وأصحابه وذمته ، وكل العواطف الوطنيـة والمبادئ البشرية " ! ولكى تبق تركيا فى عزلة عن العالم وتقلباته ، حرّم السلطان على الناس السفر الى الخارج، وشدّد الرقابة على الصحف والمطبوعات، وأقام على حياة الناس عيونا ورقباء، ونزع حرمة المنازل ، حتى غدت الحياة حلما هائلا فظيعا لايحتمل . وقد قيل إنه لما أرغم السلطان سنة ١٩٠٨ على رد الدستور، أجاب بأن «تلك هى الأمنية التى كان يعمل لها طول حياته» ! والواقع أنه لولا البؤس الذى خلفه بين رعاياه ، وكأس المذلة التى أدارها على كل طبقة وجنس ، لما اتخذت الحركة حينئذ تلك القوة الدافعة التى جرفت كل شىء أمامها .

السلطان والدول — حاول السلطان خلال هذه الفترة إنقاذ البلاد، كما حاول مدحت من قبل، غير أنه أبى الاعتماد على مجهود الأمة الوطنى، وانصرف الى تكوين جامعة إسلامية كبرى . إلا أن عملا واسع النطاق كهذا ، كان يقتضى تنظيما لاقبل له به . فعاد الى سياسة التهديد والاستعطاف، سياسة الاحتجاج يعقبها الخضوع

والاستسلام ، كما فعل مع انجلترا فى شأن احتلال مصر سنه ١٨٨٢ ، ومع الروسيا فى مسألة ضم الروملى الشرقى الى بلغاريا سنة ١٨٨٥، ومع الدول جميعا فى مسألة المراقبة المالية على تركيا سنة ١٨٨١ ، والمراقبة الادارية على مقدونيا سنة ١٩٠٣، مما جرح قلب كل وطنى تركى، وأظهر العثمانيين فى مظهر الشعب الساقط القاصر، الذى لاقدرة له على إدارة شئونه، ولا درء الأذى والإهانة عن نفسه .

على أن الدول التى انتدبت للمراقبة وهى الروسيا والنمسا ماكانت ترغب حقيقة فى تعمير البلاد التركية كما كانت تدعى، بل جعلت تبذر بذور الفوضى والشقاق من جديد، حتى ترغم باقى الدول على الرضى بتقسم تركيا والتخلص من مشاكلها . ولكن انجلترا أصرّت على الاكتفاء بتشديد المراقبة على شئون الدولة سنة ١٩٠٥، اجتنابا لأزمة أوربية كبرى، فعولت النمسا على أن تعمل بانفراد من ذلك الحين، وأخذت تستخدم سلطانها باعتبارها عضوا فى المراقبة الثنائية، لبسط نفوذها على كل الأراضى التى تصلها ببحر الأرخبيل، وقد حصلت فعلا على امتياز سكة حديدية تمر بنوفى بازار، فانفتح باب المسألة الشرقية بخأة على مصراعيه، واقتربت الروسيا من انجلترا، والنمسا من ألمانيا، وأصبحت حياة تركيا فى الميزان .

حينئذ فوجئ العالم بأخبار ثورة واسعة النطاق "يوليه سنة ١٩٠٨" بهرت الأبصار وقطعت على ذوى المطامع حبل الأمانى والآمال .

جمعية الاتحاد والترقى — وذلك أنه حين أوقف عمل الدستور سنة ١٨٧٨ تفرق أشياعه وأنصاره فى أوربة ، ثم أخذ هؤلاء المهاجرون يقتربون بعضهم من بعض، الى أن أتيحت لهم فرصة الاجتماع سنة ١٨٩١ فى جنيف ، فوضعوا نواة الجمعية التى سميت فيما بعد " جمعية الاتحاد والترقى " . ولما جاءت الأنباء بتدخل الدول فى شئون تركيا، تأكدوا اقتراب خطر داهم على الوطن، فتقرر فى مؤتمر حافل عقد بباريس فى ديسمبر سنة ١٩٠٧ وجوب ابتداء العمل لقلب الحكومة التى جلبت

على البلاد نكبات لا حد لها ، وتقرر أن تكون مقـدونيا مركز الحركة ، لبعدها عن عيون الأستانة، ولاشتداد الضنك فيها على الأهالى والجنود معا .

ثورة سـنة ١٩٠٨ — ولم يمض إلا القليل حتى أخذ أعضاء الجمعية ينشرون الدعوة سرا بين رجال الجيش، فانضم أغلبهم اليها، وكاد أمر الجمعية ينفضح، ولذلك تحدّد يوم ٣ يوليه سـنة ١٩٠٨ لاعلان الثورة على يد أركان الحركة، أمثال نيازى بك وأنور بك وصلاح بك ، أولئك « الفدائيون » الذين حملوا أرواحهم فى أيديهم، وخرجوا الى البلاد لهدم كيان الظلم ومحو آثاره، فانزعج القصر السلطانى، وأمر شريف باشا بأن يسير من متروفتزا ، ويسحق الثورة فى مهدها ، ولكن هذا القائد بوغت فى الطريق وشتت شمل جنـوده ، فأرسلت على الأثر حملة جديدة من الأناضول بغير نتيجة تذكر ، فقد سقطت فى الأسـبوع الثالث من يوليه موناستير وسلانيك وكوسوفيا فى يد الثـائرين ، وانضم رجال الفيلقين الثانى والثالث وجنود الأناضول الى الحركة .

فوز الثـورة — حينئذ أنذرت الحكومة الحميدية بالزحف على العاصمة إن لم يعلن الدستور ، فأسقط فى يد السلطان، وقرر قبول مطالب الأمة بلا تردّد . وهكذا سقطت حكومة الظلم كما يسـقط بيت من الورق ، فأفاق الناس كأنما كانوا فى حلم مروع، وأطلقوا العنان للمسرة والابتهاج الوطنى العظيم . وقد قوبل نبأ نجاح الثورة على ذلك الوجه — أى دون إراقة كثير من الدماء، بالاعجاب العظيم فى أنحاء العالم ، ولكن الدول ذات المطامع أخذت تحسب ألف حساب للنهضـة المنتظرة على يد الشبان الأتراك .

الدول وتركيا الدستورية — ماكاد الاتحاديون يبدأون بتنظيم الحكومة حتى هبت العاصفة الدوليـة ، فان دول أوربة التى كانت تترقب الفرص لتمزيق أوصال السلطنة العثمانية، هالها أن تستجمع الدولة قوتها وتتأهب لرد كيد الطامعين

فيها، فعجلت بالعمل قبل أن يتم ذلك التأهب، فبلغاريا أعلنت استقلالها، والنمسا قررت ضم مقاطعتى البوسنه والهرسك اليها، وكريت أعلنت انضمامها الى اليونان، فلم يمض خريف سنة ١٩٠٨ إلا وقد فقدت تركيا جزءا عظيما من أملاكها، وهكذا وجد الاتحاديون فى مأزق حرج، فقد كان أساس دعوتهم ضد العهد القديم انقاذ الامبراطورية من الخطر، فلما انتزعت أملاك عثمانية فى فاتحة عهدهم، ضعف نفوذهم وشجعت العناصر الرجعية على القيام فى وجههم. والواقع أنه لم تكد تقع هذه الحوادث حتى تحركت صفوف الرجعيين، فحاربهم الاتحاديون بشدة وصرامة، وعزلوا سلطانهم، وولوا مكانه أخاه الأمير محمد رشاد باسم السلطان محمد الخامس، فثبتوا فى النهاية دعائم الحكم الجديد، إلا أنهم لم يقووا مع ذلك على خوض غمار حرب طاحنة لاسترجاع ما فقدوا، فاعترفوا بالتغييرات التى حدثت بعد قليل.

الحرب الايطالية — ولما كان هذا الاعتراف قد مزق معاهدة برلين، فقدرأت الدول نفسها فى حل من تنفيذ رغباتها حيال تركيا، وكانت ايطاليا أسبقهن الى العمل، ففى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩١١ أنزلت جنودها على سواحل طرابلس، وبدأت أعمالها الحربية للاستيلاء على هذه الولاية بحجة عدم استتباب الأمن فيها، فنازلها العرب والأتراك منازلة هى مضرب الأمثال فى الشجاعة وقوة البأس والثبات، غير أنهم أرغموا على النزول عن هذه الولاية فى معاهد لوزان سنة ١٩١٢، لأنهم كانوا على أبواب حرب جديدة تنذر بتمزيق سلطنة آل عثمان.

الحرب البلقانية (الحلف المقدّس) — هال دول البلقان كما هال غيرها نهضة تركيا، فتناست الأحقاد وضغائن القرون الطويلة، وألفت من بينها حلفا «مقدسا» لتحرير قومها من ربقة العثمانيين وما جاء خريف عام ١٩١٢ حتى كان البلقان بأسره شعلة من نار.

فوجئ العثمانيون بالحرب ولم يكتمل تنظيم جيوشهم بعد ، فكانت الهزيمة ساحقة فى كل ميادين القتال — عدا خط شطلجة على أبواب القسطنطينية ذاتها . ففى الميدان الغربى هزم الأتراك فى كومانوفو فى ٢٣ أكتوبر ، واستولى الصربيون على اسكوب وموناستير ، بينما كانت جنود الجبل الأسود ، تعززها جنود الصرب ، قد زحفت على سنجق نوفى بازار ومنها الى ألبانيا فسقطت دورازو فى نوفمبر .

أما فى تراقيا حيث كانت قوات العثمانيين الكبرى محتشدة تعززها قلاع قرق كليسه وأدرنه ولولو برغاس ، فقد زحف البلغار من الشمال والغرب على أدرنه وقرق كليسه ، ثم طوقوا أدرنه وأخذوا قرق كليسه عنوة فى ٢٤ أكتوبر ، فارتد الأتراك الى لولو برغاس ، حيث ناضلوا خمسة أيام متوالية ، ثم انسحبوا الى خطوط شطلجة .

أما فى الميدان الثالث — ميدان اليونان — فقد كانت الهزيمة تامة أيضا ، فان اليونانيين انضموا الى جنود الصرب ، وطوقوا يانينا ، واستولوا على سالونيك فى نوفمبر ، بينما كان الأسطول اليونانى يستولى على جزائر الأرخبيل الواحدة بعد الأخرى ، وفى فبراير سنة ١٩١٣ سقطت أدرنه ويانينا بعد دفاع مجيد . حينئذ قرر المؤتمر المنعقد فى لوندرة لتسوية النزاع القائم فى البلقان أن تنزل تركيا عن الأراضى الواقعة غرب الخط الممتد من ميديا على البحر الأسود ، الى إينوس على بحر إيجة — بالرغم من تصريح انجلترا فى أول الحرب بأنها لن تسمح بتغيير خريطة البلقان لتوقعها إذ ذاك انتصار الأتراك .

الشقاق بين المتحالفين — غير أن فوز الحلفاء أكثر مما كانوا يأملون ، أوقع بينهم الخلف على تقسيم الأملاك التى ارتد عنها العثمانيون ، ولما اتسعت مسافة هذا الخلف ، انقضت بلغاريا على حليفاتها ، فقامت رومانيا ضدها ، وأنزلت الهزيمة بجنودها . واستجمع العثمانيون قواهم فى تلك الأثناء واسترجعوا أراضيهم فى شرق

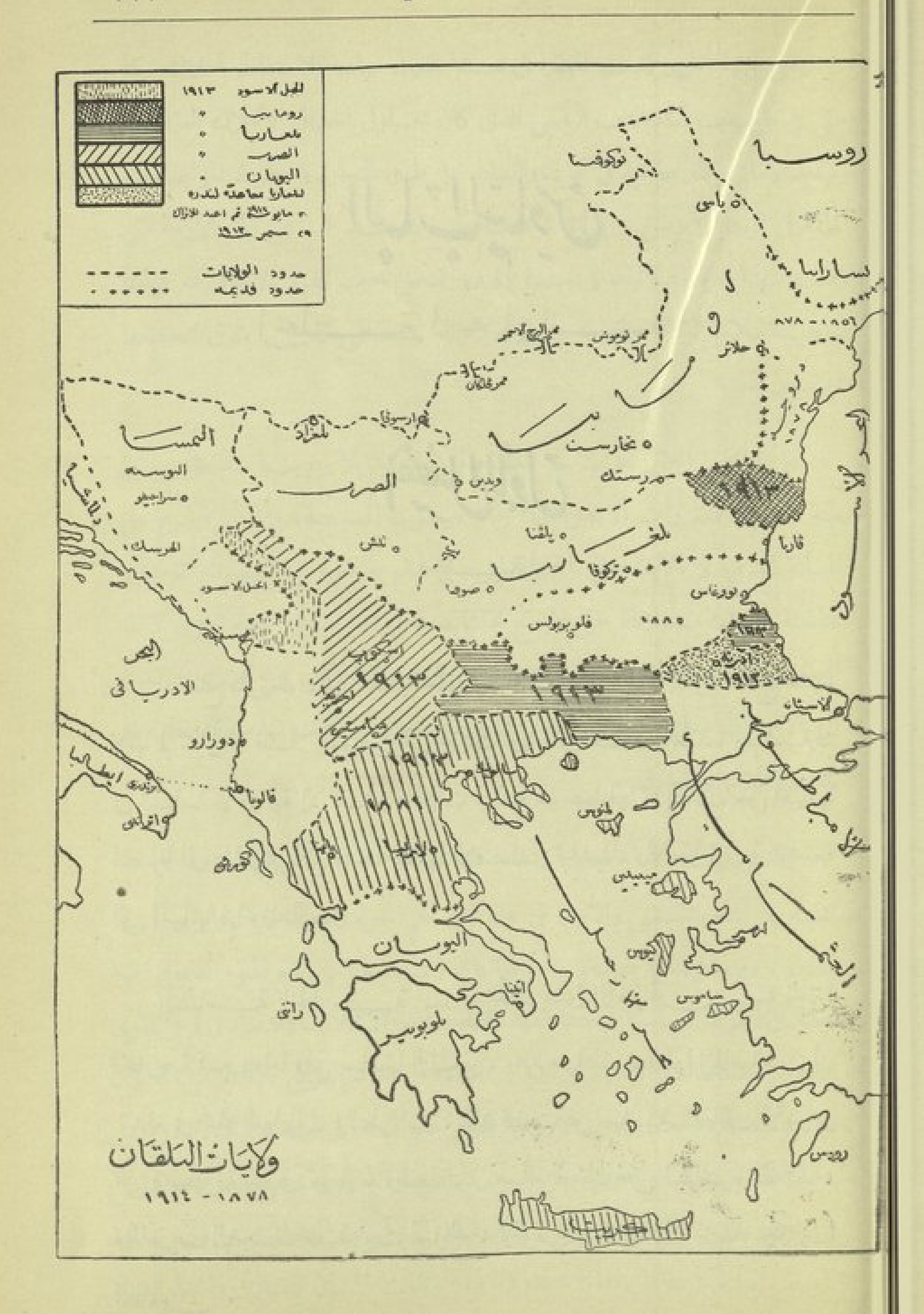
ووسط تراقية بما فيها أدرنه ، بقيادة أنور بك ، تخلص هذا الانتصار شرف العثمانيين المثلوم، كما خلصته استماتتهم فى الدفاع عن خطوط شطلجة من قبل .

عقد الصلح — وفى معاهدة بخارست (١٠ أغسطس سنة ١٩١٣) استولت تركيا على شمال ووسط مقدونيا، فأصبحت حدودها متاخمة لحدود اليونان. ثم تقرر أن تكون ألبانيا مملكة مستقلة حتى لا تصل الصرب الى البحر الادرياتيكى. وأما بلغاريا فلم تستول إلا على جزء صغير من مقدونيا بما فيه ميناء دده أغاج ولاجوس على بحر إيجه، وتخلت عن شرق تراقية ووسطها لتركيا، كما تخلت عن سلستريا فى دوبروجا الى رومانيا ، فكانت بذلك أقل ممالك البلقان حظا . أما اليونان فقد وصلت حدودها شمالا الى نهاية أبيروس ، وشرقا الى تراقيا بما فيها سلانيك وقوله .

تركيا بعد حرب البلقان — على أن انخذال العثمانيين فى هذه الحرب، أضاف الى صفهم أعظم قوة حربية فى أوربا ألا وهى ألمانيا، فان نفوذ الألمانيين كان قد ظهر فى تركيا منذ سنة ١٨٨٨ ، واشتد هذا النفوذ فى سنة ١٨٩٩ على أثر منح الألمانيين امتياز سكة حديد بغداد ، فلما تطورت الحوادث فى البلقان بعد سنة ١٩٠٣ ، أصبحت هذه المصالح فى خطر . وكان فى هزيمة الأتراك فى حرب البلقان واتساع أملاك الصرب أكبر ما يدعو لاشتداد هذا الخطر، لذلك وقف الألمان والنمساويون منذ ذلك الحين فى صف تركيا لأن سلامة مصالحهم أصبحت مرتبطة بسلامتها . أما الأتراك فقد قرروا أيضا أن ينضموا الى دولتى الوسط لأن احتلال الانجليز لمصر، ومطامع فرنسا فى سوريا، والروسيا فى القسطنطينية ، جعل مصالحها مطابقة تماما لمصالحهما .

المصادر

يضاف الى مصادر الأبواب المتقدّمة — كتاب (Bonapartism) تأليف (Fisher) وتاريخ عصرنا (١٨٨٥ — ١٩١١) تأليف (Gooch) — محاضرات الأستاذ (Eaic Marcks) عن ألمانيا (كمبردج سنة ١٩٠٢) — « كافور » تأليف (Pietro orsi) — محاضرات (بولتن كنج) عن إتمام الوحدة الايطالية (كمبردج سنة ١٩٠٢) — المسألة الشرقية للأستاذ ماريوت (Marriot) — ومحاضرات أميل ريخ (Emil Reich) عن النمسا (كمبردج سنة ١٩٠٢) .



ولايات البلقان
١٨٧٨ - ١٩١٤

الباب السادس

انجلترا - إرلندا

الفصل الأول

انجلترا

اصطلح المؤرخون على اعتبار انجلترا وحدة قائمة بذاتها إبان القرن التاسع عشر، لأنها لم تتأثر إلا قليلا بالعوامل التى حركت أوربة فى هذه العهد، ولم تشترك فى السياسة الأوربية إلا بقدر ما كانت تسمح لها مصالحها، إذ كان جل اهتمامها منصرفا الى المشاكل التى ولدها نظامها الاقتصادى الجديد، والأمبراطورية الواسعة التى أنشأتها فيما وراء البحار.

السياسة الخارجية — يلاحظ بادئ الأمر أن سياسة انجلترا الخارجية تسير دواما وفق سياستها التقليدية، وهى مراعاة مصالحها الخاصة دون أن تندفع فى تيار العواطف والنظريات. فقد قضت على سياسة التحالف الأوربى التى وضعها مترنيخ فى تروباو، وتدخلت فى مسألة اليونان حتى ظفرت باستقلالها، وظاهرت البلجيك ضد بيت أورانج، والولايات الايطالية ضد حكامها الظالمين.

ومن جهة أخرى اتبعت انجلترا فى هذا القرن سياسة الاحتفاظ بأملاك تركيا حتى لا تضعف أمام الدب الروسى الذى كان يحاول اختراق الأملاك العثمانية وتهديد الأملاك البريطانية فى آسيا، والتسلط على طرق التجارة وخطوط المواصلات الهامة فى البحر الأبيض . لذلك نراها تظاهر تركيا ضد محمد على إبان الأزمة التى وقعت سنة ١٨٤٠ ونراها فى سنة ١٨٥٤ تدخل حرب القرم بالاتفاق مع فرنسا لتوطيد سلامة تركيا، والقضاء على الأحلام العريضة التى كان يتوق لتحقيقها الروسيون .

على أن انجلترا عدلت سياستها حيال تركيا تعديلا جوهريا منذ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨، فقد رأت ألا قبل لتركيا بحكم الشعوب المسيحية، وأن من الحزم حل المسألة الشرقية لا بالابقاء على ما قام الدليل على صعوبة بقائه بل بتعضيد القوميات الناشئة وضمان استقلالها حتى لا تقع تحت نفوذ الروسيا . ومن جهة أخرى كانت انجلترا تتوق الى احتلال مصر بعد فتح قناة السويس، فكان من العبث أن تدعو الى الاحتفاظ بسلامة أملاك تركيا فى الغرب فى حين أنها كانت تهدم ركنا عظيما من تلك الأملاك فى الشرق .

السياسة الداخلية — كان الانقلاب الصناعى فى انجلترا وما نشأ عنه من التغير السياسى والاجتماعى والفكرى أهم الحوادث الداخلية شأنا فى هذا القرن . وقد أفردنا له فصلا خاصا فيما يلى، ونقتصر هنا على تتبع نشوء الديموقراطية ومبادئ الحرية السياسية فى هذا العهد، فقد نشأ عن الانقلاب الاقتصادى وما انطوى عليه من استخدام الآلات مكان الأيدى العاملة أن اشتد الضيق بالكثير من السكان لا سيما بعد أن أخذت الدول الأوربية تحذو حذو انجلترا فى استخدام الآلات وتعمل لحماية المتاجر والمصانع الحديثة من ضغط المنافسة الخارجية، هذا الى أن مصالح المزارعين الذين كانوا يخشون منافسة الدول الأجنبية بعد انتهاء حروب نابليون اضطرت الحكومة الى حماية محصولاتهم، فارتفعت أثمان الغلال واشتد الضيق

بالأهالى اشتدادا عظيما، فتحولت الأنظار الى إصلاح النظام النيابى على مثل ماوقع فى فرنسا حتى تعالج المضار التى كانت تلحق سواد الشعب .

النظام النيابى — وقدكان النظام النيابى حينئذ يقوم على ثلاث قواعد: الملك ومجلس اللوردات الوراثى ومجلس النواب . وقد كان المبدأ المعمول به أن الملك يملك ولكنه لايحكم، وأن الهيئة التنفيذية تتألف من حزب الأغلبية فى مجلس النواب سواء أكان حزب التورى أم حزب الهويج . وقد كان الحزب الأول يشمل أصحاب الضياع الواسعة من طبقة المحافظين الذين كانوا يرغبون فى ازدياد نفوذ الملكية فى إدارة الحكومة، فى حين أن حزب الهويج كان يتألف من كبار التجار وأصحاب المصانع من ذوى الآراء الحرة الذين كانوا ينزعون الى تضييق سلطة الملكية وسيادة نفوذ الشعب .

أما نظام الانتخاب لمجلس النواب فكان يرجع عهده الى القرن الرابع عشر، وكان يبيح التصويت لطبقتين فقط من طبقات الشعب : أصحاب الأراضى الذين يتقاضون إيجارا لايقل عن ٤٠ شلنا فى الأقاليم، وأعضاء البلديات وغيرهم من ذوى الامتيازات فى المدن . ولذا اقتصر عدد الناخبين فى سنة ١٨١٥ على ٤٤٠٠٠٠ ناخب فى حين أن عدد السكان بلغ حينئذ نحو عشرين مليونا، وكان يبلغ عدد أعضاء المجلس ٦٥٨ نائبا .

ومما زاد فى ضعف هذا النظام أن الدوائر الانتخابية كانت موزعة توزيعا سيئا . فقد كانت ارلندا تنتخب مائة نائب عن ستة ملايين من السكان، وكانت اسكتلندا تنتخب ٤٥ نائبا عن مليونين فقط فكان العضو الواحد إذن يمثل ما لايقل عن ٥٥٠٠٠ نسمة ، فى حين أن انجلترا التى كان يبلغ سكانها اثنى عشر مليونا كانت تنتخب ٥١٣ نائبا أى بنسبة عضو لكل ٢٣٠٠٠ نسمة . ويلاحظ أنه كان يمثل الأقاليم فى المجلس ١٨٦ عضوا، وكان عدد الناخبين فيها ٤٢٠٠٠٠ ناخب فى حين

أنه كان يمثل المدن ٤٦٧ عضوا مع أن عدد الناخبين فيها لم يزد عن خمسة عشر ألف فقط .

ومن جهة أخرى كانت الدوائر الانتخابية على حالتها التى تقررت فى القرن الرابع عشر، على الرغم من التقلبات التى مرت عليها من ازدياد أو نقص فى السكان، فقد كان لمدينة لندره من الأعضاء فى القرن التاسع عشر، ما كان لها فى القرن الرابع عشر مع أن سكانها ازدادوا من خمسين ألف نسمة الى ما يربو عن المليون فى سنة ١٨١٥ ، وقد كانت مدينة مانشستر مثلا محرومة من التمثيل فى المجلس لأنها لم تكن فى القرن الرابع عشر إلا قرية صغيرة فى حين أنها قد أصبحت فى القرن التاسع عشر من أكبر المدن الصناعية والتجارية . وهناك كثير من المدن القديمة التى سقطت سقوطا عظيما فى القرن التاسع عشر بحيث لم يبق فى كثير منها إلا القليل من الناخبين ومع هذا فقد احتفظت بنوابها الذين تحددوا لها من قديم . وقد كانت هذه المدن فى قبضة بعض الأسرات يتصرفون بمقاعدها لذويهم وأصدقائهم ، فضلا عن أن قلة الناخبين سهل الرشوة وما اليها من وسائل إفساد الأخلاق لاسيما وقد كانت سرية الانتخابات معدومة مما جعل الانتخاب صوريا لا يمثل الشعب بحال .

حركة الاصلاح النيابى — هذا هو حال النظام النيابى فى انجلترا فى فاتحة القرن التاسع عشر . فلما اشتدت الأزمة الاقتصادية فى البلاد من جراء كساد المتاجر وارتفاع أسعار الغلال على نحو ما بينا قبلا ، وتعززت مبادئ الاصلاح النيابى بتأثير الثورة الفرنسية وكتابات المفكرين أمثال بنتام وغيره ، تزعزع الأساس الذى ارتكز عليه النظام القديم ، وتحولت الأنظار الى إصلاح النظام النيابى على قاعدة التصويت العام وسرية الانتخابات وتقصير أجل مجلس النواب ، فعقدت الاجتماعات فى أنحاء المملكة وأقيمت المظاهرات تعزيزا لها حتى خيف أن يتزعزع أساس السلم وتندفع البلاد فى طريق الثورة الفرنسية وما نشأ عنها من القوة والعنف وأعمال الفوضى

والاجرام . فأخذت الحكومة تضرب على يد الأحرار والداعين الى تعـديل نظام الحكومة بشـدّة لا تجاوزها شـدّة مترنيخ ، فأصدرت ما يعرف بالقوانين السـتة عام ١٨١٩ وهى تنص على تقييـد حرية النشر والخطابة ومناهضة أنصار التغير والانقلاب .

إلا أن حركة الاصلاح سارت مع ذلك فى طريقها يعززها الأحرار من أنصار الحزب المعـارض للحكومة حينئذ وهو حزب "الهويج" فلمـا سقطت الوزارة إثر الانقلاب الذى وقع فى فرنسا فى سـنة ١٨٣٠ تولى حزب الهويج مقاليد الأحكام برئاسة لورد جراى، فأسرع الى تقديم خطة معتدلة للاصلاح النيابى، ولكنها لاقت معارضة قوية من جانب خصومه على زعم أن هذا المشروع — كما قال روبرت پيل — يعرّض انجلترا لأسوأ أنواع الاستبداد وهو استبداد العـامة وأنصارهم من الكتّاب والصحفيين . وحينئذ أعلنت الحكومة حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة، فكانت الأغلبية لمصلحتها، ولذا وافق المجلس الجديد على مشروع الاصلاح، ولكن مجلس اللوردات أبى أن يصادق عليـه، فتحرّك الرأى العام فى البـلاد ، وأقيمت مظاهرات عدّة كانت تنذر بسوء الحـال . ولذلك قررت الحكومة أن تعيّن عددا من الأشراف حتى تفوز بالموافقة على مشروع الاصـلاح ، وقد تم لهـا ما أرادت وصودق على المشروع "يونيه سنة ١٨٣٢" .

وقد كان هذا القانون يعدّل النظام القديم فى موضعين : توزيع الدوائر الانتخابية توزيعا عادلا مع زيادة عدد الناخبين . ذلك أن القانون أبقى على تقسيم البـلاد الى مدن ومقاطعات، ولكنه قضى على المدن غير الآهلة بالسكان، ووزع المقاعد التى كانت تخصها — وكانت تبلغ ١٤٣ مقعدا — على المدن الجديدة التى لم تمثل للآن فى مجلس النوّاب، هذا فضلا عن العناية بالأقاليم التى لم تعط نصيبا وافرا من النيابة فى النظام القـديم . ومن جهـة أخرى تغيرت قواعد الانتخاب بحيث خوّل حق

التصويت لمن يدفع إيجارا لا يقل عن عشرة جنيهات فى المدن وخمسين جنيها فى الأقاليم، ولذا ارتفع عدد الناخبين الى ٨٠٠,٠٠٠ واستطاعت الطبقة الوسطى أن تشترك فى حكم البلاد بلا استثناء دينى ولا مذهبى، وفى سنة ١٨٣٥ جاءت النتيجة المنتظرة لهذا التغير بأن أعيد تنظيم المجالس المحلية على الأساس الجديد .

طبقة العمال — وهكذا بقيت طبقات العمال وحدها بلا لسان يدافع عن مصالحها فى مجالس الحكم، إلا أن بعض رجال الحكومة الذين استحثتهم دوافع الشفقة والانسانية أخذوا على عاتقهم حماية بعض مصالح هذه الطبقات، كما يرى من قوانين مساعدة الفقراء وقوانين المصانع الخ التى سنت فى هذا العهد . ثم إن العمال من جهتهم أقبلوا على الارتباط معا لاستخدام قوة المجموع فى مصلحة الأفراد فى كل ما يختص بالأجر ونظام العمل الخ . إلا أن مساعدة رجال الحكومة بقيت محدودة تلقاء مقاومة برلمان مؤلف من أصحاب الأعمال ، وبقيت مساعدة العمال لأنفسهم محدودة كذلك نظرا للتضييق فى هذا العهد على نقابات العمال .

ومن ثم اشتدّ الضيق بالعمال فى زمن ارتفعت فيه أسعار القمح وقلت الأجور وكسدت المتاجر، فالتجأ العمال الى المطالبة بحقوقهم السياسية رغبة فى تحسين حالتهم الاقتصادية . وقد تذرّعوا فى هذا النضال تارة بالعنف وأخرى بالمحاجة والاقناع ، ففى عام ١٨٣٥ أنشأ العمال اتحادا بزعامة « أوين Owen » الذى اشتهر بالكتابة فى الشئون الاجتماعية والسياسية، وحدّدوا خطة هذا الحزب الجديد فى اجتماع عقد فى برمنجهام فى ٦ أغسطس سنة ١٨٣٨ وفق النظام الآتى : التصويت العام — سرية الانتخابات — تغيير مجلس النوّاب سنويا — مكافأة النوّاب . وقد أطلق على هذه الخطة اسم « مرسوم الشعب Charter of the People » ومن هنا نشأ اسم (Chartist Movement) الذى أطلق على حركة الاصلاح النيابى التى قام بها العمال خلال السنوات التالية لاجتماع برمنجهام .

على أنه لما كانت مسألة العمال فى الواقع مسألة اقتصادية كما ذكرنا فقد كان إلغاء قوانين الغلال سنة ١٨٤٦ (وهى القوانين التى وضعت لحماية المزارعين من خطر المزاحمة الأجنبية) داعيا لازدياد الرخاء وتحسين أحوال العمال تحسنا مطردا حتى أخذت قوة المطالب السياسية تتلاشى تدريجا. فلما حاول بعض العمال سنة ١٨٤٨ أن يقوموا بمظاهرات تشبه مظاهراتهم التى قاموا بها فى سنة ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٢ متأثرين بأخبار الثورة فى أوربة، أسقط فى يدهم وفشلوا فشلا تاما. وإذا كانت الأحوال تدرجت فيما بعد، وغيرت قوانين الانتخاب حتى شملت طبقات العمال، فلم يكن ذلك ناشئا عن مجهود العمال وحدهم، بل ناشئا عن أحوال سياسية طارئة.

ذلك أن السياسة الاقتصادية التى اتبعت تدريجا وهى سياسة إلغاء القيود التى كانت تقيد حرية التجارة والملاحة وفتح أسواق جديدة فى أوربة وغيرها للصناعة الانجليزية كان من شأنها أن تضاعف الرخاء المادى الذى تمتع به العمال، وهذا دعا الى ازدياد الرغبة فى الاشتراك فى الحكم حتى يمكن إلغاء قيود النقابات وإصلاح أحوال العمال إصلاحا اجتماعيا. وقد قاموا لتعزيز هذا الغرض بمظاهرات واجتماعات عديدة من سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٦٦ وكان يعززهم فى ذلك الأحرار الذين تطورت آراؤهم منذ سنة ١٨٣٢ بحيث أصبحوا يتشبثون بالأنظمة الديموقراطية فى أكمل صورها، كما عززهم المحافظون الذين تخلوا عن معارضة مطلب الاصلاح لأغراض حزبية [1].

(١) يعزى هذا الانقلاب الى دزريلى زعيم المحافظين كما يعزى انقلاب الأحرار الى غلادستون.
ودزريلى هذا من أسرة يهودية تحولت الى الكنيسة الانجليكانية، وقد نال شهرة عظمى فى عالم الأدب والسياسة، فلما تولى الزعامة فى حزبه سعى بجهده فى تطور آراء هذا الحزب تطورا عظيما حتى تعلق بمبادئ الاصلاح السياسى والاجتماعى، وهيأ نفسه للكفاح العظيم الواقع بين الأحزاب فى ذلك الوقت. أما غلادستون فقد اشتغل فى السياسة من صغره واشتهر بالفصاحة ومعالجة أدق الأمور السياسية والمالية بالحكمة، هذا مع التزام الحق والعدالة فى كل طور من أطوار حياته حتى ارتفعت السياسة فى يديه الى منزلة لم ترتفع اليها فى عصره، أضف الى ذلك دقته فى التفكير وأناته فى البحث وقدرته على التمشى بحزبه فى طريق المبادئ الراديكالية السائدة فى عصره.

على أنه اذا كانت الظروف كلها قد تهيأت لمصلحة العمال فقد دلت التجارب أيضا أن قصر الانتخاب على طبقة معينة يدعو الى استمرار أساليب الرشوة التى جعلت الانتخابات فى انجلترا ضربا من الهزؤ والسخرية . هذا الى أن السكان ازدادوا بين سنة ١٨٣٢ وسنة ١٨٦٧ نحو ٤٠ فى المباية وهذه الزيادة لم توزع على البلاد توزيعا عادلا . فبينما كانت بلدة توتنس مثلا تمتع بعضوين عن سكان لا يبلغون أربعة آلاف، كانت لڤرپول بسكانها الذين كانوا يبلغون ٤٠٠,٠٠٠ نسمة تنتخب مثل هذا العدد .

لذلك حاول غلادستون فى سنة ١٨٦٦ أن يوازن بين نظام الحكومة وحالة البلاد الحقيقية بعض الموازنة فقدّم مشروعا الى البرلمان بتعديل قواعد الانتخاب وتوزيع الأعضاء توزيعا يتناسب مع السكان . إلا أن ذلك المشروع رفض باجماع المحافظين . فاستقالت الوزارة، وطاف غلادستون فى البلاد ليفوز بتأييد الأمة لبرنامج الاصلاح، فاضطرت وزارة دزريلى تلقاء إجماع الشعب، أن تقدّم مشروعا محدودا لاصلاح قواعد الانتخاب وإعادة توزيع المقاعد، إلا أن هذا المشروع عدّل تعديلا تاما على يد المجلس، فوزع الأعضاء توزيعا عادلا على البلاد ووسعت قاعدة الانتخاب حتى شملت الصناع .

ولتحقيق هذه الأغراض أخذ ما لا يقل عن ٥٨ مقعدا من البلاد الصغرى ووزعت على المدن الكبرى ، هذا الى أنه قد منح حق الانتخاب فى الأقاليم لمن يدفع إيجارا لا يقل عن اثنى عشر جنيها فى السنة، وفى المدن لكل من يدفع ضريبة الفقراء أو يسكن منزلا لا يقل إيجاره عن عشرة جنيهات ، وهكذا امتدّ حق الانتخاب الى ما يقل عن المليون معظمه من العمال ، ولما كان نظام الانتخاب السرى قد تقرّر فى سنة ١٨٧٢ فقد سارت انجلترا خطوة واسعة نحو الديموقراطية .

ولتتميم هـذا الاصلاح صـدر قانون تمثيل الشعب (١٨٨٤ — ١٨٨٥) (Representation of Peoples' act) على يد غلادستون وهو يشمل إعادة توزيع المقاعد النيابية بحيث تنقل من البلدان الصغيرة الى المـدن الكبرى والأقاليم ، هذا فضلا عن إضافة اثنى عشر دائرة جديدة وجعل شروط الانتخاب فى الأقاليم موافقة لشروطها فى المدن مع مراعاة أن تكون النسبة عضوا لكل ٥٠,٠٠٠ من السكان. وهكذا ارتفع عدد الناخبين الى أربعة ملايين واستطاع الزراع أن يفوزوا بما فاز به الصـــناع .

غير أنه يلاحظ أن هذه التغيرات لم ترق بالبلاد الى الديموقراطية الحقيقية القائمة على التصويت العام لأنها حرمت النساء جميعا حق الانتخاب فضلا عن الكثيرين من الخدم والزرّاع وغيرهم ، هـذا الى أنه اشترط أن يقيم الناخب سنة كاملة على الأقل فى دائرته حتى يقيد فى سجل الانتخاب ، وأبيح تعدّد الأصوات لمن لهم أملاك فى جهات متعدّدة لا سيما والانتخاب لم يعقد حينئذ فى يوم واحد . غير أن هذا النقص كله يعالج الآن تدريجا ، وها قد تمّ أعظم إصـلاح شاهدته انجلترا فى نظامها النيابى أخيرا وهو إعطاء النساء حق الانتخاب فى سنة ١٩١٨ فأصبح لهنّ ما للرجال من الحقوق السياسية ، ومن ثم أصبحت الحكومة فى انجلترا تمثـل الأغلبية العظمى من الشعب بقدر المستطاع ، ولا توجد هيئة تستطيع معارضة قراراتها إلا هيئة الحزب المعارض التى بغيرها تصبح الحكومة حكومة استبدادية ، كما أصبح من المستحيل الاعتماد على القوة والعنف لتنفيذ أغراض خاصة فى مثل هذه البلاد البرلمـانية .

على أن مجلس اللوردات الوراثى ، ونقص التعليم بين الطبقات العامة ، يعرقلان بلا ريب إرادة الشعب ، والبلاد تجدّ الآن فى التغلب على هذه المصاعب ، بتسهيل سبل التعليم بواسطة المدارس ، ومن أعلى المنابر ، والصحف وغيرها من وسائل الارشاد .

أما عن مجلس اللوردات، فهناك مجهودات خطيرة تبذل لحرمان هذه الهيئة من عرقلة أعمال مجلس النوّاب، ففى سنة ١٩١١ تقرر ألا يخوّل مجلس اللوردات حق رفض الميزانية، ولا رفض أى قانون أكثر من مرتين، فاذا وافق عليه مجلس النوّاب للمرة الثالثـة يعمل به من غير موافقة اللوردات . على أن إصلاح مجلس اللوردات لم يتم بعد، ولا بد أن يكون هذا موضع البحث القريب .

تأثير الرأى العام — لاريب أن التشريع فى انجلترا إبان القرن التاسع عشر، أخذ يتمشى مع الرأى العام الذى يعبر عن نفسه بوسائل عديدة ، أهمها الصحافة والجمعيات السياسية وكتابات المفكرين . وهذا التمشى لامثيل له فى القرون التى تقدّمته، ويعزى الى تكوّن الرأى العام فى هذا القرن نتيجة لازدياد المواصلات ووسائل النشر، كما يعزى الى إصلاح المجالس النيابية ، بحيث أصبحت كمرآة تعكس آراء الشعب الحقيقيـــة .

ففى بداية القرن ، كان تيار الأفكار متجها الى تعزيز الأنظمة الموضوعة ، ورفض نظرية التـدرج والانتقال، وذلك نتيجة لكتابة المشرّعين والأدباء أمثـال «بلاكستون Blackstone» و «بيرك Burke» الذين كانوا يرون فى الدستور الانجليزى نهاية الحكمة والكمال . وقد اشتدت هذه الروح الرجعية بتأثير الثورة الفرنسية وما نشأ عنها من الفوضى والاضطراب، فلم تنصرف الأفكار الى الابقاء على ما كانت تتمتع به البلاد من القوانين فحسب ، بل الى مقاومة روح التبديل والتغير بكل وسائل القوة والعنف ، جزعا من اندفاع البـلاد فى أزمات تشبه أزمات فرنسا . وليست قوانين النقابات التى ظهرت سنة ١٨٠٠ وحرّمت على العمال مزية الارتباط لمقاومة أصحاب الأعمال، والقوانين الستة التى صدرت سنة ١٨١٩ لتحديد حرية الاجتماع، إلا صدى لهذا الجزع .

غير أن الأفكار تحوّلت تدريجا بدافع الانقـلاب الاقتصادى والاجتماعى الذى غير وجه البـلاد ، وظهور التباين المدهش بين الأنظمة الموجودة و بين ما طرأ على

البلاد من الانقلاب، كما أن بعد عهد الثورة وظهور كتابات "بنتام"، أدى الى تحوّل الأنظار الى تعديل الأنظمة والقوانين تعديلا يلائم الحالة الواقعة .

و « بنتام Bentham » هذا، رجل من أكبر رجال القرن التاسع عشر، ومفكر نابه من أعظم المفكرين الذين تركوا أثرا خالدا في تاريخ التشريع في انجلترا في هذا القرن، وتقوم فلسفته على المبادئ الآتية :

(١) إن التشريع علم ولا بد أن يسير على قواعد معينة .

(٢) وإن غرض التشريع الصحيح هو إسعاد أكبر عدد ممكن .

(٣) وإن كل شخص أدرى من غيره بما يؤدى الى سعادته، ومن ثم كان غرض التشريع رفع كل القيود التى تقيد حرية الأشخاص، بحيث لا تكون تلك القيود ضرورية لحماية حرية الآخرين .

وقد انتشرت هذه المبادئ سريعا لأنها وضعت أساسا عمليا للاصلاح، ولأنها لا تقوم على نظريات العقود السياسية أو حقوق الانسان، فطابقت بذلك الخلق الانجليزى المحافظ الذى لا يطيق هدم البناء من الأساس، بل يرضى بتعديله فقط، وهو قائم بذاته . ثم إن تشريع « بنتام » يقوم على توسيع حرية الفرد التى كانت مطمح الآمال فى انجلترا منذ قرون طويلة، ولأجلها وقع صراع هائل بين الملكية والشعب، فكل تعزيز لها يقابل فى انجلترا بالترحيب .

لذا أصبحت مبادئ بنتام أساس التشريع فى انجلترا من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٧٠ واليها تعزى :

(١) قوانين سنة ١٨٣٢ وسنة ١٨٣٥ التى نقلت السلطة فى البرلمان وفى مجالس الأقاليم الى الطبقة المتوسطة لأنها — كما قال — هى الطبقة التى تدرك مصلحتها ومصلحة جزء كبير من أفراد الشعب .

(٢) قوانين حماية الأفراد من آلام لا تطابق مبادئ الإنسانية، كتخفيف شدة القانون الجنائى، و إلغاء جلد النساء، وتقليل عدد الجرائم التى يعاقب عليها بالاعدام، و إلغاء الشنق علنا، وحماية الأطفال، والرفق بالحيوان، و إلغاء الاتجار بالرقيق الخ .

(٣) قوانين إطلاق الحرية الشخصية كقانون نقابات العمال الذى صدر سنة ١٨٢٥ وهو يحرّم تقييد حرية العمال وأصحاب الأعمال، وقانون إطلاق حرية الكاثوليك سنة ١٨٢٩

ومعنى كل هذا أن بنتام رأى أن خير طريقة لمعالجة شئون البلاد هى اعتماد الأمة على مجهودها الذاتى، وأنه لا سبيل لإدراك هذا الغرض إلا اذا رفعت القيود التى تعطل حرية العمل، غير أنه سرعان ما ظهر جليا أن قصر التشريع على إطلاق الحرية يفضى الى إيقاع البلاد فى أزمات أشدّ مما كان يطلب الخلاص منها . وكان أكبر العوامل المساعدة على قلب النظام القديم ما يلى .

(١) ظهور دعاة الانسانية أمثال سوثى — وما كولى — وسادلر — وشافتسبرى، الذين أثبتوا أن غل يد الحكومة عن التدخل فى شئون أصحاب الأعمال يؤدّى الى إرهاق العمال وخصوصا النساء والأولاد الذين لا قبل لهم على حماية مصالحهم ومناهضة رؤسائهم، وهكذا بدئ بسن قوانين اشتراكية لتنظيم شئون المصانع وغيرها مما يهم العمال .

(٢) ازدياد الرغبة فى اعتبار «نقابات العمال Trade unions» جمعيات قانونية مهما أدّت الى الضغط على حرية العمال وحرية أصحاب الأعمال، أملا فى إصلاح شئون العمال اجتماعيا واقتصاديا . وقد تقرر هذا سنة ١٨٧٥

(٣) ظهور طبقة من المفكرين أمثال «مل Mill» الذى كان يعمل لهدم مبادئ بنتام متأثرا بالضرر الذى أصاب الطبقات الوضيعة، مما أدى الى تحوّل الرأى العام تدريجيا الى قبول مبادئ الاشتراكية .

(٤) تقدّم التجارة تقدما جعل الاعتماد على المجهود الفردى لا يقوم بالحاجة، وجعل تأسيس الشركات أمرا لا بد منه، وهذا دعا الى تدخل الحكومة لتنظيم أعمال الشركات وإعطائها صبغة قانونية .

(٥) اشتراك طبقات العمال فى الانتخاب ، وهذا أوجد الهيئة التى تساعد على التشريع الاشتراكى .

وكانت نتيجة هذه العوامل الجديدة أن تزعزعت مبادئ بنتام حوالى سنة ١٨٧٠، وتحوّل الرأى العام الى التشريع الاشتراكى، فوضعت قوانين غش الأغذية، والعقاقير الكيماوية، وتعويض العمال، والتعليم العام، والصحة العمومية، والمساكن الخ . وما زالت تتجه الأفكار الآن لا سيما بين طبقات العمال الى شيوع ملكية الموارد الأصلية للثروة أملا فى تحقيق المساواة الاقتصادية كما تحققت المساواة السياسية من قبل .

الفصل الثانى

إرلنـــدا

تمهيـــد ـــ كانت العلاقات الارلندية الانجليزية ترتكز على الحقد والبغضاء منذ أن احتل البلاد هنرى الثانى، فقد انتزعت الأراضى من أصحابها ووزعت على ملاك من الانجليز، ووضعت قوانين عديدة لإذلال الكاثوليك الارلنديين، وحرمانهم من التمتع بالحقوق السياسية . وقد كان للبلاد برلمان فى دبلن إلا أن أعضاءه كانوا من الانجليز البروتستنت، وكانت سلطته خاضعة لسلطة البرلمان الانجليزى، ولكن نشوب الحرب الأمريكية أدّى الى تغيير هذه العلاقة غير المرضية بين الفريقين، فقد صرحت بريطانيا لارلندا حينئذ بدعوة المتطوعين للمحافظة على سواحلها من الغزوات التى كانت تتهدّدها من قبل فرنسا، وهذه القوة الجديدة استخدمها الزعماء السياسيون أمثال «جراتان Grattan» و «هنرى فلد Henry Flood» لارغام انجلترا على الاعتراف باستقلال البرلمان الارلندى سنة ١٧٨٢، ولكن الهيئة التنفيذية بقيت مع هذا غير مسؤلة أمام البرلمان، وكان هذا الشرط وحده كافيا لضمانة مصالح انجلترا فى ارلندا . لذلك تابع الارلنديون جهادهم فى سبيل تحديد مسئولية الوزارة أمام المجلس، فاستنجدوا بفرنسا إبان حربها مع انجلترا فى عهد الثورة ونابليون، وقاموا بثورات عنيفة بين عامى ١٧٩٦ — ١٧٩٨، ليصلوا بطريق العنف الى مالم يصلوا اليه بطريق الاقناع . ومع أن هذه الثورات المتكررة قد أخفقت فقد شعرت الحكومة الانجليزية أنها لاتستطيع أن تجيب المطالب الارلندية بغير أن تعرض مصالحها لأخطار عظمى، ولذا قررت فى سنة ١٨٠٠ إغلاق باب الاصلاح بالقضاء على البرلمان الارلندى نهائيا، وانتخاب مائة عضو عن ارلندا للجلوس بجانب النواب الانجليز فى وستمنستر، وقد توصلت الحكومة الانجليزية

الى الحصول على موافقة البرلمان الارلندى على هـذا القرار، بالالتجاء الى وسائل الرشوة والتوظيف ومنح الرتب وغيرها .

جهاد الارلنديين — ويعتبر هذا القرار بدء علاقة جديدة لا تقوم إلا على الحقد والكراهية والمقاومة بكافة أنواعها . وكان «دانيل أوكنيل Daniel O,Connel» زعيم المقاومة فى العهد الجديد، وهو كاثوليكى لم يعوزه المال ولا الفصاحة ولا القدرة على تحريك الجماهير . اتجه بادئ الأمر الى العمل لرفع القيود السياسية التى وضعت فى القرن السابع عشر لا سيما فى عهد شارل الثانى لتقييد حرية الكاثوليك ومنعهم من دخول الخدمات السياسية والهيئات النيابيـة العامة، وكان جل غرضـه أن يتاح لأبناء جنسه حق الجلوس فى البرلمان، والاشتراك مع باقى الطوائف اشتراكا فعليا فى تقـرير مصير البـلاد، فتذرّع للوصول الى هـذا الغرض بكافة وسائل العنف والهياج حتى اضطرت الحكومة الى قبول هـذا المطلب سنة ١٨٢٩ ويعتبر هـذا النجاح بدء المقاومة الدستورية المدهشة التى شاهدها هـذا القرن لتحقيق المطالب القومية التى كانت تنحصر فى ثلاث مسائل حيوية وهى :

(١) إلغاء النظام الدينى الذى كان يحتم على الكاثوليك دفع زكاة الى الكنيسة الرسمية وهى الكنيسة البروتستنتية الغريبة عنهم .

(٢) معالجة نظام الأراضى المجحف بالمزارعين الارلنديين .

(٣) إعادة الحكم الذاتى للبلاد .

وقد إشتد الهياج والمقاومة فى البرلمان وفى ارلندا لتحقيق هـذه الأغراض، الى حدّ لم يسبق له مثيل، وكانت انجلترا تعتمد فى قمع هذا الهياج على وسائل الشدة تارة، وعلى علاجات مسكنة تارة أخرى، حتى ضاقت صدور الشبان الارلنديين، وصمموا على رفض مطلب الاستقلال الذاتى الذى كان يطالب به الوطنيون، وقرروا المطالبة بالحكم الجمهورى . وفى سنة ١٨٥٨ تكوّنت جمـاعة « الفنيان Fenians»

ذات المبادئ الجمهورية، وأخذت تقوى وتشتد تدريجا الى أن قررت السلطات سنة ١٨٦٥ تعطيل جرائدهم واعتقال رؤسائهم ، فأدى هذا الحادث الى اصطدام الفريقين (خصوصا حين حاول الفنيان إطلاق سراح رفقائهم) ولم يهدأ الحال إلا عند ما تقرر وقف قانون الحرية الشخصية (Habeas Corpus Act) ووضع البلاد تحت الحكم العرفى .

على أن الجزع الذى أثارته هذه الحوادث فى انجلترا وارلندا معا، أدى الى إقبال غلادستون على معالجة المسألة الارلندية حفظا للسلام ، ورغبة فى صيانة مصالح انجلترا نفسها . ففى سنة ١٨٦٩ وافق البرلمان على إلغاء الكنيسة الرسمية و إلغاء إعانتها المالية، وفى سنة ١٨٧٠ «صدر قانون الأراضى Land Act» وهو ينص على إعطاء المستأجرين حقا فى أراضيهم، فلا يستطيع الملاك انتزاعها بغير تعويض للمستأجرين، ولا إنهاء عقد الإيجار بغير دفع قيمة التحسينات للمستأجر، وهكذا خفف غلادستون عبء المسألة الارلندية تخفيفا محسوسا، ولو أنه لم يداوها دواء ناجعا .

مشكلة الأراضى — فبينما نرى المسألة السياسية باقية لم تحل نرى المشكلة الزراعية على حالها من التعقيد، فقانون الأراضى لم يمنع الملاك من طلب أجور باهظة أو طرد المستأجر فى حالة عدم الدفع . ولما حدث أن أصيبت الزراعة بعجز المحصول فى هذا العهد وتعذر على المستأجرين دفع الإيجارات ازداد نزع الأراضى من أيديهم حتى اضطر "پارنل" الذى تولى حينئذ زعامة ارلندا أن ينشئ اتحادا سمى (Land League) (١٨٧٩) بغرض الدفاع عن المزارعين بطرق مباشرة وهى طرق المقاومة والمقاطعة ، أما المقاومة فكانت تتضمن تمسك المستأجرين بأراضيهم حتى يطردوا بالقوة، وهذا استدعى نفقات طائلة يدفعها الملاك فى سبيل الحصول على معاونة البوليس ، فاذا تم لهم الأمر واجهوا صعوبة خطيرة وهى المقاطعة، أى رفض باقى المزارعين أن يستأجروا الأرض او يعاونوا فى زرعها بأى حال . لذلك قررت الحكومة فى سنة ١٨٨١ ان يعطى المالك تعويضا لمن يطرد من المستأجرين، هذا

فضلا عن تعيين لجان لتحديد قيمة الإيجارات ، إلا أن هذه اللجان لم تعط سلطة إلزامية، ولذا لم تتحسن الحالة، واستمر النزاع بين الفريقين حتى صدر قانون ١٨٩٦ الذى عين قيمة الإيجارات العادلة ، وقانون سنة ١٩٠٣ الذى نظم بيع الأرض للمستأجرين .

المسألة السياسية — وبينما كانت المسألة الزراعية سائرة فى طريق الحل بالطرق المباشرة وغير المباشرة كان الزعماء الارلنديون يعملون بجرأة عظمى لإجبار الحكومة على الخضوع لمطالبهم السياسية . وقد اتخذوا منذ سنة ١٨٧٤ خطة التهييج وعرقلة أعمال المجلس بزعامة « پارنل Parnell » الذى كان يختلف عن أوكنيل اختلافا جوهريا ، فقد كان بروتستنتيا من دم انجليزى ومن أصحاب الأراضى ، وكانت تنقصه الحماسة وتعوزه القدرة على تحريك الجماهير، ولكن تكمله صفات الإيمان بالمبدأ، والثبات أمام المصاعب، والجرأة المدهشة .

وقد قابل غلادستون هذه الخطة بسياسة القمع التى أدت الى سجن پارنل ، فلما استمرت المقاومة اضطر غلادستون الى إطلاق سراحه والاتفاق معه على خطة الاصلاح، ولكن مقتل لورد كافندش — وزير حكومة ارلندا — فى فنيكس پارك بيد الفنيان فى مايو سنة ١٨٨٢ أفسد هذا الاتفاق ، وأعاد خطة القمع بشدة ، فأخذ پارنل ينظم صفوفه من جديد لاستمرار الجهاد . وقد جاءت نتيجة انتخابات سنة ١٨٨٥ بحيث جعلت حزب الارلنديين فى موقف الحكم بين الأحرار والمحافظين، فحاول غلادستون أن يضمهم الى جانبه، فقدم سنة ١٨٨٦ مشروع الحكم الذاتى «هوم رول» للبرلمان ،غير أن أنصاره تخلوا عنه حتى رفض المشروع، ولما حاول غلادستون استفتاء الأمة، جاءت النتيجة مؤيدة لقرار البرلمان، وأعيد المحافظون الى منصة الحكم بأغلبية عظمى .

حينئذ بدأت فى ارلندا سياسة "الحزم !" على يد بلفور، ولكن الشدة لم تقض على عوامل الهياج والاضطراب، وقد حاولت التيمس فى مقالات عنيفة أن تنسب



غلادستون — بارنل — ردموند — أوكنيل

كولنز — جريفث — دي فاليرا — لويد جورج

خطة الفوضى والقتل الى پارنل ، ولكن التحقيق لم يؤيد هـذه التهم ، فارتفعت مكانته وأصبحت الآمال معقودة بنجاحه ، على أن هذه الآمال ضاعت بخطيئة شخصية زعزعت مركزه السياسى .

ولما عاد الأحرار الى الوزارة ثانيـة ، حاول غلادستون سـنة ١٨٩٢ أن يحمل البرلمـان على المصادقة على مشروع الهوم رول ، ولكن مجلس اللوردات قاوم هذه المحاولة ، فظلت المسألة الارلندية مطروحة جانبا مدّة ثلاثة عشر عاما لم تعمل السياسة الانجليزية فى خلالها شيئا لمعالجتها ، اللهم إلا إصدار قانون سنة ١٩٠٣ الذى خوّل للمستأجرين حق شراء أراضيهم ، حتى يكتفوا باليسر المـادّى عن المطالبة بالحقوق السياســية .

على أن استئناف المقاومة الارلندية بزعامة «ردموند Redmond» اضطرّ الأحرار الذين تولوا إدارة البلاد سـنة ١٩٠٥ بزعامة كامبـل بانرمان وأسكويث الى إعادة النظر فى مشروع الهوم رول فوافق عليه مجلس النوّاب سنة ١٩١٢ ، ولكنه رفض فى مجلس اللوردات ، على أن هذا الرفض لم يعطل المشروع نهائيا فان تحديد سلطة اللوردات بقانون سنة ١٩١١ جعل قبولهم إياه فى حيز المستطاع .

إلا أنه نشأت الى جانب معارضـة اللوردات معارضة أخرى من قبـل أهل الولايات الشمالية الارلندية الذين رفضوا الانفصال عن انجلترا دفاعا عن مصالحهم الدينية والاقتصادية ، وأعلنوا المقاومة بكل الطرق القهرية ، حتى اضطرّت الحكومة الى العدول مؤقتا عن هـذا القانون خصوصا بعد نشوب الحرب العظمى ، ولكن هذا التباطؤ والتمهل فى حل المسألة حلا نهائيا ، أدّى الى ظهور روح التطرّف التى شاهدناها فى حركة « الفنيان » تحت اسم جديد هو « الشـين فين Sein Fein » وكان غرض هذه الحركة قطع كل العلاقات بالحكومة الانجليزية وإنشاء جمهورية مســتقلة .

وقد نجح هذا الحزب نجاحا لامثيل له فى التاريخ الارلندى بأكمله، ففى الانتخابات العامة سـنة ١٩١٨ وافقت البلاد على سياسة هـذا الحزب ، ثم أخذت تطارد القوات البريطانية مطاردة عنيفة حتى أصبحت الحياة للطرفين عبئا لا يحتمل ، فقررت الحكومة البريطانية مفاوضة زعماء الشين فين فى أمر حل مرض للجانبين ، وانتهى الأمر بوضع معاهـدة أمضاها جريفث وكولنز من زعمـاء الشين فين ، ولويد جورج وغيره من الوزراء البريطانيين فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وهى تنص على جعل ارلندا الجنوبيـة مملكة حرّة تتبع فى نظامها نظام المستعمرات المستقلة ، وقد وافق البرلمـان الارلندى على المعاهدة بأغلبية صغيرة ، غير أنه لا يزال فريق من الجمهوريين بزعامة دى ڤاليرا رئيس الشين فين ، يناوئون أنصار المعاهـدة ويصرون على تحقيق الغرض الأعظم ، وهو وحدة البلاد فى ظل جمهورية مستقلة .

المصـادر

« انجلترا منذ واترلو » (J. A. R. Marriott) — « القانون والرأى العـام فى انجلترا » (Dicey) — « الاصلاح البرلمـانى » (Veitch) — « زعماء الحركة الارلندية » (Leky) — « تاريخ پارنل » (O'Brien)

الباب السابع

الاستعمار الأوربى

فى القرن التاسع عشر

استأنف الأوربيون فى القرن التاسع عشر سياسة الاستعمار التى بدأها البرتغاليون والاسبانيون فى القرن السادس عشر للاستيلاء على أراضى العالم ، وكان الانجليز والفرنسيون أسبق الأمم الى السير فى هذا الطريق : فالانجليز بسطوا نفوذهم على الهند وبرما وجنوب ووسط افريقية كما أنهم أنشأوا اتحاد كندا واستعمروا أستراليا ونيوزلندا ، حتى بلغت الامبراطورية الانجليزية أكبر ما عرف فى التاريخ .

أما فرنسا فقد عوضت خسائر القرن الثامن عشر بالاستيلاء على الجزائر وتونس والسودان الغربى وعلى جزء من السودان المتوسط وبلاد الكونغو ، فضلا عن امتلاكها مدغشقر ونصف الهند الصينية .

أما الألمانيون الذين بدأوا الاستعمار فى مؤخرة غيرهم من الأمم ، فقد استولوا على بلاد التوجو والكمرون ، وجنوب غرب افريقية ومستعمرة شرق افريقية ، وعلى عدة من جزائر الأرخبيل فى الأوقيانوسة .

ويعزى الاستعمار الأوربى فى هذا القرن الى أغراض اقتصادية : إما لإيجاد أسواق لتصريف الصناعات وإنزال السكان الزائدين عن الحاجة ، أو للحصول على مراكز لإنتاج المواد الأولية اللازمة للصناعة ، وتأمين المواصلات .

الفصل الأول

المستعمرات والأملاك الانجليزية

كانت الامبراطورية الانكليزية تتكون فى نهاية القرن الثامن عشر من كندا وجمايكا فى أمريكا ، والبنغال والسركار فى آسيا ، وجزء من شاطئ أستراليا الشرقى ومعه سدنى فى الأوقيانوسية . وفى خلال حروب الثورة ونابليون استولت انجلترا على جزء من غيانا فى أمريكا الجنوبية وعلى تباجو وترنتى من جزر الأنتيل ، وعلى مستعمرة الرأس فى أفريقية وجزائر موريس وسيلان فى المحيط الهندى وجزيرة مالطه فى البحر الأبيض ، هذا الى أنها وسعت ممتلكاتها فى الهند .

ومن سنة ١٨١٥ نظمت موارد الامبراطورية ووسعت حدودها بعاملين : عامل الفتح ، وعامل التدخل السلمى . وقد كان أكبر غرضها فى هذا التوسع تأمين مواصلاتها الأمبراطورية وتوسيع مناطق استغلالها الاقتصادى ، لذلك استولت على مفاتيح البحار فى سنغافوره وشبه جزيرة ملقا وعدن ومصر . وبسطت نفوذها على الهند وبرما وجنوب ووسط افريقية ، كما أنها استعمرت كندا وأستراليا وزيلندا .

وتتبع بريطانيا فى حكم المستعمرات الكبرى التى تسكنها شعوب أوربية مبدأ إشراكها فى حكم البلاد ، بل أنها أخذت تشركها أخيرا فى إدارة شئون الامبراطورية الخارجية ، وتصرح لها بعقد اتفاقات تجارية ، وفرض ضرائب جمركية ، بل وإرسال سفراء الى الممالك الأجنبية ، وتقرير مسألة المهاجرة كيفما تراه صالحا لها ، وتنظيم جيوش ، وبناء أساطيل خاصة بها ، حتى أصبحت علاقة انجلترا مع مستعمراتها الانجليزية الأصل علاقة شركاء متساوين فى المصالح والحقوق وبات الانكليز يسمون امبراطوريتهم "عصبة الأمم البريطانية" .

وهـذه العلاقة لا تقوم على مجرد العاطفة الجنسية والأدبيـة فحسب، ولكنها ترتكز أيضا على مصالح مادّية بعيدة عن الهوى . فانجلترا مدينة لمستعمراتها بكثير من انتعاشها الاقتصادى، والمستعمرات تدين لها بامتيازات تجارية واقتصادية عديدة، كما تدين لها بالدفاع عنها، لا سيما إزاء الأمم الشرقية التى حرمت عليها الهجرة اليها، وفضلت أن يبقى الجـزء الأعظم من أراضيها بورا على أن تختلط بهـذه الأجناس الغريبة عنها .

وقد كان من أثر هـذه السياسة التى اتبعتها انجلترا إزاء مستعمراتها أن تقدّمت الروح الديمقراطية فيهـا تقدما تحسدها عليها انجلترا نفسها، فالمجلس الأعلى فيها يقوم على قاعدة الانتخاب لا على قاعدة الوراثة، والنساء أعطين حق الانتخاب قبل انجلترا بسنوات عديدة، فضلا عن أن تشريعها الاجتماعى والاقتصادى يطابق أعلى مبادئ الاشتراكية المعتدلة، فالحكومة تمتلك كثيرا من موارد الثروة، ولا ترتبط بكنيسـة خاصة أو عقيدة خاصة بل الكل أمامها سواء .

أما أفراد هذه العصبة وأدوار نموها فسنشرحها فيما يلى :

(أولا) كندا

تمهيـــد — فى سنة ١٧٦٣ آلت كندا السفلى أى حوض سان لورانس ومنتريال وكويبك الى انجلترا بمقتضى معاهدة باريس، وفى سـنة ١٧٨٣ بسطت بريطانيا نفوذها على كندا العليـا أيضا، ووضعت فى عام ١٧٩١ نظاما خاصا لكل منهما، يقضى باشراك الشعب فى إدارة شئون البلاد، من غير أن يكون له إشراف على السلطة التنفيذية، فأدّى هذا النظام بطبيعته الى منازعات مستديمة بين الشعب والحكومة كانت نتيجتها أن رفضت المجالس اعتمادات الحكومة المـالية حتى تشل يدها وتغلها عن العمل . وقد استفحل هذا الخلاف تدريجا الى أن انتهى بنشوب ثورة فى الشمال والجنوب عام ١٨٣٧ بقيادة «بابينو» و «ماكنزى» ولكنها أخمدت دون عناء كبير .

تقرير درهام — غير أن حكومة الملك أدركت أن لا سبيل للطمأنينة والسلام فى البلاد إلا اذا وضعت أنظمة الحكومة على أساس يمنع تصادم الشعب والحكومة مرة أخرى، فأوفدت اللورد درهام ليدرس الحالة ويقدّم تقريرا عما يراه من ضروب الاصلاح، فقام درهام بمهمته خير قيام، ووضع تقريرا يعدّ الى الآن أساس نظام الحكم الجديد فى المستعمرات كلها، فقد أوصى بأن تضم المقاطعات العليا والسفلى (حتى يوازن العنصر الانجليزى فى الشمال العنصر الفرنسى فى الجنوب، وتصبح المواصلات لا سيما نهر سان لورانس تحت إدارة واحدة)، وأن يؤلف لهما مجلس نيابى تام السلطة فى كافة الشئون، وأن يعهد الى الحاكم انتخاب الوزارة، على أن تكون مسئولة أمام المجلس. فأقرّت الحكومة البريطانية هذه المبادئ بعد تردد، وأصدر البرلمان سنة ١٨٤٠ قانونا ينص على ضم المقاطعتين، وعلى إنشاء برلمان ذى مجلسين: مجلس شيوخ ويكون عدد أعضائه ٢٠ عضوا يعينون من قبل الحكومة، ومجلس نوّاب ينتخبه الشعب مباشرة. وفى سنة ١٨٤٧ أصدر اللورد إلجن قرارا يحتم انتخاب الوزارة من أعضاء المجلس ويجعل مسئوليتها أمامه نهائية.

الاتحاد — كانت لانجلترا مستعمرات أخرى فى أمريكا الشمالية، وهى نيو برونسويك و برنس ادوارد ونوفا سكوشيا، وقد منحت كل منها حكومة مسئولة خاصة بها طبقا لمبادئ درهام، فرأى أصحاب الرأى والنفوذ فيها أن ترتبط كل هذه المستعمرات بعضها ببعض لتعزيز مركزها الحربى والاقتصادى. غير أنه كانت هناك اختلافات جنسية ودينية واقتصادية وتاريخية تقف حائلا دون اندماج كل هذه الولايات، فقرّ الرأى على إنشاء اتحاد منها جميعا سنة ١٨٦٧ وجعلت مهمته الاشراف على كافة الشئون التى لم تخصص لحكومات الولايات. وهذا يناقض اتحاد الولايات المتحدة الذى خصص للحكومة العليا وظائف لا تتعدّاها.

حكومة الاتحاد — وضعت القوة التنفيذية فى يد حاكم يعينه الملك، ووزارة تنتخبها الهيئة التشريعية، وهى تشمل مجلسين: أحدهما مجلس شيوخ وتنتخبه الحكومة

ومجلس نواب وينتخبه الشعب . ولقد اشترك فى هـذا الاتحاد كندا العليا والسفلى وبرنسويك ونوفا سكوشيا فى بادئ الأمر ثم انضمت اليها ولايات أخرى فيما بعد وهى : منتوبا سنة ١٨٧٠ وكلمبيا سنة ١٨٧١ وبرنس ادوارد سنة ١٨٧٣ والبرت وسسكتشوان سنة ١٩٠٥

ولم ينشأ عن هذا الاتحاد شىء من المصاعب الناشئة عن اختلاف العناصر كما يشاهد فى جنوب أفريقية ، بل انحصر مجهود البـلاد فى تحسين حالتها الفكرية والاقتصادية كما يشاهد من زيادة عدد السكان ، وتقدم المواصلات ، ونمو تجارتهـا الداخلية والخارجيـة ، وخاصة مع بريطانيا والولايات المتحدة . ولو فتحت البلاد أبوابها للشعوب الشرقية لاستثمار مواردها لتضاعفت ثروتها فى أقرب حين ، غير أن فتح البلاد لهذه الشعوب قد يزعزع النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى فيها ، ولذلك تصر كندا وباقى المستعمرات الانجليزية على تحريم مهاجرة هذه الشعوب اليها .

(ثانيـا) أسـتراليـا

كشفها الهولنـديون بادئ الأمر ، ولكنهم انصرفوا عنها الى أن أعاد كشفها كوك سـنة ١٧٦٨ ، فجعلت مأوى للمنفيين والمجرمين ، غير أنه سرعان ما استعمرها المهاجرون الأحرار الذين وفدوا عليها على أثر الأزمة الاقتصادية التى نشأت بعد حروب نابليون ، وعلى أثر اكتشاف الخيرات العظيمة التى تنتجها تلك البلاد .

وكانت ويلس الجنوبية الجـديدة أول ما استعمر من المقاطعات وتلتها ويلس الغربية بين سـنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٠ ، ثم أخذت فكتوريا وكوينزلاند وتسمانيا تنفصل تدريجا عن ويلس الجنوبية الجـديدة وتكوّن ولايات قائمة بذاتهـا ، وفى سنة ١٨٣٦ استعمرت جنوب أستراليا ، وفى سنة ١٨٤٠ تأسست زيلندا .

الحكم — كان الحكم عسكريا مطلقا فى بادئ الأمر ، ولكن ازدياد مهاجرة الأحرار أدى الى تغير نظام الحكم ، فأنشئت مجالس فى الولايات المختلفة تشمل اعضاء

ينتخبهم الملك، وآخرين يختارهم النزلاء، وكانت وظيفة هذه المجالس الإشراف على شئون البلاد من غير تقييد للحكومة — أى أنها كانت مجالس تمثيلية فقط — وكانت ويلس الجنوبية أول من تمتع بهذا النظام سنة ١٨٤٢ وتبعتها تسمانيا وجنوب أستراليا وزيلندا وفكتوريا سنة ١٨٥٢ وأستراليا الغربية سنة ١٨٧٠

ولما اكتشف الذهب ووفد المهاجرون الى البلاد بكثرة أنشئت فى الولايات حكومات برلمانية مسئولة، وقد تمتعت كل الولايات بهذا الحق بين سنة ١٨٥٤ وسنة ١٨٥٩ أما غرب أستراليا فلم تتمتع به إلا سنة ١٨٩٠

الاتحاد سنة ١٩٠٠ — وجدت أسباب قوية تدعو الى اتحاد الولايات: منها الرغبة فى سهولة التعامل التجارى، ومحو المكوس الداخلية، وإيجاد نظام حربى يكفل الدفاع عن البلاد، وتسهيل المواصلات، ومراقبة الملاحة، ورى الأراضى الخ. فتقرر إنشاء حكومة اتحادية تتألف من مجلسين: أحدهما مجلس شيوخ وفيه ستة أعضاء عن كل ولاية، ومجلس نواب وينتخبه السكان مباشرة، وقد حددت سلطة الحكومة الاتحادية على مثال الولايات المتحدة لا على مثال كندا، واشتركت كل الولايات فى هذا الاتحاد ما عدا زيلندا.

وحكومة الاتحاد تجدّ الآن فى استغلال ثروة البلاد وإسعاد أهلها طبق المبادئ الاشتراكية المعتدلة، وقد حرّمت على الشرقيين المهاجرة الى بلادها حتى لا تنخفض الأجور وتسوء أحوال العمال، على أن هذه السياسة من شأنها ترك نصف مساحة أستراليا تقريبا بغير استغلال.

(ثالثا) جنوب أفريقية

استولت انجلترا أثناء حروب نابليون على مستعمرة جنوب أفريقية التابعة لهولندا، ولما أبرم الصلح فى عام ١٨١٤ بقيت هذه المستعمرة فى يدها على أن تدفع لهولندا ٦ ملايين من الجنيهات تعويضا لها.

وقد كان معظم السكان الأوربيين حينئذ من الهولنديين ، فلما آلت البلاد الى انجلترا بدأ النزاع يظهر جليا بين الانجليز والهولنديين ، فان الانجليز بدلوا أنظمة الحكومة التى اعتادها أهل البلاد « البوير » وجعلوا اللغة الانجليزية اللغة الرسمية ، وازداد سخطهم حينما ألغت انجلترا الرقيق سنة ١٨٣٣ ولم تعوضهم عنه إلا ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وهو مبلغ لا يوازى ما فقدوه بتحرير الأرقاء .

لذا هاجر البوير الى داخل أفريقية منذ سنة ١٨٣٦ واتخذوا لأنفسهم موطنا جديدا فى ناتال ، إلا أن انجلترا أعلنت ضمها اليها سنة ١٨٤٤ ، فهاجر كثير منهم الى حوض نهر الأورنج إلا أن انجلترا أعلنت سنة ١٨٤٨ تبعية هذه البلاد لها كذلك ، فهاجر الكثيرون الى حوض نهر الفال حيث رحل من بادئ الأمر كثيرون ، وكونوا ولاية عرفت بالترنسفال ، فاكتفت انجلترا فى هذه الحالة بضمان حرية التجارة ، واعترفت باستقلال هذه البلاد «اتفاقية نهر سند» سنة ١٨٥٢ وفى سنة ١٨٥٤ تنازلت أيضا عن سيادتها على مستعمرة الأورنج «اتفاقية بلمفنتين» .

البوير والاستقلال — غير أنه فى سنة ١٨٧٧ أعلن «دزريلى» ضم الترنسفال الى الأملاك الانجليزية بحجة أن النزاع الذى كان قائما بين البوير والوطنيين «الزولو» من شأنه أن يزعزع سلطان الأوربيين فى جنوب أفريقية . فأثار هذا العمل ثائرة الأهالى وعلى رأسهم «كروجر» حتى اضطرت وزارة غلادستون إزاء هذه الحالة التى كانت تزداد حرجا ، أن تعيد استقلال الترنسفاليين فى سنة ١٨٨١ ، على أن يبقى لانجلترا حق السيادة عليهم «اتفاقية بريتوريا» ثم تقرر فى «اتفاقية لندن» سنة ١٨٨٤ ان تحذف السيادة ويبقى شرط حرية التجارة ومراقبة الشئون الخارجية .

وحدث فى سنة ١٨٨٥ أن اكتشف الذهب فى الترنسفال والماس فى المستعمرة الحرة ، «الأورنج» فتدفق جمهور من البريطانيين الى تلك البلاد ، فخاف البوير أن يطغى عليهم سيل المهاجرين ، فحرموهم من كل اشتراك فى شئون البلاد السياسية ، وضربوا على صناعاتهم الضرائب الباهظة ، ورفعوا أجور النقل فى السكك الحديدية

حتى يعرقلوا أعمالهم الصناعية، لحاول المهاجرون أن ينالوا حقوقهم بالقوة ، بعد أن حاولوا السلام عبثا، واستنجدوا بسسل ردوس الذى كان يفتح لبلاده أراضى واسعة الأطراف حول نهر الزامبيزى فى قلب أفريقية — وسميت روديسيا سنة ١٨٩٠ — فأرسل قوة لانجادهم بقيادة جمسون ولكن البوير أحاطوا بها وأرغموها على التسليم فى ٢ يناير سنة ١٨٩٦ ، فاشتد الخلاف وعظم النزاع بين الفريقين ، وأخذت الترنسفال تعد العدة وتعقد المحالفات مع شقيقتها مستعمرة الأورنج استعدادا للطوارئ .

إزاء هذه الأزمة ، أوفدت الحكومة الانجليزية سنة ١٨٩٧ السير الفرد ملنر مندوبا ساميا لحسم النزاع ، ولكن على غير جدوى ، فان البوير أبوا تدخل أية دولة أجنبية فى تنظيم شئونهم الداخلية ، وحينئذ أشار المبعوث البريطانى باتخاذ الوسائل التى تكفل رفع المظالم عن الرعايا الانجليز ، فسارعت الحكومة الى إرسال جنودها تباعا، ولم تلبث نار الحرب أن استعرت بعد قليل .

الحرب — ما كادت تبدأ الحرب فى أكتوبر سنة ١٨٩٩ حتى غزت الحليفتان ناتال وحاصرتا مافكنج وكمبرلى ولادى سمث ثم زحفتا على مستعمرة الرأس ، فجزعت انجلترا من وطأة الخطر الداهم ، وأوفدت روبرتس وكتشنر لمعالجة الأزمة ، فاستطاع البريطانيون فك الحصار عن كمبرلى ومافكنج ولادى سمث واحتلال بلمفنتين ومستعمرة الأورنج ، وطرد البوير من ناتال ، والاستيلاء أخيرا على جوهانسبرج وبريتوريا ، ففر كروجر الى أوربة ، وأخذ البوير بقيادة دى ويت ينظمون حروب العصابات فى كل مكان، إلا أن نضوب موارد الثروة أجبرهم فى النهاية على التسليم . وفى معاهدة فرينج مايو سنة ١٩٠٢ فقد ذلك الشعب الشجاع استقلاله القديم ، فانطوت الجوانح على الأحقاد وترقبت العيون أوان الثار ، إلا أن انجلترا قررت فى سنة ١٩٠٦ أن تمنح البلاد استقلالا ذاتيا حتى تداوى الجروح القديمة وتقتلع بذور الأحقاد المهلكة .

وهكذا تساوت الولايات الثائرة بمستعمرة الرأس التى كانت قد منحت حكومة تمثيلية سنة ١٨٥٣ وتحولت الى حكومة مسئولة سنة ١٨٧٢ وبلاد ناتال التى منحت كذلك حكومة تمثيلية سنة ١٨٥٦ ثم منحت حكومة دستورية سنة ١٨٩٣

وحدة الولايات — ولما كانت مصالح الولايات الحرة الجنوبية تتلاقى فى مواضع عدة، فقد تقرر عام ١٩٠٩ إنشاء وحدة لا اتحاد من هذه الولايات، وجعل قوامها حكومة عليا تامة السلطة تتألف من حاكم ينصبه الملك، ومن مجلس تنفيذى، ومجلس شيوخ مؤلف من أربعين عضوا، ثمانية عن كل مستعمرة، وثمانية ينصبهم الحاكم لمدّة عشر سنين، ثم مجلس نواب ينتخبه الأهالى، وجعلت كلتا اللغتين الانجليزية والهولندية رسميتين، كما جعلت بريتوريا مركزا الحكومة التنفيذية، ومدينة الرأس مركز السلطة التشريعية، وبلمفنتين مركز السلطة القضائية. وتواجه الحكومة الجديدة متاعب ذات بال : الجمهوريون الهولنديون الذين لا يرضيهم إلا الانفصال عن بريطانيا، واعتصابات العمال فى مناجم الماس، وشئون الأهالى الوطنيين، ومعضلة مهاجرة الشرقيين التى لم تسلم منها مستعمرة من المستعمرات الانجليزية الحديثة[1].

(رابعا) الهند

تاريخها الغابر — ليست الهند فى الحقيقة أمة قائمة بذاتها، بل مجموعة أمم تختلف جنسا ولغة ودينا وعادات. ولا ريب أن تاريخ الهند وما تعرضت له من الحكم الأجنبى هو مبعث هذا التفرق والانقسام، فهو تاريخ نهوض وسقوط ملوك لا يحصى عددهم، تاريخ فوضى واضطراب وقحط وأوباء لا مثيل لها. ففى عهد الهندوس الذين حكموا البلاد من سنة ٢٠٠٠ ق. م الى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد

(١) يضاف الى الأملاك البريطانية فى أفريقية زنزبار ومستعمرة شرق أفريقية فى الشرق ونجيريا وغمبيا وسيراليون وشاطئ العاج فى الغرب وقد حصلت عليها انجلترا فى مؤتمر عقد فى برلين سنة ١٨٨٥ لتقسيم أفريقية بين دول أوربة

لانجد أثرا للوحدة القوميـة مطلقا . وفى الفترة التى تلتها من سنة ١٠٠٠ الى سنة ١٥٠٠ أصبحت الهند ميدانا لغزوات القبائل الهمجية التى زحفت عليها من أواسط آسيا من أتراك ومغول وغيرهم ، فلم تكن فى عهدهم أسعد حظا مما كانت من قبل . وفى العهد التالى سقطت البلاد فى يد الأتراك المغوليين ، وفى زمنهم نالت قسطا وافرا من السلام والطمأنينة ، وكادت تتحقق آمال الوحدة فيها ولاسيما فى عهد «أكبر» الذى حكم البلاد من سنة ١٥٥٦ الى سنة ١٦٠٥ و «أورانجزيب» الذى حكم من سنة ١٦٥٩ الى سنة ١٧٠٥ غير أنه تولى الحكم من بعدهم قوم لم يكن لهم بأس أسلافهم ، فتقوضت دعائم أمبراطوريتهم وتمزقت بين حكامها المتفرقين فى سنة ١٧٥٠ .

التدخل الأوربى — بينما كانت البلاد تتقاذفها الأمواج فى هذا العهد الأخير ، بدأ الأجانب يقرعون أبوابها فوجدوا المغنم سهلا والفرصة دانية . وكانت البرتقال فى طليعة الأمم التى ارتبطت مع الهند بعلاقات تجارية على أثر الاستكشافات الأولى . وقد تبعتها هولندا سنة ١٦٠٠ ولكنها لم تهتم إلا بجزائر الهند الشرقية ، ثم جاءت انجلترا على أثرها مباشرة فأسست محطات تجارية فى مدراس و بومباى و بنغال ، وأنشأت فرنسا عدّة شركات بين سنة ١٦٠٤ وسنة ١٦٦٤ وجعلت بوندشيرى و شندرناجور وماهى مراكز لتجارتها . ولما كانت البرتقال قد أصابها ضعف شديد على أثر انضمامها لأسبانيا سنة ١٥٨٠ ، وكانت هولندا لاتهتم إلا بالشرق الأقصى ، وقفت انجلترا وفرنسا وجها لوجه تتنازعان هذه الدرّة الثمينة لاسيما ودولة المغول أخذت فى التدهور السريع إذ ذاك . واليك أدوار النزاع بينهما :

(١) وقع الدور الأول على يد دبلكس الفرنسى وكليف البريطانى من ١٧٤٠ الى ١٧٦٣ أى أثناء الحروب التى اشتعلت بين البلدين فى أوربة ، وانتهى الأمر بهزيمة فرنسا نظرا لتفوق بريطانيا البحرى ، فتقرر بمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣ أن تبقى للفرنسيين مراكزهم التجارية فى الهند على ألا تكون لهم فيها قوة حربية مطلقا .

(٢) كوّنت فرنسا أثناء حرب استقلال أمريكا حلفا يتألف من نظام حيدر باد وأمراء المهراتا وأمير ميسور، ووعدتهم بالمساعدة على أن يقوموا فى وجه انجلترا غير أن وارن هيستنجس حاكم الهند إذ ذاك فرق هذا الحلف وانتصر عليه .

(٣) بدأ الدور الثالث من النزاع أثناء حروب نابليون، فقد نجحت فرنسا فى إعادة تحالف الإمارات السابقة الذكر، وقام نابليون بحملته المشهورة على مصر لمساعدتهم، ولكن الحملة أخفقت، فانحل التحالف على يد اللورد كورنواليس وثبت مركز انجلترا نهائيا فى الهند .

انجلترا والهنود — لم تنته متاعب انجلترا فى الهند بهزيمة فرنسا، إذ كان لا بد لها من التغلب على الأمراء العديدين فيها قبل أن يستقر قدمها، ويتوطد نفوذها فى سائر المقاطعات، ولم يكن تغلبها على كل حال بالمهمة الشاقة بعد ما كان من انقسام الهند واستقلال ولاتها وسهولة استخدام الوطنيين فى محاربة إخوانهم من الهنود .

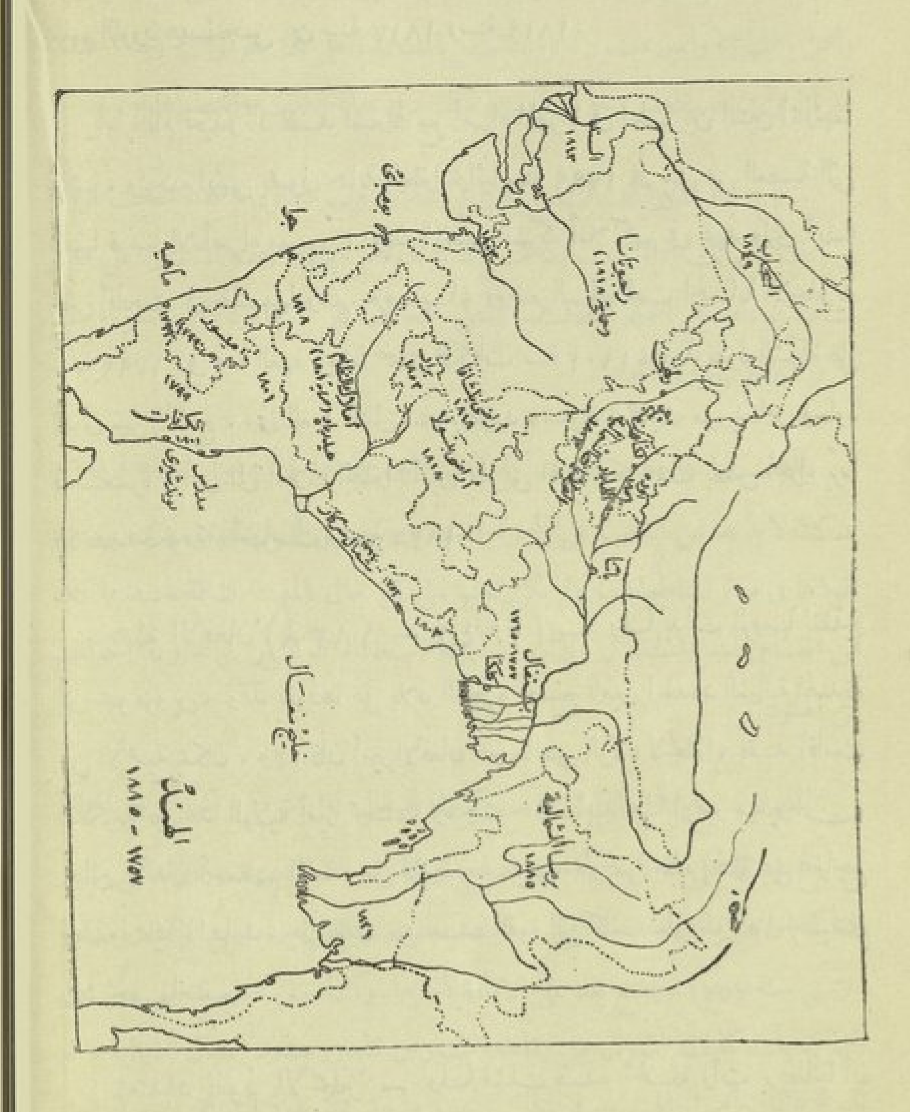
الحرب مع الإمارات — وكانت البنغال أول من اشتبك مع انجلترا فى نزاع عنيف على أثر انضمام أميرها سراج الدولة الى الفرنسيين، وإغارته على متاجر الشركة الانجليزية فى الهند، فأوفد «كليف» لقتال هذا الأمير، فهزم قواته فى موقعة بلاسى سنة ١٧٥٧ ووضع يده على الامارة بأسرها. ولما تولى «هيستنجس» شئون الشركة بعد كليف استولى على مقاطعة بنارس لتأمين حدود البنغال الشمالية، ثم تذرع باتفاق أمراء الهند مع فرنسا كما رأينا وأخذ يمد نفوذ الشركة عليهم الواحد بعد الآخر رغبة فى صيانة مصالحها . وكان أقوى هؤلاء الأمراء وأشدهم بطشا أمراء المهراتا الذين كانوا يسيطرون على الجزء الأعظم من أواسط الهند : اشتبكت معهم جنود الشركة أثناء الحرب الأمريكية وأثناء حروب نابليون ففازت برد هجماتهم أولا ثم تحولت الى مهاجمتهم وتشتيت شملهم فنجحت فى تفريقهم فى عهد اللورد ولزلى

(١٨٠٣ — ١٨٠٥) ثم قضت على سلطانهم القضاء الأخير فى الحرب التى شنها عليهم اللورد هيستنجس بين سنة ١٨١٧ وسنة ١٨١٩

أما نظام حيدر باد فقد اشترك مع أمراء المهراتا فى الحربين اللتين أثارتهما فرنسا، ولكنه انتهى بقبول حماية انجلترا نهائيا سنة ١٧٩٩ فلم يبق من العصبة التى ألفتها فرنسا إلا أمراء ميسور . وقد نازعتهم الشركة أملاكهم فى عهد ولزلى أيضا حتى أفلحت فى تقسيمها وضم جزء منها، ووضع الباقى تحت الحماية الانجليزية سنة ١٧٩٩ وفى هذا العهد أيضا ضمت الكرنات سنة ١٨٠١، ومدّ نفوذ الشركة على أعالى نهر الكنج . وفى العهد التالى، عهد اللورد «منتو»، ضمت موريشاس وجاوه ومستعمرة الرأس الى أملاك انجلترا لتأمين طريق الهند، كما ضمت بعض أجزاء برما فى عهد حكومة «أمهرست» سنة ١٨٢٦

حملة الأفغان (١٨٣٨ — ١٨٤١) — ولما بدأت الروسيا تتقدم الى بحر قزوين، وتمدّ نفوذها على بلاد العجم، أصبح تأمين الحدود الشمالية الهندية من الأهمية بمكان . وإذ كان أمير الأفغان غير خالص الولاء لانجلترا، فقد أقامت الحكومة على هذا الولاية أميرا ترضاه، وسيرت حملة لتأييد هذا الأمير . غير أن أهالى الأفغان أحفظهم إقامة رجل لا يرضونه عليهم، فأرغموا هذه الحملة على التراجع وسدّوا عليها المسالك، فلم يفلت من هذه القوة التى كانت تبلغ ١٥٠٠٠ جندى إلا رجل واحد .

امتداد نفوذ الانجليز — ولما فشلت هذه الحملة رأت بريطانيا أن تعمل على تأمين الحدود الغربية والشمالية بالاستيلاء على وادى السند والبنجاب . وقد بدأت بالاشتباك مع أمراء السند وهزيمتهم فى موقعة «ميانى» سنة ١٨٤٣، ثم منازلة أهل البنجاب «السيخ» فى مواطن عدّة حتى دارت عليهم الدائرة أخيرا فى موقعة «بجرات» فى سنة ١٨٤٩، فضمت بلادهم الى الممتلكات الانجليزية كما ضمت


الهند
١٧٥٧ - ١٨١٥
خليج بنغال

السند من قبل . وهكذا أصبحت الهند بأسرها تحت رحمة انجلترا سيان منها ما ضم الى الأملاك الانجليزية وما وضع تحت الحماية . وقد كان القرار الذى وضعه اللورد «دلهوزى» فى عام ١٨٥٦ بشأن إلغاء نظام التبنى المعروف بين أمراء الهند، باعثا على ضم بلاد شاسـعة الى أملاك الشركة حتى زادت الممتلكات الانجليزية بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٥٦ من ثلث مساحة الهند الى نصف مساحتها . هذا الى أن حدود الهند قد امتدت فى هذا العهد الى برما السفلى سـنة ١٨٥٢ . وأما برما العليا فلم يتم الاستيلاء عليها إلا سنة ١٨٨٤

على أن العلاقات الهندية مع الأفغان بقيت متحرجة، ولذا أرسلت حملة جديدة عام ١٨٧٧ لعزل أمير البلاد و إقامة آخر يرضى بإشراف انجلترا على السياسة الخارجية وقد تم لها ما أرادت . إلا أن الأمير الجديد عجز عن حكم الأفغان حتى أن السفير الانجليزى وأفراد البعثة الانجليزية قتلوا جميعا سنة ١٨٧٩، فوجهت انجلترا حملة على الأفغان بقيادة « روبرتس »، فأقامت أميرا جديدا تحت النفوذ البريطانى، إلا أن النهضة الجديدة التى شملت الشرق بأجمعه حركت بلاد الأفغان من جديد الى التخلص من النفوذ البريطانى وتثبيت استقلال البلاد . على أن الأفغان قد فقدت أهميتها فى الواقع بالنسبة لبريطانيا بعد الاتفاق الذى تم بين انجلترا و روسيا بشأن فارس سنة ١٩٠٧، وقيام الثورة الروسية التى أدّت الى نبـذ مبادئ السياسة الروسية القديمة سنة ١٩١٧

نظام حكومة الهند — تقرر على أثر انتصار «كليف» فى البنغال والكرنات أن توكل شئون الحكومة الى النوّاب «الأمراء» على شرط أن تمتع الشركة بكامل الحرية فى عملها . غير أن «النوّاب» أخذوا يكيدون لها و يعملون على التخلص من وصايتها . فتقرر فى سنة ١٧٦٥ أن تتولى الشركة إدارة الحكومة نظير دفع جزية للأمراء . بيد أن عمال الشركة أخذوا فى استنزاف أموال الأهالى والاثراء من طريق غير مشروع فاضطرت حكومة الملك أن تتدخل فى الأمر، وسنت سـنة ١٧٧٣ نظاما يقضى

بانشاء مجلس يساعد الحاكم، ومحكمة مستقلة فى سلطتها لتكون ضمانة للعدالة فى البلاد. غير أن «هيستنجس» الذى خلف «كليف» فى حكومة الهند استهان بهذه الرقابة التى وضعت على أعماله، وسار فى طريق العنف والشدة التى ظهرت ظهورا جليا فى محاكمته الشهيرة، مما أدى الى تدخل الحكومة من جديد، فأصدرت قانونا يعرف بقانون «بت» سنة ١٧٨٣ وبه جعلت كل تصرفات الشركة وحكامها تحت رقابة مجلس يرأسه وزير، وخولت الحكومة العليا حق انتخاب الحاكم العام. وقد بقى هذا النظام معمولا به الى ثورة سنة ١٨٥٨، وإن كان احتكار الشركة قد ألغى نهائيا فى سنة ١٨٣٣

ثورة ١٨٥٨ — أما هذه الثورة فترجع فى أصلها الى الرغبة فى استئصال الحكم الأجنبى ولو أن سببها المباشر هو إلغاء نظام التبنى والاستطالة على أملاك الأمراء، والاعتداء على كثير من العوائد المألوفة، واستخدام الهنود بعيدا عن مواطنهم بغير أن يزاد جزاؤهم، فتولدت روح التمرد والعصيان لا سيما وقد أظهرت الحوادث فى حروب الأفغان والقرم أن الانجليزى لا يصعب التغلب عليه. ولقد انحصرت الثورة من بادئ الأمر فى المقاطعات الشمالية حيث توجد البلاد التى مستها الأنظمة الجديدة أكثر من سواها. فاستعانت الحكومة بجنود من الجنوب والشمال وقمعت الثورة تدريجيا فى «كونبور» و «لكناو» و «دلهاى» وغيرها من مراكز الثورة حتى لم يمض شهران إلا وقد استتب الأمن وأعيدت السكينة. وكان من أثر هذه الثورة أن تقرر انتقال ملكية البلاد نهائيا الى حكومة الملكة، وتعيين وزير ومجلس خاص لحكومة الهند.

إصلاح الهند — لم يبدأ عهد الاصلاح فى الهند إلا بعد أن تولت الحكومة البريطانية أمر البلاد مباشرة، غير أن عهد الشركة لم يخل من إصلاحات تذكر. فقد أعادت الطمأنينة والسلام للبلاد نوعا ما، وألغت الكثير من العادات المستهجنة القديمة، وأدخلت كل المخترعات الحديثة من سكك حديدية

وتلغرافات، كما أصلحت الطرق، وشجعت تعليم أبناء البلاد، ووضعت نظاما عادلا جديدا للضرائب بعد أن ألغت نظام الجباية القديم .

ولما تولت الحكومة أمر البلاد ضاعفت مجهود العهد القديم، من نشر السلام والطمأنينة والعدل بين رعاياها، وحمايتهم مما تعرضوا له قديما من القحط والوباء، وتسهيل طرق المواصلات، وإنشاء النقابات الأهلية، وتشجيع الزراعة والصناعة على اختلاف أنواعها والعناية بشئون التعليم عناية لم تبلغ بعد الحدّ المطلوب .

على أنه مهما يكن من أمر هذا التعليم، فقد تخرج عدد وافر من الرجال فى معاهد الهند وغيرها، وهؤلاء حقدوا على الانجليز حرمانهم من الاشتراك فى إدارة شئون بلادهم . فتمشت الحكومة مع رغباتهم الى حدّ أن أعلنت سنة ١٨٥٨ فتح باب الوظائف بأجمعها للهنود، ولو أن هذا الاعلان لم ينفذ مباشرة . وفى سنة ١٨٦١ قررت الحكومة إنشاء مجالس للمديريات يكون بعض أعضائها من الهنود، ولما اشتدت الحركة الوطنية عقب المؤتمر الذى عقده الهنود سنة ١٨٨٥، أعلنت الحكومة سنة ١٨٩٢ إشراك الهنود فى مجلس الهند العام، وفى مجلس الحاكم العام . إلا أن النهضة التى شملت الأمم الشرقية جمعاء فى بداية هذا القرن، وسياسة الشدّة التى جرى عليها بعض حكام الهند لاسيما «اللورد كرزون» نبهت الحركة الهندية وغذت دعوة زعيمها الوطنى الكبير «تلاك» حتى اضطرت حكومة الملك أن تسير خطوة جديدة سنة ١٩٠٩ فى سبيل إشراك الهنود إشراكا متزايدا فى مجالس الحكم .

ولما أعلنت الحرب العظمى ونادى الحلفاء من آلاف المنابر باحترام حرية الشعوب، اتخذت الحركة قوة جديدة حتى أوفدت حكومة انجلترا وزير الهند سنة ١٩١٨ لدرس أحوالها وتعديل نظام حكومتها تعديلا يتمشى مع روح العصر[١] .

(١) زيد فى اختصاص مجالس المديريات، وأنشئت جمعية محدودة السلطة، ووسعت قاعدة الانتخاب . إلا أن الهنود الوطنيين يرون هذه الاصلاحات دون الحدّ المطلوب .

إلا أن الأنظمة الجديدة مازالت بعيدة عن الحكم الذاتى الذى يرغب فيه الهنود، ولذا أصر كثير من الزعماء على مقاطعتها، ولكن التجارب أثبتت أن الحدّ الفاصل بين المقاومة السلبية والمقاومة الفعلية لا مكان له إلا فى حيز النظريات فقط، وأنه ليس من السهل الدعوة بالأولى من غير التعرّض لأخطار الأخرى، لذا تحوّلت أنظار الجمهور الى الاشتراك فى الأنظمة الموضوعة على أمل استخدامها وترقيتها لمصلحة البلاد، غير أن الفوارق الجنسية والدينية العديدة التى تفرق شعوب الهند تكاد تكون الحائل الأعظم الآن بين الهند و بين رقيها المنشود، وسيبقى مجهود الهند من غير نتيجة تذكر حتى تزول هذه الفوارق .

الفصل الثانى

المستعمرات الفرنسية

كانت فرنسا تمتلك فى عام ١٨١٥ غيانا فى أمريكا الجنوبية ، وجوادلوب ومرتينيك فى جزر الأنتيل، وجزر سان بيير وميكلون فى أمريكا الشمالية، وساحل السنغال فى أفريقية، وبوند شيرى وشندر ناجور وكريكال وماهى ويانون فى الهند، وجزيرة البربون فى المحيط الهندى .

ولفرنسا اليوم امبراطورية تبلغ حجم فرنسا عشرين ضعفا ، وقد بدئ فى إنشائها عام ١٨٣٠ حين أرسل شارل العاشر حملة الى الجزائر على أثر نزاع وقع بين حكومة فرنسا وداى الجزائر من جراء قرض أخذته حكومة الادارة سنة ١٧٩٧ ، وقد بدأت الأعمال الحربية فى يونيه سنة ١٨٣٠ بانزال نحو ٣٦٠٠٠ جندى على الشاطئ تحت حماية الأسطول الفرنسى، وعبثا حاولت القوات الوطنية رد هذه الغارة فما لبث «الداى» أن سلم العاصمة للأعداء فى ٥ يوليه سنة ١٨٣٠ ، على أن تخلى شارل العاشر عن العرش كاد يزعزع هذا النصر، فان لويس فيليب ومن ورائه الوزراء والمجالس النيابية أصروا على سحب الجزء الأعظم من رجال الحملة ، واكتفوا باحتلال العاصمة وضواحيها، غير أن استمرار هجمات الوطنيين على المواقع الفرنسية أدى الى توسيع نطاق الاحتلال ثم الى امتلاك البلاد منذ عام ١٨٤٠

ويتضمن هذا الفتح دورين هامين : (الأول) دور احتلال قسنطينة الحصينة (١٨٣٦ — ١٨٣٧) . (والثانى) دور الصراع الذى دام أربعة عشر عاما مع الأمير عبد القادر فى المنطقة الواقعة بين الجزائر وحدود مراكش . واذا كان القتال حول قسنطينة قد كلف الفرنسيين جهدا عظيما نظرا لوعورة المسالك

وشدّة المواقع ، فقد كان القتال مع عبد القادر صعب المراس شديد البأس ، فالأمير الشاب لم تنقصه الشجاعة والذكاء ولا القدرة على تحريك مشاعر الجزائريين وتحويلهم من النزاع الذى كان قائما بينهم على الدوام الى قتال الفرنسيين أعداء الوطن والدين .

بدأ عبد القادر باثارة القبائل الناقمة على الفرنسيين عام ١٨٣٢ ، وبدلا من أن تقمع الحركة فى بدايتها ، أخذت الحكومة الفرنسية فى مفاوضة الأمير الى أن انتهى الأمر بأن فوضت اليه أمر إدارة إقليمى أوران والجزائر ، على أن تحتفظ فرنسا بخمس أو ست نقط ، إلا أن ضعف الفرنسيين هيأ لعبد القادر الفرص لقهرهم وإجلائهم عن البلاد ، فما زال يجمع الرجال ويجهز المعدّات حتى اذا كملت أعلن الحرب من جديد فى ١٨ نوفمبر سنة ١٨٣٩ وطفق يغير على الأماكن التى يحتلها الفرنسيون ، فأوفدت الحكومة الفرنسية الجنرال «بيجو Bugeaud» لتولى شئون الحرب ، وفى عهده تحوّل النضال عن سيره الأوّل ، فبينما كانت خطة فرنسا فى الجزائر الى ذلك الوقت خطة دفاع ، تحوّلت بعدئذ الى خطة هجوم لم يعرف فى شدّته من قبل ، غير أن وعورة البلاد وصعوبة الانتقال هيأت الفرصة لعبد القادر لمواصلة الحرب سبع سنوات ، فلما خضع فى النهاية لأعدائه لم يتوطد مركز الفرنسيين نهائيا فى البلاد ، اذ وجه المارشال «راندون Randon» عام ١٨٥٧ الى الجزائر بقوة تبلغ ٣٠٠٠٠ جندى لاخضاع أهل الأقاليم الجبلية الداخلية الذين كانوا يهدّدون مواقع الفرنسيين ، ولما تم إخضاعهم بعض الشىء عادوا الى الثورة فى عام ١٨٧١ بقيادة محمد المقرانى ، وقد بلغ القتال حينئذ مبلغا من الشدّة بحيث لم يمكن إعادة السكينة إلا بعد عام كامل . ومن ذلك التاريخ هدأت ثائرة القبائل وخضعت نهائيا لحكم فرنسا .

احتلال تونس ومراكش — ما كادت تتم فرنسا عملها فى الجزائر حتى بسطت نفوذها على تونس عام ١٨٨١ — ١٨٨٢ ثم على مراكش عام ١٩١١ ؛ فمنذ

توطد سلطان الفرنسيين فى الجزائر أخذوا يعملون لمد سلطانهم على تونس لما كان موقعها الجغرافى يفتح منها طرقا عدة لغزوة جارتها ، هذا الى أن الايطاليين قد بدأوا منذ إتمام وحدتهم يتطلعون الى الاستيلاء على هذه البلاد القريبة من شواطئ صقلية ، ولذا رأى الفرنسيون ألا مندوحة من منع هذه البلاد من السقوط فى أيدى الأجانب ، ولما كان التونسيون لا يفتأون يشنون الغارة بعد الغارة على جيرانهم طمعا فى النهب والسلب ، فقد رأى الفرنسيون فى ذلك مبررا لإيفاد حملة فرنسية الى تونس فى أبريل سنة ١٨٨١ ، فاضطر الوالى الى إمضاء معاهدة قبل فيها حماية فرنسا . وما كاد الأمر يستتب على هذه الصورة حتى قامت فى البلاد ثورة عامة مركزها «القيروان» فأسرع الفرنسيون الى توجيه قوات برية و بحرية أخمدت الحركة وقضت على عوامل المقاومة فى سبتمبر سنة ١٨٨١ وحينئذ نظمت البلاد من الوجهة الحربية وعززت سلطة المعتمد الفرنسى حتى شملت الاشراف على الادارة بأكملها .

وفى السنوات الأولى من القرن العشرين ، استطاعت فرنسا أن تتم عملها فى شمال أفريقية وأن تضمن سلامة الامبراطورية التى أنشأتها فى تونس والجزائر فانه بالرغم عن المصاعب التى أقامتها ألمانيا "١٩٠٥ — ١٩١١"[١] فقد نجحت فى تثبيت قدمها فى مراكش و إطلاق يدها فى تلك البلاد الواسعة .

السودان الفرنسى — أما فى أفريقية الوسطى فقد أنشأت فرنسا مستعمرات واسعة صالحة لزراعة القطن ، وهى تشمل السنغال وغانة وشاطئ العاج وداهومى و بلاد النيجر ، وتبلغ مساحتها سبعة أو ثمانية أضعاف مساحة فرنسا ، وقد بدأ فتح هذه البلاد فى عهد نابليون الثالث أى منذ عام ١٨٥٥ ولم يتم العمل الا عام ١٨٩٨ ، و يعزى هذا الفتح فى البداية الى بعثات المستكشفين أكثر مما يعزى الى حملات الجنود ، ولذا لم يكلف فرنسا مجهودا حربيا كبيرا إلا فى داهومى حيث

(١) أنظر الباب الأخير .

أرسل نحو ٣٠٠٠ جندى ، على أن فرنسا كثيرا ما كانت تستخدم الوطنيين فى فتح البلاد كما كانت تفعل فى الهند من قبل .

بدأ الفرنسيون باحتلال وادى السنغال تحت قيادة «فيدهرب Faidherbe» وأنشأوا معسكرا لهم فى « مدين Medine » سنة ١٨٥٥، غير أن الوطنيين هاجموا هذا الموقع وحاصروه طويلا الى أن استطاع فيدهرب رفع الحصار عنه ودفع الخطر المحدق به، ومع هذا فان مركز الفرنسيين لم يتوطد إلا فى سنة ١٨٨٠ حين أخذ المستعمرون ينفذون الى بلاد النيجر، فتصادموا فى المنطقة الوسطى بزعيم اسمه أحمدو وفى أعالى النيجر بزعيم آخر اسمه ساموري . أما الزعيم الأول فقد خضع بعد قتال دام من سنة ١٨٨٨ الى سنة ١٨٩٣ بينما استمر القتال مع الآخر من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٨ حين استطاع الفرنسيون القبض على ذلك الزعيم فى معسكره .

و بينما كان القتال مستعرا فى هذه الأقاليم وجهت حملة الى تمبكتو ذات الشهرة الدينية والتجارية فى غرب أفريقية، فاستولى عليها الفرنسيون فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٣؛ أما فى الجنوب أى فى منطقة داهومى، حيث كان يحكم الملك «بهانزين» الذى اشتهر بالضحايا البشرية التى كان يقدمها فى الأعياد، فقد قاتل الفرنسيون قتالا عنيفا من سنة ١٨٩٣ الى ١٨٩٤ الى أن تم استيلاؤهم على البلاد .

الصحراء الكبرى — استطاع الفرنسيون بعد ذلك أن يربطوا المستعمرات التى أنشأوها فى الشمال بالأملاك التى استولوا عليها فى غرب أفريقية، وذلك بأن وضعوا يدهم على الصحراء الكبرى، والواحات المتعددة فيها، فاحتلوا واحة بسكرة عام ١٨٤٣ وعين صلاح و واحة طواط (يناير سنة ١٩٠٠ — مارس سنة ١٩٠٢) وذلك بالرغم عن مقاومة البدويين .

الكونغو الفرنسية — وفى هذه الأثناء استولت فرنسا من غير حرب ولا قتال على هذه المنطقة الغنية (١٨٨٠ — ١٨٨٦) على يد الرحالة « سافورنيان

دى برازا Savorgnan de Brazza » الذى استطاع بذكائه ولين سياسته أن يوطد قدم الفرنسيين فيها ، ومن ثم تقدم الفرنسيون شمالا الى بحيرة تشاد ووادى نهر التشارى ، إلا أنهم تصادموا فى هذه المنطقة — كما وقع على نهر النيجر — بزعيم مسلم اسمه رباح ، فأصيبوا بالفشل فى بادئ الأمر ، ولكنهم استطاعوا فى أوائل عام ١٩٠٠ أن يمزقوا قوة هذا الزعيم بواسطة بعثات عديدة وجهت اليه من كل أنحاء أفريقية الفرنسية .

وحدة الامبراطورية الافريقية — أخذت فرنسا تعمل أخيرا لتوسيع أملاكها شطر حوض النيل ، ولكنها أجبرت فى فاشوده عام ١٨٩٩ على أن تنفض يدها من السودان الشرقى وتتخلى عن كل المواقع التى احتلتها على فروع النيل ، وفى نظير ذلك اعترف لها بالحرية التامة فى السودان الأوسط أى فى الأراضى الواقعة شرق وشمال بحيرة تشاد . على أنه كان لالتقاء الحملات التى وجهت الى « رباح » فى هذه المنطقة نتيجة سياسية عظمى ، فان اختراق المناطق الداخلة لكل من الممتلكات الافريقية الثلاث حوّل الى حقوق ثابتة ، تلك الحقوق النظرية التى اعترفت بها انجلترا وألمانيا لفرنسا .

مدغشقر — غزاها الفرنسيون عام ١٨٩٥ ، ويرجع أول عهد اتصالهم بها الى حكم لويس الثالث عشر وريشليو الذى أنشأ فى جنوب الجزيرة موقعا سمى «فورت دوفين» سنة ١٦٤٢ ؛ وفى خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر تنازعت بريطانيا وفرنسا النفوذ فى بلاط الملوك والملكات ، فلما كان عام ١٨٧٨ تفوق النفوذ البريطانى وأسىء الى الفرنسيين ؛ فوجهت على الأثر حملة حاصرت تماتاف وغيرها من الموانئ ، ولم تلبث البلاد أن وضعت تحت حماية فرنسا سنة ١٨٨٥ ، غير أن نفوذها بقى مزعزعا حتى اضطرت سنة ١٨٩٥ الى استئناف القتال ، فأوفدت قوة مؤلفة من ١٥٠٠٠ جندى ، بقيادة «دوشين Duchesne» وبعد أن فتحت لنفسها

طريقا للمرور فى تلك البلاد الوعرة ، تقدم الجنود على العاصمة ، فلم تلبث أن خضعت الملكة لسلطانهم فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٥ وأعيدت الحماية الفرنسية من جديد . ولكن فى عام ١٨٩٦ تحركت البلاد مرة أخرى بتأثير الملكة ووزرائها ، فقاتلهم الجنرال جالينى وأخمد ثورتهم ثم أعلن إلغاء الحماية وضم البلاد نهائيا الى فرنسا ، وأما الملكة فقد نفيت الى الجزائر فى فبراير سنة ١٨٩٧ .

الهند الصينية الفرنسية — بينما كانت انجلترا تعمل للاستيلاء على الهند الصينية الغربية كانت فرنسا تفتح الهند الصينية الشرقية ومملكة أنام[١]، فلم يبق مستقلا فى شبه جزيرة الهند الصينية إلا سيام .

وترجع علاقة فرنسا بمملكة «أنام» الى نهاية القرن الثامن عشر حينما قدم لويس السادس عشر عددا من الضباط والمهندسين لخدمة فيها ، ومن ذلك الحين طفقت فرنسا تعزز نفوذها هناك طمعا فى أن تنشئ فيها قاعدة بحرية لأساطيلها فى الشرق ، وأن تجد فيها منفذا لتجارتها فى الصين . فلما قتل بعض المبشرين الفرنسيين فى تلك البلاد وجد نابليون مبررا للتدخل ، وبعد قتال عنيف فى أنحاء كوشن شين لا سيما حول سيجون تم الأمر بالاستيلاء على هذه المقاطعة سنة ١٨٦٧ ، وفى هذه الأثناء قبل ملك كمبودج سنة ١٨٦٣ حماية فرنسا دفعا للخطر الذى كان يتهدده من قبل سيام .

أما فتح التونكين فقد جاء نتيجة لاستكشافات « فرنسيس جارنيه » أحد قواد البحرية الفرنسية الذى اهتدى الى بلوغ الصين الجنوبية بطريق نهر التونكن ، فلما أخذ التجار يسلكون هذا الطريق اعترضهم الأهالى ، فقاتلهم جارنيه حتى استولى على العاصمة وأخذ يمد نفوذه تدريجا على البلاد ، إلا أن الهزيمة التى أصابت فرنسا فى حرب السبعين اضطرتها الى التخلى عن دلتا النهر الى امبراطور أنام ، فلما كان عام

(١) كانت مملكة أنام تتكون منذ أوائل القرن التاسع عشر من (التونكين) فى الشمال ، ومن (أنام) نفسها فى الوسط ومن (كوشن شين) فى الجنوب ، وأما (كمبودج) فتقع شمال (كوشن شين) .

١٨٨١ استؤنفت الحرب وتم لفرنسا الاستيلاء على البلاد بأكملها . إلا أن ملك أنام استعان بامبراطور الصين، وأعاد الكرة على التونكين لكنه لم ينجح فى غرضه فعاد الى قبول الصلح فى أغسطس سنة ١٨٨٣ على أن توضع أنام تحت حماية فرنسا . أما الصين فقد استمرت فى الحرب عشر سنين، وكانت التونكين وشواطئ الصين الجنوبية مسرح القتال، ولكنها انتهت بعقد معاهدة «تين تسين» فى ٩ يونيه سنة ١٨٨٥ وبها تخلت عن التونكين، واعترفت بحماية فرنسا لأنام .

هذا مجمل تاريخ الاستعمار الفرنسى الذى اقترن بإدخال كثير من وسائط المدنية الغربية، ويلاحظ أن هذه المستعمرات تنقسم الى مناطق للاستغلال الاقتصادى فقط كبلاد الكونغو والسودان ومدغشقر والهند الصينية، ومستعمرات للمهاجرة كبلاد شمال أفريقية التى تتحول سريعا الى مناطق فرنسية بحتة .

الفصل الثالث

المستعمرات الألمانيـــة

لا ريب أن أعظم مظاهر التاريخ الألمانى بعد إتمام الاتحاد هو ازدياد عدد السكان وتقدّم البلاد الاقتصادى ، أما نصيب الألمانيين من الاستعمار فقد كان ضئيلا لا يقاس بالحالة التى بلغوها ، ولذا تذرّعوا بالمهاجرة وفتح أسواق جديدة للتاجرة فى كل أنحاء العالم .

على أن نزوح الألمانيين عن بلادهم نزوحا مطردا ، والمنافسة العظيمة التى كانت تلقاها تجارتهم فى أنحاء العالم قد حرّك الرغبة فى تأسيس مستعمرات خاصة بألمانيا على الرغم من معارضة بسمارك لسياسة التوسع الاستعمارى ، ولذا يرى أنه منذ عام ١٨٨٥ أى منذ اتفاق دول أوربة الكبرى على اقتسام أفريقية ، تخلت الحكومة عن السياسة القديمة ، وجعلت الاستعمار مبدأ من مبادئ السياسة الألمانية .

حصلت ألمانيا بهـذا الاتفاق على مستعمرة التوجو والكمرون فى خليج غانه ، ثم على مستعمرة جنوب غرب أفريقية ، ومستعمرة شرق أفريقية ، هذا فضلا عن أنها استولت فى الأقيانوسة على أراضى الامبراطور غليوم ، وهى المنطقة الواقعة شمال شرق غانا الجديدة ثم على كارولين وماريان اللتين اشترتهما من أسبانيا سنة ١٨٩٩ ، أما فى آسيا فقد حصلت على كياتشو فى شبه جزيرة شانتنج الصينية . وهـذه الأراضى — اذا استثنينا الأخيرة منها — لا توازى شيئا مما حصلت عليـه انجلترا وفرنسا فى هـذا القرن ، ولا تصلح للمهاجرة التى كان يبتغيها الألمانيون من التوسع الخارجى ، ومن ثم اتخـذت مسألة الاستعمار أهمية خاصـة فى ألمانيا وشغلت حيزا

كبيرا فى سياستها ، وليس أدل على هذا الحال من تشبث ألمانيا بمراكش عام ١٩١١ ، وتنفيذ مشروع مد السكة الحديدية التى تصل القسطنطينية ببغداد . على أن أكبر مظهر لرغبة التوسع التى كانت الشغل الشاغل لألمانيا نشوء فكرة الجامعة الألمانية التى تتضمن إنشاء اتحاد تجارى يشمل البلاد الألمانية الواقعة بين بحر الشمال والبحر الأبيض على أمل أن يتحوّل هـذا الاتحاد التجارى الى اتحاد سياسى . وهذه الفكرة التى كان يعززها أنبغ رجال ألمانيا ، كانت تنطوى على مطامع وآمال لا حدّ لها ، ولذا حركت فى كل أنحاء العالم شعورا بظهور خطر داهم يتهدّد السلام العام .

———

الباب الثامن

تقدم الزراعة والصناعة والتجارة فى القرن التاسع عشر

الفصل الأول

الزراعـــة

لعل تقدّم العالم الاقتصادى فى القرن التاسع عشر يفوق فى أهميته تقدّمه السياسى . ولا عجب فكثيرا ما كان التقدّم السياسى فى هذا القرن يقوم على أساس الرقى الاقتصادى .

ولقد كانت انجلترا أسبق الأمم الى الأخذ بأسباب هذا الرقى لأسباب خاصة بها أهمها :

(أولا) انحلال النظام الاقطاعى فيها قبل غيرها من الأمم وظهور طبقة كبيرة من الأيدى العاملة .

(ثانيا) تكدس الثروة فيها على أثر اتساع نطاق التجارة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

(ثالثا) سبقها أمم أوربا الى استنباط المخترعات التى زادت الانتاج الزراعى والصناعى .

(رابعا) بعدها عن مسارح الحروب التى استعرت فى أوربة جيلا بعد جيل فنمت ثروتها بينما كانت جاراتها تستنفد مواردها فى الحروب .

انجلترا والتقدم الزراعى — أخذ عدد السكان فى انجلترا يزداد ازديادا مطردا منذ منتصف القرن الثامن عشر تبعا لازدياد حركة الصناعة فيها، فى حين أن عددا كبيرا من المشتغلين بالزراعة هجروها الى دور الصناعة . فاتجهت الأنظار حينئذ الى ترقية شأن الزراعة حتى تسد حاجات البلاد ولا سيما المدن الصناعية الجديدة . ولما نشبت حروب نابليون اضطرت انجلترا فوق ذلك الى الاعتماد على محصولات بلادها، فعمل الباحثون والمفكرون على استنباط أنجع الوسائل لتحقيق هذا الغرض . وكان أهم ما أدخل من وجوه التحسين ، هو تعهد الأرض بالتسميد ، والعناية بالحراثة، وطرق صرف المياه، والاستعانة على ازدياد خصوبة الأرض بزراعة البقول والجذور بدل تركها بورا شهورا طويلة ، هذا فضلا عن اتباع نظام جديد للدورة الزراعية يحفظ قوة الأرض ، ويصون قدرتها على الانتاج . ولقد تعدت العناية بالأراضى الى العناية بتربية المواشى، لأن الطبقات الجديدة من الصناع كانت تتطلب غذاء من اللحوم تستعين به على تأدية أعمالها الشاقة، ولا ريب أن الزراعة الشتوية الحديثة أى زراعة البقول الخ ساعدت على تغذية المواشى إبان فصل الشتاء، فازدادت عددا وزنة عما كانت عليه من قبل .

النظام الزراعى — ومن البديهى أنه ما كان فى الاستطاعة تعميم هذه التحسينات فى البلاد مع بقاء نظامها الزراعى على ما كان عليه . فلقد كانت أراضى القرية الواحدة تقسم عادة الى ثلاثة أقسام يترك أحدها بورا، ويزرع القسمان الباقيان بالتضامن بين الأهالى على أسلوب اعتادوه من قديم الزمان، ولذا تعذر الأمر على من كان يرغب من الأهالى فى تحسين أرضه بالطرق الحديثة ، نظرا لاشتباك المصالح وارتباط الأعمال بعضها ببعض . فاتجهت الأنظار الى القضاء على هذا النظام الذى يحرم البلاد من استثمار الأراضى بالطرق الحديثة، وتطلع الناس الى تقسيم الأراضى الى مزارع مستقلة يحيط كلا منها سياج حتى يكون المزارع مطلق اليد فى اتخاذ ما يراه من الوسائل التى تكفل انتفاعه بمميزات النظام الحديث . على أن تقسيم الأرض واحاطتها

بالأسوجة على هذه الصورة كان يقتضى اتفاق أهل القرية عامة — وهذا لم يقع إلا نادرا — أو اتفاق أربعة أخماسهم على الأقل، وهـذا اقتضى إصدار قرار برلمانى يسوغ هذا التغيير. غير أنه يلاحظ أن الأمر لم يقتصر على تسوير الأراضى الزراعية، بل تعداها الى مراعى الأغنام والأراضى البور أيضا، نظرا لحاجة البلاد الى زيادة محصولاتها كما بينا من قبل. ولكنّ تقسيم الأراضى الى مزارع مستقلة على الوجه السالف، كان يقتضى نفقات كبيرة لعمل الأسوجة، فى حين أن المزارع الصغير قد حرم من الانتفاع بمراعى الأغنام، ومن حطب الوقود الذى كان يجمعه من الأراضى البور، كما أنه فقد فوق ذلك مورد رزق كبير ألا وهو الغزل والنسيج فى أوقات فراغه (فان الآلات الميكانيكية كانت قد بدأت حينئذ تحل محل اليد العاملة فى الصناعة) هذا الى أنه لم يستطع أن يجارى أصحاب الأراضى الواسعة فى استخدام كل المخترعات الزراعية الحديثة التى تساعد على تقليل نفقات الانتاج وزيادة المحصول، ولم يقدر أن يتحمل تقلبات الأسعار التى تعرضت لها البلاد حينئذ، ولا أن يقبض يده عن البيع حتى تتم له صفقة رابحة، فاضطر من أجل هـذا كله أن يبيع أرضه ويترح الى دور الصناعة فى الشمال أو يعمل فى مزرعة كبيرة نظير أجر معين. وبهذا انقرضت الملكيات الصغيرة فى انجلترا نهائيا منذ ذلك العهد.

النتـائج — كان من أكبر نتـائج التقدم الزراعى الخطير أن استطاعت البـلاد سدّ حاجاتها فى أوقات الحروب العصيبة التى مرت بهـا، ولو أن خروج المزارعين الصغار من أراضيهم، ونزوحهم عن ديارهم، كان محفوفا بمتاعب عظيمة لم يبررها إلا خلاص البلاد من الأزمات التى كانت تحيط بها.

على أنه من الخطأ أن يقال إن التقـدم العظيم الذى شاهدته انجلترا فى زراعتها فى بداية القرن قد استمر طويلا، فلقد نشأت عوامل عديدة عاقت هذا التقدم، أهمها:

(أولا) اتجاه البلاد بكلياتها الى الصناعة نظرا لربحها الطائل.

(ثانيا) زوال العقبات الناشئة عن حروب نابليون فيما يتعلق باستيراد الأغذية من الخارج .

(ثالثا) إلغاء حماية زراعة الحبوب فى انجلترا عام ١٨٤٦ تبعا لمبادئ الحرية الاقتصادية الجديدة ، فأصبحت الأراضى ولا قبل لها بمزاحمة الأثمان الخارجية [1] ، ولا سيما بعد أن زرعت المساحات الواسعة فى كندا واستراليا والولايات المتحدة ، فاهملت زراعة جزء عظيم من الأراضى فى انجلترا وحوّل جزء آخر الى مراع للأغنام .

لذلك نرى أن انجلترا لم تنتج سوى ثلاثة أرباع الغلال المطلوبة لها بين سنة ١٨٥٣ وسنة ١٨٦٠ ولم تنتج إلا ثلث المطلوب فقط بين سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٦ وليس هذا العجز إلا نتيجة نقص مساحة الحبوب بمقدار مليونين من الأفدنة بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٨٩ ، ومليون ونصف تقريبا بين سنة ١٨٨٥ وسنة ١٩١١ وهذه الأراضى لم تحول الى زراعة محصولات جديدة ، ولم تستخدم فى تربية الماشية (بدليل نقص عدد الأغنام والأبقار نقصا مطردا) بل حولت الى أراض للصيد أو مراع للماشية . وهكذا نرى أن عدد المشتغلين بالزراعة فى انجلترا الآن لا يزيدون عن ١,٥٠٠,٠٠٠ بينما يوجد ١٦ مليونا من أصحاب المهن والحرف غير المنتجة .

التقدم الزراعى خارج انجلترا — بينما نرى الأراضى الزراعية فى انجلترا تبلغ ثلثى المساحة العامة ، لا نرى المحصول يكفى إلا ١٢٥ شخصا من بين ٤٦٦ من سكان الميل الواحد . ومع أن نسبة الأراضى الزراعية فى فرنسا الى المساحة العامة تعادل نسبة انجلترا ، فلا تستورد هذه البلاد إلا العشر من حاجاتها الغذائية إذ نراها تنتج ما يكفى ١٨٠ من بين ١٨٨ من سكان الميل الواحد ، هذا فضلا عما تصدره من الخضروات والفواكه مما يقدر بعشرة ملايين جنيها سنويا . أما الباجيك

(١) بلغ ثمن ما استهلكته انجلترا من الحبوب سنة ١٨١٥ (أى قبل اتباع سياسة حرية التجارة) نحو ٥٣ مليونا من الجنيهات فصارفى سنة ١٨٨٨ نحو ٤٣ مليونا فقط مع أن عدد السكان زاد زيادة محسوسة .

فتنتج أكثر من ثلثى حاجتها مع أن السكان يبلغون ٦٠٠ فى الميل الواحد ، هذا فضلا عن أن صادراتها الزراعية تقدر بنحو ثلاثة ملايين . وفى الدنيمرك ، تكفى المحاصيل حاجة السكان تقريبا مع تصدير ما يبلغ قيمته ١٥ مليونا . وكذلك الحال فى لمبارديا . أما فى ألمانيا حيث يعظم الاهتمام بزراعة الحبوب والبنجر والتبغ ، فقد أخذت البلاد فى الرقى السريع بعد إتمام الوحدة حتى زادت مساحة الأراضى المنزرعة من ٢٣ مليونا من الأفدنة سنة ١٨١٦ الى ٤٤ مليونا سنة ١٨٨٧ بينما نرى قوة إنتاج الأراضى آخذة فى الازدياد عاما فعاما . وليس هذا الرقى الذى يشاهد فى كثير من ممالك أوربة إلا نتيجة استخدام الطرق العلمية الحديثة فى الزراعة ، وإنشاء النقابات الزراعية التى استخدمت قوة المجموع لمصلحة الفرد، حتى استطاعت البلاد أن تتغلب على مزاحمة العالم الجديد لا سيما أمريكا .

على أن مزاحمة أمريكا ليست فى الحقيقة ناشئة عن خصوبة عديمة النظير، ولا هى نتيجة زرع مساحات واسعة من الحبوب صفقة واحدة، وإنما هى نتيجة مشترى الأراضى بأثمان غير مرتفعة، وتنظيم الإنتاج والتصريف والتعاون بين المزارعين، واستخدام الوسائل العلمية استخداما متزايدا، وعناية الحكومة بتحسين الإنتاج، حتى أصبح ما تنتجه الأراضى الآن نحو أربعة آلاف مليون بشل من القمح ، على حين أنها كانت لا تنتج ألف مليون فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

وتعتبر الحبوب والتبغ والقطن أهم الحاصلات، وقد ازدادت المساحة المنزرعة من القطن بعد اختراع «هوتنى» الذى سهل استخدام الخيوط القصيرة فى النسيج حتى أربى المحصول الآن على خمسة عشر مليون بالة . وقد كانت البلاد تصدر نحو ثلث محصولها ، ولكنها بدأت الآن تستهلك المحصول بأكمله فى مصانعها، ومن ثم بدأت الدول الأربية لا سيما انجلترا تعتمد على موارد جديدة فى السودان والعراق، فضلا عن مصر والهند .

الفصل الثانى

التقدم الصناعى والتجارى

التقدّم الصناعى فى انجلترا — كانت الصناعة فى بادئ الأمر عاملا ثانويا فى حياة البلاد الاقتصادية، وكانت تعتمد على الأيدى العاملة فى منازل المزارعين، ولا تباع المصنوعات إلا لأهل القرى المجاورة، ثم أخذ المزارعون يؤدّون العمل فى منازلهم لحساب التجار مقابل أجر معين. وتدرّجت الحالة فى أوائل القرن الثامن عشر، حين أخذ العمال يجتمعون فى مكان واحد، نظير أجر يتقاضونه، ويتولى صاحب المصنع تصريف ما ينتجونه من الأصناف. وفى أواخر هذا القرن بدأت المخترعات تظهر تدريجا، فتغيرت طريقة العمل ونظامه كما سنرى بعد.

ظهور المخترعات — فى سنة ١٧٦٤ ظهر الجهاز الذى اخترعه «هرجريفز» وبه استطاع الغزال أن يدير عدّة أنوال فى وقت واحد، ثم جاء اختراع «أركريت» الذى جعل الغزل دقيقا ومتينا مع استخدام قوة الماء فى إدارته. وأخيرا جمع «كرمبتن» بين الاختراعين المتقدّمين. وهكذا اجتمعت سرعة العمل الى دقة الصناعة ومتانتها. فأنشئت مصانع عديدة على هذا الطراز قريبا من مجارى المياه العديدة فى يوركشير ولانكشير.

أما النسيج، فقد بقى على حالته الأولى من التأخر الى أن ظهر اختراع «كارتريت» سنة ١٧٩١ فضاعف عمل النساجين، خصوصا وقد استخدمت قوّة المياه فى الإدارة أيضا، فعاد التوازن بين الغزل والنسيج، وجنت البلاد من وراء ذلك فائدة عظمى. ولقد تلت هذه الاختراعات اختراعات أخرى عديدة ترمى الى استخدام الآلات فى كل ما كان يعمل باليد، نذكر منها اختراع «بل Bel» لطبع رسوم الأقمشة، فزاد بذلك مقدار إنتاج المنسوجات زيادة محسوسة مع نقص متناسب فى أثمانها.

استخدام البخار — على أن صناعة المنسوجات لم تصل الى درجة كبيرة من الرقى فى الحقيقة إلا بعد استخدام قوة البخار فى إدارة الآلات ، ومن الخطأ أن يعتبر «وات» أول مخترع لها ، فان الرجل قد واصل الجهاد فقط فى تحسين اختراعات من تقدمه أمثال «نيوكومن» و «سميتون» حتى أصبحت الآلات البخارية بعد جهاده سهلة العمل قليلة النفقات . ولقد بدئ باستعمال البخار فى صناعة القطن فى أواخر القرن الثامن عشر ثم استخدم بعد فى صناعة الصوف فالتيل الخ .



وات

الآلات — ولا ريب أن هذا الاختراع كان من شأنه ترقية صناعة التعدين لما يتطلبه من الآلات التى تستطيع المقاومة زمنا طويلا ، فاستخدم الفحم لصهر الحديد والصلب فى مراجل أعدت لهذا الغرض ، ثم اخترع «بسمر» طريقة لتحويل الحديد الى صلب بنفقات قليلة ، فازدادت كمية الصلب وقلت أثمانه ، مما وفر على أصحاب المصانع مالا كثيرا . وتتابعت بعد ذلك الاختراعات فى هذه الصناعة كما تتابعت فى صناعة المنسوجات فتضاعفت ثروة البلاد من جراء ذلك .

الفحم — ولا شك أن تقدم صناعة الحديد كان يستدعى ابتكار طرق جديدة لاستخراج الفحم اللازم لصهره و إدارة الآلات المصنوعة منه، وقد ابتكرت عدة طرق فى مدة وجيزة زاد بها مقدار ما يستخرج من الفحم فى منتصف القرن التاسع عشر الى خمسة أضعاف ما كان عليه فى أوائل القرن، واطردت الزيادة حتى بلغت عشرين ضعفا فى نهاية القرن .

على ان تأثير البخار لم يتناول الصناعات المتقدمة فحسب، بل تعداها الى كل صناعة أخرى تقريبا . فهناك صناعة الطباعة والورق التى نشطت الحركة الفكرية نشاطا مدهشا وصناعة الغاز والمواد الملونة والمواد الكيماوية والعطرية وصناعة السكر والكبريت وغيرها مما يقترن بالحياة اليومية، فكلها تأثرت بوسائل الصناعة الجديدة فضلا عن تأثر المواصلات لدرجة عظمى كما سنبينه فى موضعه .

تنظيم الصناعة — ولعل أهم ما امتاز به التقدم الصناعى الحديث ارتباطه بالعلوم ومباحث العلماء حتى أصبحت الصلة بين الاثنين متينة قوية . ثم إن الآلات التى استخدمت تدريجا فى كل ما كانت تؤديه الأيدى استدعت إنشاء الفاوريقات الضخمة مكان المصانع الصغرى حتى توفر مزايا الاقتصاد ورخص الأثمان . ويلاحظ أن هذه المصانع قد تجمعت حول مصادر الفحم والحديد والموانى التى تستورد المواد الأولية للصناعة، وأنها لا تقتصر على تأدية صناعاتها الخاصة لها بل كل ما يلحق بهذه الصناعة من المواد الثانوية . و يعتبر الانتاج بالجملة والتخصص فى عمل من الأعمال من أهم ظواهر الصناعة الحديثة . وهذا التخصص مضافا الى استخدام الآلات والاستكشافات العلمية فى الصناعة واقترابها من مصادر الوقود والمواد الأولية يعد من أكبر أسباب هبوط الأسعار .

على أن بناء المصانع ومشترى الآلات والمواد الأولية ودفع أجور العمال والمهندسين اقتضى الحصول على رأس مال كبير لا يتاح عادة لفرد واحد ، فتأسست الشركات

المساهمة للقيام بهذه الأعمال نظير الحصول على فائدة سنوية وجعل الخسارة متناسبة مع المبلغ المشترك به . ومما سهل الأعمال الصناعية دوام الارتباط بينها وبين البنوك المختصة بتسليف الصناعات وتقديم المال اللازم لمشترى الآلات والأدوات الخ حتى استطاع الصانع أن يبيع التاجر بالنسيئة لمدة ستة أو سبعة شهور يستطيع فيها تصريف بضاعته، وهذا أدى الى تنشيط الصناعة والتجارة تنشيطا عظيما .

نتائج التقدم الصناعى — (أولا) اقترن هذا التقدم فى مبدأ الأمر بضيق وشدة لا مثيل لها فى تاريخ البلاد الاقتصادى . وكثيرا ما أدى ذلك الى تحطيم الآلات وهدم المعامل ، وهذا أمر يعزى فى الغالب الى مهاجرة الصناعة الحديثة من الجنوب الى الشمال حيث توجد المواد الأولية بعضها بجانب بعض ، وذلك فى وقت كانت فيه المواصلات غير كافية، فلم يستطع السكان أن يتبعوا هجرة الصناعة على عجل .

وأما القول بأن الآلات الحديثة سببت الاقتصاد فى العمال فذلك ما لا يقوم عليه دليل، لأن الآلات من شأنها تخفيض نفقات الانتاج ونقص الأثمان، وهذا يدعو الى اتساع نطاق التجارة واستخدام كل الأيدى العاملة . ولكن يلاحظ أن أصحاب المعامل اعتمدوا كثيرا على النساء والأطفال فى إدارة الآلات، هذا الى أن التجارة التى انتعشت فى فاتحة القرن، أى فى عهد حروب نابليون، كسدت كثيرا وقل طلبها بعد عودة السلام الى أوربة، ورجوع الأعمال السلمية الى نشاطها الطبيعى . ولكن هذه المصاعب لم تلبث أن زالت تدريجا بتقدم المواصلات وانتعاش الحركة التجارية فى العالم .

أما الطبقة التى أضر بها التقدم حقيقة فهى طبقة الغزالين والنساجين وغيرهم من المنقطعين لحرفة خاصة، فقد انتزعت منهم أعمالهم فى وقت تضاعفت فيه الضرائب، وارتفعت أسعار المعيشة ، وانقطع عنهم مورد رزقهم الزراعى . ولكن

هذا الضرر الذى لحق طبقة خاصة، لا يذكر الى جانب ما عاد على الشعب عامة من الفوائد . فقد استخدمت المصانع عددا كبيرا من الناس ، ورخصت المصنوعات ؛ وازدادت الثروة الأهلية ، وارتقت الحياة المادية .

(ثانيا) كان من نتيجة تقدم الصناعة واتساع نطاق التجارة فى انجلترا أن أصبحت الحاجة ماسة إلى إصلاح طرق المواصلات بعد أن أهملت زمنا تعذر فيه النقل والسير، فمن سنة ١٧٦٠ الى سنة ١٧٧٤ أصدرت الحكومة ما لا يقل عن ٤٥٢ قرارا باصلاح الطرق فى طول البلاد وعرضها، وكان «لتلفورد» و «مكدام» الفضل الأعظم فى إصلاحها على نظام علمى هندسى . وكما أن الأنظار اتجهت الى إصلاح الطرق، فكذلك اتجهت الى إصلاح الترع ، فأنشأ المهندس «برندلى» مالا يقل عن ٣٥٠ ميلا منها، أخصها ترعة «بردجواتر» التى تصل ورسلى بمنشستر، ويمتد منها فرع الى رنكورد. و «جراند ترنك» التى تصل رنكورد بالهمبر وتربط برمنجهام ومقاطعة ستافورد بشمال وشرق وجنوب انجلترا . ومن سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٨٠٠ تضاعفت الرغبة فى مد الطرق وحفر الترع ، فأنشئت مئات جديدة من الأميال ، واطردت الزيادة منذ ذلك الحين .

على أن الأمر لم يقف عند حد إنشاء الطرق والترع بل تعداه الى العناية بالملاحة الشاطئية وترقية النقل البحرى والبرى على أثر استخدام البخار فيه . وقد كان أكبر عامل فى نجاح السكك الحديدية المهندس «ستيفنسن» الذى شيد أول سكة حديدية بين لفربول ومنشستر سنة ١٨٣٠ فلما اطرد التقدم فى صناعة التعدين والهندسة العملية أنشئت الكبارى العظيمة فوق متسع الأنهار وشيدت النفق الطويلة فى جوف البلاد وهذا أدى الى امتداد السكك الحديدية فى أنحاء المملكة فى وقت قصير مع زيادة فى السرعة ووسائل الراحة التى نشطت الحركة التجارية نشاطا ظاهرا كما نشطت الحركة السياسية .

هذا وقد نشأ عن ترقية السكك الحديدية ترقية المواصلات البريدية فأصبحت سريعة ودقيقة مع قلة فى الأجور . ولما كشفت الكهرباء واستخدمت تدريجيا فى الصناعة والنقل والاضاءة استخدمت كذلك فى تسهيل المواصلات بواسطة التلغراف والتليفون فارتبطت أجراء البلاد ارتباطا وثيقا وازدادت الحياة نشاطا من كل الوجوه .

(ثالثا) كان من آثار الرقى الصناعى ان ازدادت كمية التجارة إزديادا مطردا[1] حتى أن انجلترا التى كان يخشى أن تحط منزلتها وتضعف قوتها بعد أن فقدت مستعمراتها الأمريكية، أصبحت بفضل صناعاتها الجديدة أقوى بأسا وأشد سطوة، ولكنها ما كانت تصل الى هذه القوة لولا اتباعها الطرق الآتية :

(ا) اتبعت سياسة حرية التجارة التى فتحت لتجارتها أبواب العالم ولا سيما أمريكا التى انسلخت عنها سياسيا ، ولكنها أبقت على علاقاتها الاقتصادية معها ، فأخذت انجلترا ترسل اليها مصنوعاتها فى مقابل استيراد المواد الخام مثل القطن وغيره، ولا سيما بعد ان اخترع «هوتنى» جهازا سهل به استعمال الأقطان ذات الخيوط القصيرة .

(ب) عنيت البلاد بوسائل الاعلان والنشر فضلا عن إرسال عمال مزودين بالعينات فى كل الأنحاء، وتخصيص وكلاء فى كل جهات العالم لعرض البضائع والتوصية بالحاجيات المحلية . ومن جهة أخرى عينت الحكومة فى المراكز التجارية الهامة فى الخارج قناصل لترويج صناعة البلاد وتقديم كافة المعلومات عنها والدفاع عن مصالحها ، هذا فضلا عن إقامة المعارض الصناعية التى من شأنها أن تفتح لتجارتها منافذ وأسواق جديدة . ولا ريب أن نظام البورصات سهل الاستعلام عن حالة العرض والطلب فى أنحاء العالم ،وجعل الأعمال التجارية تسير على أساس ثابت .

---

(١) كانت تجارة انجلترا تقدر فى سنة ١٨١٥ بما لا يزيد عن ٩٠ مليون جنيه فأصبحت تقدر فى سنة ١٩١٣ بنحو ١٫٤٠٣٫٥٥٥٫٠٦٥ جنيه .

(ج) ضمت انجلترا فى هذا القرن مستعمرات وأراضى جديدة راجت فيها مصنوعاتها رواجا عظيما، واستوردت منها فى مقابل ذلك الخامات والمواد الغذائية. فكندا ومستعمرة الرأس وجزر الهند الغربية والهند واستراليا الخ فتحت لانجلترا أسواقا ومتاجر عديدة أصبحت بها أول دول العالم ثروة وجاها وقوة. وما زالت تجدّ فى هذه السياسة الاستعمارية كما تجدّ فى فتح منافذ جديدة للتجارة، فأضيف الى التنافس السياسى بينها وبين دول أوربة تنافس اقتصادى شديد الخطورة.

(رابعا) زاد عدد السكان فى انجلترا، على أثر هذا التقدم، ازديادا خطيرا[1] لا سيما فى الأقاليم الصناعية حيث تكثر المهاجرة، ويزداد النسل ازديادا مطردا بطبيعة الحالة الاجتماعية التى ظهرت حينئذ وارتقاء الحياة المادية الناشئة من توفر المكاسب. ويلاحظ أنه كان يصحب هذه الزيادة نزوح كثير من أهالى المناطق الزراعية الجنوبية الى المناطق الصناعية الشمالية، فبينما كانت جلوستر ونورثامبتون وسومرست فى طليعة المقاطعات فى بداية القرن الثامن عشر، نرى لانكشير والوست ريدينج قد حلت محلها فى آخره، وبينما كانت نوريش ويورك واكستر أكبر المدن، إذ نرى لفربول ومنشستر وشفيلد ونيوكاسل قد أصبحت مراكز الحركة وازدحام السكان فيما بعد. على أن هناك من الدلائل ما يشير الى أن تجمع الصناعات فى الشمال قد أخذ فى النقص، على أثر ازدياد طرق المواصلات واستخدام الكهرباء والبترول بدل الفحم، فلا يمضى زمن طويل حتى تنتقل المصانع الى كافة أنحاء البلاد ويعاد توزيع السكان توزيعا متعادلا.

(خامسا) لعل أكبر النتائج التى شاهدتها انجلترا لهذا التقدم ظهور طبقات جديدة لم يعرفها المجتمع من قبل، فقد كانت الزراعة فى بادئ الأمر أكبر مورد للثروة، ومن ثم كان نظام الحكومة قائما على حكم المزارعين وأصحاب الضياع، غير

(١) بلغ سكان انجلترا وحدها سنة ١٨٠١ نحو ٩ مليون وفى سنة ١٨٧١ نحو ٢٣ مليون وفى سنة ١٩٢١ نحو ٣٨ مليون نسمة.

أن التغيير الصناعى أدى الى ظهور طبقة جديدة من المموّلين الذين تولوا تشييد المصانع ومشترى الآلات والمواد الخام واستخدام العمال ومراقبة الانتاج والتصريف ، وسرعان ما ظهر تضارب فى المصالح بين هذه الطبقة وأهل الطبقة المتقدّمة ، مثال ذلك : كان المزارعون يرغبون دواما فى حماية محصولاتهم و رفع أثمانها بتقرير ضرائب باهظة على المحصولات الخارجية ، بينما كان المموّلون يرغبون فى فتح الأبواب للحاصيل الخارجية حتى تقل أثمان مواد الغذاء والمواد الخام اللازمة للصناعة فتقل معها نفقات الانتاج وأجور العمال ، ولما لم يكن للمموّلين من سبيل لحماية مصالحهم غير تغيير النظام النيابى ، فقد حاولوا ذلك محاولة عنيفة حتى انتهى الأمر بإصدار قانون الاصلاح عام ١٨٣٢ يخوّل لهم حق الاشتراك فى إدارة شئون البلاد .

على أن طبقة أصحاب الأعمال لم تكن هى وحدها التى ولدها هذا التقدم ، فقد نشأت الى جانبها طبقة العمال ذات المصالح الخاصة بها . وقد حاولت هذه الطبقة كما حاولت الطبقة المتقدمة أن تمد اليها ميزة الاشتراك فى حكم البلاد ، غير أن هذا الحق لم يخوّل للصناع إلا سنة ١٨٦٧ والمزارعين سنة ١٨٨٤ ، ولا ريب أن العمال ما كانوا يطيقون الصبر هذا الأجل الطويل لولا أن حكومة البلاد تدخلت بدافع الانسانية والرحمة فى شئون أصحاب الأعمال ، وسنت قوانين عديدة لحماية مصالح العمال . على أن العمال أنشأوا من جهتهم نقابات للدفاع عن مصالحهم ، وما زالوا يعتمدون على هذا السلاح حتى الآن ، نظرا لعدم اشتداد ساعدهم فى المجالس النيابية حتى يستطيعوا الاستعاضة «بالعمل التشريعى» عن «العمل المباشر» أى مناهضة أصحاب الأعمال بالقوة [1] .

(سادسا) يشاهد هذا العهد الحديدى الجديد فيما يشاهد يقظة فكرية مدهشة ترجع بلا ريب الى البيئة الجديدة التى وجدت ، والاختلاط العظيم الذى نشأ فى المدن الصناعية الآهلة بالسكان ، هذا الى تقدم طرق المواصلات وتعدد وسائلها . ولعل

---

(١) راجع الفصل السياسى (تاريخ انجلترا) .

أكبر مظاهر هذه النهضة، ذلك التطوّر الغريب الذى نشاهده فى ميدان السياسة والدين والأدب والعلم والاقتصاد . أما فى السياسة فترى الرغبة ظاهرة فى تطبيق المبادئ الدستورية الى أقصى معناها ، فلم يكتفى بتمثيل كل طبقات الرجال تمثيلا حقيقيا حتى تعدّى الأمر الى تمثيل النساء، وها نحن نراهم يعملون أيضا على تغيير نظام مجلس اللوردات حتى يكون الانتخاب لا الارث هو قاعدة العضوية . أما فى الدين فقد أصبح التسامح أساس المعاملات بين طبقات الشعب . وفى عالم الاقتصاد لا نرى النظريات تقف عند حدّ، فمن رغبة فى تناسب الأجر مع الأرباح الى رغبة فى إدارة الأعمال بواسطة العمال حتى توزع أرباح المصانع على الذين يعملون فيها، الى رغبة فى شيوع ملكية موارد الثروة كما هى رغبة اليوم ، على أن النهضة العلمية والأدبية تكاد تكون أرفع مظاهر هذا العهد . فالصحافة أصبحت قوة هائلة لارشاد البلاد . والتمثيل، والكتابة فى كل فن خطت خطوات سريعة للأمام والعلوم بكامل أنواعها تطرد فى التقدم والتحسين ، ولو استقصينا أسباب هذا الرقى السريع لوجدناه يرجع الى تلك اليقظة التى أشرنا اليها ، والى ازدياد الثروة الأهلية ازديادا يستطيع معه عدد كبير من أصحاب الأقلام أن ينقطعوا لخدمة العلم والأدب .

(سابعا) أوجدت الحياة الصناعية الجديدة واجبات عديدة للحكومة، فقد كانت الشئون الصحية والمساكن والعناية بالأطفال والفقراء والمسنين وأصحاب العاهات ومسائل التعليم كلها متروكة فى العهد القديم الى عناية رؤساء القرى ورجال الدين . والآن وقد انحل النظام القروى القديم ، وتضاعفت الحاجة لهذه الاصلاحات ، لم تعد ثمة مندوحة للحكومة من أن تتولى هذه الواجبات، لا سيما واجب التعليم، فان الديموقراطية والتعليم يسيران يدا بيد ، وليس من المصادفات مطلقا أن يكون الوقت الذى منح فيه الأهالى فى أوربة حق الاشتراك فى حكم البلاد هو الوقت الذى تقرّر فيه التعليم الاجبارى . على أن التعليم لا يقتصر على إنارة الأهالى فيما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم السياسية، بل يزيد فوق ذلك كفاءتهم الصناعية، ومقدرتهم على تنمية موارد الثروة .

(ثامنا) من أعظم مظاهر التقدم الصناعى تغير الآراء الاقتصادية التى كانت تتبعها انجلترا وباقى دول العالم . فقد استعرض «آدم سمث» فى كتابه (ثروة الأمم) كافة النظريات الاقتصادية القديمة عن وسائل الإنتاج وتصريف المصنوعات وتناولها بالنقد الشديد ثم انتهى بإذاعة مبدأ جديد ألا وهو مبدأ الحرية ولا سيما فى التجارة ، فقد رأى أن لكل بلد ميزة خاصة تمكنها من إنتاج أصناف معينة بنفقات لا تجاريها فيها أمة أخرى . فاذا وجهت كل أمة عنايتها الى انتاج وتحسين ما تمتاز به ، واتبعت سياسة تبادل هذه الأصناف على قاعدة الحرية التامة ، عاد ذلك بالمنافع العظيمة عليها جميعا . وقد اتخذت انجلترا هذا المبدأ أساسا لسياستها التجارية فى القرن التاسع عشر ، فكانت همة سواسها مقصورة على هدم ما بنته الأجيال الماضية من الأسوار والمعاقل لدفع الخطر الاقتصادى الأجنبى عن موارد البلاد . فألغت تدريجا قوانين الملاحة وضرائب المنسوجات ثم قوانين الغلال ، بعد أن احتدم وطيس الجدل بشأنها سنوات طويلة . ذلك أن الحكومة كانت قد سنت فى أوائل القرن ضرائب باهظة على ما يرد من الحبوب الخارجية حتى تبقى أثمان المحصول الداخلى مرتفعة لمصلحة أصحاب الأراضى ، فنشأ عن ذلك ارتفاع الأثمان الى حد لا يطاق فى سنوات عجز المحصول ، فى حين أنه كان فى الاستطاعة تخفيفها اذا ألغيت ضرائب الواردات ، وهكذا بقيت الأمة تحمل المتاعب الكبيرة لمصلحة طبقة واحدة الى أن قام رجال أمثال «رتشرد كبدن» وشنوا غارة شعواء على هذه السياسة الخرقاء . فلما حدث أن اشتدت الأزمة بين سنتى ١٨٤١ و١٨٤٦ من جراء عجز محصول الحبوب والبطاطس ، اضطرت الحكومة بزعامة «بيل» أن تخضع للظروف وتلغى الضرائب التى قيدت واردات الحبوب ، ويعد نجاح «كبدن» أعظم انتصار لسياسة حرية التجارة .

التقدم الصناعى خارج انجلترا — سبقت انجلترا أمم العالم فى ميدان الصناعة فأثرت إثراء مدهشا ، غير أن تلك الأمم التى مزقتها الحروب والثورات عهدا

طويلا ، أخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر تولى وجهها شطر هذا المورد العظيم ، فما لبثت أن طاردت الصناعة الانجليزية من أسواقها الداخلية ونازعتها فى الأسواق الخارجية . ففرنسا استخدمت كل المخترعات والآلات الحديثة لا سيما فى صناعة المنسوجات حتى أصبحت تصدر منها الآن ما يبلغ نصف صادرات انجلترا . وألمانيا التى لم يكن لها صناعة تذكر قبل الاتحاد ، أخذت تطهر بلادها تدريجا من الصناعة الأجنبية ، وتزاحم انجلترا فى صناعة المنسوجات القطنية والصوفية ، وصناعة المواد الكيمائية ، والأجهزة العلمية ، وكذلك صناعة الحديد والأدوات الميكانيكية . ولا يقوم هذا التفوق على رخص أجور العمال كما يذهب بعض الكتاب ، بل على انتشار التعليم الصناعى والفنى بين الطبقات ، وارتقاء العلوم واستخدام أرقى أنواع الآلات ، والقدرة المدهشة على تنظيم الإنتاج والتصريف . وقد أخذت الامبراطورية النمساوية أيضا فى إعتاق نفسها من سيطرة بريطانيا وألمانيا حتى أدى الأمر الى زعزعة التحالف الثلاثى نظرا للضرائب التى فرضتها على الواردات الألمانية ، بل إن هذا النزاع ظهر بين الولايات النمساوية نفسها أى بين النمسا والمجر وبوهيميا . أما ايطاليا التى لم تكن لها صناعة تذكر سنة ١٨٥٩ فقد ظهرت فى معرض تورين سنة ١٨٨٤ أمة صناعية عظيمة ، وهذا يدل على أن ايطاليا ترغب فى التخلص من القيود الاقتصادية كما تخلصت من القيود السياسية ، وليست الزيادة المطردة فى واردات المواد الخام كالفحم والحديد والأقطان إلا دليلا على رغبة ايطاليا فى أن تكون أمة صناعية مستقلة بذاتها ، وهذا مثل محسوس على أن بلادا خالية من الوقود والمعادن تستطيع أن تكون ذات صناعة حديدية هامة . وهذا هو حال الروسيا التى قل أن تقترن فى الذهن بغير الزراعة فقد أصبحت أيضا مملكة صناعية من الطراز الأول ، فقد قلت وارداتها المصنوعة منذ سنة ١٨٧٠ بحيث أصبحت لا تبلغ خمس الواردات ، والباقى مواد أولية أو مواد غذائية . وليس هذا النقص ناشئا عن حماية الصناعة بل عن تقدمها ، بحيث لو ألغيت الحماية لما أصابها ضرر ، وإنما تقل فقط مكاسب الممولين .

من كل هـذا نرى أن الصناعة التى كانت احتـكارا لبعض الممالك فيما مضى أصبحت اليوم لا وطن لهـا . فبينما كانت انجلترا تحتكر صناعة المنسوجات فى بداية القرن نراها لا تنتج سنة ١٨٨٠ إلا نحو ٥٥ فى المـاية منها، وقد نقصت هذه النسبة سنة ١٨٩٣ الى ٤٩ فى المـائة، ووصلت سـنة ١٩١١ الى ٤١ فى المـائة . وبينما نراها فى أعلى قائمة صناعة الحديد الخام حتى سنة ١٨٨٠ لا نراها سنة ١٩٠٤ إلا الثالثة أى بعد الولايات المتحدة وألمـانيا . وأما فرنسا التى احتكرت صناعة الحرير زمنا طويلا فقـد خسرت هـذا الامتياز تدريجيا نظـرا لظهور صناعة مماثلة فى الروسيا والنمسا وأمريكا و إيطاليـا وألمـانيا، وكذلك الحـال فى سو يسرا التى كانت تحتكر صناعة الساعات، فقد أصبحت تنافس الآن فى أسـواق العالم، الى غير ذلك من الأمثلة العديدة التى تدل على توزيع مراكز الصناعة فى أنحاء العالم، وانتقال الانظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى شاهدناها فى انجلترا اليها جميعا .

على أنه يلاحظ أن أكثر الأمم الأوربيـة اتبعت سياسة تجارية مخالفة لانجلترا وهى فرض ضرائب عاليـة على الواردات الأجنبية حتى تستطيع تشجيع صناعاتهـا الناشئة ومقاومة البلاد ذات الخبرة الصناعية القديمة .

ولكى يتدارك المنتجون فيها هبوط الأثمان الناشئ من زيادة المعروض ، وشدة المنافسة، ويضمنوا الحصول على ربح معتدل نراهم يرتبطون لبيع مصنوعاتهم جمـلة واحدة . ويعرف مثـل هذا الاتحاد باسم (Cartel) أو (Trust) والغرض من النوع الأول إدماج الصناعات الصغيرة فى صناعات أقوى تستطيع معاونتها، فى حين أن النوع الثانى عبارة عن اتحاد المنتجين لغرض تحديد الأثمـان وتعيين مقطوعيـة كل مصنع .

وقـد نشأ عن حماية السـوق الداخلى بواسـطة الضرائب والاتحادات التجارية لدرجة تسمح بالحصول على أرباح كافية، أن استطاع المنتجون عرض مصنوعاتهم الزائدة عن الحاجة فى أسـواق العالم مهما تحملوا من الخسارة . وغرضهم من ذلك

تثبيت قدمهم فى الأسواق الخارجية وقتل المنافسة الأجنبية . وهذه السياسة المعروفة باسم (Dumping) قد أصبحت أداة حادة من الأدات التى تستخدمها ألمانيا فى القتال التجارى .

هذا وقد أدّى انتشار الصناعة وتقدّم التجارة فى أنحاء العالم ، الى تقدّم المواصلات بين أمم العالم ، فأنشئت الخطوط التى تربط الممالك البرية بعضها ببعض ، كما أنشئت البواخر العديدة لاتمام المواصلات البحرية ، هذا فضلا عن المواصلات البرقية والبريدية التى ربطت أطراف العالم . وقد كان لفتح قناة السويس بين البحر الأبيض والبحر الأحمر فى سنة ١٨٦٩ أثر ظاهر فى انعاش التجارة بين الشرق والغرب ، واختلاط الشعوب وتقدّم المدنية فى العالم أجمع . على أن الرقى الاقتصادى الذى شاهدنا أثاره فى كثير من أمم العالم ، قد أدى الى زيادة التنافس التجارى والاستعمارى بين الدول ، ذلك التنافس الذى أدّى الى كارثة الحرب العظمى التى كفر عنها العالم بكثير من الآلام والضحايا .

المصادر

« عهد أسرة هانوفر » تأليف برانت روبرتسن (G. Robertson) « التقدم الصناعى » تأليف كننجهام (Cunningham) « الحقول والمصانع » تأليف كوربتكين (Korpatkin) الاصلاح الدستورى تأليف ڤيتش (Veitch) .

الباب التاسع

مدنيـة القرن التـاسع عشر

يشاهد القرن التاسع عشر انقلابا خطيرا فى مبادئ المدنية الأوربية العامة أثر المجهود الذى بذله الكتّاب والمفكرون، والتغيير العظيم الذى طرأ على حياة الشعوب، فبتأثير هذه العوامل نشأت الحركة "الانسانية" التى اتجهت الى تخفيف وطأة قانون العقوبات وإلغـاء الرق، كما نشأ التسامح الدينى الذى أدى الى تغيير العلاقة بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية . على أن انقلاب الأنظمة السياسـية هو بلا ريب أهم ما وقع فى هذا القرن، فقد زال شبح الملكية المستبدة تدريجا فى أوربة وحلت محلها أنظمة حكومية جديدة قائمة على الحكم النيابى وسيادة الأمة وكل ما يرتبط بها من مبادئ التصويت العام والتعليم العام والخدمة العسكرية العامة، وفى هـذا القرن نشأ التقدم الصناعى الذى أدى الى ظهور مبادئ "الرأسماليـة" والاشتراكية، وأثر تأثيرا محسوسا فى الحياة الأدبية والفكرية .

الحركة الانسانية — كانت الحياة الاجتماعية قبيل القرن التاسع عشر تقوم على الامتياز وعدم المساواة إذ كان السواد الأعظم من الناس يتحملون أشـد الويلات بلا رحمة ، إلا أن الحركة الانسانيـة التى نشأت فى أوربا — لا سيما فى انجلترا وفرنسا — غيرت هـذه الحالة تغيرا محسوسا فقد ألغى الرق ، وخففت وطأة قانون العقوبات ، وانتشر مبدأ التسامح الدينى ، وعنى بالمعدم والضعيف على وجه عام .

الـــرق — وقد كان أول من دعا الى إلغاء الرق جماعة بروتستنتية المذهب فى انجلترا عرفت باسم «Quakers» ثم نفر من المفكرين الداعين الى تحقيق أعلى رغائب الانسانية أمثال « ولبرفورس Welberforce » الذى كافح كفاحا شديدا فى سبيل إطلاق حرية الناس جميعا حتى نجح أخيرا فى حمل البرلمان الانجليزى على منع الاتجار بالرقيق سنة ١٨٠٧ ولما عقد مؤتمر فيينا فى سنة ١٨١٥ وافقت الدول على منع تلك التجارة الشائنة التى لا تطابق قوانين الدين ولا قوانين الطبيعة . وقد نفذ هـذا الشرط بغير هوادة خلال القرن التالى ، فقد قضت انجلترا على كل ما بقى من آثار الرق فى مستعمراتهـا سنة ١٨٣٤ كما أن فرنسا قضت عليه نهائيا سـنة ١٨٤٨ أما أمريكا فلم تقض على الرق إلا بعد الحرب الأهلية التى استعرت بين أهل الشمال والجنوب . فلم يبق من آثار الرق الآن إلا ما كان فى أفريقية الاستوائية ، وهو يطارد مطارد عنيفة أمام دعوة المدنية .

قانون العقوبات — أما عن قانون العقوبات فيلاحظ أنه تضمن فيما مضى التعذيب وما اليـه من وسائل العنف والإرهاق ، وكانت عقوبة الإعدام توقع فيما لا يقـل عن مائة حالة مختلفة ، وكانت تنفذ على صورة بالغة مبلغا كبيرا من الفظاعة والوحشية ، غير أن وطأة العقوبات أخذت تخفف منذ الثورة ، فقد جاء فى إعلان حقوق الإنسان ، أنه لا يجب أن ينص القانون على عقوبات لا تتناسب مع الجريمـة وعلى هـذه القاعدة تغيرت قواعد العقوبة فى أنحاء العالم ، وتحددت عقوبة الإعدام فى جرائم قليـلة معينة ، ولا يزال العالم يتحوّل الآن تدريجيا نحو إلغاء هذه العقوبة نهائيا .

التسامح الدينى — كان المفروض فى العهد القديم أن يدين رعاية الدولة بدين ملوكهم على اعتبار أن الانقسام الدينى يؤدى الى اختلاف سياسى ، فاذا خرج بعضهم عن الدين السائد وقع عليه أقسى العقاب . ولذا كانت الصلة قوية بين

الكنيسة والحكومة الى حد أن رئيس الحكومة فى البلاد البروتستنية كانجلترا مثلا كان رئيس الكنيسة أيضا، أما فى البلاد الكاثوليكية فقد كان الملوك يعترفون غالبا بسلطة البابا فى المسائل الدينية على أن يترك لهم حق التمتع بالسلطة الدنيوية كما وقع فى فرنسا بعد عقد اتفاقية ١٥١٦، وقد كان لرجال الدين نفوذ كبير فى مسائل التعليم ومساعدة الفقراء وتسجيل المواليد وعقود الزواج والوفيات بمعنى أن الأحوال الشخصية اكتسبت فى ظل هذا النظام صبغة دينية . غير أن هذا النظام لاقى معارضة شديدة من جانب المفكرين والكتاب الذين دعوا الى إطلاق الحرية الدينية كحق من حقوق الأفراد الطبيعية . ومن ثم أطلقت الملكية المستنيرة فى القرن الثامن عشر قيود الحرية الدينية فى بلادها، كما أن انجلترا أطلقت تلك الحرية لكافة المذاهب البروتستنية فى سنة ١٦٨٨ ثم سارت تدريجا فى هذا الطريق حتى خولت للكاثوليك مالغيرهم من الحقوق المدنية والسياسية فى سنة ١٨٢٩، أما فى فرنسا فقد نص إعلان الحقوق على أنه لا يسوغ مصادرة الحرية الدينية للأفراد ما دام لا يترتب على تلك الحرية إضرار بالنظام العام . ومن ثم أطلقت حرية العقيدة كما أطلقت حرية العبادة فى تلك البلاد وغيرها من الأمم المتحضرة ، ولم يستثن من هذا الاطلاق إلا اليهود الذين يقطنون الروسيا ورومانيا ، على أن هذه الطائفة ما زالت فى الواقع موضع اضطهاد شديد فى أغلب الأمم المسيحية كما كان حالها فى القرون الوسطى لا لأسباب دينية فحسب بل لأسباب سياسية أيضا .

ولعل أكبر ما يسترعى النظر فى أنظمة القرن التاسع عشر ما طرأ من التغيير على علاقات الكنيسة والحكومة : فتارة يكون للدولة دين رسمى ، وتارة يكون الدين معترفا به من قبل الدولة ، وطورا تكون الحكومة منفصلة عن الكنيسة انفصالا تاما . ففى الحالة الأولى تتمتع الكنيسة بامتيازات عديدة وأموال كثيرة توقف عليها كما هو حال الكنيسة الانجليكانية فى انجلترا، والكنيسة الكاثوليكية فى أسبانيا، والمذهب اللوثرى فى اسكندناوة ، والمذهب الأرثوذكسى فى الروسيا والولايات

البلقانية . أما فى الحالة الثانية فليس للحكومة مذهب خاص، وإنما تعترف بعدة مذاهب تمنحها امتيازات خاصة وتصبغها بصبغة تكاد تكون رسمية . وهذا هو الحال فى النمسا وبلجيكا وأغلب الولايات الألمانية . أما الحالة الأخيرة وهى حالة استقلال الكنيسة عن الحكومة فتوجد فى الولايات المتحدة وفى أغلب إمارات أمريكا الجنوبية . وقد وجدت هذه الحالة فى فرنسا أيضا عقب إلغاء الكونكردات سنة ١٩٠٥ غير أن فرنسا أعادت علاقتها بالبابوية بعد الحرب العظمى نظرا لعودة الالزاس واللورين (وهى شديدة التعلق بالبابا) الى حكمها .

النظام النيابى — كانت الأمم فى العهد القديم خاضعة لملكيات لا تسأل ولا تحد . فلما وقعت الثورات المختلفة فى أوربة إبان القرن التاسع عشر تقلص نفوذ الملكية تدريجا ، وحلت مكانها ملكيات دستورية أو جمهوريات . وقد كانت انجلترا أول الدول التى تمتعت بدستور يعين علاقة الملك بشعبه، ولو أن هذا الدستور يتضمن قواعد وعادات وضعت فى عصور مختلفة . أما قاعدة وضع دستور مكتوب وهى القاعدة التى اتبعت فى أوربة وفى غيرها فى العهد الحديث فلم تظهر إلا فى نهاية القرن الثامن عشر حين وضع دستور الولايات المتحدة سنة ١٧٨٧ ودستور فرنسا سنة ١٧٩١ ، ويقوم النظام النيابى على مبدأ إشراك الشعب فى الحكم بواسطة مجلس ينتخبه أهل البلاد ، ولانجلترا الفضل الأكبر فى وضع نظام نيابى على أساس ثابت انتقل منها الى غيرها من الدول . فنواب البلاد يستمدون السلطة من الأمة ولهم وحدهم حق إصدار القوانين وفرض الضرائب ومراقبة المصروفات والاشراف على أعمال الهيئة التنفيذية على وجه عام ، وللنواب حق التمتع بالحرية والاستقلال التام فى القيام بواجباتهم ، فلا يصح للناخبين عزلهم أو إقالتهم من الخدمة إلا إبان الانتخابات . على أن السلطة التشريعية لاتقتصر على النواب وحدهم بل يشاركهم فيها مجلس وراثى كما هو الحال فى انجلترا أو مجلس منتخب كما هو حال «السنا» فى فرنسا . ولهذا المجلس مهمة خطيرة هى مراقبة أعمال

المجلس الأدنى وحماية الأقليات وجعل التشريع أقرب الى الحكمة والحاجة بعيدا عن أعمال التسرع والعنف ، فكما قال جيمس بريس : "إن نظام المجلسين فى البلاد النيابية أصبح مبدأ ثابتا من مبادئ الحياة الدستورية فهو قائم على الاعتقاد أنه لا يمكن القضاء على حالة التسرع والاستبداد والرشوة التى كثيرا ما تلازم المجلس الأدنى إلا بإيجاد مجلس أعلى له من السلطة ما للمجلس الآخر" .

ويتخذ النظام النيابى عادة شكلين هامين : النظام الدستورى والنظام البرلمانى : ففى الحالة الأولى تنفصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية انفصالا تاما بمعنى أن الوزراء يعينون بواسطة رئيس الحكومة سواء أكانوا من أعضاء المجالس التشريعية أم من غيرهم ولرئيس الحكومة الحق فى إبقائهم فى مناصبهم أو فى عزلهم منها، فرئيس الدولة إذن هو رئيس الحكومة ولا يحدّ سلطته إلا احترام القانون والرأى العام . وقد اتبع هذا النظام فى عهد أمبراطورية نابليون الثالث فى فرنسا كما اتبع فى ألمانيا فى عهد أسرة هوهنزلرن . أما النظام البرلمانى فهو نظام يلائم الأمم العريقة فى الأنظمة النيابية ومؤداه ألا تقتصر سلطة المجالس على الأعمال التشريعية فقط بل تشرف على السلطة التنفيذية أيضا . ولذا تنتخب الهيئة التنفيذية من بين أعضاء الحزب الغالب فى المجلس النيابى وهى مسئولة فى كل أعمالها أمام هذا المجلس ، ولا يصح بقاؤها فى منصب الحكم إلا اذا كانت حائزة لثقته . ويلاحظ أن الوزراء يتضامنون فى مسئولية الحكم فكل مايوجه من النقد لوزير من الوزراء يعتبر نقدا للوزارة بأكملها. على أن النظام النيابى ينتقل تدريجيا فى بعض البلاد الى حكم الشعب بطريقة مباشرة فلا يقتصر الأمر إذن على سنّ دستور وانتخاب نوّاب يصدرون القوانين بل إن بعض القوانين تعرض على الشعب لاقرارها بعد مصادقة المجلسين عليها ، وهذا النظام يتبع الآن فى سويسرا ، وكثير من الأمم الحديثة كأستراليا وغيرها تسير تدريجيا فى هذا الطريق .

وتنقسم الحكومات النيابية الى قسمين هامين وهما : الجمهورية والملكية فرئيس الحكومة فى النظام الجمهورى ينتخب لأجل معين ، فى حين أن رئاسة الحكومة فى الممالك تنتقل بطريق الوراثة . وقد تكون الجمهورية أو الملكية فى بلاد موحدة كانجلترا وفرنسا وايطاليا واسبانيا، أو فى بلاد متحدة أى مؤلفة من عدة ولايات مستقلة فى داخليتها بحيث لا تنظر الحكومة العليا إلا فيما يهم الجميع، ويشاهد هذا النظام فى ألمانيا وسويسرا والولايات المتحدة وكندا وأستراليا .

هذا ويتناول النظام البرلمانى عدة قواعد هامة : أولها التصويت العام الذى هو أساس الديمقراطية الصحيحة، ويقترن به التعليم العام والخدمة العسكرية الاجبارية، ذلك أنه لما جعل التصويت حقا لكل فرد أصبح من الضرورى أن يزود ذلك الفرد بتعليم كاف لتأدية واجبه السياسى على وجه أتم، ويقابل هذه الحقوق واجب مقدس هو واجب الخدمة العسكرية والتقدم للدفاع عن الإرث المشترك .

وقد كان المتبع فى بادئ الأمر أن يقتصر حق التصويت على طبقة ممتازة من أصحاب الثروة الذين يدفعون للحكومة قدرا معينا من الضرائب ، ولكن هذا النظام تحول تدريجا إبان القرن التاسع عشر الى نظام التصويت العام لمن بلغوا سنا لا يقل عن الواحدة والعشرين ومن توافرت فيهم الكفاية اللازمة لاستعمال حق الانتخاب كأن يكونوا على معرفة تامة بالقراءة والكتابة. على أن التصويت العام بمعناه الصحيح لم يكتمل بعد، فقد حرمت النساء من حق الاشتراك مع الرجال فى هذا الواجب، ولو أن بعض الممالك أخذت فى تدارك هذا النقص منذ نهاية القرن التاسع عشر كما يشاهد فى أستراليا وزيلندا وانجلترا . ولا ريب أن التصويت العام مبدأ من أهم المبادئ الحديثة لأنه يقرر المساواة السياسية بين الرعايا، ويحقق سيادة الأمة بطريقة عملية .

أما التعليم العام فقد أصبح من لوازم الحكم البرلمانى فلا يصح التمتع بالأول من غير التكمل بالثانى ، ولذا عنيت الحكومات البرلمانية بهذا الواجب وتحملت نفقات

التعليم الالزامى، لما كانت الأجور التى يدفعها الآباء لتعليم أبنائهم عقبة كبرى فى سبيل إتمام هذا الغرض . وفى جانب هذه المزايا التى يتمتع بها الأفراد فرضت الخدمة العسكرية على كافة الأهالى على السواء، ولذا فان نظام الجنود المستأجرة ونظام البدل النقدى قد تلاشى تدريجا فى القرن التاسع عشر، وحلت محله الخدمة الإجبارية الأهلية لاسيما حين اشتدت الأزمات السياسية وتصادمت المصالح واضطرت الحكومات أن تعبأ جنودها دفعا للمخاطر التى تصيبها، غير أن انجلترا وحدها بقيت الى عام ١٩١٤ تعتمد على نظام الخدمة الاختيارية .

النظام الرأسمالى والاشتراكية — اذا كانت عدم المساواة السياسية قد انقرضت فى الديموقراطيات الحديثة فقد بقيت مع ذلك عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية التى اشتدت على أثر التقدم الصناعى فى القرن التاسع عشر، فقد أوجد هذا التقدم طبقتين جديدتين فى المجتمع وهما : أرستوقراطية المال التى تتمتع بربح طائل، وطبقة العمال التى تتأثر بحالة العرض والطلب وما يطرأ على الصناعة من صعود وهبوط ولذا كانت أكثر الطبقات تعرضا لأزمات الضنك والبؤس .

النظام الرأسمالى — وقد نشأ النظام الرأسمالى الحاضر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر على أثر المبادئ التى أذاعها الاقتصاديون فى القرن الثامن عشر والتقدم الصناعى الذى ظهر فى القرن التاسع عشر، أما الاقتصاديون فقد دعوا الى إطلاق حرية الصناعة والتجارة و إلغاء النقابات التى كانت تقيدها وتحدد دائرة نشاطها، على أن هذه الحرية أفادت أصحاب الأعمال وحدهم لما كان العامل البسيط عاجزا عن مقاومتهم أو الدفاع عن مصالحه إزاءهم . فلما ظهرت مخترعات الصناعة، تجمعت وسائل الانتاج فى أيدى قليلة من المتولين الذين يستطيعون مشترى الآلات وتحمل المزاحمة التجارية، انتهزوا هذه الفرصة لإرهاق العمال وتخفيض أجورهم، بينما

كان أولئك المتمولون ينعمون بثروة طائلة ، حتى أصبح مما تضرب به الأمثال أن فى بلاد الرخاء وتدفق الثروة يعانى الفريق الأكبر من الشعب سوء العيش وعدم توافر وسائل الصحة والأمن .

الاشتراكية — واذ كانت الحكومة قد نفضت يدها من الشئون الصناعية اعتمادا على مبدأ الحرية السائد فى ذلك العهد فقد نشأت المبادئ الاشتراكية التى تعرضت الى نقد مبادئ الاقتصاديين فى الحرية ونسبت اليها انحطاط الإنتاج وسوء التدبير والفوضى الناشبة فى الحالة الاقتصادية والاجتماعية، ثم تطرقت الى نقد نظام الرأسمالية الذى يعطى الغنم كله لطائفة قليلة من الرجال ويضع الملايين من الصناع فى حالة شديدة من البؤس والفقر المدقع، ولذا أجمع الاشتراكيون على إعادة تنظيم الحياة الاقتصادية ووضع حد لإرهاق العمال واستعباد الانسان لأخيه الانسان . غير أن هؤلاء الاشتراكيين لم يجمعوا رأيهم على خطة معينة لقلب النظام القديم، ولم يضعوا صورة كاملة لما يجب أن يكون عليه النظام الجديد .

ويمثل المبادئ الاشتراكية فى فاتحة القرن التاسع عشر «سنت سيمون» و«فوربيه» الفرنسيان و«روبرت أوين» الانجليزى ويطلق عليهم اسم الاشتراكيين الخياليين لأن آراءهم لاتقوم على مبادئ عملية وإنما تصطبغ بصبغة شعرية دينية . فترى سنت سيمون "١٧٦٠ — ١٨٢٥" يذهب الى أن لا سبيل الى إسعاد الإنسانية إلا باستثمار موارد الطبيعة وتوزيعها بطريقة عادلة، وذلك بأن يتولى إدارة الحكومة المفكرون والعلماء والعمال . واذ كان يرى أن لا مندوحة من أن يسير الإحياء الأدبى بجانب الإحياء الاقتصادى فقد دعا أيضا الى نشر المسيحية وما انطوت عليه من مبادئ العناية بالمعدم والضعيف . أما فوربيه "١٧٧٢ — ١٨٣٧" فقد كان يدعو الى التعاون فى العمل لإصلاح النظام الاقتصادى الحاضر، فى حين أن روبرت أوين "١٧٧١ — ١٨٥٨" اقترح تنظيم الحياة الاجتماعية على قاعدة إلغاء النظام الرأسمالى

ولكنه عاد فى النهاية فاقترح تنظيم الصناعة والزراعة والتجارة على قاعدة التعاون . ولذا يعتبر زعيم هذه الحركة التى امتدت تدريجا حتى اتخذت تلك الأهمية التى لم تفقدها للآن .

وفى العصر التالى تحولت الاشتراكية الى مبادئ عملية وكان يقودها لويس بلان فى فرنسا وكارل ماركس فى ألمانيا . أما لويس بلان "١٨١٢ — ١٨٨٢" فقد بسط فى كتابه "نظام العمل" خطة عملية لاشتراكية تعضدها الحكومة فقال : إن لكل إنسان الحق فى العمل وإن من واجب المجتمع أن يهيئ أسباب هذا العمل أو من واجب الحكومة التى تمثل المجتمع أن تهب للعمال المال اللازم لتأسيس مصانع أهلية يجنى منها العامل فوق أجره نصيبا من الأرباح . أما كارل ماركس "١٨١٨ — ١٨٨٣" فقد دعا الى امتلاك الأمة لموارد الثروة (Collectivism) وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا الآن ، ولا يقوم على قواعد نظرية ولا يعمل لتحقيق آمال خيالية وإنما يقوم على قواعد عملية ثابتة بحيث يجب اعتباره نتيجة منطقية للتطور الاقتصادى . أما الخطة التى دعا اليها العمال لتحقيق هذا المذهب فهى خطة التضامن والعمل لاستلام أزمة الحكومة كخطوة أولى فى سبيل تحقيق الغرض الأعظم وهو ملكية الأمة لوسائل الانتاج والتصريف من أراضى ومناجم ومصانع وسكك حديدية وبنوك الخ ، حتى ينعدم النظام الرأسمالى وتوزع الأرباح طبق ما يعمله كل عامل .

وقد انتشرت المبادئ الاشتراكية تدريجا بين العمال وكان لفرنسا وألمانيا والروسيا الحظ الأكبر منها لا سيما فى العهد الأخير الذى أصبح فيه مذهب ماركس قاعدة العمل فى الممالك جميعا ، غير أن الاشتراكيين لم ينجحوا بعد فى قلب النظام الاقتصادى الحاضر ولكنهم نجحوا بعض الشيء فى تعديل ذلك النظام وذلك بانشاء نقابات للعمال وتشجيع التشريع الاشتراكى لمصلحة العمال .

النقابات — أما نقابات العمال فالغرض منها استخدام قوة المجموع لمصلحة الفرد، وإجبار أصحاب الأعمال على اعتبار مصالح العمال . ويطلق على هذه النقابات فى فرنسا اسم (Syndicat) وفى انجلترا اسم (Trade - Unions) ، وقد قاوم أصحاب الأعمال تأسيس هذه النقابات عهدا طويلا ولكنها اتخذت فى النهاية صبغة قانونية ، وأثرت تأثيرا محسوسا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية سواء بتقصير ساعات العمل أم بزيادة الأجور وتنظيم توزيع العمال الخ . وهى تعتمد فى عملها اعتمادا كبيرا على الاعتصاب أو العمل المباشر . على أن العمال لا يقفون عند حدّ إنشاء نقابات لمناهضة أصحاب الأعمال بل تراهم ينشئون نقابات تعاونية على مبادئ أوين الذين نادى بإنشاء جمعيات للانتاج لمصلحة العمال، كما أنه نادى بإنشاء جمعيات للاستهلاك بأثمان معتدلة . وقد نجحوا فى النوع الأول نجاحا عظيما فى حين أن نجاح الثانى لم يزل محدودا بالنظر الى مزاحمة المصانع الكبرى .

التشريع الاشتراكى — على أن انتشار النظام الرأسمالى بكل ما يتضمنه من المساوئ، وإنشاء نقابات العمال بما تضمنته من النزاع الخطير بينها وبين أصحاب الأعمال اضطر الحكومات الى أن تعدل عن مبدأ عدم التدخل لا سيما حين أصبح للعمال نوّاب يمثلونهم فى المجالس التشريعية، ومن ثم نشأ ما يعرف بالتشريع الاشتراكى وهو تشريع مؤدّاه تحسين حالة العمال بطريق القانون حتى يستغنوا بهذا العمل التشريعى عن العمل المباشر . ففى بادئ الأمر نرى التشريع ينصرف الى حماية النساء والأطفال من إرهاق المموّلين ، ثم تدرج بعد ذلك الى تحديد ساعات العمل للرجال وإعطائهم حق الاعتصاب وحق إنشاء النقابات والتعويض عما يصيبهم من الضرر أثناء العمل كما أعطاهم معاشا يكفى لسدّ عوزهم عند التقاعد، هذا فضلا عن تنظيم التحكيم فى كل ما ينشأ من الخلاف بين العمال وأصحاب الأعمال . وبفضل هذه الوسائل — النقابات والتشريع — تحسنت حالة العمال تحسينا مطردا، ولو أن

التفاوت الاجتماعى العظيم بين الطبقات ما زال يوقد نار العداوة والبغضاء فى القلوب ويعطى للحركة الاشتراكية قوتها الدافعة فى أركان العالم المتحضر .

الحركة الفكرية — كان النصف الأول من القرن التاسع عشر عهد نشاط عظيم سواء أكان فى الأدب أم فى الفنون أم فى العلوم . وكان حامل لواء الحركة الأدبية جماعة الرومانتيك (Romantiques) الذين خرجوا على حركة الكلاسيك السائدة فى عصرهم وضربوا بسهم جديد فى ميدان الأدب، ففى القرن الثامن عشر كانت الأدبيات ارستقراطية فى مبناها ومعناها فلا تنتزل الى الحياة الوضيعة، ولا تستخدم إلا العبارات الضخمة، كما أنها لم تعن إلا بالموضوعات العامة، بدل أن تصور النزعات الخاصة التى تختلج قلب الإنسان، هذا الى أن الأدبيات كانت تتأثر بروح الأدب القديم الذى كان يسيطر على العقول فى ذلك العصر حتى نشأ من ثم اسم (Neoclassiques) الذى أطلق على ذلك الاحياء .

أما فى العهد الحديث فقد خلعت الأدبيات عنها رداء الاستقراطية المصطنعة وجعلت تعنى بكل مظاهر الحياة وتصور كل ناحية منها، هذا الى أنها تخلت عن مورد الآداب القديمة، واتجهت صوب مورد آخر ألبسها حلة جديدة وهو أدبيات شكسبير وشلر، فضلا عن العناية بالقصص والنوادر التاريخية وتصوير الإحساسات الدفينة التى تختلج قلوب الكتاب والشعراء . أما المؤرخون فقد خرجوا على النظام القديم الذى جعل الكتابة التاريخية تقتصر على سرد الوقائع والتواريخ بغير تحليل أو ربط أو رجوع الى الوثائق التاريخية أو الاهتمام بأى مظهر فى حياة الدولة غير مظهر الملك وما يحيط به من الجاه والعظمة، وجعلوا يهتمون بمظاهر الحياة بأوسع معناها وتصوير دقائق البيئة التاريخية ومحتوياتها .

أما الفنون التى تأثرت فى القرن الثامن عشر بالنماذج القديمة — مثلها فى ذلك مثل الأدبيات — سواء أكانت فى التصوير أم فى النقش أم فى البناء فقد تخلصت من

تلك القيود، وسارت فى طريق المذهب الحديث وهو سبيل الحقيقة المطلقة من كل قيد بمعنى أن المصورين والنقاشين كانوا يصورون الأشياء على ما هى بجميلة كانت أو قبيحة على مثال ما كان يفعله أهل الفن فى العصور الوسطى مع شدة العناية بالألوان ، وكانت موضوعاتهم مقتطفة من التاريخ الحديث أو من مؤلفات الكتاب المحدثين أمثال دنتى وشكسبير . وفى هذا العهد أيضا ارتقت الموسيقى ارتقاء عظيما بالنظر لارتقاء التمثيل وازدياد الآلات الموسيقية وانتشارها بين طبقات الشعب .

على أنه اذا كانت الأداب والفنون قد تغيرت تغيرا خطيرا فى هذا العهد فإنها لم تبلغ من الأهمية ما بلغته العلوم التى أثرت تأثيرا كبيرا فى حياة العالم وفى كل ما يقترن بالذهن من وسائل الحياة الحديثة . ولعل أكبر أسباب هذا التقدم المدهش ما كان من تخصص العلماء فى فروع معينة من العلوم على خلاف ما وقع فى القرون التى تقدمت ،هذا فضلا عن ازدياد عددهم وانقطاعهم للبحث وخدمة العلم ودوام اتصالهم بواسطة المجلات والجرائد وغيرها من وسائل النشر التى زادت التآلف والارتباط فى سبيل الوقوف على كنه أسرار الطبيعة ، هذا الى أن الحكومات قد عملت على تشجيع النهضة العلمية باعتبارها عاملا هاما من عوامل المدنية وأداة خطيرة فى الكفاح المستعر بين الدول، كما أن أصحاب الصناعات المختلفة جادوا بكل سخاء فى سبيل رقى العلوم الحديثة التى ساعدت بلا ريب على بلوغ الصناعة تلك المنزلة التى بلغتها .

هذا وقد كان أهم من يمثل الحركة الأدبية فى فرنسا شاتو بريان وفكتور هوجو والفرد دى فينى والفرد دى مسيه فى النثر والشعر وجورج ساند و بلزاك فى الرواية وأوجست تيرى وميشيليه فى التاريخ . أما فى الفنون فقد كان يمثل النهضة الحديثة جيريكو يلت ودلا كروا فى حين كان يمثل المدرسة القديمة دافيد وأنجر. وكان أكبر علماء ذلك العصر من الرياضيين لاجرانج ومونج ولا بلاس ومن الكيمائيين جاى لوساك ومن الفيسقيين فرسنل وأمبير وأراجو ومن الطبيعيين لا مارك وسنت هلير وكوفيير . وقد كانت النهضة الفكرية خارج فرنسا لا سيما فى انجلترا وألمانيا لا تقل

عنها أهميـة . أما انجلترا فقد كان يمثلها فى الشعر بيرون وفى التاريخ ماكولى وفى الروايات والترسكوت ودكنس وفى العلوم الفلكية هرشل والعلوم الطبيعية فرارى والكيائية والتون ودافى . أما فى ألمانيا فكان يمثل الحركة الفكرية شلر وجيته فى الأدب ونخت وهيجل فى الفلسفة وأهلاند وهزى هين فى الشعر وبتهوفن فى الموسيقى وهـذه الأسماء تدل وحدها على الثروة الأدبية والعلمية التى برزت للعالم فى فاتحة هذا القرن، فقلما رأى العالم نشاطا فكريا مختلف الوجهات كما رأى فى هذه الفترة التى تعد فترة قائمة بذاتها فى تاريخ المدنية الحديثة سواء فى نتائجها المباشرة أم فى نتائجها المستقبلة .

أما فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فقـد نشأت حركة الواقعيين (realists) التى تعتبر احتجاجا قائما على طبقة الرومانتيك الذين أطلقوا العنان لأنفسهم فى تصوير خيالهم ومؤثراتهم الذاتية بدلا من تصوير الحقيقة الواقعة بكل دقة، فبدلا من أن ينصرف الكاتب أو المصوّر الى بسط أرائه أو تصوير إحساساته نرى الواقعيين يذهبون الى أن أعظم الكتابة والفن ما كان علميا ومتجردا عن العامل الذاتى، وأن الفنى لا يظهر فى عمله أكثر مما يظهر الله فى الطبيعة . ولا ريب أن هذا الانقلاب يرجع الى تقدم العلوم ومناهج البحث فى هذا العهد الى حد أثر تأثيرا كبيرا فى الأدب والفن، فكما أن العلماء عنوا بحقائق الطبيعة كذلك عنى الكتاب والفنانون بحقائق المجتمع، على أن الكتاب انقسموا حيال ذلك قسمين : قسم يعمل للأدب من أجل الأدب وآخرون يعززون الأدب من أجل المنفعة المادية . فبينما يعمل بعضهم لتصوير الحياة كيفما كانت من غير تعليق، يذهب الآخرون الى تصوير الحياة والطبيعة بغرض ترقية النوع الانسانى أدبيا وماديا . بل ان هذا الاختلاف ينصرف أيضا الى الأسلوب : فأتباع المبدأ الأول يذهبون الى تذويق الألفاظ وتمنيقها حتى تقع موقعا حسنا على السمع، فى حين أن الآخرين يجعلون الأسلوب وسيلة لتمثيل أغراضهم فقط .

ولعل أكبر ما يميز هذه الحركة الجديدة تقدم الكتابة الروائية والمسرحية . فقد أخذت الروايات تهتم اهتماما كبيرا بتصوير كافة أحوال المجتمع حتى لقد أصبحت وثائق تاريخية يعتدّ بها، ويلازمها فى ذلك المسرح الذى أصبح يمثل المحصول الأدبى ووجهته الواقعية أحسن تمثيل . وأما الكتابة التاريخية فقد تطوّرت أيضا تطوّرا خطيرا فبينما نرى المؤرّخين فى العهد الرومانتيك يخلطون بالوقائع التاريخية شيئا كثيرا من خيالهم حتى يقدّموا للقارئ صورة بارزة نرى المؤرّخ فى هذا العهد يتشبث بالحقائق على المنهج العلمى البحت، وبدلا من أن ينزع الى الخيال لإيضاح الحقائق تراه ينزع الى الوثائق لإعطاء صورة بارزة عن عهد من العهود . وأما الفلسفة فقد امتازت بالاتصال التام بالعلوم، واتباع الأساليب القائمة على الملاحظة والاستنتاج، والاهتمام بدراسة علم النفس ، على أن أكثر ما يلفت النظر فى هذا العصر هو ارتقاء الصحافة وانتشارها وتقريب الحقائق الواقعة لكل إنسان .

ولقد تأثرت الفنون كذلك بمذهب الواقعيين لا سيما التصوير فنرى هذا الفن فى عهده الجديد يستند على الملاحظة لا على الخيال ولا يأنف من تصوير أحقر المناظر كما يصوّر أعلاها أى أن الفن أصبح فنا ديموقراطيا بالمعنى الصحيح، على أن الفن الكلاسيكى والفن الرومانتيكى لم ينعدما فى هذا العصر بل استمرا معه جنبا لجنب .

وقد كان أهم من يمثل الحركة الأدبية فى فرنسا من الكتّاب فى هذا العصر « لاكونت دى ليل وهيريديا وبردهوم » ومن الروائيين فلوبير وزولا ومن كتّاب الدراما دوماس الأصغر ومن المؤرّخين تين ورينان . أما التصوير فيتمثل فى كوربيه وبيليت وكاربير . وفى ألمانيا تمتاز الحركة بجماعة المؤرّخين نخص بالذكر منهم ترتيشكه وموسن ولامبرخت ومن الفلاسفة شوبنهاور ونيتشه ومن الموسيقيين واجنر، أما فى انجلترا فتتخذ الحركة الأدبية صبغة نفعية واجتماعية ويبلغ التصوير شأوا بعيدا من الكمال . وقد كان أكبر من نشأ من الكتّاب جون رسكن

ومن الشعراء تنيسن و بروننج ومن الروائيين مريدث ودكنز وكبلنج و ولز ومن الفلاسفة دار وين وهربرت سبنسر، ومن المصوّرين روستى وهنت .

وأما العلوم فقد تقدّمت تقدّما خطيرا فى هذا العهد بحيث ارتفعت كثيرا فوق ما علق عليها من الآمال من قبل . وقد كان أكبر مظاهر الحركة العلمية استمرار التخصص، لأن المعلومات اتسعت لدرجة أن لا يستطيع إتقانها رجل واحد، وكذلك ازداد تطبيق الكشوف العلمية حتى تقدّمت الصناعة تبعا لهذا التقدم العلمى واطرد الرخاء المادى فى العالم بل وتأثرت الحياة العقلية والأدبية تأثيرا عظيما حتى ليصح اعتبار هذه الحركة العلمية من أهم وأخطر الحوادث التى رآها العالم . فالعلوم الرياضية أصبحت أداة قوية للعلوم الفلكية والميكانيكية وغيرها، والعلوم الطبيعية ساعدت على تكوين الميكانيكيين فى كل الصناعات والاختصاصيين فى كل العلوم ، وهى تمتاز بالكشوف الخطيرة التى تمت فى فرعى الحرارة والكهرباء على وجه أخص ، فى حين أن العلوم الكيماوية أصبحت عاملا هاما من عوامل الصناعة الحديثة فضلا عن تأثيرها تأثيرا محسوسا فى العلوم الطبية وغيرها . و يطرد هذا التقدّم فى علمى الحيوان والنبات اللذين أصبحا يقومان على تشابه ظواهر الحياة فى كليهما وعلم البكتريا الذى قصد الى دراسة حياة الميكروب والوسائل المقاومة له كما فعل باستور . وبالجملة سارت العلوم شوطا بعيدا فى سبيل التقدّم القائم على تصحيح مناهج البحث وجعلها قائمة على أساس الملاحظة والاستنتاج حتى تناول التقدّم كافة العلوم من غير استثناء مما يعطى القرن التاسع عشر صبغة خاصة يمتاز بها عن كل ما تقدّمه من القرون .

الباب العاشر

الحرب العظمى

الفصل الأول

مقدمات الحرب

[من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٩١٤]

التطور الحديث — شاهدت الفترة التى انقضت بين حرب السبعين والحرب العظمى تطورا هائلا فى شئون العالم . فمناطق الأرض التى كانت لاتزال سرا مجهولا اكتشفت من القطب الى القطب، كما أن أسرار الطبيعة التى كانت لغزا لا يحل، أخذت تنجلى عاما بعد عام، وتعددت الروابط المادية والأدبية بين أمم الأرض، حتى لم تعد أمة فى عزلة عن سواها، واشتركت الشعوب فى كثير من الأفكار والعقائد حتى أصبحت المدنية عامة بين دول العالم، وانتشرت المبادئ الديموقراطية فى الشرق ، وتقدمت فى الغرب تقدما مطردا فى سبيل استقصاء آراء الشعب الحقيقية وآراء كل الطبقات (من غير استثناء النساء) هذا الى أن ارتقاء الأفكار الديموقراطية وانتشار مبادئ المساواة فى الحقوق السياسية أدى الى الرغبة فى المساواة الاقتصادية والاجتماعية إما بطريق العمل المباشر وإما بطريق التشريع، وهذا ما يعبر عنه باشتداد الروح الاشتراكية . وفى هذا العهد أيضا استخدمت

أغلب الحكومات نفوذها لتحقيق أعلى رغائب المدنيـة وهى العنـاية بالمعدم والضعيف . وانتصرت مبادئ التسامح الدينى انتصارا عظيما، ولو أن مبادئ التسامح الجنسى مازالت فى الحيز النظرى المحض ، فاضطهـاد اليهود اشتـد اشتدادا عظيما فى السنوات الأخيرة فى شرق أوربة حتى ازدادت المهـاجرة لأمريكا وفلسطين . وقس على هذا اضطهاد الشعوب الغربية للسود والهنود وكافة الشعوب الصفراء، وهو اضـطهاد مبنى على تقاليد قديمـة وعوامل اقتصـادية عديدة . غير أن الرقى الاقتصادى المدهش الذى شمـل أركان العالم قوى روح التنافس بين الأمم وولد الأحقاد الجنسـية بين الشعوب الغربيـة نفسها، وكان أهم مظاهر هذه الأحقاد التسليح والمحالفات فالحرب العالمية الهائلة التى دكت جوانب الحضارة دكا .

الحـالة الدوليـة — كانت الفـترة التى انقضـت بين حرب السـبعين والحرب العظمى فترة سـلم ولكنه سلم مسلح ينوء بأعباء الحرب ومتاعبها ، ويتعثر فى المحالفات التى مهدت الطريق لها . وأهم هذه المحالفات :

(١) التحالف الودى الذى عقد بين ألمـانيا والنمسا والروسيا فى عام ١٨٧٢

(٢) التحالف الثنـائى الذى أبرم بين ألمـانيا والنمسا فى عام ١٨٧٩ ثم أطلق عليه اسم التحالف الثلاثى بعد ارتباط إيطاليا معهما فى عام ١٨٨٢

(٣) التحالف الفرنسى الروسى (١٨٩١ — ١٨٩٢) والوفاق الودى بين انجلترا وفرنسا (١٩٠٤ — ١٩٠٥) ثم الوفاق الثلاثى الذى تم بعد تقارب انجلترا والروسيا (١٩٠٧ — ١٩٠٨) .

وقد كان العامل الأول فى التحالف الثلاثى رغبة بسمارك فى عزلة فرنسا وتوطيد البنـاء الذى شاده بالدم والحديد، فى حين أن الوفاق الثلاثى كان ينزع الى تقييـد مطامع ألمـانيا الجديدة وإعادة التوازن الدولى فى أوربة . على أن ازدياد المنافسـة

الاقتصادية بين الدول، والرغبة فى التوسع والاستعمار ضاعف الخطر الذى كان يهدد أوربة ودفع الدول الى زيادة التشبث بالمحالفات .

السلم المسلح – يعتبر السلم المسلح إحدى نتائج معاهدة فرنكفورت التى انتزعت من فرنسا بعض مقاطعاتها الفرنسية، وجعلت الصلح بينها وبين ألمانيا عسير الوقوع، فبينما نرى ألمانيا تجدّ فى التسليح خوفا من أن تعود فرنسا الى الثأر منها، نرى أغلب الدول العظمى تحذو حذوها حتى لاتكون فى المستقبل خطرا عليها. ومن ثم ازدادت الأعباء العسكرية ونفقاتها ازديادا عظيما لاسيما وقد اضطرّت الدول إزاء التقدّم العلمى المطرد أن تغير معدّاتها بين كل حين وآخر حتى تصل الى أقصى ما يمكن من الدقة والإتقان .

وقد نشأ عن هذا الاستعداد الحربى حالة خطيرة فى العلاقات الدولية ، فقد أصبح مبدأ القوّة هو المبدأ السائد بين الدول ، وأصبح التهديد بالحرب من أقوى العوامل فى السياسة الدولية . لذلك تنافست الدول تنافسا عظيما فى التفوّق على بعضها البعض، وتوترت العلاقات بينها لدرجة كانت تكفى وحدها لأن تطلق عنان الحرب . ولما كانت بعض الدول لا سيما ألمانيا قد اتبعت مبدأ التجنيد العام ووضع كافة موارد البلاد تحت تصرف رجال الحرب وقت الحاجة، فقد ظهرت الحرب المقبلة مظهرا مرعبا ينطوى على الحياة أوالموت والسيادة أوالعبودية لمن يشترك فيها من الأمم ، وهذا ضاعف حالة القلق والذعر الذى كان يساور كافة الدول .

على أن تأثير التسليح لم يتناول العلاقات السياسية فحسب . بل تناول أحوال الأمم الاجتماعية والاقتصادية أيضا ، فقد نشأ عن التعليم العسكرى وما ينطوى عليه من الخضوع المطلق لإرادة الزعماء أن تضاءلت شخصية الأفراد لدرجة عظيمة كما هو الحال فى ألمانيا، وطبع الشعب بأسره بطابع الخضوع والاستسلام ، هذا الى

أنه دلت التجربة على أن الشبان الذين يقضون شطرا من عمرهم تحت لواء الجيش يأبون العودة فى كثير من الأحوال الى حالة الهدوء الذى نشأوا فيه بين القرى مما أضر بالزراعة ومواردها وساعد على ازدياد ذلك السيل الجارف سيل المهاجرة الذى لا ينقطع من ريف البلاد الى مدنها، ومن جهة أخرى اقتضت حالة التسليح وما تكلفه من المال إهمال واجبات كبرى من واجبات الحكومة لا سيما واجب العناية بالطبقة الفقيرة من الشعب، هذا الى أن مرافق البلاد الاقتصادية والأخلاقية تأثرت تأثرا عظيما، فقد قلت الأيدى العاملة فى المصانع والمتاجر، وقصر أجل التعليم بأنواعه، وعطل التطوّر الأخلاقى المنشود فى الأفراد والجماعات .

نشأة المحالفات — التحالف الودّى بين ألمانيا والنمسا والروسيا : لم يقتصر الأمر على استعداد الدول للحرب كل فى دائرتها بل تعدّى ذلك الى ارتباطها جماعات جماعات مما كان ينذر باشتعال أوربة بأسرها اذا ماوقعت الحرب. فيلاحظ أولا أن ألمانيا التى خرجت منتصرة من حرب السبعين وها من القوة والبأس ما لم يكن لغيرها كانت تخشى مع ذلك انتقام فرنسا كما كانت تخشى تضامن الدول ضدّها على نحو ما فعلت إزاء شارل الخامس ولويس الرابع عشر ونابليون . لذلك سعى بسمارك سعيا حثيثا حتى اقترب من النمسا التى جاملها مجاملة عظيمة بعد سادوا توقعا لحاجة اليها فى المستقبل ، هذا الى أنه عقد أواصر الصداقة مع الروسيا التى كان لحيادها فى الحروب الأوربية أكبر أثر فى تكوين الدولة الألمانية . ومن ثم نشأ الوفاق الثلاثى بين الامبراطرة فى سنة ١٨٧٢ وتمت عزلة فرنسا، واستطاع بسمارك أن يعلن أن الدولة الألمانية الجديدة هى دعامة السلم فى أوربة .

التحالف الثلاثى — على أن هذا الوفاق الذى تم بين الامبراطرة لم يعمر طويلا ، فقد كانت ألمانيا إحدى الدول التى وقفت فى وجه الروسيا سنة ١٨٧٨ وأرغمتها على أن تقبل تحكيمها فى مؤتمر برلين غداة انتصارها على تركيا .

ولما تصادمت مصالح النمسا والروسيا تصادما قو يا فى هذا المؤتمر أبت ألمانيا أن تؤيد الروسيا تأييدا كافيا ، ولذا انسحبت حكومة القيصر من الوفاق تدريجا واضطرت ألمانيا الى الإسراع فى عقد ارتباط دولى جديد بينها و بين النمسا عام ١٨٧٩ على قاعدة المعونة المطلقة المتبادلة حتى تأمنا الخطر الذى كان يهددهما من قبل الروسيا وفرنسا .

على أن هذا التحالف الثنائى لم يلبث أن تحوّل الى تحالف ثلاثى حينما انضمت اليه ايطاليا فى سنة ١٨٨٢ ويرجع السبب فى هذا التحالف الى أن فرنسا أعلنت حمايتها على تونس فى سنة ١٨٨١ وطفقت تعمل للاستيلاء على بلاد أفريقية الشمالية بأكملها ، فى حين أن ايطاليا كانت تطمع فى تلك البلاد المواجهة لشواطئها ، كما كانت تئن من وطأة أزمات اقتصادية شديدة ألمت بها على أثر الوحدة نخيل اليها أن فى هذا التحالف تفريجا لمتاعبها . غير أن هذا التحالف كان يشو به من بادئ الأمر ما انطوت عليه قلوب الايطاليين والنمساويين من الأحقاد بحيث لو لم تجعل ألمانيا تحالف ايطاليا مع النمسا شرطا أساسيا لتحالفها معها لما أمكن عقد هذا التحالف ولما قبله الرأى العام بتاتا . والواقع أن مصالح النمسا وايطاليا تناقضت تناقضا عظيما سواء أكان فى شبه جزيرة البلقان أم فى شرق البحر الأبيض والأراضى الايطالية الباقية فى حوزة النمسا . ومما زاد فى ضعف التحالف الثلاثى أن ألمانيا التى كثيرا ماقربت شقة الخلاف بين حليفتيها ساعدت تركيا فى حربها مع ايطاليا سنة ١٩١١ رغبة فى الإبقاء على صداقة تركيا التى فتحت أبوابها للألمانيين وهيأت لهم الطريق لتحقيق آمالهم فى الشرق ، وهذا كله أدّى الى زعزعة القواعد التى تربط ايطاليا بحليفتيها حتى أصبح لا يعتمد عليها كثيرا اذا ما هبت العاصفة .

المحالفة الفرنسية الروسية — كان اتفاق فرنسا والروسيا أمرا لامندوحة عنه بعد أن أصبحت ألمانيا عقب حرب السبعين أقوى دولة فى أوربة ، غير

أن بسمارك نجح بدهائه الغريب فى تأجيل هذا التحالف عشرين سنة متوالية ، فقد اتفق مع الروسيا اتفاقا وديا بادئ الأمر كما رأينا ، ثم أقام يعبث بها ويضللها عن مصالحها الحقيقية حتى بعد أن ظهرت نواياه فى مؤتمر برلين ، فنراه فى سنة ١٨٨٤ وفى سنة ١٨٨٧ يعقد مع القيصر اسكندر الثالث اتفاقا سريا مؤداه أن تلتزم الروسيا الحياد اذا ماهاجمت ألمانيا دولة من الدول . إلا أن سقوط بسمارك فى عام ١٨٩٠ غير الموقف الدولى تغييرا كبيرا ، فقد حرمت ألمانيا من خدمات ذلك السياسى العظيم الذى دافع عن مصالحها بعزم وجد ، واستطاعت فرنسا والروسيا أن تتقاربا بعد طول عهد الانفصال ، وقد كان أكبر عامل فى هذا التقارب ما تعرضت له مصالح الروسيا من الخطر فى الشرق ، هذا فضلا عن حاجتها الشديدة الى المال ، فى حين أن عزلة فرنسا وحاجتها الى المعونة كانت أكبر دافع لها لاتمام التحالف الذى عقد فى أغسطس سنة ١٨٩١

على أن هذه المحالفة اقتصرت فى بادئ الأمر على تبادل الزيارات الودية ، ولم تؤثر تأثيرا محسوسا فى السياسة الدولية . ولما وقعت الحرب بين الروسيا واليابان وهزمت الروسيا هزيمة كبرى فى منشوريا فى سنة ١٩٠٥ تزعزعت ثقة فرنسا فى حليفتها ، على أنها أبقت على علاقاتها معها بحكم الظروف القاهرة والرغبة فى تجنب العزلة التى عرّضتها لأكبر الأخطار ، غير أنه لما بدأت الحالة الدولية تتعقد منذ سنة ١٩٠٥ بسبب تصادم المصالح فى أفريقية والبلقان ، تقاربت الدولتان وأثرتا تأثيرا عظيما فى مجرى الحوادث كما سنبينه فى موضعه .

الوفاق الثلاثى — ومما زاد هذا التحالف قوة وارتباطا أن تقاربت انجلترا من الحليفتين تدريجيا على الرغم من التنافس العظيم الذى اشتد بين الفريقين فى القرون الماضية . وذلك أن انجلترا اتبعت بادئ الأمر سياسة التباعد عن المحالفات الأوربية ولو أنها كانت تميل فى الواقع الى التحالف الثلاثى لما كانت

مصالحها تتعارض مع مصالح الروسيا فى الشرق ومصالح فرنسا فى مصر . غير أن نهوض ألمانيا وازدياد أسطولها ونزعتها الى الفتح والاستعمار والتسلط على أسواق العالم حرك فى انجلترا شعور الخطر الداهم فأسرعت الى التقرب من فرنسا وتسوية خلافها معها . وقد تم الاتفاق فعلا بين الدولتين على يد ديلكاسه ولانسدون فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ اذ تقرر أن تطلق يد انجلترا فى مصر كما تطلق يد فرنسا فى مراكش . وبذا وضع أساس الوفاق الذى رفع فرنسا فجأة الى منزلة عالية من العزة والمنعة . وقد ازدادت هذه المنزلة ثباتا حينما تقاربت انجلترا والروسيا فى سنة ١٩٠٧ وسوى الخلاف القائم بينهما فى فارس ، على أن تقسم تلك المملكة الى منطقتى نفوذ إحداهما شمالا للروسيا والأخرى جنوبا لبريطانيا ، وبذا نشأ الوفاق الثلاثى الذى أصبح يوزان التحالف الثلاثى فى الواقع ، لأنه وإن كانت سياسة انجلترا التقليدية تأبى عليها أن تشترك فى محالفات لا تنصرف الى غرض ثابت معين ، ولكنها لم تترك مع ذلك مجالا للظن فى أنها تقف بجانب أصدقائها اذا دعت الحالة لامتشاق الحسام .

توطد المحالفات الأوربية — النزاع الاقتصادى : يرجع السبب فى عقد المحالفات الأوربية كما أشرنا من قبل الى الرغبة فى إيجاد قوات متماثلة تعاون على تقرير السلم ، إلا أن فرجة الخلاف اتسعت تدريجا على أثر الترقى الاقتصادى الخطير الذى عم أوربة فى هذا القرن . نعم إن الروابط الاقتصادية تعددت بين الدول وباتت الوحدة الاقتصادية الدولية قريبة الوقوع ، إلا أن المنافسة الاقتصادية فى أوربة وفى خارجها على وجه أخص اتسعت تدريجا حتى عمت كل سوق من أسواق العالم ، ولا ريب أن أول مظاهر هذا التنافس هو السياسة التجارية التى اتبعتها الدول لترويج تجارتها فبينما يرى بعضها فى سياسة حرية التجارة خير وسيلة لرخص الأثمان وإنقاص تكاليف المعيشة ، فضلا عن تشجيع التجارة الخارجية واستيراد

الآلات والمواد الخام بطريق المبادلة ، يرى البعض الآخر فى حماية التجارة خير سياسة لتدعيم الصناعات الأهلية الناشئة حتى تستطيع أن تمو وتقوى وتكافح غيرها فى أسواق العالم ، على أن ضرائب الحماية كثيرا ما تخفف لمصلحة الحلفاء أو الأصدقاء من الدول على قاعدة التبادل .

أما المظهر الثانى من مظاهر المنافسة الاقتصادية فهو مظهر التوسع والاستعمار الذى اتبعته الأمم الصناعية الكبرى لفتح أسواق جديدة فيما وراء البحار . وقد أطلق على هذا المظهر لقب "أمبريالزم" ، نظرا لما تضمنه من معنى السيادة والفتح ، واليه يعزى لدرجة كبرى ذلك الخلاف الخطير الذى وقع بين الدول فى كل قارة من قارات المعمورة . وربما كانت انجلترا أول الدول التى اختطت سياسة امبريالية صريحة فى عهد "يوسف شمبرلن" الذى وضع سياسة الارتباط الاقتصادى بين انجلترا ومستعمراتها ضد كل منافسة أجنبية ، وجعل التوسع والاستعمار قاعدة من قواعد السياسة الانجليزية .

أما فى ألمانيا فقد كانت سياسة بسمارك تتجه الى تثبيت قدم الامبراطورية قبل كل شىء ، ولكن الشعب الألمانى لم يشأ أن يتئد فى السير كما شاء بسمارك ، بل جعل يعمل لتحقيق آمال عريضة على يد الامبراطور وليم الثانى الذى تمثلت فيه كل الأمانى التى انبعثت فى قلب هذا الشعب الفتى من أثر تأسيس الاتحاد ، وارتقاء الصناعة وازدياد السكان زيادة تدعو الى إيجاد مواطن جديدة لمهاجرة السكان وتصريف التجارة .

ولقد عبر الشعب الألمانى عن رغباته بمظاهر شتى ؛ ففى سنة ١٨٨٦ أنشأ الدكتور « كارل بيترس » حزب الجامعة الجرمانية ووضع برنامجا واسع الأطراف ينطوى على بناء أسطول ضخم ، وإعداد جيش قوى لفتح مستعمرات للتاجر الألمانية والمهاجرين وإدماج أوربة الوسطى بأسرها فى اتحاد اقتصادى سياسى يجمع ألمانيا والنمسا وسويسرا وهولندا وبلجيكا واسكنديناوة وولايات البلقان ، كما ينطوى على

استثمار أراضى تركية آسيا و إنشاء مستعمرات فى جنوب أفريقية وجنوب أمريكا تستظل جميعا بالراية الألمـانية .

ولقد وجدت ألمـانيا الفتاة بين الكتّاب والمفكرين الألمـانيين من رفع سياسة الغزو والفتح هـذه الى مرتبـة العقائد والمبادئ الأزلية الثابتة ، فنيتشه ذهب الى «أن الأرض إرث القوىّ والمستقبل للشعب المتفوّق على الجميع ،وأن المسيحية بحضها على الرفق بالعاجز والضعيف لا تصلح لأن تعيش ، فان البقاء حق الأصلح والقوىّ وحده» . واذا كان «نيتشه» عن غير قصد قد أوحى الى الألمـانيين رسالة السيطرة والسلطان فان «تريتشكه» قد جعل الدعوى صريحة مباشرة لا تحتمل التأويل . فقال «ليس ذلك الشعب المتفوّق إلا الشعب البروسى ،وقد بلغ تفوّقه بطريق الحرب ، و بالحرب يجب أن يبلغ المركز الذى خلق له ، فان من أعظم الخطايا أن تتردّد الأمم فى استخدام قوتها ، واذا كان الغرض الصالح يبرر الحرب ،فأنا أقول إن الحرب الناجحة ، تبرر كل غرض ، وليست الحرب إلا سياسة فى أرفع مظاهرها ، أنها الدواء الهائل الناجع لشفاء أدواء العالم» . وقـد جاء «برناردى» بعبارة أوضح فأشار الى بريطانيا كالحائل بين ألمـانيا و بين عظمتها ، ودعا قومه الى محاربتها لوصـول ألمـانيا الى المكانة التى خلقت لها .

على أن برنامجا كهذا واسـع الآمال كبير الأغراض كان يسـتدعى نظاما وقوة تتناسب مع ضخامتـه . فاندفعت ألمـانيا فى إنشاء جيش عظيم وأسطول لا يجاوزه أسطول على سطح المـاء ، وجعلت تعزز القواعد البحرية فى ولهلمسهافن ، وكيل ، وهليجولند حتى أصبحت مضرب الأمثال فى المنعة والقوّة ، فأجابت انجلترا والروسيا وفرنسا على هذا العمل بزيادة قوّاتها البرية والبحرية ، وكان هذا التسابق فى التسليح نذيرا سيئا للمستقبل .

الدعوة الى السـلم — (Pacifism) على أن هـذا التنافس الحـربى الذى كان يهدّد العالم بنكبات من شر ماشاهده تاريخها قد حرك فى كثير من الكتّاب

والمفكرين شعور الخطر الداهم فشنوا غارة شعواء على الروح الحربية التى كانت تدفع العالم الى الهلاك، ورسموا خطة للاحتفاظ بالسلم على قاعدة احترام القانون بين الدول . وهذه الخطة التى نادى بها ليون بورجوا فى أوربا والرئيس واسن فى أمريكا كانت تتضمن إنشاء عصبة أمم تتولى الاحتفاظ بالسلم ومراعاة القانون بين الدول كما تفعل الحكومة بين رعاياها .

ومن جهة أخرى حاولت الاشتراكية الدولية أن تحتفظ بالسلم بطريقة عملية، وهى اتفاق العمال فى أنحاء العالم على ألا يعاونوا فى إذكاء النار التى تعدها الحكومات وأن يقعدوا عن المساعدة اذا ما نشبت الحرب . إلا أن هذه الوحدة الدولية لم تستطع التغلب على عاطفة الوطنية المقدسة وإحلال العاطفة الدولية محلها، ففى ألمانيا أبى الديموقراطيون الاشتراكيون أن يعملوا لتضحية أعلى المصالح الوطنية فى سبيل المصلحة العامة، فى حين أن الاشتراكين الفرنسيين اقتصروا على السعى لانشاء عصبة من الأمم تخضع لأحكام القانون على مثل مانادى به الكتاب والمفكرون، معتمدين فى ذلك لا على قوة الحق وتأثير الرأى العام فى أوربا بل على قوة منظمة وهى قوة العمال . وبالجملة سار الاشتراكيون فى أعمالهم على غير هدى تتقاذفهم الأغراض المختلفة والآراء المتعارضة فلم تلبث مؤتمراتهم أن فشلت فى الوصول الى نتيجة حاسمة، على أنها عززت الرغبة فى الاحتفاظ بالسلم واجتناب الحرب بقدر المستطاع .

مؤتمر لاهاى سنة ١٨٩٩ — ولعل أول خطوة عملية فى طريق السلم ما اقترحه القيصر نقولا الثانى فى عام ١٨٩٨ من عقد مؤتمر دولى للنظر فى الوسائل التى تؤدى الى تحديد السلاح وإيقاف المنافسة القاتلة التى كان يندفع فيها العالم . وقد عقد هذا المؤتمر فى مدينة لاهاى سنة ١٨٩٩ وحضره مالا يقل عن ست وعشرين دولة ، فلما بدأ المندوبون فى بحث مسألة المسائل التى من أجلها عقد المؤتمر وهى مسألة تحديد المعدات الحربية، تشعبت الآراء وتصادمت المطامع ، ولم يستطيعوا فى النهاية الوصول الى حل قاطع ، ولو أنهم نجحوا فى تعزيز السلم بعض الشىء بانشاء

محكمة دولية للتحكيم فيما عساه أن يقع بين الدول من المشاكل ، على أنه لم يتقرر أن يكون هذا التحكيم إجباريا مما جعل هذه الأداة الجديدة بعيدة عن تحقيق الغرض المقصود من بادئ الأمر .

مؤتمر لاهاى سنة ١٩٠٧ — لذلك استأنف دعاة السلم جهادهم فى العالم بغرض الوصول الى اتفاق الدول فى شأن تحديد السلاح أو نزعه تماما، وكذلك قبول مبدأ التحكيم الجبرى فى كل الأحوال . وقد صادفت هذه الدعوة قبولا من كثير من الدول حتى أنها قبلت مبدأ التحكيم فى حل كثير من مشاكلها من تلقاء نفسها . ولما ازدادت الرغبة فى تحسين العلاقات الدولية وقطع دابر الخلاف الذى قد يؤدى الى حرب عقد مؤتمر جديد فى لاهاى سنة ١٩٠٧ بغرض إعادة النظر فى مسألة التحكيم وجعلها مبدأ لا ينقض من مبادئ القانون الدولى . وقد تقرر فعلا قبول مبدأ التحكيم الجبرى ، ولكنه قصر على الخلاف الذى يقع بين دولتين أو أكثر فى تفسير المعاهدات .

السلم فى خطر — ولا ريب أن إخفاق الأمل فى تحقيق الوسائل التى من شأنها تعزيز السلم كان يهدد دواما بوقوع الكارثة الكبرى ، طالما كان جو السياسة الأوربية متلبدا والخلاف مستحكم الحلقات بين الدول فى مسائل عدة : (أولها) مسألة الالزاس واللورين التى كانت جرحا داميا فى قلب كل وطنى فرنسى ، هذا فضلا عن النزاع الذى اشتدت وطأته بين ألمانيا وفرنسا على تحديد مناطق النفوذ فى شمال أفريقية وغيرها . وكذلك الخلاف الواقع بين النمسا والصرب وبين الصرب وبلغاريا على البوسنه والهرسك ومقدونيا ، وفوق كل هذا كان الخلاف على أتمه بين انجلترا وألمانيا فيما يختص بالتنافس البحرى والتجارى ، فى حين أن الروسيا والنمسا كانتا تتنازعان النفوذ فى السيطرة على البلقان ، وبلغاريا وتركيا تعملان جهدهما لغسل الاهانة التى لحقتهما فى الحرب البلقانية ، فاشتد الحقد والبغضاء فى أنحاء أوربة وتوترت العلاقات بين سائر الدول ، واندفع العالم فى طريق محفوف بأعظم المخاطر والمكاره .

ولعل أول ماأنذر بقرب وقوع الصاعقة ماوقع من الخلاف فى سنة ١٩١١ على مسألة مراكش، فقد كانت فرنسا تعمل منذ أوائل القرن العشرين لبسط نفوذها على هذه البلاد كما فعلت فى تونس والجزائر من قبل، فأرادت ألمانيا أن تنازعها السيطرة على هذه البلاد . وحدث فى مارس سنة ١٩٠٥ أن هزمت الروسيا "حليفة فرنسا" فى حروبها مع اليابان وانعدم نفوذها السياسى فى أوربة، فأسرع أمبراطور ألمانيا الى زيارة مراكش "طنجة" وأعلن أن حكومته لن توافق على أى تغيير فى إدارة تلك البلاد من غير رضاها . وهذا معناه أنها كانت تأبى مد نفوذ فرنسا من غير تعويض لها . غير أن الحرب الروسية اليابانية كانت قدقاربت الانتهاء، فضلا عن أن انجلترا وقفت بجانب صديقتها «فرنسا» فتقرر فى مؤتمر الجزيرة سنة ١٩٠٦ احترام استقلال مراكش، وتكليف فرنسا بالمحافظة على النظام هناك. غير أنه فى سنة ١٩١١ تجدد النزاع على أثر إرسال جيش فرنسى لاحتلال عاصمة مراكش، فقد أعادت ألمانيا احتجاجها وعززته بارسال المدفعية «بانثر» الى "أغادير" لصيانة المصالح الألمانية، وكاد الأمر يؤدى الى نشوب حرب أوربية لولا تغلب روح المسالمة والاعتدال[1]، ففى مؤتمر الجزيرة الذى عقد سنة ١٩١١ تقرر إطلاق يد فرنسا فى مراكش نظير التنازل عن جزء من الكنغو الفرنسية الى ألمانيا، وفى هذا انخذال عظيم لسياسة ألمانيا التى اتجهت الى مضاعفة مجهودها البحرى والبرى من ذلك الحين . ولما نشبت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ وخذلت تركيا وأقفل طريق الشرق أمام دول الوسط، تلبد جو السياسة الأوربية وأصبحت الحالة تنذر بوقوع حرب أوربية عظمى فى المستقبل القريب .

---

(١) يذهب كثير من الكتاب الى أن تدخل ألمانيا فى شئون مراكش كان بمثابة اختبار لقوة ارتباط دول الوفاق .

الفصل الثانى

فاتحــة الحــرب العظـــمى

كيف نشبت الحرب — امتشقت أوربة الحسام عام ١٩١٤ فى حرب لم يشهد التاريخ مثلها، وهى ترجع فى أصلها الى التنازع الاقتصادى والسياسى الذى شاهدنا بعض آثاره، والى فشل المساعى المتكررة لإجبار الأمم على قبول التحكيم والإذعان لمشيئة محكمة دولية . وأما الباعث المباشر لنشوب الحرب فهو امتداد نفوذ الصرب على أثر حرب البلقان امتدادا هدّد طريق ألمانيا الأعظم الى بغداد، وحرّك مطامع هذه الأمة السلافية لإنقاذ أبناء جنسها الخاضعين لحكم النمسا . وحدث فى ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ أن قتل وارث العرش النمساوى وزوجته فى بلدة سيراجيفو بيد طالبين صربيين، فهاج الرأى العام فى النمسا وأسرعت الحكومة الى مطالبة الصرب بعدّة مطالب أهمها الاشراف على التحقيق لاعتقادها بوجود مؤامرة واسعة النطاق تشترك فيها الحكومة الصربية ذاتها . وكانت مذكرة النمسا شديدة اللهجة، عظيمة التحدّى، بل كانت فى ذاتها إعلانا للحرب، فأذعنت الصرب لبعض الطلبات وترددت فى قبول البعض الآخر. فزحفت الجنود النمساوية الى بلغراد فى ٢٨ يوليه، وتأهبت باقى الدول لدخول الحــرب بعد أن فشلت المساعى السياسية التى بذلت للاحتفاظ بالسلم . ذلك أن الروسيا بدأت بتعبئة جيشها لحماية الصرب والدفاع عن مصالحها فى البلقان، ولما طلب أمبراطور ألمانيا الى القيصر أن يوقف تعبئة جيوشه، رفض طلبه، فوقفت ألمانيا الى جانب حليفتها النمسا، ووقفت فرنسا الى جانب الروسيا، بحكم تحالفهما المبنى على المصالح الوثيقة المتبادلة، وأسرعت ألمانيا الى إعلان الحــرب عليهما فى ٢ أغسطس، وشرعت الجنود الألمانية فى الزحف بالفعل الى فرنسا فى ٣ أغسطس بطريق البلجيك، تجنبا للمعاقل الحصينة الكائنة

على حدود فرنسا الشرقيـة ، واعتبرت معـاهدة ١٨٣٩ الضامنة لحياد البلجيك « قصاصة من الورق » كما جاهر بذلك المستشار الأمبراطورى . فأسرعت بريطانيا الى إعلان الحرب عليها فى ٤ أغسطس باسم الدفاع عن حياد البلجيك، وفى الحقيقة للدفاع عن المصالح البريطانية ذاتها .

الحـرب والدول الأخرى — وهكذا اتسع نطاق هـذا الصراع الذى لم يسمع بمثله من قبل، فألمـانيا والنمسا وقفتا الى جانب، وفرنسا والروسيا و بريطانيا وصربيا والجبل الأسـود والبلجيك وقفت الى الجانب الآخر . إلا أن أغلب دول العالم اشتركت فى الحرب تدريجا بدافع مصالحها الخاصة .

فتركيا انضمت الى دولتى الوسط دفاعا عن كيانها المهدد من دول الوفاق ولاسيما الروسيا[١]، وانحازت بلغاريا أيضا الى هذا الجانب مدفوعة بعامل الرغبة فى تحرير بلادها من نفوذ الروسيا، وجمع شمل العنصر البلغارى فى البلقان تحت رايتها، بعد أن أخفقت فى ذلك فى حرب البلقان المـاضية، ثم إن اليابان والصين انضمتا الى الطرف الآخر برغبة الاستيلاء على أملاك الألمـانيين فى الشرق الأقصى . ودخلت البرتقال الحرب كذلك بحكم حلفها القديم مع بريطانيا، أما إيطاليـا فكانت تئن من العبء المـالى والحربى الذى اقتضته الحرب الطرابلسية، فلزمت الحيدة أولا على زعم أن تعهداتها صريحة بأنها تشترك فى حروب الدفاع فقط مع حلفائها، غير أن دول الوفاق خففت عنها أعباءها المـالية، ووعدتها بتحقيق أطماعها فى الترنتينو والتيرول، فانتهت باعلان الحرب على حليفتها النمسا فى ٥ مايو سـنة ١٩١٥ ؛ وأعقبتها اليونان ذات المطامع الواسعة فى تركيا، ورومانيا التى كانت تحلم بمدّ نفوذها على ترانسلفانيا، وتحرير شعوبها النازلة فى أملاك الأمبراطورية النمساوية . أما الولايات المتحدة فقد لزمت الحياد

(١) أعلنت تركيا أن حيدتها لايمكن أن تراعى على كل حال فى هذه الحرب ، إذ ليس من المعقول أن الروسيا والدول الغربية تحافظ على الوسائل الدقيقة المرتبطة باستعمال البوغازين ، فدخولها الحرب فى الواقع كانت مسألة حياة أو موت (تصريحات أنور بك — مذكرات هندنبرج) .

فى بادئ الأمر ولكنها أخذت تتجه تدريجا نحو الحرب، نظرا لصلة الدم التى تربطها بانجلترا، والديون العظيمة التى كانت لها عند الحلفاء، ومركزها الاقتصادى فى العالم، ذلك المركز الذى كان يجعل انتصار ألمانيا إفلاسا لها وخطرا عظيما عليها، فلما خرجت الروسيا من الحرب على أثر الثورة، ونجحت الغواصات الألمانية فى أوائل سنة ١٩١٧ بعض النجاح، أصبح لا مناص من دخول أمريكا الحرب لا سيما وقد كان الرأى العام فى الولايات مهيأ لها من زمن طويل بتأثير « دعوة الحلفاء » عن الفظائع التى قيل بارتكابها من جانب الألمان فى بلجيكا وفرنسا، وبتأثير النزاع الذى نشأ بين الولايات وبين ألمانيا على مسائل الحرب البحرية وغيرها، واليك البيان :

لما ضربت بريطانيا نطاقا على موانئ ألمانيا أثر إعلان الحرب، وحرمت دخول المراكب المحايدة اليها مهما كان نوع ما تحمله، أجابت ألمانيا باعتبار المياه البريطانية منطقة حربية، واستخدمت قوّاتها البحرية ولا سيما الغوّاصات لاغراق كل ما يدخل من المراكب اليها، فاعترضت الولايات المتحدة على عمل الدولتين، غير أن اعتراضها على الألمانيين كان أقوى وأشدّ، لأنهم لم يتخذوا أسباب النجاة لركاب البواخر وبحارتها، كما حدث للباخرة لوزيتانيا التى غرق من ركابها نحو ألف. ثم إن الألمانيين أخذوا أيضا يهيئون الأسباب لتدمير الأرصفة والمعامل والمستودعات الأمريكية التى كانت تستخدم لتوريد المهمات الحربية الى الحلفاء. ولما ازدادت العلاقات توترا، أسرعت ألمانيا الى مفاوضة اليابان والمكسيك للاشتراك معهما فيما عساه يطرأ من الحرب بينها وبين أمريكا، وكان لكشف هذه المفاوضة السياسية تأثير بالغ فى أمريكا، فلما أعلنت الولايات المتحدة الحرب فى ٦ أبريل سنة ١٩١٧، لم يرتفع صوت بالمعارضة إلا نادرا، وقد حذت معظم دول أمريكا الجنوبية حذوها فى هذا السبيل.

وهكذا امتدّت الحرب الى جوانب العالم بأسره، وأثقل كاهل الشعوب بحمل كبير لم تعرفه قبلا؛ فانه لم يقتصر أمر الحرب على عدد معين من الرجال، بل أرسلت

الدول المتحاربة كل الرجال القادرين على حمل السلاح الى الميدان — ولا يستثنى من ذلك انجلترا التى أجبرتها ظروف الحرب على إعلان الخدمة الاجبارية فى أوائل سنة ١٩١٦ وكانت قبلا اختيارية — وحولت الصناعة والزراعة وباقى فروع الحياة الاقتصادية من مجراها الأصلى الى القيام بأعباء الحرب، واستخدمت كل مواهب الرجال كما استخدمت كل مواهب النساء لتحقيق أغراض النصر، فتحولت الحرب من صراع معين الى نزال هائل بين الأمم والشعوب، وتخطى النزال حدود القوات المادية الى القوى الأدبية بأكبر مظاهرها وأوسع حدودها .

حالة الحرب — بلغت الحرب من القسوة والفظاعة مبلغاً لم يشهده الناس من قبل، فقد استخدم الصحافيون والكتاب كل وسائل النشر لإثارة البغضاء والأحقاد حتى انعدمت روح الرحمة وانتزعت أرفع صفات الانسانية كلها من قلوب الشعوب المتحاربة، فلم تترك وسيلة من وسائل الخراب والتدمير واستئصال موارد الحياة إلا استخدمت، وكان للكيمائيين والمهندسين دور فيها لايقدر، فالغازات الخانقة والمعمية والمواد المنصهرة القاتلة، والغواصات والمدافع البعيدة المرمى، والمقذوفات الهوائية المهلكة، والسيارات المدرعة والدبابات، كلها من آثار هذه الحرب التى بلغت نكباتها فى المال والرجال ما لم يحلم به أصدق العارفين . ولعل السلاح الأدبى الذى استخدمه الفريقان لسحق قوات الأعداء المعنوية كان أمضى الأسلحة وأشدها فتكا كما سنبين بعد .

العوامل الفاصلة — ليس من السهل إدراك العوامل الفاصلة فى هذه الحرب الآن . فقد تكون صفات الأمم الخاصة من حيث الثبات والصبر وقوة الإرادة قد لعبت دورا مهما، وقد تكون أساليب الدعوة للثورة والتأثير بالخطابة والكتابة من أكبر العوامل الحاسمة، وقد يكون الضيق الاقتصادى قد ترك أثره . ولكن هناك عوامل أخرى فاصلة لا تقبل الشك، منها :

(أولا) الأسطول البريطانى الذى ضرب النطاق على موانئ الأعداء ، وحرّم على المحايدين الاتجار معهم ، وقام بحماية مواصلات الدول المتحالفة ، ونقل الجيوش وتزويدها بالمؤن والذخائر، وتموين البلاد البريطانيـة وحلفائها على الرغم من محاولة الغوّاصات فصلها عن العالم .

(ثانيـا) كان اشتراك الولايات المتحدة فى نهـاية الحـرب ووضعها مواردها الهائلة من أموال ورجال ومؤن وذخائر تحت تصرف الحلفاء عملا حاسما فى ذاته . كما أن دفاع الرئيس ولسن عن القضية المشتركة أكسبها قوة أدبية عظمى ، ولاننسى شروطه الأربعـة عشر الشهيرة التى وضعت أساسا معقولا للصلح ، فقـد أضعفت الأساس الذى كانت تستند عليه دول التحالف الرباعى فى المقاومـة، وعجلت زمن التفكك والانحلال .

الفصل الثالث

أدوار الحرب

يمكن تقسيم الحرب الى ثلاثة أدوار :

(أولا) الهجوم الألمانى الأول الذى أوقف عند حدّ المارن وأعطى بريطانيا الفرصة لتنظيم المقاومة .

(ثانيا) حرب الخنادق الذى استمر من سبتمبر سنة ١٩١٤ الى مارس سنة ١٩١٨ دون وصول الى نتيجة حاسمة .

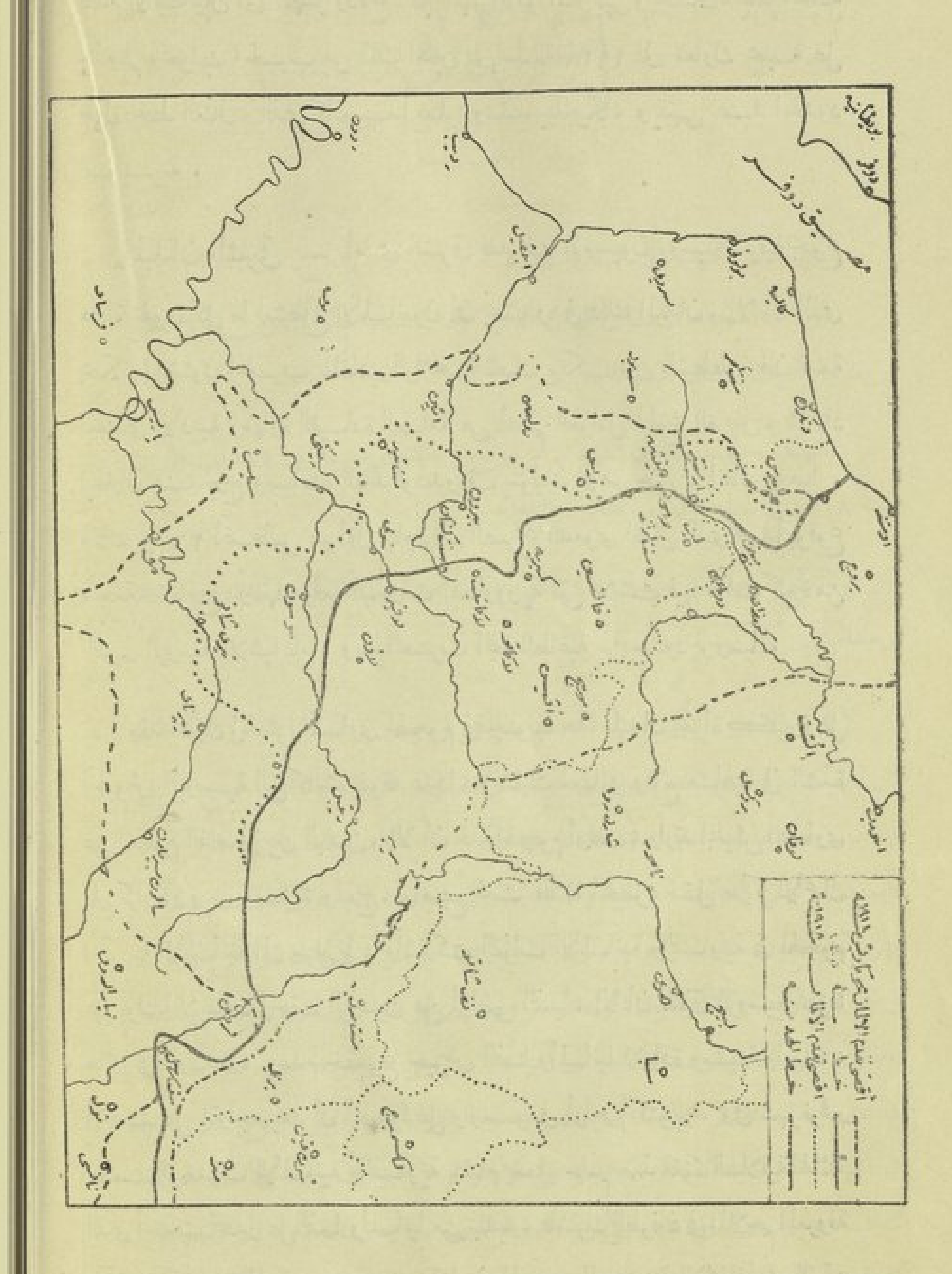
(ثالثا) حوادث سنة ١٩١٨ التى بدأت بهجوم الألمان وانتهت بارتدادهم وحلفائهم فى كل ميدان .

(١) الدور الأول : الميدان الغربى — زحف الجيش الألمانى الى بلجيكا فسقطت لييج بعد دفاع مجيد، وأعقبتها نامور، ثم والى الجناح الأيمن والقلب زحفهما فى البلجيك وفرنسا بينما كان الجناح الأيسر يعمل فى اللورين . فأسرعت أغلب القوّات الفرنسية والانجليزية الى الحدود الشمالية لايقاف الزحف، فهزم الفرنسيون عند شارلروا، وارتد الانجليز عند مونس، وانتهت موقعة ملهوزن فى اللورين بانتصار الألمانيين، فواصلوا الزحف الى ليل، واراس، وريمس، وأميان، واخترق الفرسان صفوف الأعداء الى نحو ١٢ ميلا من باريس، حتى خيل للناس أن المدينة ستسقط لا محالة، فأسرعت الحكومة الفرنسية بالرحيل الى بوردو، غير أن القوّات الفرنسية الانجليزية حملت على الألمان على نهر المارن، وقامت بحركة التفاف خطيرة حول جناحهم الأيمن الذى انكشف بتهوّره فى التقدم، فأرغمتهم على التقهقر الى نهر الأين، وبذلك استردّت فرنسا جزءا كبيرا من بلادها، وكاد يتحوّل

تقدّم الألمـانيين الى تقهقر ودفاع، غير أنهم أقاموا المتاريس والخنادق، فحذا الحلفاء حذوهم وتحولت الحـرب من ذلك الحين الى سـنة ١٩١٨ الى معارك محليـة على طول خط القتال، الذى كان يبـدأ عند أوستند ببلجيكا، وينتهى عنـد الحدود السويسرية .

الميدان الشرقى ـــ أما فى الشرق فقد غزا الروسيون بروسيا الشرقية بجموع هائلة تفوق كل ما استطاع الألمـانيون أن يحشدوه فى ذلك الميدان، إلا أن الذى يحكم على شئون الحـرب بالمقادير الواضحـة للعيان يرتكب متن الشطط، فان قيمة الجندى الأدبية ومهارة القيـادة العـامة هى أعظم العوامل لبلوغ الغرض، فما كاد الجنرال هنـدنبرج ومساعده القائد لودندورف يتوليان الأمر حتى تم إنقاذ بروسيا . وكان يوم ٢٦ أغسطس هو أول أيام ذلك الصراع الدموى الهائل الذى ابتدأ بوقوع فاجعة «تاننبرج» وتلتها موقعة البحيرات المـازورية التى تلاشت فيها قوات كبيرة من القوى الروسية تلاشيا تاما، وبذا انحسرت اللجة الطاغية عن حدود بروسيا .

وقد حاول الجيش النمساوى الهجوم فى جنوب هذا الميدان بجرأة كبيرة على الجيوش الروسـية التى كانت تفوقه عددا، واشتبك معها فى وقائع متناهية فى الشدّة على التخوم الفاصلة بين البلدين، إلا أن هذا الهجوم أوقف، وارتد الجيش النمساوى الى كراكاو و برزميسل، ولمبرج، وأصبح تحت طائلة الخطر، فنقل مركز الأعمال الحربية الألمـانية الى سيليزيا ، واشتركت القوات الألمـانية والنمساوية فى الهجوم على بولندا لإيقاف زحف الروسيين على أراضى النمسا، إلا أن تفوّق الروسيين تفوّقا هائلا فى العـدد ، وعدم خضوع جيوش النمسا وألمـانيا لارادة ومشيئة واحدة ، أرغمهم على التراجع بعد أن أطبقوا على وارسـو فى أواخر أكتوبر . وفى شهر نوفمبر نظمت الوحدات الألمـانية والنمساوية للقيام بعمل حاسم ضدّ القوّة السلافية الهائلة الذى أخذت تنحدر على النمسا وألمـانيا من جديد، فاشتبك الطرفان فى الملاحم المعروفة الآن بمعركة لودز "وهو صراع هائل يتمثل فى الهجوم والدفاع، فى الالتفاف، والتهدّد



بالالتفاف، وفى الاختراق وفى التهدّد بالاختراق ، وهو منظر بوحشيته المفزعة يفوق منظر سائر الوقائع التى حدثت الى هذا العهد فى الميدان" وقد كان مجىء فصل الشتاء باعثا على شل نشاط الخصمين إذ كان الجليد والثلج يغطيان ساحة المعركة .

وهكذا استطاعت جنود ألمانيا والنمسا أن تنقذ وطنها من غير أن تحرز نصرا قاطعا . وما الأسباب التى استوجبت عدم الحصول على فوز حاسم إلا نضوب موارد قوتها هناك، إذ كان الجزء الأعظم من الجيش الألمانى فى الجهة الغربية حيث كان يتطلب الفصل فى الحرب .

فى البــحار ــ أما فى البحار فقد أسرعت القوات البريطانية فى هذا الدور الأول بحصار سواحل الأعداء، فحذت ألمانيا حذوها وأخذت الطرّادات الألمانية لاسيما الطرّاد أمدن تنزل بالمراكب التجارية الانجليزية خسائر فادحة ، واشتبكت فرقة من السفن الحربية الانجليزية مع أخرى ألمانية على سواحل شيلى فى نوفمبر سنة ١٩١٤ فتحطمت الأولى . غير أن السفن الألمانية ما لبثت أن تحطمت أيضا عند جزائر فوكلاند فى ديسمبر سنة ١٩١٤

الدور الثانى : الميدان الغربى ــ استمرت حرب الخنادق أكثر من ثلاث سنوات لاقى فيها المتحاربون من أهوال الطبيعة، ووطأة الحرب ما لم يخطر على قلب بشر، فالمعركة التى كانت فيما مضى تلبث ساعات ، تحوّلت الى صراع فظيع يستغرق عدّة أشهر، حتى خيل الى الناس أن الصلابة البشرية أصبحت لا حدّ لها . غير أن الفريقين أخفقا مع ذلك فى القيام بعمل حاسم ، وكانت أهم أدوار الصراع فى أربعة مواضع :

(١) ايبر التى كان يرابط فيها البريطانيون للدفاع عن موانئ المانش .

(٢) ريمس، وفردان . وكان يعسكر فيها الفرنسيون للدفاع عن باريس .

(٣) منطقة السوم وكان يقتسمها الفرنسيون والبريطانيون .

(٤) اراس ، وكمبراى وكان يحرسها البريطانيون أيضا . وهاك أهم معارك هذا الدور العنيف :

على أثر معركة المارن قام الألمانيون بهجمات شديدة فى ساحة ايبر من أكتوبر الى نوفمبر سنة ١٩١٤ ثم فى أبريل سنة ١٩١٥ وفى هذا الهجوم الأخير استعمل الألمانيون أول مرة غازاتهم السامة ، فانثنت الخطوط الانجليزية بتأثير المطارق الألمانية القوية ، إلا أن الألمان لم يصلوا الى غرضهم فى النهاية . وانقضى صيف هذا العام من غير حادث يذكر فى هذه الساحة . وفى أواخر سبتمبر انقض الحلفاء على الخطوط الألمانية فى اتجاه شمبانيا ولكنهم ردّوا على أعقابهم بخسائر كبيرة .

وفى مستهل العام التالى ١٩١٦ تحوّل الهجوم الألمانى الى فردان بقيادة ولى العهد لفتح طريق الجنوب وطريق الغرب نحو باريس . إلا أن الضحايا الهائلة التى بذلها الألمان عبثا أظهرت خطأ المجازفة فى الهجوم على حصون خالدة كحصون فردان فأبطل الهجوم . غير أن الفرنسيين قاموا فى أكتوبر بكرة حادة على شاطئ الميز الأيمن ففقد الألمانيون ما اكتسبوه أمام فردان ، وأسدل الستار على هذه المجزرة البشرية العظيمة فى ديسمبر .

و بينما كانت معركة فردان فى أشد أدوارها قام الحلفاء فى صيف ذلك العام بهجوم عام على منطقة السوم بقوّات عظيمة من الرجال والمواد الحربية ، وتمكنوا فى صراع حادّ دام خمسة أشهر من إرجاع خطوط الألمانيين الى الوراء عشرة كيلو مترات على خط يبلغ امتداده ٤٠ كيلو مترا وهى نتيجة صغيرة بجانب ما تقاضته من آلاف الأرواح البشرية . ولم يهدأ الصراع فى منطقة السوم إلا بهطول الأمطار التى تعذر معها السير . فتنفس الخصمان من هول هذه المعركة التى تخطت أهوال فردان .

غير أن هذه الثغرة التى انفرجت فى خطوط الألمانيين أوجدت المعسكر الألمانى الأكبر فى مأزق حرج ، فقد عرّض الجيش لخطر التطويق ، فصح العزم

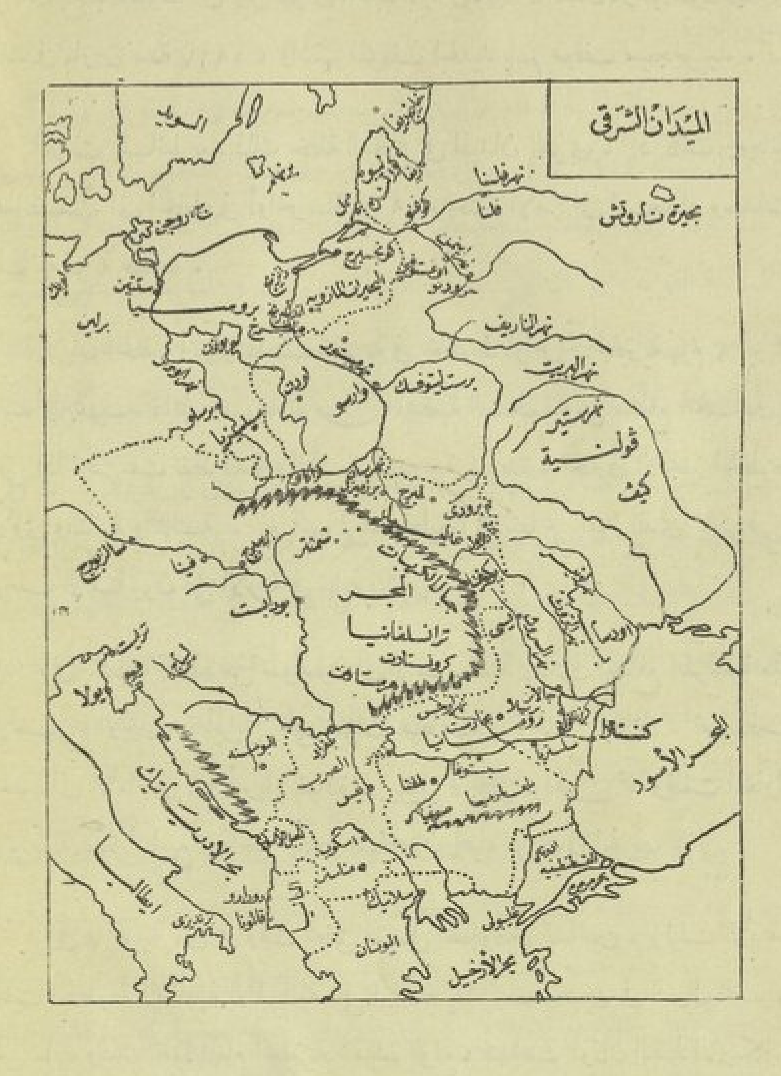
على التراجع بالخطوط الى وتر القوس المحدد بأراس، وسان كنتان، وسواسون وقد تم ذلك فى مارس سنة ١٩١٧ ، واشتهر الموقف الجديد باسم موقف سيجفريد .

التزمت ألمانيا بعد ذلك خطة الدفاع فى الميدان الغربى ، إذ كانت رومانيا قد انضمت الى الحلفاء فى أواخر سنة ١٩١٦ واحتاج الأمر الى استخدام وحدات ألمانية قوية ضدها .

إلا أن الحلفاء أثاروا عاصفة قوية فى خطوط أراس الانجليزية يوم ٩ أبريل فابتدأوا بتمهيد هائل بمجموعات من المدفعية الضخمة ومن مدافع الخنادق ، حتى اذا تزعزعت نقط الدفاع الألمانية بدرجة شديدة ، اخترق الانجليز الخطوط الأولى والثانية والثالثة . غير أنهم لم يستطيعوا الانتفاع بالفوز الذى تيسر لهم . وتغلب الألمانيون على الأزمة فى نهاية الأمر .

وفى المنطقة الممتدة من سواسون الى ريمس اشتد إطلاق المدافع الفرنسية مدة الأسبوع الأول من أبريل حتى تحولت منطقة الدفاع الى أطلال ، ثم اندفعت الجنود الى الأمام فى ١٦ أبريل بقيادة « نيفيل » بطل فردان ، وظلت المعارك متواصلة عدة أسابيع ، وأخيرا سقط المهاجمون إعياء من هول الحرب .

وفى ٧ يونيه أى فى وقت تحقق فشل الهجومين السالفين ، زلزلت الأرض تحت الخطوط الدفاعية الألمانية على انجاد و يتشائيت ومسين فى الشمال الغربى من ليل ، وذلك بقوة ألغام انجليزية شديدة الوقع ، فتداعت أركان النقط الارتكازية الأساسية ، وفى وسط الدخان انقضت الجنود الانجليزية على بقايا المدافعين ، فكانت خسائر الألمانيين من الرجال ومعدات القتال جسيمة . وكان الغرض من هذه المباغتة تقليل النتوء البارز فى هذه المنطقة تمهيدا لهجوم عظيم فى منطقة الفلاندر حيث كان مركز الغواصات التى كانت تهدد الحلفاء الآن بخطر جسيم . فلما تم الأمر ، بدأ الانجليز فى أواخر يوليه معركة هائلة فى هذه المنطقة ــ منطقة فلاندر ــ فأحدثت


الميدان الشرقي
السويد
بحيرة ناروتش
نهر فلنا
نهر ناريف
نهر البريت
برلين
برست ليتوفسك
وارسو
ڤولنسية
كيف
بودابست
المجر
ترانسلفانيا
كرونشتادت
هرمانشتادت
الصرب
بلغاريا
البحر الأسود
كنستانزا
اليونان
بحر الأرخبيل
الادرياتيك
ايطاليا

أزمة عظيمة لدى الألمـانيين كما وقع فى هجوم السوم المـاضى ، ولم ينقذهم منها إلا مياه السيول التى ملأت الحفر التى أحدثتها القنابل . وقد خفت وطأة هذه المواقع الدموية الهائلة فى أكتوبر دون الوصـول الى نتائج حاسمة ، على الرغم من فداحة الخسائر من الجانبين .

وعند اقتراب هذه المعركة من الانتهاء، قام الانجليز بغتة بهجوم عظيم فى كامبريه فى ٢٠ نوفمبر، واستطاعوا بفضل دباباتهم (التانكس: وهى عبارة عن أبراج مصفحة تستطيع اجتياز الحفرات والخنادق) وخيالتهم من اجتياز الخطوط الدفاعية بأكملها . ولم ينقذ الألمـانيين من هـذه الكارثة إلا كرة دفاعية أجلت العدو عن كل المواقع التى اكتسبها تقريبـا . أما القيادة الفرنسـية فقد اقتصرت على توجيـه حملات محليـة قريبا من فردان ولاون ، وذلك نتيجة للخسائر التى رزئت بهـا فى الربيع المـاضى .

الميـدان الشرقى — فى فاتحة عام ١٩١٥ قرر الألمـان القيام بعمل حاسم لأسـباب عسكرية وبواعث سياسية أيضـا ، فان تراجع الجيـوش النمساوية أمام الروسيين فى العام المـاضى زعزع قوة الحكومة الداخلية، ومن جهة أخرى بدأت النمسا تشعر بالخطر الذى يهددها من جانب إيطاليا . فبدأ العام بسلسلة وقائع كان الغرض منها سحق القوات الروسية المحتشدة على حدود النمسا وحدود بروسيا الشرقية ، ففى ١٢ فبراير بدأت الأعمال الحربية التى أصابت الجيش العـاشر الروسى فى جهة «أوغستوفو» بما أصيب به الجيش الفرنسى فى سيدان، إذ تمت حركة التفاف واسعة حول هذا الجيش، وانقض عليه الألمـانيون فى موقعة بالغة منتهى الهول، فخرجوا منها بأكثر من مائة ألف أسير، وكان قتلى الروسيين أعظم من عدد الأسرى بكثير . وقد أجابت الروسيا على هـذا النصر الباهر بحركة هجوم عند حدود بروسيا القديمة ، فأرسلت قوات ذات كثافة هائلة، ولكنها كانت تسحق على عجل . وأخذت أنهار الدماء الروسية تجرى الى مستهل الربيع فى الوقائع الناشبة فى شمال الناريف وفى غرب

النيمن، على أن ألمانيا لم تجن الثمرة التى كانت تتوقعها ، فان قوات روسية جديدة كانت تحل محل القوات المنحلة فى أقرب وقت .

وفى أثناء ذلك حاول الروسيون فى الجنوب أن يقتحموا جبال الكربات مهما كلفهم ذلك من الضحايا ، على زعم أن اندفاع اللجة الروسية فى بلاد المجر يضع حدا فاصلا للحرب . فقررت القيادة الألمانية إخفاق هذا الهجوم بالقيام بحركة التفاف من شمال غاليسيا ومن المنعطفات الكبرى من نهر الفيستول فى اتجاه كوفنو . فاضطر الروسيون الى التراجع على سائر خطوطهم آخذين فى التخلص من حركة التطويق التى تهددهم، ولم يحجموا عن التخلى عن كل شىء حتى «وارسو» فى سبيل التمكن من إنقاذ السواد الأكبر من قواهم ، وهكذا أفلت الدب الروسى من الشباك التى كان يراد اقتناصه بها . واذا كانت دماؤه قد سالت من أكثر من جرح واحد فان الطعنات التى أصابته لم تكن قاتلة، فقد كان يظن أن الخسائر التى منى بها الروسيون بلغت من الجسامة مبلغا يجعل الألمانيين يطمئنون مدة طويلة ، إلا أن الروسيين أخذوا يجهزون فى فترة الشتاء طوفانا هائلا من الجنود فى جهة بحيرة ناروتش ، وفى يوم ١٨ مارس سنة ١٩١٦ أطلقوا النيران على الخطوط الألمانية الشمالية بمدفعية لم ير لها الميدان الشرقى مثيلا من قبل . ثم اندفعت القوات الروسية تمد من الأمواج لا نهاية له ، فقابلهم الألمانيون بنيران مهلكة ، واشتد ذوبان الجليد فتحولت ساحة القتال الى برك ومستنقعات، واضطر الروسيون الى تعطيل الحركات الحربية .

وفى شهر يونيه انتقل الهجوم الى جنوب البريبت فتداعت الخطوط النمساوية فى فولهينا، وبوكوفينا من تأثير الصدمات الروسية وبلغ الهجوم الروسى قمم الجبال فى جنوب الكربات . وقد كانت هذه الأزمة أعظم خطرا من سنة ١٩١٤ لأنه لم يكن فى هذه المرة قوات احتياطية ألمانية كبيرة مستعدة للتوسط لتلافى الحالة، إذ استعر الهجوم الروسى بشدة هائلة على طول الميدان الشرقى، وفى الجبهة

الغربيـة كان الكفاح مستعرا حول فردان وفى السـوم . وفى التيرول الجنـوبى، خفت وطأة الهجوم النمساوى الذى وقع بعـد إعلان ايطاليا الحـرب فى مايو سـنة ١٩١٥ على أثر تداعى الخطوط فى غاليسيا ، فانتقـل الايطاليون الى خطـة الهجوم على الايسـونزو، وأخيرا جاءت حوادث البلقان فزادت الحالة سـوءا، فان رومانيـا أخذت تتهيأ للانضمام الى جانب الحلفاء مدفوعة بتأثير هـذه الانتصارات ولكى يتلافى الألمـانيون هذه الأزمة، اتفقوا مع البلغار على ضرب الحلفاء المعسكرين فى سلانيـك لارهاب رومانيا ومنعها من دخول الحرب . إلا أن الجيش البلغارى أخفق فى مهمته . فقررت رومانيا على الأثر إعلان الحرب فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ وأصبح الموقف ينذر بضرب دول الوسط ضربة قاضية .

إزاء هذا الخطر العظيم، قررت دول التحالف الرباعى إيجاد هيئة قيادة عليا مسئولة للنظر فى المسائل العسكرية العامة فقط ، وعهدت رياستها الى الجنرال هندنبرج وزميله القائد لودندورف . وكان أهم ما اتجهت اليه هذه القيادة إرسال حملة الى رومانيا .

حمـلة رومانيا — استغرقت هجمات الشرق والغرب كل قوى دول التحالف الاحتياطية، فأصبحت هذه الدول فى موقف خطير عندما أشهرت رومانيا الحرب سنة ١٩١٦، وكان الأمر متوقفا فقط على معرفة ما اذا كان المعسكر الرومانى الأكبر يستطيع أن يسـتفيد من القوة التى حشدها ، غير أن القيـادة العليا لدول التحالف تمكنت من حشد قوات كافية لمفاجأة العدو على خطوط ترانسلفانيا، ودوبريجه ، وعهدت بالجيش الأول الى ماكنزين الذى تقدم على خط كونستنزا — كزيرنافورا وعبثا حاولت رومانيا أن تنقض على مؤخرته باجتياز الطونة فى جهـة راسكول يوم ٢ أكتوبر فقد أطبق ماكنزين على هذه الجنود حتى لم يرإلا القليل منها وطنه مدة الحرب . هـذا بينما كان القائد فالكنهاين يضرب الرومانيين ضربات شديدة فى هرمانستاد وفى كرونستاد حتى أجلاهم عن ترنسلفانيا . ثم حوّل الهجوم الى مجاز زوردق فدخل الأراضى الرومانية فى ١١ نوفمبر . وكان ماكنزين قد تأهب للاتصال

بحملة الشمال، فهزم الجيش الرومانى هزيمة تامة جنوب السكة الحديدية واستولى على كونستنزا وأجبر جيوش الأعداء على التراجع نحو الشمال، ثم نقل القوة الكبرى الى سيستوف ومنها عبر الطونة فى ٢٢ نوفمبر وتم اتصاله بالقائد فالكنهاين فى معركة أرجيش حيث سحقت القوى الرومانية الكبرى، وتوجت هذه الأعمال بسقوط بخارست فى ديسمبر، وتقهقر فلول القوات الرومانية الى ملدافيا.

وقد حاولت قوات الحلفاء فى سلانيك بقيادة الجنرال سراى أن تساعد رومانيا بالوثوب على البلغاريين فى اتجاه موناستير، ولكنها لاقت صلابة كبرى ففشلت فى مهمتها. أما الروسيون فقد تابعوا الكرة فى غاليسيا والكربات بدل مساعدة حليفتهم مباشرة مساعدة فعلية، غير أن هجماتهم أوقفت فى الكربات بعد أن عرّضوا أعداءهم لأزمات خطيرة.

ثورة روسيا وظهور البلشفية — وفى صيف العام التالى (سنة ١٩١٧) فاجأت العالم أنباء نشوب الثورة فى الروسيا وانهيار بناء القيصرية. وقد كان غرض القائمين بالثورة إزالة رغبة الصلح التى استولت على كافة الأوساط الروسية، إلا أن النتيجة كانت انحلال القوات الروسية انحلالا مهد الطريق لألمانيا للقضاء عليها، ومع ذلك لم تشأ هذه الدولة أن تتعرض للحركة حتى لا تعيد شأن معركة فالمى التى جمعت قوى فرنسا المبعثرة، وكونت منها نواة الجيش الذى دوّخ أوربة فيما بعد. لكن الحلفاء أدركوا ما يصيبهم من انهيار الروسيا، فعملوا جهد استطاعتهم لابقائها فى الميدان حتى تصل الجيوش الأمريكية الجديدة الى فرنسا، فأسندت القيادة العليا الى «كيرينسكى» الذى طفق يعمل لإعادة النظام والطاعة فى الجيش، ثم أخذ فى مهاجمة الخطوط الألمانية النمساوية فى أقصى شمال وجنوب الجبهة الشرقية، فانتصر بعض الشىء على الرغم من الفوضى الناشبة. بيد أن القيادة الألمانية العليا استطاعت بفضل الهدوء السائد فى الجبهة الغربية أن تصد هذا الهجوم بآخر قريبا من "اثرانو بل" فى الجنوب الشرقى فى ١٩ يوليه فمزقت قوات الروسيين، وخلصت الأراضى النمساوية الألمانية من تسلط العدو عليها. وقد كان فى العزم النزول من بكوفينا ووادى السرث الى ملدافيا

للقضاء على البقية الباقية من الجنود الرومانية، ولكن هذه الحملة كانت تحتاج الى قوات كبيرة، بينما كانت الحالة فى ايطاليا تستدعى العلاج السريع، وكذلك كان الاستيلاء على منطقة ريغا فى الشمال ذا أهمية عسكرية وسياسية لتعجيل انحلال الروسيا، فوجهت اليها حملة بحرية استولت على جزيرة أويسيل فى أكتوبر، وفتحت الطريق المؤدى الى بتروغراد. وحينئذ اشتد الاضطراب فى العاصمة واختل سير الأعمال، بينما كانت عوامل التدمير فى الداخل[1] أشد فتكا من عوامل الأعداء فى الخارج، فان الثورة السياسية التى تمت على يد الطبقة المتوسطة وزعيمها كيرنسكى قد تحولت الى ثورة كومونية هائلة على يد لنين وتروتسكى البلشفيين اللذين كانا يدعوان الى شيوع

---

(١) قال ارنست دراهن فى كتابه عن ألمانيا الثورية مدة الحرب العالمية: «بعد أن عينت روسيا وزارة من أهل الطبقة المتوسطة فى ربيع سنة ١٩١٧ وظهر أن هذه الوزارة الجديدة لا تميل الى مصلحة ألمانيا وحينا بنصيحة رجل كان من البلشفيين ثم زاول التجارة فى مدة الحرب مؤداها أن نرسل الى الروسيا فئة من البلشفيين الذين كانوا يقيمون فى سويسرا».

وكتب البرخت ورث فى تاريخ الأمبراطورية الروسية «أن كيرنسكى أبدى أنه وطنى متحمس فأحيا الروح العسكرية التى كادت تستنيم بتأثير الحلفاء. ولذا جمع الكونت بروكدروف رنتزو سفيرنا فى كوبنهاغ زمرة من كل صنف من الناس وجعل يوقد الثورة فى روسيا جهارا على يد (بارفوس هلفنت) وهو يهودى شرقى داهية كان يجول فى نفسه أن يقضى على الثورة الروسية بفوضوية لا تبقى ولا تذر. وبناء على هذه الخطة ألح فى أن يرسل لنين وتروتسكى الى روسيا لكى يمهدا طريق البلشفية فيها».

وقد كتب الجنرال لودندورف يؤيد هذه النبذات، فقال: إن الثورة شبت فى روسيا فى مارس تحت رعاية الحلفاء، وعلى الخصوص السفير الانجليزى بوكنان نخلع القيصر حلفاؤه أنفسهم حين اكتشفوا أنه كان يبتغى صلحا منفردا وما كادت الحكومة الجديدة تتسلم الأمور حتى حاولت الاستمرار فى الحرب الى النهاية.

وقد كان من مصلحة ألمانيا حينئذ أن تحبط الروسيا حبوطا تاما لأن الحلفاء كانوا يتوقعون نجدة من أمريكا. فتقرر إرسال لنين ليعجل الثورة الروسية ويقوى النزعة السلمية التى بدأت تسرى فى الروسيا برمتها، وليس هذا بغريب فكما قال بسمارك، فى الجهاد الذى لا نتيجة له إلا أحد أمرين: الحياة أو الموت، يقبض الناس على أى سلاح يصل الى أيديهم ولا يبالون بما يدمرونه بهذا السلاح، اذ لا يبقى لهم من غرض الا النصر والحرص على استقلالهم. وإنما يبقى للسلم أو الصلح أن يعمر ما تدمر ويصلح ما تخرب. «عن مجلة الهلال»

الملكية ويذهبان الى أن الوطنية والقومية آراء فاسدة ، وأن الدولية العامة يجب أن تحل محل القومية الخاصة، وأن الحرب بين الشعوب جرم لا يغتفر ، فتعاقد البلشفيون والألمان على الهدنة فى ديسمبر سنة ١٩١٧ وظلت المفاوضات مستمرة فى برست ليتوفسك الى مارس سنة ١٩١٨ حين أمضيت شروط الصلح التى نصت على اعتراف الروسيا باستقلال فنلندا، والأوكرين، والتخلى عن ساحل البلطيق، وبولندة، وباطوم، وقارس لدول التحالف كما نصت على حل الجيش والأسطول . وكان خروج روسيا من الحرب داعيا الى خروج رومانيا بالمثل بمقتضى معاهدة بخارست مارس سنة ١٩١٨، وهى تقضى بالنزول عن الدوبرجة، وتعديل حدود المجر، وحل الجيش، وتسليم كميات كبيرة من الحبوب والزيوت ، وإطلاق حرية الملاحة فى الطونة .

الميدان الايطالى — دخلت ايطاليا الحرب فى مايو سنة ١٩١٥ وأسرعت بمهاجمة النمساويين على خطوط الايسونزو من غير نجاح يذكر، وفى ربيع سنة ١٩١٦ بدأت النمسا بمهاجمة التيرول الجنوبية غير أن وطأة الهجوم خفت على أثر تداعى خطوط غاليسيا، فانتقل الايطاليون الى خطة الهجوم على خطوط الايسونزو من جديد، واستولوا على جوريزيا فى أغسطس سنة ١٩١٦ فأصبحت المملكة النمساوية فى أحرج المواقف ، لا سيما وأن العناصر السلافية التى حاربت بحماسة وعزم على خطوط الايسونزو (خلافا لما فعلته فى غاليسيا) أخذت تظهر روح التمرد، لما ارتدت القوات النمساوية الى خطوطها الأخيرة، فصح العزم على القيام بحملة مشتركة من الحلفاء ضد ايطاليا ، وبدأ الهجوم من تولمينو يوم ٢٤ أكتوبر فى اتجاه يودين وكيفيديل فانجلت القوات الايطالية عن خطوطها ، وارتدت من موقع الى موقع بخسائر فادحة حتى نهر البياف ، وهناك ثبتت بمعونة الفرق الفرنسية الانجليزية التى أسرعت لانجادها على عجل ، ولو كان لدى دول الوسط قوات متوفرة إذ ذاك (راجع الحالة فى الميدان الغربى) لحل بايطاليا ما حل برومانيا من قبل .

الميدان العثمانى — كان لهذا الميدان أهميـة خاصة ، فان بلاد العثمانيين وخصوصا البوغازين كانت تفصل الحلفاء عن روسـيا وتمنعهم من إمدادها بالذخائر التى كانت فى أعظم حاجة اليها ،فوجهت فى بادئ الأمر قوات عظيمة من الأسطول البريطانى لاختراق البوغازين فى فبراير سنة ١٩١٥ ، ولكنها فشلت . ولذا عززت القوات البحرية بقوات برية أنزلت فى غاليبولى لتتعاون القوتان على إخضاع الأتراك وفتح طريق الروسيا . ولكن هذه الحملة الجديدة التى كانت تتكون فى الغالب من جنود أسترالية ونيوزلندية لاقت صلابة وشـدة من الأتراك أذهلت الأصدقاء كما أذهلت الأعداء . هـذا الى أن القيادة الألمانية العليا قررت القيام بغزو الصرب والجبل الأسود وفتح الطريق الى تركيا لامدادها مباشرة بالمـال والرجال والذخائر ، وقد تم لها الأمر فى ديسمبر سـنة ١٩١٥ بمساعدة بلغاريا ، فاضطرت بريطانيا الى الانسحاب من غاليبولى فى أوائل سـنة ١٩١٦ بعـد أن تكبدت خسائر فادحة ، واقتصرت على ترك قوات من الحلفاء فى سلانيك لمراقبة البلقان . غير أن الروسيين بقيادة الأرشـيدوق نقولا عولوا على الاتصـال بالحلفاء بطريق الشرق ، فاخترقوا القوقاز الى أرمينيا فى فبراير سنة ١٩١٦ واستولوا على المواقع الحصينة فى أرضروم ، وطرابزون ، ولكنهم فى النهـاية أجبروا على الارتداد نظرا لحزونة الأرض وصعوبة التموين .

حملة العراق — بعد أن فشل البريطانيون فى فتح طريق الروسيا ، وطدوا العـزم على فتح أملاك السلطنة العثمانية فى الشرق ، ففى خريف سنة ١٩١٥ خرجت قوات بريطانيـة من الهند لغزو العراق ، فتقدم الجنرال تونشند على الدجلة واستولى على كوت العمارة وكادت بغـداد تسقط فى يده ، إلا أن الأتراك استجمعوا قواتهـم وحملوا على البريطانيين فردوهم على أعقابهم ، وحاصروا الجنرال تونشـند فى كوت حتى اضطر أن يسلم اليهم فى أبريل سـنة ١٩١٦ ؛ غير أنه فى السنة التالية تقدمت قوات بريطانيـة جديدة بقيادة الجنرال «مود» على الطريق القـديم فاستولت على

كوت واحتلت بغداد فى مارس سنة ١٩١٧ ، واسترد البريطانيون مركزهم المزعزع فى الشرق .

حملة فلسطين — أما فى جنوب فلسطين فقد حاول الأتراك الخروج منها لغزو مصر من غير أن يعدّوا لها العدّة الكافية ، فارتدّوا على ضفة القنال من غير أن يصيبوا غايتهم (أغسطس سنة ١٩١٦) وتحوّل دفاع البريطانيين الى مهاجمة الأتراك فى بلادهم (يناير سنة ١٩١٧) بعد أن أتموا الخط الحديدى الذى أعدّ لإمداد قوّاتهم الزاحفة على فلسطين، ومدّوا أنابيب الماء العذب فى صحراء سينا . إلا أن هجومهم فشل أمام غزة «لأن حملتهم كانت مقصورة على التعرّض للجبهة وخالية من الفن الحربى» . وحينئذ أسندت القيادة الى الجنرال أللنبى فى خريف ذلك العام، وعلى يديه تم فتح هذه البلاد نظرا لتشتت قوى الترك وتفوّق القوّات البريطانية فى العدّة والعدد، فسقطت بيرسبع فى أكتوبر وبيت المقدس فى ديسمبر . وبذا أصيبت السياسة التركية بنكبة أدبية خطيرة، ولا ريب أن نقص وسائل النقل فى هذا الميدان وفى ميدان العراق وسوء حالة التموين وعجز المحصول ومعاداة العرب للحكومة تعدّ من أعظم عوامل هذا الانخذال .

الحرب البحرية والغارات الهوائية — أسرعت انجلترا على أثر إعلان الحرب باتخاذ قرارات صارمة لعزل ألمانيا عن بقية العالم ، ففى ٢٠ أغسطس و ٢٩ أكتوبر سنة ١٩١٤ صدرت قرارات المجلس بايقاف التجارة الألمانية مهما كان نوعها ومهما كان مصدرها . وفى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا أيضا أن بحر الشمال يعدّ منطقة حربية وأن كافة المراكب التجارية يجب أن تسير بطريق المانش وفى خط معين فى بحر الشمال حتى تحكم المراقبة . أما ألمانيا فقد استخدمت من بادئ الأمر عدّة طرّادات وأخصها الطرّاد امدن لإغراق المراكب التجارية الانجليزية فى عرض البحار، ولكن عملها هذا لم يؤثر كثيرا فى سيادة الانجليز البحرية،

فعادت وأعلنت فى ٤ فبراير سـنة ١٩١٥ أن المياه الانجليزية تعتبر منطقة حربية ، واستخدمت عددا من الغوّاصات لإغراق مراكب الأعداء، فأجابت انجلترا على هذا الإعلان بقرار ١١ مارس سـنة ١٩١٥ الذى حرّمت فيه تجارة المحايدين مع ألمـانيا . وحدث أن أغرقت ألمـانيا الباخرة لوزيتانيا التى كانت تقل أكثر من ألف مسافر فتحرّك الرأى العام فى العالم ضدّها حتى اضطرّت أن توقف عمل غوّاصاتها قليلا ، ولكنها عادت الى العمل من نوفمبر سنة ١٩١٥ الى فبراير سنة ١٩١٦ وحينئذ أغرقت البـاخرة إساكس وكان هـذا حادثا مفجعا لا يقـل عن حادث لوزيتانيا فأعلنت ألمـانيا عزمها على أن تقرّر عملها البحرى حسب القوانين المعمول بهـا ؛ على الرغم من أن سلاح الغوّاصات كان يستدعى فى الواقع قوانين جديدة كما اعترفت أمريكا بذلك فى مذكرة ٥ مارس سنة ١٩١٥ لانجلترا .

وفى أثنـاء ذلك عمد الألمـان الى مهاجمة عواصم انجلترا بالطيارات ، وضرب البـلاد البحرية بالقنابل ، فقتلوا عددا كبيرا من الأهالى ، وخرّبوا كثيرا من الدور والمساكن ، غير أن هذا كله لم يحقق الآمال ، فتقرّر خروج الأسطول الألمـانى لمقاتلة الأسطول الانجليزى قتالا قد يكون حاسما للحرب .

معركة جتلند ـــ وفى أوّل يونيه عام ١٩١٦ خرج الأسطول الألمـانى من موانيه ولاقى القوّات البريطانية الأمامية تحت قيادة الأميرال بيتى ، فاشتبك الفريقان فى الموقعة الشهيرة باسم جتلنـد ، وخسرا خسارة كبرى . ولمـا أسرع الأسـطول البريطانى الأعظم بقيـادة الأميرال جليكو الى مكان الموقعـة ارتدّ الألمـانيون الى موانيهم وعوّلوا على إعادة استخدام سلاح الغوّاصات ضدّ مراكب الأعداء والمحايدين على السواء داخل المنطقة الحربيـة . ولتبرير هذه السياسة يقول الجنرال هندنبرج : "إنه أصبح من اللازم إزاء سياسة الحلفاء التى ترمى الى أجاعة ٧٠ مليونا من الكائنات البشرية ، اتخاذ وسائل مماثلة لتقليل آلام شـعبنا ، وللتخفيف عن جيشنا الذى يقوم بمهمة من أقسى المهـام . ففى هذه المصارعة التى لا أثر للرحمة فيها إنما توجد

شريعة واحدة قابلة للتنفيذ، وهى العين بالعين والسن بالسن، وكل ماعداها ليس سوى تفريطا فى دمائنا . نعم، إنه كان من الواجب مراعاة الاعتدال حتى لا يتعرض الشعب لأخطار وأرزاء أعظم مما يراد إنقاذه منها، إلا أن الفائدة الحربية أصبحت فى النهاية تكاد تمس باليد ، فاننا لو توصلنا الى وضع حد لصنع المواد الحربية لدى الأعداء ونقلها بطريق البحر ، لأصبحت الحالة على جانب عظيم من السهولة ، ولو عرقلت الأعمال العسكرية فيما وراء البحار ، فان ذلك يخفف العمل على الدول المتحالفة جميعا ، ولو تمكنت الغواصات أيضا من إحراج بلاد الحلفاء فى نقل المواد الغذائية وعرقلة تجارتها فى العالم لأرغموا فى النهاية على الصلح ، لذلك كانت الغواصات فى هذا الوقت أعظم وسيلة حربية لإحداث عمل حاسم فى مجرى الحرب ، بعد أن أخفقت المساعى فى ختام سنة ١٩١٦ لحمل دول الحلفاء على قبول الصلح ، بل لقد كانت فى فاتحة سنة ١٩١٧ المصدر الوحيد لإنهاء الحرب . ولذا تقرر فى ٩ يناير سنة ١٩١٧ أثر انتهاء مشاغل الحملة الرومانية وتوفر الوسائل التى تحول دون انضمام الدول المحايدة المجاورة الى صفوف الأعداء ابتداء حرب الغواصات بلا قيد" . إلا أن الحلفاء أحكموا مراقبة البحار واستطاعوا نقل الجنود الأمريكية ومعداتهم قبل أن تستطيع الغواصات القيام بعمل حاسم فى الحرب كما سنرى .

(٣) الدور الثالث : الحالة الأدبية — إن تكوين الرأى العام وتأثيره فى سير الحوادث هو بلا ريب من أعظم مظاهر هذا القرن ، ولذا كان استقصاء الحالة الأدبية للشعوب لا يقل فى أهميته عن استقصاء الحالة العسكرية .

ألمانيا — مما لا شك فيه أن تطور الحوادث الحربية لغير صالح ألمانيا قد أحرج صدور الألمانيين ، وقد ضاعفت هذه الحالة صعوبة التموين اليومى الذى نشأ عن الحصار وعجز المحصول وتتابع الدول فى الاشتراك فى صف الحلفاء مما أثبت انحطاط السياسة الخارجية الألمانية . ثم إن مقتضيات الحرب الهائلة أوجبت سن قانون الخدمة الإضافية الوطنية والبرنامج المسمى «برنامج هندنبرج» وكان يقضى

بوضع الأمة بأسرها تحت تصرف الحكومة للقيام بالأعمال التى تتطلبها المسألة الكبرى ، وكان يظن أن قبول القانون سيكون مظهرا جديدا من مظاهر إرادة الشعب ، إلا أنه أحدث على العكس جزعا ورعبا فى النفوس ، فنشأ عن هذا الضيق العام تأليف أحزاب قوية لمصارعة الحكومة الامبراطورية "لأن الشعب مهما كان حاصلا على قوى أدبية عظيمة لا يستطيع الثبات الى ما لا نهاية إزاء ما يصادفه من النقص العظيم فى مطالب الحياة ، فوجد ذوو الأفكار المهيجة من حالة الشعب السيئة أرضا صالحة لبذر بذور الثورة السياسية والاجتماعيـة بين الأهالى والجيش معا" . وكان الحلفاء يزيدون فى إتلاف الحالة الأدبيـة أيضا فلم يقتصروا على الحصار البحرى بل لجأوا الى ما يسمونه ترويج الدعوة لدى العدو ، فأمطروا أعداءهم نشرات كان الغرض منها تسميم الخصم أدبيا ودعوته الى الثورة ضد الحكام . قال بسمارك : "إن انجلترا لا تتردد فى حالة الحرب فى تحريك عوامل الثورة فى بلاد أعدائها" . وهو بذلك يشير الى خطاب كاننج فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٢٦ فى مجلس النواب حين قال : "إن هـذه البلاد اذا اشتركت فى حرب ما لا تتأخر عن استخدام كل عوامل الفوضى والاضطراب فى بلاد أعدائها لمصلحتها" فمنذ بدأت الحرب أسرعت انجلترا وحلفاؤها الى مصارعة خصومهم أدبيا كما صارعتهم ماديا ، فكانوا يمطرونهم وابلا من النشرات التى يشيرون فيها تارة الى استبداد العسكرية البروسـية ، وطورا الى انعدام الروح الديموقراطية فى ألمـانيا واستبداد القيصر وحاشيته ، وكانوا يرددون عبارات اليأس من الوصول الى نصر نهائى ، ويشيرون الى رغبة الحلفاء فى صلح عادل مبنى على التفاهم واحترام حقوق الشعوب فى حين أن حكام ألمـانيا يعرقلون مساعى السلم ، لرغبتهم فى استعباد الشعوب وسيادة العالم . ولمـا نشبت الثورة الروسية ، أخذت الدعوة ترمى الى ثورة اجتماعية أيضا ، على زعم أن الحرب تستعر لمصلحة «الرأسماليين» على حساب العمال الفقراء الخ . أما فى بلاد حلفاء الألمـانيين فكانت الدعوة ترمى الى التفرقة والانتقاض على حليفتهم الكبرى ، وإثارة العناصر الأجنبية فيها بعبارات خلابة كحق

بعض رؤساء وقواد الدول العظمى



ملك انجلترا — ملك ايطاليا — قيصر الروسيا — أمبراطور ألمانيا — رئيس جمهورية فرنسا

هيج — هندنبرج — لودندورف — فوش

تقرير المصير، حتى تنزع تلك العناصر الى خيانة حكامها فى هذه الأزمة الكبرى .
فلما كانت سنة ١٩١٨ ، انغرست هذه الدعوة، بدهائها المدهش ومهارتها الفائقة، فى نفوس الشعوب حتى تلاشت المقاومة، وازدادت الرغبة فى الصلح بأى ثمن اعتمادا على وعود الحلفاء فى صلح عادل "وانقسمت البلاد الى أحزاب تعمل لنصرة أغراضها قبل نصرة الوطن، وغاضت كل النزعات القومية ولم تبق إلا نزعة حب الذات" .
"ومن الغريب أن الحكومة الألمانية وقفت أمام هذه الكارثة الكبرى موقف العاجز فلم تعمل لتربية الرأى العام فى بلادها و بلاد حلفائها على المقاومة والثبات ، وتركت الشعوب من غير قيادة، فريسة لأصحاب الأغراض القاتلة فى الداخل والخارج، بل لم تعمل لمقابلة الدعوة بمثلها فى بلاد أعدائها و بلاد المحايدين" .

فبينما كان الحلفاء يعـملون بكل وسائل النشر من صحافة وكتابة وصور ورسوم لتحميلها مسئولية الحرب وفظائع البلجيك وسوء معاملة أسرى الحرب وكل ضروب الفساد الاجتماعى والسياسى، و يظهرون أنفسهم مظهر المجاهد لنصرة الديموقراطيـة ونصرة الشعوب ضدّ العسكرية الوحشية، كانت ألمـانيا مقصرة عاجزة فى هذا الميدان .
ولا ريب أن هـذا العجز مصـدره طبيعة الخلق الألمـانى الذى يأبى إلا مواجهة الحقائق ، كما أن مصـدره جهل الألمـانيين بالطبيعة البشرية واعتمادهم على قواهم المـادّية، وضعف التربية والتقاليد السياسية بينهم ضعفا مدهشا .

النمسا — كان من نتيجة الفشل العسكرى والسياسى ونقص المواد الضرورية للمعيشـة تفاقم الحالة فى بلاد النمسا ، واضطراب العناصر الأجنبية على الأخص .
ولا ريب أن موت الامبراطور فرانسوا جوزيف كان خسارة كبرى لأن فقده قضى على الرابطة التى كانت تجمع شعوب هذه الدولة . وقد حاول الامبراطور الجديد أن يعتاض عن النفوذ الشخصى بمنح يسديها لمجموع شعبه ، إلا أن العناصر الأجنبية كانت تمنى من قبل الحلفاء بآمال أوسـع ، فلم تتلق هـذه المنح بالقبول . ولذا

كانت رغبة الشعب النمساوى عظيمة فى التعجيل بالصلح بعد أن أصبح الأمل ضعيفا فى الوصول الى حل مرض .

تركيا — كانت المتاعب التى تشكو منها النمسا من جراء العناصر الأجنبية تتكرر فى تركيا ولا سيما من العرب النازلين فى سوريا وغيرها . وقد تحرجت الأحوال من انتشار المجاعة التى نشأت ، لا من جراء القحط ، بل من عدم توافر مواصلات النقل .

ولا يخفى أيضا أنه كانت تصارع الجمعية الاتحادية المتسلطة على الحكومة حينئذ ، أحزاب مختلفة ، من أجل أغراض سياسية ، فكانت تجيش تحت السكون الظاهر عوامل تلك النزعات المختلفة ، وكانت تظهر عيانا فى بعض الأحيان فى شكل محاولة يراد بها قلب الحكومة .

بلغاريا — ساد الشقاء فى بلغاريا أيضا لعدم توافر المؤن وسوء الادارة ، فان هذه البلاد لم تستطع فى عهد استقلالها أن تشيد حكومة على أساس وطيد الدعائم ، فتعددت فيها الأحزاب التى لم تدخر وسعا فى الحمل على الحكومة وحلفائها حتى فى وقت الشدة والخطر .

الحلفاء — كانت جوانح الفرنسيين تمتلئ حقدا على الألمان ، وكانت الحكومة تستحث الشعور الأدبى فى بلادها بغير هوادة ، وتطأ بالأقدام كل رغبة ترتفع لاعادة السلام الى نصابه قبل الانتصار ، وفى جانب ذلك كانت حاجيات المعيشة وأسباب الراحة توفر للبلاد .

وفى انجلترا تسلطت الحكومة على الرأى العام بقوة الصحافة وغيرها من أساليب نشر الدعوة ، وكانت تفتح له أبوابا واسعة من العظمة السياسية والعظمة الاقتصادية وتدعوه الى الايمان بالحرب لجهاد مقدس فى سبيل الحرية والانسانية ، وكانت اذا ألمت بالبلاد أزمة عظيمة وارتفعت أصوات الصلح كما رفعها لانسدون وغيره أطفئت سريعا بقوة تسلط الحكومة ومهارتها .

وفى ايطاليا كانت الحماسة الحربيـة معدومة، إلا أن أطماعها الاستعمارية وارتباطها ارتباطا اقتصاديا عظيما بدول الحلفـاء أجبرها على البقاء فى صفهـم . أما فى أمريكا فقد كانت العاطفة السكسونية والمصلحة التجارية ، فضلا عن الصوت المنبعث لنصرة الانسانية و إعلاء منار الحرية فى العالم، يدفع أهلها الى العمل من غير فتور أو ملل . على أن الذى شجع هذه الدول حقيقة هو ماآنسته من الانحطاط الأدبى فى صفوف أعدائها، فان رجال السياسة فى ألمـانيا لم يخفوا شيئا عن أعدائهـم من مصائبهم الداخلية، فدلوا بذلك على أنه لم تتوافر لهم التربية السياسية الكاملة، التى يعتبر من أهم مظاهرها قدرة التغلب على العواطف وعدم مطاوعة الهوى .

الحـالة العسكرية — بعد سقوط الروسـيا و رومانيا و إصابة ايطاليـا بهزيمة فادحة ، أصبحت النمسا قادرة على الاحتفاظ بكيانها من الوجهة العسكرية ، وكذلك بلغاريا التى لم يبق أمامها إلا مقدونيه، وتركيا التى خف عنها عبء الروسيا، وأصبحت قادرة على أن تقوى مركزها فى سوريا والعراق . أما ألمـانيا فقد استطاعت نقل أغلب قوتها من الميـدان الشرقى الى الميدان الغربى ، فأعيد التوازن فى الرجال بعض الشىء، وإن يكن قد بقى للحلفاء التفوق فى الطـيران والمدفعيـة، فتقرر القيام بهجوم عام على خطوط الحلفاء فى ربيع سنة ١٩١٨ لأن أوان دخول أمريكا بقواها السليمة فى المعترك أخذ يقترب شيئا فشيئا على الرغم من الغواصات ، "وكان ينتظـر من جهة أخرى أن ينعش الهجوم قوات التحالف الأدبيـة، وينتشل الشعوب من تبرمها من حالات الشقاء التى باتت فيها" .

الفصل الأخير — كان الغرض الأساسى من الهجوم شطر قوى الأعداء الدفاعية شطـرا تاما بحيث يفتح باب للوصول الى أرض مكشوفة صالحة للقتال . وقـد تقرر فتح هـذا الباب فى خطوط أراس — كامبرية — سان كانتان فى يوم ٢١ مارس . فلما بدأت الأعمال الحربية، لم يستطع الجناح الأيمن التقدم أبعد من الخط الثانى من استحكامات العدو، ونجح القلب فى دخول الخطوط الثانية فقط،

*

وأما الأيسر فقد تقدّم تقدما عظيما فى الجهة الغربيـة من سان كانتان ، وأصبح من المستطاع الوصول الى أميان ، وشطر قوى الأعداء بعض الشيء ، غير أن جنود الحلفاء هرعت من كل مكان للذود عنها ، وعبثا حاول الألمـان دفع كل قواهم للاستيلاء على المدينة ، رغبة فى شطر قوى الحلفاء ، وتقريب أجل النصر ، فان قواهم كلت هنا كما كلت على طول خط الهجوم .

وفى ٩ أبريل تحوّل الهجوم الى منطقة أرمنتير — لاباسيه للوصول الى المـانش والتسلط على القواعد الانجليزية ، فتكلل العمـل بالنجاح فى بادئ الأمر ، وبلغت القوّات الألمـانية جبل كيميل . ولكن الفرنسيين أسرعوا لنجدة حلفائهم ، فأوقف الزحف ، وتحوّل الهجوم المفاجئ الى سواسون فى ٢١ مايو لإجبار الجنود الفرنسية على العودة الى الجنوب ، فنجح الألمـان نجاحا باهرا فى أوّل الأمر وعبرت جنودهم نهر المـارن عنـد شاتوتيرى ولكن القيادة الفرنسـية استدعت الجنود الأمريكية لأول مرة ، فاستطاعوا بقوّاتهم السليمة إيقاف الزحف فى هذه المنطقة ، كما أوقف فى دائرة ريمس ، وشمبانيا الجنوبية حيث بدأ الألمـان بهجوم جديد .

حينئذ تحوّل الجنرال فوش الذى أسـندت اليه قيادة الحلفاء العليا الى الهجوم بعد أن وهنت قوّات الألمـانيين . ففى ١٨ يوليه حمل الفرنسـيون حملة فجائية على الخط ما بين الأين والمـارن ، فاخترقوه فى عدّة نقط حتى أصبحت الجنـود القائمة فى بارزة المـارن فى أشـدّ خطر ، فتقرر الارتداد منهـا على عجل لتـلافى الكارثة الكبرى . ولمـا ساد السكون مؤقتا فى الجنوب ، هجم الانجليز بجمع هائل من التانكس فى ٨ أغسطس عند أميان تحت أذيال الضباب الكثيف ، ولم تصادف هذه المركبات أية عقبة فى طريقها طبيعية كانت أو صناعية ، وأصبحت مواقف الألمـان حرجة للغـاية . وفى ٢٠ أغسطس تكررت هذه الوثبات الفجائية الهائلة بين الواز والأين فاندفع الألمـان الى الوراء مسافات بعيدة . وفى ٢١ أغسطس مدّ الانجليز جبهة الهجوم شمالا الى «بابوم» وزحزحوا الأعداء عن مواقعهم . وفى ٢٦ هجموا أيضا

عند أراس وكمبريه بنفس النجاح، فارتد الألمان إزاء هذا الهجوم المتكرر الى خط سجفريد، وفى ١٢ سبتمبر بدأت معركة جديدة فى الجنوب الشرقى من فردان وأصيب الألمان بهزيمة خطـيرة ؛ وفى ٢٦ سـبتمبر تكررت الهزيمة فى ساحة شامبانيا . وفى أواخر سبتمبر تزعزعت خطوط الألمان بأكملها ، ولكنها لم تتـداع أركانها ، غير أنه حدثت فى هذه الآونة ثغرات عظيمة فى التحالف الرباعى كما سترى .

بلغـاريا — استمرت المصارعة الحزبيـة على حدتها فى بلغاريا حتى أدت الى تغيير الوزارة فى أوقات حرجة، وأوجدت قلة المواد الغذائية وتأثير الحلفاء بكل الوسائل كراهة للحرب ولا سيما بين أفراد الجيش ،فحدثت فتن عديدة وكثرت حوادث الفرار . وازداد الحال حرجا على أثر هزيمة الألمان فى الميدان الغربى ، فقد ازداد عصيان الجنود فى وجه العدو ، حتى أنهم غادروا مراكزهم بدون قتال تقريبا عنـد هجوم الحلفاء يوم ١٥ سبتمبر . وعبثا حاول الجنـود والضباط الألمان الموجودون فى بلغاريا أن يبثـوا روح الحمية والنخوة فى الجنـود فان تفكك الجيش كان تاما . وما بقى منه ارتد عن مواقعه الحصينة فى جرادسكو واسكوب بلا مقاومة أمام قوات ضعيفة من الأعداء . وفى ٢٩ سبتمبر أمضت بلغاريا عقد الهدنة .

تركيا — فى أوائل سنة ١٩١٨ هاجم العثمانيون على نجاد أرمنيا الجيوش الروسية بنجاح ، ثم اخترقوا الحـدود الأرمنية مندفعين الى البقاع القوقازية بأمل الاستعاضة عما فقدوه من الموارد، وحاولوا أيضا دخول فارس أملا فى مهاجمة جيوش الانجليز المعسكرة فى الجزيرة، وكان يجب على تركيا أن تحصر مجهودها فى سوريا وفيما بين النهرين، لأنه بينما كانت جنودها تعمل فى نجاد القوقاز وشمـال فارس، قام الانجليز بهجمات غير ناجحة فى سورية لصعوبة التموين وسوء المواصلات . ولكن فى ١٩ سبتمبر تقدم الانجليز بغتة فى سهل الشاطئ ، فاخترقوا خطوط العثمانيين من غير صعوبة ، واحتلوا عواصم البلاد الواحدة تلو الأخرى .

وقد كان سقوط بلغاريا فى هذا الوقت داعيا الى تخوف تركيا على بلادها فى أوربة لأنها أصبحت غير محمية من الغرب، فقررت قبول شروط الهدنة فى ٣١ أكتوبر .

النمسا — هجمت النمسا عبثا على شمال إيطاليا فى صيف هذا العام حتى لم تعد لديها قوة مادية أو أدبية كافية لتجديد الحرب مما حمل الأمبراطور على بذل مجهودات عظيمة للتوصل الى إبرام الصلح ، فلما هاجمتها إيطاليا فى أكتوبر تفكك الرباط السياسى والعسكرى عند أول ضربة ، واضطرت الى قبول الهدنة فى أكتوبر وبها سلمت للعدو أراضيها ومكنته من الحدود الألمانية .

ألمانيا — ٢٩ سبتمبر الى ٧ نوفمبر : على أثر المواقع الأولى تحوّل القتال فى الميدان الغربى الى سلسلة تقهقر ودفاع من جانب الألمان ، وفيه قام الفريقان بمجهودات لم يسمع بمثلها من الوجهة الجسمانية أو الوجهة الأدبية ولاسيما فى الخطوط الألمانية ، حيث كانت أوقات الراحة لاتكفى لتجديد الوحدات المتلاشية والمنهوكة قواها وإرسال الامداد اللازم لها وتوزيع بقايا الفرق المنحلة على وحدات أخرى . وكان الضباط والجنود يسقطون من شدّة الإعياء إلا أنهم عندما يستشعرون الخطر الداهم ينتفضون وينهضون سريعا لصدّ الهجمات . ولقد قاتل كثير من الضباط بل كثير من أرق أركان الحرب فى الصف الأوّل ، وكثيرا ماحملوا البنادق فى أيديهم ، وكثيرا ما استحال أن تصدر القيادة سوى الأمر الآتى : "الثبات الى الموت"!

الهدنة — ولما وصلت أنباء الشرق فتّ فى أعضادهم كما فتّ فى أعضاد الأمة وخمدت بقية حماسة نفوسهم ، لأن إنشاء خطوط جديدة فى الشرق والجنوب كان بعيد الوقوع ، مما دعا الى وجوب البحث عن حل سريع ، فبذلت مجهودات عظيمة لحمل قوى الشعب على التحوّل للقتال ، ولكن هذا كله ذهب عبثا "فقد سقط الشعب قبل سقوط الجيش" وأضحى من المستحيل التغلب على الضغط الهائل الذى كان يزداد يوما فيوما . فتقرر توسيع سلطة الشعب ، وطلب التوسط فى الصلح من الرئيس ولسن ليلة ٥ أكتوبر على مقتضى الشروط التى وضعها فى ١٨ يناير سنة ١٩١٨ ، إلا أن ولسن اشترط فى مذكرة ٩ و ١٧ و ٢٣ أكتوبر نزع سلاح ألمانيا البرى والبحرى حتى تصبح عاجزة عن استئناف الحرب ، وحينئذ اختلفت

وجهات الرؤساء العسكريين و رجال الحكومـة، واستقال لودندورف الذى أبى أن يرضى بهذه الاهانة، أما الحكومة فقد قبلت شروط ولسن بأكملها يوم ٢٦ أكتوبر، ووضعت القائد (جروز) مكان لودندورف، وكان همـه الأعظم تراجع خطوط الدفاع الى موقع أنفرس — ميز (٤ نوفمبر) لأن السقوط أصبح عاما والقوات اضمحلت لاضمحلال الشعب . ولو حدث أقل تزعزع فى الداخل أو فى خطوط المؤخرة لأصيب الجيش بكارثة مدلهمة . وهـذا التزعزع حدث بالفعل، ففى ٩ نوفمبر بدأت الثورة لأن رئيس الولايات المتحدة أصر على اعتزال القيصر كشرط أساسى للصلح، فاضطر ولهلم الى الاعتزال "ليوفر على الوطن ضحايا أخرى، ويمكنه من الحصول على صلح أكثر ملاءمة" وفى ١١ نوفمبر عقدت الهدنة .

الفصل الرابع

الصلح

ويل للمغلوب!

اشترك الحلفاء جميعا فى مؤتمر الصلح الذى عقد فى باريس فى أوائل سنة ١٩١٩، غير أن القرارات الأخيرة تمت على يد المستر لويد جورج والرئيس ولسن والمسيو كلمنسو والسنيور أورلندو مندوبى بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وايطاليا على التعاقب[1].

وقد كانت قاعدة أعمال المؤتمر شروط الصلح التى وضعها الرئيس ولسن فى ١٨ يناير وقبلها الأصدقاء والأعداء معا، وهى تتضمن أربعة عشر بندا أهمها: الجلاء عن الأراضى المحتلة، كفرنسا وبلجيكا وغيرها. تحرير الألزاس واللورين. استقلال بولندة. تقليل التسليح. حرية التجارة. حرية البحار. إنشاء عصبة أمم. البت فى أمر المستعمرات الألمانية وشعوب الأمبراطورية العثمانية والنمساوية على قاعدة «حق تقرير المصير».

غير أن شروط ولسن لم تتحقق فى مغزاها ومعناها، فقد فشل الرئيس فى تطبيق القواعد التى اتخذت أساسا للصلح، ولم يستفد من المركز الأدبى العظيم الذى وضعه

(١) أصبح مركز ألمانيا حرجا جدا منذ أواخر سنة ١٩١٦ نظرا لتفوق الحلفاء فى الرجال والمعدات وكان هذا التفوق يزداد على التوالى بينما كانت موارد دول التحالف الرباعى آخذة فى التناقص، ففى سبتمبر سنة ١٩١٦ طلب من رئيس الولايات المتحدة التدخل فى إبرام الصلح فلم يعر هذا الطلب شيئا من الأهمية فى بادئ الأمر حتى اضطرت دول التحالف أن تخابر أعداءها مباشرة فى الأمر (١٢ ديسمبر) غير أن الحلفاء رفضوا هذا الطلب فى مذكرة ٣٠ ديسمبر. وفى ١٨ ديسمبر خابر ولسن الدول المتحاربة لإعلان شروط الصلح التى ترضاها فاقترحت دول التحالف (٢٦ ديسمبر) المناقشة فى الأمر بين الدول المتحاربة فى بلاد محايدة. أما الحلفاء فقد رفضوا الصلح (١٢ يناير) بلهجة أشد مما جاء فى مذكرة ٣٠ ديسمبر. وفى يوليه سنة ١٩١٧ أعلن الرشستاغ رغبته فى الصلح. وتوسط البابا أيضا لهذا الغرض ثم دارت مناقشات عديدة بين الدول المتحاربة فى أواخر هذا العام وفى صيف عام ١٩١٨ ولكن بغير نتيجة.

فيه العالم حينما دخل المؤتمر، فتمت التسوية على المبادئ القديمة، مبادئ العمل على إشفاء الأحقاد لا العمل على إزالتها، مبادئ إيثار المصالح الخاصة على المنفعة العامة، مبـادئ الارهاق والاستعمار على مبادئ الحق والعدل والحرية، وهكذا حبطت الآمال والأمانى التى عقـدت على المؤتمر، وهوت الولايات المتحدة أدبيـا فى نظر العالم، ولو أنها كفرت عن جرم رئيسها برفض المصادقة على أعمال المؤتمر .

معـاهدة فرساى — فى ٢٨ يونيه سـنة ١٩١٩ وقع منـدوبان عن ألمـانيا شروط الصلح فى نفس القاعة التاريخية التى توج فيها ملك بروسيا أمبراطورا لألمانيا فى ١٨ ينايرسنة ١٨٧١؛ وتشتمل شروط المعاهدة على مواد تأديبية، ومواد تبين الحدود الجديدة لألمـانيا وأخرى حربية واقتصادية .

الشروط التأديبيـة — اعتبرت ألمـانيا مسئولة عن قيام الحـرب وارتكاب أشنع الجرائم فى سبيل رغبتها فى التسلط على العالم، وكذلك حملت مسئولية ما أصيبت به المدنيـة من فقـد الملايين من المـال والرجال والفوضى الاجتماعيـة والاقتصادية التى نشأت عن الحرب، واشترط عليها قبول محاكمة القيصر وأعوانه من القادة الحربيين والسياسيين باعتبارهم المدبرين لوقوع الحـرب والمسئولين عن الاعتداء الذى وقع على حقوق الأفراد والشعوب، هذا فضلا عن إلزام ألمـانيا بدفع التعويض اللازم لتعمير المناطق التى خربتها الحرب، و إلغاء معاهدة برست ليتوفسك ومعاهدة بخارست .

الحدود الجديدة لألمـانيا — أعيدت الالزاس واللورين الى فرنسا، وحررت الأراضى البولندية وأقيمت فيها حكومة حرة، وأعطيت فرنسا حق احتلال واستغلال وادى السار (Saar) لمدّة خمس عشرة سنة تحت اشراف عصبة الأمم، وفى نهـاية تلك المدّة تترك الحرية لأهل تلك المنطقة لتقرير مصيرهم فى المستقبل، وأضيفت الى البلجيك بعض المنـاطق الواقعـة شرق حدودها، كما أعطى الأهالى فى سيليزيا، وشلسويج هلستين، ومنطقة دانتزيج، حق البت فى مصيرهم (وقد ضمت الأولى لبولنده والثانية للدانيمارك والثالثة بقيت حرة) .

وأما مستعمرات ألمانيا الأفريقية فقد استولت عليها انجلترا تحت ستار الانتداب لادارتها من لدن عصبة الأمم . وكذلك استولت اليابان على كياتشاو .

الشروط الحربية — جعل الحد الأقصى للجيش الألمانى مائة ألف جندى، وألغى التجنيد الاجبارى، وحظر على ألمانيا الاحتفاظ بأسطول حربى، وصنع المعدات والذخائر الحربية زيادة عن قدر معين، كما حظر عليها تشييد القلاع والحصون أو إيجاد ثكنات عسكرية أو نقط حربية على الشاطئ الأيمن لنهر الرين لمسافة ٥٠ كيلومترا . وأما الشاطئ الأيسر فتقرر أن يحتله الحلفاء لمدة أقلها خمس سنوات وأكثرها خمس عشرة سنة لضمان تنفيذ المعاهدة ، ويمكن إطالة أو تقصير ذلك الأجل تبعا لما تبديه ألمانيا من الاخلاص أو المماطلة فى التنفيذ، وفوق كل هذا احتفظ الحلفاء بحق الاشراف على التعليم العسكرى فى ألمانيا ومراقبة ما تصنعه من الذخائر لضمان عدم الاخلال بهذه الشروط .

الشروط الاقتصادية — أرغمت ألمانيا على تسليم أسطولها التجارى ، وتقديم مايطلب منها من المواد الأولية، ودفع غرامة حربية باهظة على أقساط سنوية بنسبة ما قدر لها من الكفاءة المالية، وعلى الجملة قيدت البلاد اقتصاديا كما قيدت حربيا بالرغم من التناقض العظيم فى إرغامها على دفع مبالغ طائلة على سبيل التعويض، وانتزاع كل وسائل الدفع فى وقت واحد .

معاهدة سان جرمان — وفى ١٠ سبتمبر سنة ١٩١٩ وقعت النمسا المعاهدة التى قضت باستقلال الشعوب الخاضعة لها كالمجر، وصقالبة الشمال الذين تكونت منهم دولة التشكوسلوفاكيا، وصقالبة الجنوب الذين أصبحت تضمهم دولة اليوجوسلافيا، وكذلك امتدت حدود ايطاليا شمالا وشرقا حتى دخلت فيها كل المناطق الايطالية الأصل بل وبعض المناطق النمساوية، كمنطقة تريستا . وقد أدرك السياسيون الآن أن النمسا لم تكن وحدة سياسية فحسب، بل وحدة اقتصادية أيضا، وانحلالها على هذه النحو ضاعف أزمة أوربة .

معاهدة نويلى — وفى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٩ أمضت بلغاريا المعاهدة التى نزلت فيها عما كسبته خلال الحرب العظمى بل ومعظم ماأخذته فى الحرب البلقانية ســـنة ١٩١٣

معاهدة سيڤر — وفى ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ أرغمت حكومة الأستانة على توقيع هـــذه المعاهدة التى قضت بالاعتراف بوضع مصر تحت الحماية البريطانية وانتداب انجلترا لادارة شئون فلسطين والعراق، وفرنسا لادارة سوريا، وضم تراقيا وجزء من الأناضول الى اليونان ، وقسمت باقى أراضى الأناضول الى مناطق نفوذ بيـــن الحلفاء، ووضعت الأستانة وكذلك البوسفور والدردنيل بعد تحطيم قلاعهما تحت رقابة الدول، واعترفت المعاهدة بالشريف حسين ملكا على الحجاز .

عصبة الأمم — أماعصبة الأمم التى عقدت عليها الآمال الكبارفانها أقيمت على أساس ضعيف، فقـــد تقرر إنشاء مجلس يضم مندوبى الدول التى يقرر قبولهـــا فى العصبة، وتشكيل هيئة تنفيذية من مندوبى الولايات المتحدة و بريطانيا وفرنسا وايطاليا واليابان وأربع دول أخرى يعينها مجلس العصبة، وتقرر أن يكون إجمـــاع الدول التسع شرطا أساسيا لجعل قرارات العصبة نافذة المفعول ،غيرأنه لم تعين وسائل تنفيذ القرارات بصفة قاطعة، وبذا ظهرت العصبة بلا سلطة فعلية فى الواقع ، كما أن جعل الأغلبية فى المجلس التنفيذى لدول الحلفاء معناه فى الحقيقة احتفاظ هذه الدول بمحالفة مستديمة تملى إرادتها على دول الوسط ، وفى ذلك تناقض بيّن ومنافاة صريحة لروح الإخاء ومبادئ الانسانية التى يراد أن تجرى عليها السياسة الدولية .

أوربا عقب المؤتمر — ليس من السهل الآن تقدير النتائج المترتبـــة على المعاهدات التى أبرمت عقب الحرب الكبرى ، ولا النجاح الذى يمكن أن تصادفه هذه المعاهدات ، ولكن هناك ما يبعث على الاعتقاد أنه طالمـــا كانت المعاهدات لا تقوم إلا على إملاء رغبة الغالب على المغلوب فان حظها من النجاح قليل .

ففى تركيا هبّ الأتراك فى وقت حسبهم فيه العالم على وشك الفناء الأخيريضربون مثلا جديدا على القوة الحيوية الكامنة فى نفوسهم ،فقد لموا شملهم فى سهول الأناضول

ونجادها، وجمعوا مؤتمرا وطنيا يمثل الأمة بدل المجلس الذى عطله الحلفاء فى الأستانة، وأقاموا من بينهم حكومة فى أنقره، منفصلة عن الأستانة، يرأسها جندى كبير هو القائد مصطفى كمال باشا، وجعلوا يعملون لاسترداد قواهم الحربية الممزقة حتى اذا تهيأت لهم الأحوال، أخذوا يعلنون بطلان معاهدة سيفر ويضعون العراقيل فى سبيل تنفيذها، وعبثا حاول الحلفاء أن يخضعوا تلك القوة الجديدة بجيوش اليونان التى كان لها النصيب الأكبر فى إرث العثمانيين، فقد وقف هؤلاء فى بادئ الأمر ينازعونهم ذلك الارث حتى اذا اشتد عضدهم حملوا عليهم فى خريف عام ١٩٢٢ حملة شديدة مزقت جيوشهم واضطرتهم الى الجلاء عن أراضى الأناضول. حينئذ اضطر الحلفاء الى اعادة النظر فى معاهدة سيفر. وفى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ استرد الأتراك كل ما كان لهم فى الأناضول وتراقيا وانجلى الحلفاء عن الأستانة، ونزلوا عن مقدار عظيم من الغرامة الأولى، كما نزلوا عن كل ما لهم من الامتيازات فى تركيا. على أن هذه النهضة لا تقف عند حد تركيا وحدها، ففى مصر والعراق وفلسطين وسوريا والحجاز تتجمع الصفوف وتتكشف الأيام عن حوادث ذات بال مآلها القضاء على كل ما تقرر فى معاهدة سيفر.

هذا وأما فى ألمانيا فقد كان من جراء القرارات المعقدة التى وضعها الحلفاء فى المعاهدات التى فرضوها على خصومهم، وصعوبة تنفيذ بعضها ولا سيما الشروط المالية والحربية، أن أخذت تختلف وجهات نظرهم باختلاف مصالحهم، فاضطروا الى عقد عدة مؤتمرات متوالية لمعالجة أوجه الخلاف فيما بينهم ولكن بلا جدوى، فقد تشددت فرنسا فى مطالبة ألمانيا بكل ما قررته معاهدة فرساى من التعويضات مهما كان فى ذلك من الخطر على الحالة الاقتصادية فى أوربة. وأما انجلترا فقد رأت فى مطامع فرنسا وسياستها خطرا عسكريا لا يقل عن خطر ألمانيا القديم، كما أنها رأت أن مصالحها التجارية تقضى بالتساهل مع ألمانيا ومساعدتها للانتعاش اقتصاديا، وقد وقفت ايطاليا موقفا وسطا بين الفريقين، بينما احتفظت أمريكا بعزلتها وابتعادها عن الشئون الأوربية وأخذت تطالب الحلفاء بما لها عندهم

من الديون، فلما عجزت فرنسا عن إشراك حلفائها لارغام ألمـانيا على الدفع، انفردت بالعمل واحتلت وادى الرور الشهير بمعادنه، غير أنها لم تجن الفائدة التى كانت تبتغيها لأن قدرة ألمـانيا على الدفع كانت تقتضى إنعاشها اقتصاديا، ولذا قبلت فرنسا أخيرا الاشتراك مع الحلفاء فى إعادة النظر فى مشكلة التعويضات على أساس تقرير وضعته لجنة من الحلفاء وسمى تقرير «دوز» وهو ينص على إقراض ألمـانيا مبلغا كبيرا من المـال تستطيع به إنهاض صناعاتها فى نظير دفعها التعويضات على أقساط معينة .

أما مسألة تأمين فرنسـا من الخطر الألمـانى، وهى المسألة التى جعلت فرنسا ترفض طويلا إنعاش ألمـانيا، فقـد تطورت تطوّرا خطيرا فى السنين المـاضية وأثارت مناقشات حادة بين الدول ذات الشأن، فقد كان المأمول أوّلا أن تحالف انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة لضمان معاهدة فرساى ومنع ألمـانيا من محاولة الأخذ بالثار . إلا أن سياسة العزلة التى اتبعتها أمريكا فيما يختص بالشئون الأوربية جعلت انجلترا ترفض كذلك أن ترتبط مع فرنسا فى محالفة لا تعرف نتائجها .

ومن ثم وضعت الدول فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ حلا للمشكلة على قاعدة إبرام ميثاق للسلام العام، وهذا الميثاق يقرر مبدأ التحكيم الاجبارى لفض الخلافات التى قد تنشأ بين الدول قبـل أن يستفحل أمرها، ويقرر القواعد العامة التى يسار عليها فى اتخاذ وسائل التأديب ضدّ المعتدى، كما أنه ينص على تفصيل الاجراءات التى تتبع لأجل إعلان الاعتداء وتقرير التدخل فى سبيل التحكيم أو التأديب .

غير أن وزارة المحافظين التى أعقبت حكومة العمال فى انجلترا أبت أن تتقيد بعهود ترغمها على التدخل فى كافة الشئون الأوربية، ورفضت أن تبرم الميثاق نهائيا ولذا بقيت العلاقات الفرنسـية الألمـانية شـديدة التوتر الى أن وضعت ألمـانيا فى ٩ فبراير سـنة ١٩٢٥ اقتراحا مؤدّاه وضع أساس للسلم فى منطقة غرب أوربة التى كانت موضع الخطر على الدوام .

وفى مؤتمر عقد فى لوكارنو فى أكتوبر سنة ١٩٢٥ بين ألمـانيا وفرنسا وانجلترا وايطاليا والبلجيك وضعت معاهدة مؤدّاها ضمان الحدود التى وضعتها معاهدة فرساى

بين ألمانيا من جهة والبلجيك وفرنسا من جهة أخرى، وفيه قطعت هذه الدول الثلاث عهدا على نفسها بألا تبادئ إحداها الأخرى بحرب، إلا اذا صدر قرار باتفاق الآراء من جمعية الأمم بالالتجاء للحرب، ففى هذه الحالة فقط يستطيع أى فريق منها اتخاذ تدابير حربية : ومعنى هذا أن يكون التقاضى والتحكيم مبدأ أساسيا من مبادئ السياسة فى غرب أوربة، وألا يلتجأ الى الحرب إلا باقرار الدول و بعد فشل كافة وسائل السلم، وقد تعهدت ايطاليا وانجلترا باعتبارهما فريقا من المتعاقدين بأنهما تؤيدان ألمانيا اذا اعتدت عليها فرنسا و بلجيكا والعكس بالعكس . والمعاهدة تذكر بايضاح وجلاء أن هذه المعاهدة لا تهدم سلطة جمعية الأمم أقل هدم بل إن الغرض منها هو معاونة الجمعية فى مهمتها، حتى اذا اشتد ساعدها وازدادت قوتها استطاعت أن تقدّم ضمان السلامة الذى انطوت عليه معاهدة لوكارنو . ولتحقيق أغراض هذا الميثاق تقرّر أن تلتحق ألمانيا بعصبة الأمم فى ظرف أسابيع قليلة وأن يكون ذلك على قدم المساواة بينها وبين الدول الأخرى .

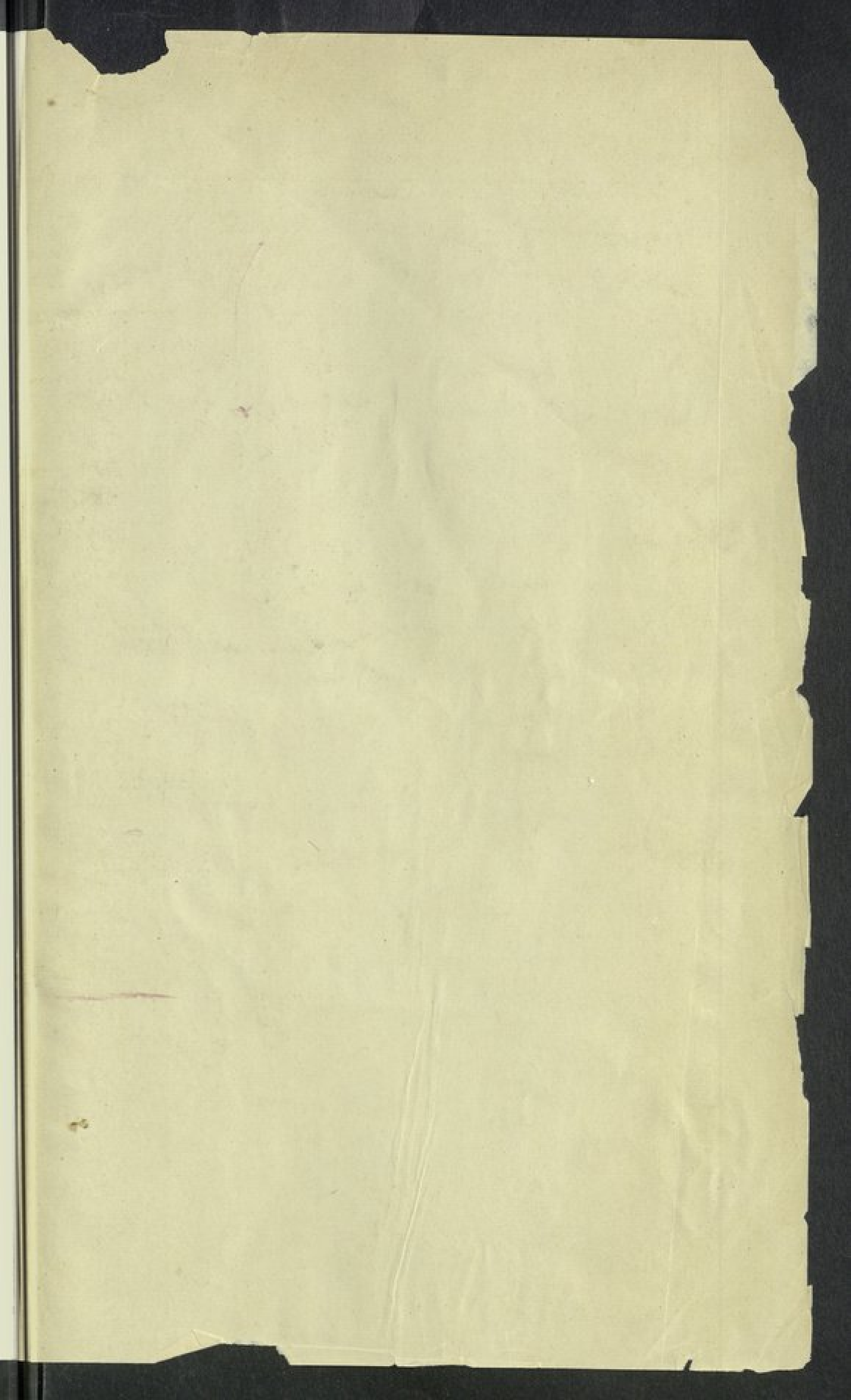
وقد اجتمع مندوبو الدول فى لندره فى أول ديسمبر سنة ١٩٢٥ للتوقيع على المعاهدة بصفة قاطعة بعد مصادقة برلمانات الدول الموقعة على الميثاق، وفى سبتمبر التالى دخلت ألمانيا عصبة الأمم لتوطيد دعائم السلم المرجى، بيد أن هذا السلم لن يتحقق إلا اذا ضحيت المصالح الخاصة فى سبيل المصلحة العامة، وانتصرت الدول للضعيف ضدّ القوى أيا كان، وإلا كان القرن العشرين قرن نزاع وجهاد لتحقيق أحلام ولسن، كما كان القرن التاسع عشر عهد جهاد لتحقيق مبادئ حقوق الإنسان .

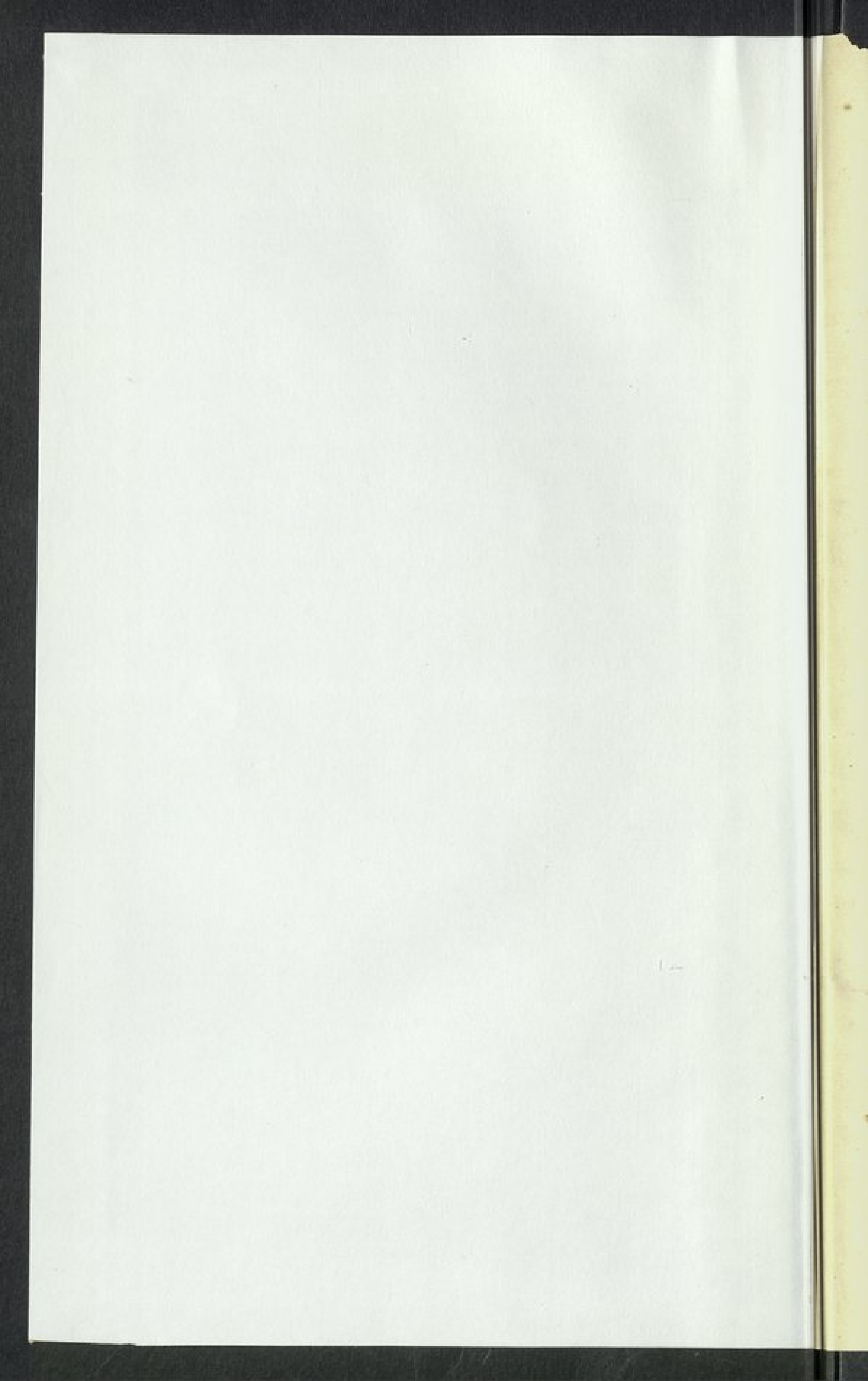
المصادر

« تاريخ عصرنا » (Gooch) — « تاريخ العصر الحديث » (Hodges)
«مذكرات هندنبرج» — «مذكرات لودندورف» — «تاريخ الحرب» (التيمس)
«تاريخ الحرب العظمى» (F.M.Bridges) — «تاريخ الحرب» (H.Vast) —
«أخبار وحوادث وصور الحرب» (مطبوعات الحكومة الانجليزية) .

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٧/٥٣٢/١٠٠٠)







A.U.B. LIBRARY

A.U.B. LIBRARY
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00479132

